أشرف على التحرير
البروفسّور جُوْنْ هِكْ
أستاذ اللاهوت فى جامعة بِيْرْمِنْغْهَامْ

أسطورة تَجَسُّدِ الإله في السيد المسيح

تعريب
الدكتور نبيل صُبْحي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت - شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول - شقة 8
صندوق بريد: ٢٠١٤٦ - هاتف: ٢٤٥٧١٨١/٢٤٥٨١٧٨ - برقيا: توزيعكو

مؤلّفو الكتاب

دون كوپّيت Don Cuppitt

محاضِر في الإلهيّات وعميد كلية عمانوئيل – جامعة كَمْبْرِدْج – بريطانيا – .

ميكائيل غُولْدِرْ Michael Goulder

محاضر في اللاهوت فى جامعة بيرْمِنْغْهَامْ – بريطانيا

جون هِكْ John Hick

أستاذ (بروفِسّور) اللاهوت فى جامعة بِيرْمِنْغْهَامْ – بريطانيا

لِسْلِي هُولْدِنْ Leslie Houlden

محاضِر فى دراسة الأناجيل – العهد الجديد – فى كلية كِينْغْ – جامعة لندن – بريطانيا

دنيس نايْنهامْ Dennis Nineham

مدير كلية كِيبل ، أُكْسفوردْ – بريطانيا

موريس وَايْلزْ – Maurice Wiles

استاذ (بروفسّور) الإلهيات والكتاب المقدس فى كلية المسيح ، أُكْسفوردْ – بريطانيا

فَرَنْسِيسْ يُونْغ Frances Young

محاضِرة فى دراسة الأناجيل – العهد الجديد – في جامعة بيرْمِنْغهامْ – بريطانيا

أشرف على التحرير

البروفسّور

– جون هِكْ –

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر - البريطاني -

« اسطورة تجسّد الإله في السيد المسيح »

قُدّم كتاب « أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح » أوّلاً في مؤتمر صحفي شُبّه بالاجتماع الشهير الذي أقامته في أكسفورد سنة ١٨٦٠ م الجمعية البريطانية لتقدُّم العلوم عندما اصطدم (هاكسلي) والمطران (ولبرفُورس) حول نظريات داروين في التطوّر ، ولقد شبَّه مُحرِّر الكتاب - جون هك - بحذق مجموعة أبحاث الكتاب (بالمقالات والمراجعات) التي ظهرت في نفس ذلك العام - ١٨٦٠ م - وواجهت هجوماً شرساً قيل فيه إن الكتاب لغمٌ شرِّير للإيمان المسيحي ، ومؤلفوه السبعة وُصفوا بأنهم « سبعة ضد المسيح » ، وقامت محاولات في المحكمة لتجريد القساوسة الأنجليكان ، من بين الكُتّاب السبعة ، من منصبهم الكهنوتي .

كانت ردود الفعل على كتاب « اسطورة تجسّد الإله في السيد المسيح » عنيفة ... إلا أنّها لم تكن كُلّها معادية ، فلقد كان الاهتمام بالكتاب شديداً . وبيعت الطبعة الأولى كلها يوم إصدارها ، وأعيد الطبع مرات بعد ذلك بقليل . وفي هذه الطبعة الخامسة يكون مجموع النُسخ المتداولة أكثر من ثلاثين ألفاً (٣٠٠٠٠) .

والكتاب مهم لسببين لم يكونا بارزين أصلا في الجدل الذي حصل . السبب الأول : الكتاب دراسة لطبيعة لغة العقيدة المسيحيّة ، تهتَمُّ - أي الدراسة - بآستكشاف معنى الكلمات التي يرددها المسيحيون في معتقداتهم ولغة عبادتهم . والسبب الثاني :

الكتاب يثير موضوع العلاقة بين المسيحيّة والأديان الكبيرة العالمية الأخرى ، وهذه مسألةٌ لم تحظ إلّا بالقليل من النقاش في مجتمعنا المعاصر المتعدّد العناصر والأجناس .

وكتاب « اسطورة تجسّد الإله في السيد المسيح » ليس من نوع الجزم القاطع – الدوغما – الذي لا يقبل نقاشاً ، إنه يُشير إلى مشكلات ويقترح اتجاهات يمكن ان يكون فيها الحل المطلوب . ليس الكتاب بياناً من سلطة – مانفستُو – يطلب من الجميع أن يقبلوه ، بل هو دعوة عاجلة لنوع من الأفكار اللازمة إذا ارادت المسيحيّة الإبقاء على سلامتها الفكريّة في عالم اليوم والغد .

وفي الكتاب أبحاث عشرة كتبها سبعة أساتذة هم : جون هك ، دون كايت ، ميكائيل غولدر ، لسلي هولدن ، دنيس نانيهام ، موريس وايلز ، وفرنسيس يُونغ .

مقدمة المُعَرِّب

عندما آقْتَرَحَ عليّ أخٌ فاضل تعريب هذا الكتاب بادَرْتُ بشِرائِه وقراءته قِراءَةً مُتأنِّيَةً . ولما آستَوْثَقْتُ من الأسلُوبِ المَوْضوعيّ الذي آختَطَّهُ المؤلِّفون لأنفُسِهم في أبحاثهم العِلْميّة هذه ، وآطْمأْنَنْتُ إلى هَدَفِهِمْ في هدايةِ إخوانهم في الدين إلى الحقّ الذي آهْتَدُوا هُمْ إليه ، قَرَّرْتُ - بِعَوْنِ الله - تعريبه .

والكتاب مُقَسَّمٌ على عشرة فصُول كتَبَهَا سَبْعَةٌ من أساتِذَةِ اللاهوت البريطانيِّين : - سِتّة رجال وامرأة - ، صدرت طَبْعَتُهُ الأولى عام ١٩٧٧ م في لندن . والقاسم المشترك لِهٰذِهِ الفصول العشرة هو : البَحْثُ في جذور ومصادر الأسطورة التي تَسَرَّبَتْ إلى العقيدةِ المسيحيةِ - وعقيدة السيد المسيح الأصلية براء منها - ، والتي جاءَتْ بِمُعْتَقَدِ التَجسُّد - أو الحُلُول - ، والتأليه ، والتَثْلِيث . ويرى الكُتَّابُ السَبْعةُ ، مُجْتَمِعين ، أن الوقْتَ قَدْ حَانَ لِتَرْكِ هذهِ الأسطورةِ الدخِيلَةِ على دَعْوةِ سيدنا عيسى بن مريم - عليه السلام - .

وصدق الله العظيم في مُحْكَمِ تنْزيله :

﴿ وإذْ قال الله يا عيسى ابن مَرْيم أأَنْتَ قُلْتَ للناس آتّخِذُوني وأُمّي إلٰهَيْنِ من دونِ الله قال : سُبْحَانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بَحَقٍ إن كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ عَلِمْتَه تعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علاّم الغُيوب - ما قلتُ لهم إلّا ما أمَرْتني بِهِ أنْ آعْبُدُوا الله رَبّي ورَبّكُم وكُنْتُ عليهم شهيداً ما دُمْتُ فيهم فلَمّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أنْت الرقيبَ عليهم وأنتَ على كلِّ شيءٍ شهيد ﴾ سورة المائدة - الآيتان ١١٦ و ١١٧ .

يتساءل البروفِسّور (مُوريسْ وَايْلز) أستاذ الإلهيّات والكتاب المُقَدّس في جامعة (أكْسفُورْدْ) ، في الفَصْل الأوّلِ : هل من المُمْكِنِ وجودُ مسيحيّةٍ بدُون تجسّد ؟ ويَبْحثُ ما إذا كان سؤاله هذا مُناسباً .. وضرورياً .. وبنّاءً ؛ ويَسْتَخْلِصُ بَعْد تَفْصيل وأمْثِلةٍ ضافية أنّ السؤال هو فِعْلاً كذلك ، وهناك أساس متين ، في نَظَرِه ، لِلدعْوةِ إلى تَرْكِ الادّعَاء بالتَجسّد وألوهيّة المسيح .

وكَتَبَتْ الفَصْلَ الثاني الأُستاذة (فْرَنْسيسْ يُونْغ) المُحَاضِرة في دراسةِ الأناجيل في جامعة (بِيرْمِنْغهَامْ) حيث قالت عن الأناجيل – العَهْد الجديد – إنّهَا وثائق ذات أهداف مُتعَدّدِة وآتيةٌ من خَلْفيّات مُختِلفة ، يتوزّع تاريخ تَأْلِيفِها على ثلاثة أرباع قَرْنٍ .. تقريباً ؛ مَكْتُوبةٌ بديباجةٍ أدبيّة مختِلفة في اللغةِ والأسلوب . وناقشت الأستاذة (يُونْغ) ألقاب يسوع في الأناجيل ، ومعانيها المُمْكِنة في خلفيّاتها التاريخيّة ؛ وآسْتَنْتَجتْ مَايَلي :

(أ) إنّ هذه الألقاب والأفكار كانَتْ موجودةً قَبْل أنْ يَتَبنّاها المسيحيّون الأوائل ، ويمكن الاطّلاع عليها في وثائِق غير مَسيحيّة ، وبتَفْسيراتٍ غيرِ مسيحيّة .
(ب) نُسبَتْ هذه الأَلْقاب إلى يسوع .. وَلَمْ يَدّعِها يَسوع نَفْسُه .
(ج) لهذه الألقاب أصول يهوديّة – يونانية .
(د) لا تُوفّر الأناجيل مَعْلُوماتٍ مباشرة مِنَ الوَحْي عن أُلُوهيّة يسوع .

أمّا الفَصْلان الثالث والرابع فَلَقَدْ كَتبهُما الأستاذ الكاثوليكيّ (ميكائيل غُوْلِدِرْ) المحاضر في اللاهوت في جامعة (بيرمِنْغْهامْ) . يقول (غولِدر) فى الفصل الثالث : من الواضح تماما أن المعتقدات التقليدية عن (الله) و (المسيح) و (الخَلاَص) و (الديْنونة) ... وغيرها لَيْسَتْ مُتَمَاسِكةً ، وغَير مَفْهومة ، « إلا أنّني أعتقد – وكذلك زملائي الذين شاركوا في هذا الكِتاب – أنّنا لَسْنا مُجْبَرين على الاختيار بَيْنَ هاوية الإلحاد أو جمود المعتقدات المَسيحيّة التَقْليديّة » ؛ و « لَسْنا مُجْبَرينَ على قبول روايات المسيحيّين الأوائل

عَمّا جَرَىٰ من أمْرٍ فَوْق المُسْتَوى الطبيعي ، ... والواقع أننّا كَمُؤَرّخين سنكون مُجْبَرين على تفضيل الرواية الطبيعية .. إذا ما خُيّرْنَا في ذلك » .

ونظرية (غولْدِر) : إنّ في التاريخ البَشَريّ فئة من الناس يُمكن تَسْمِيَتُها بـ (رجال القَدَر) ، فَعِنْدَما يَصِلُ مجتمع من المجتمعات إلى نقطة الأزمة ، قد يَظْهَرُ فيه زعيم أو قائد تُعبّر شخْصِيَّتُهُ كُلّها عن المُجتمَع وحَرَكَتِه ، والذي هو جزءٌ مِنها ؛ ويَذْكُرُ (غُوْلْدِرْ) بَعْض أسماء العُظمَاء من هذا الطِرَاز في العصور الحديثة : (جانْ دَارْكْ) و (تْشِيرْتْشِلْ) و (غانْدِي) و (مَاوْتْسِي تُونغْ) و القديّس (فْرَنْسِيس) و(مَارْتِنْ لُوثِرْ) . ومِثْل كل الحركات في الفِكْر الإنساني كان لهذه الحركات تأثير علي قِسْم كبير من البَشَر ؛ وفي حالة (يسوع) « عندنا شعور مُمَاثل ، ولكنّ يسوعاً آخْتَلَفَ آخْتِلافاً مُهِمّاً عن باق الزعماء في نِيَّتِهِ وفي آثاره » . ويقول (غوْلِدر) : « أنا أفْهم يسوعاً على أساس انّ قَدَر الله هو الذَىَ سَيَّرَهُ لِتَأسِيس مجتمع المحبّة بدُون أنانية في العالم » . ويَذْكُرُ (غُوْلْدِرْ) أنّ هناك نظرة ثانية للمسيحيّة تقول بَتجسُّدِ أُقْنُوم الله في المسيح ، وهذه النظرة هي التي قُدِّسَتْ في الكُتُبِ الدينيّة مَعَ كُلّ مشاكِلِهَا وهي تَضُمُّ مُتناقِضاتٍ لا يمكن حَلُّها .

وفي دراسة تحليلية تَفْصيليّة مُعَمَّقَةٍ لآثار العَهْدَيْن : القديم – التوارة – ، والجديد – الأناجيل ، والأجواء التاريخيّة العقائدية التي سَادَتْ قَبْلَ وبَعْدَ مَجيء المسيح – عليه السلام – ، يَكْشِف (غوْلِدِرْ) في الفَصْلِ الرابع الأصولَ التي جاءَتْ مِنْها معتقداتُ (ثُنائِيَّةُ الطبيعة) و (التجسّد) و (التأليه) ، ومَنْ الذي أدْخَلَها على المسيحيّة الأصليّة ، ومَتَى كان ذلك . يقول :

« في الخمسينات من التاريخ الميلادي كانتْ هناك طوائف سامريّة مُنْحرَفة مُتعِدّدَة . ولقد ذَكَرَ (لوقا) أن (سمْعَاناً) آدّعَى أنّ الله تَجسَّدَ فيه ، وكان (سَمْعَان) من زعماء السامريّن الذين دخلوا المسيحيّة ، وفى عقيدة السامريّن فكرة « الثُنائيّة » . ونظراً للتوجه التوراتى القوىّ لدى طوائف السامريّن ، جاءتْهُم الإزدواجية هذه من (سِفْرِ التَكْوين I f) ، ففيه آسْمَانِ للإله : في

(قِصّة الخَلْق – أ – سِفْر التكوين – ١ –) الإله (إيلوهيم elohem) يَخلُق الإنسان ؛ وفي (القِصّة (J) – سِفْر التكوين – ٢ –) الإله (يَهْوِه إيلُوهِيم yahwe elohem) هو الذي يُشَكّل الإنسان ويَنْفُخُ فيه نَفْخَة الحياة . ويقول (غَوْلِدِرْ) عن طوائف السامِريّين : « نحن نَعْرِفُ أنّهم كانوا يُشَكِّلون قوّة صَلْبَةً في بداية الكنيسة وتَسَمَّوا بـ (العِبْريّين) ؛ وهناك دلائل كثيرة على أنّ المُبَشّرين العِبْريّين أدْخَلُوا عقائِدَ جديدةً للكنيسة في (كُورَنْثِيا) و (إفَيسُوسْ) في خَمْسة مجالاتٍ على الأقلّ :

١ – التأكيد على الحِكْمة والمَعْرِفة .
٢ – وأنّ يسُوعاً كان الله الذي أصبح إنْساناً ، وتَمْجيدُه وإزالة الصِفَةِ البَشَرِيّة عن حياتِه الدُنْيويّة .
٣ – تخْفيف موضوع الصليب .
٤ – إحلال موضوع قُرْبِ نِهَايَة العالم – يوم الدَيْنُونَة – مَحَلّ موضوع الحَشْر والنَشْرِ المُسْتَقْبلي .
٥ – إنْكار البَعْث .

ومن بين السامريّين ظَهَرتْ طائفة (المَعْرِفِيّين GNOSTICS) في القرن الميلادي الثاني ؛ وهي كما يقول (غَوْلِدِرْ) : حركة كانَتْ أدَبِيّاتُها كُلّها مسيحيّةً في الظاهر أما أصُولها ، فَهُناك اعْتِقَادٌ واسع بأنّها من أطراف اليهودية ؛ ويُتابع (غَوْلِدِرْ) : « حَصَلَ (بُولُص) على فِكرة تجسّد الله في المسيح في سِياقِ جَدَلِهِ مع الدُعاة السامِريين في (كورنْثِيا) و (إفَيسُوسْ) بين عام ٥٠ إلى ٥٥ ميلاديه ، وكُنّا نَعْرِفُ أنّ بَعْثَةً بُولُصِيَّة كانَتْ ناشِطةً في هاتَيْن المدينَتَيْن في تِلْك الفَترة من الزمن بِقيادة (أبُولوس) . « إذن عندنا الآن تَفْسير للمَصْدَرِ الذي أتَتْ مِنه فِكْرةُ التَجسُّد ؛ وَوَصَلَتْ هذه الأسطورة إلى البيان الكلاسيكي في إنجيل (يُوحنّا) ؛ وهو عُضْو كنيسةِ السامريّين ؛ وهكذا فإن إنجيل (يوحنّا) هو الذي أرسى هذا التَقْليد في المسيحية ، وأعْطَى لِمَوْضُوعِ التجسّد قِيمَةَ (الحَقِيقَةِ

المُنْزَلة) ، والتي بَقِيَتْ في الألْفَيْ عام الماضية » . وُيؤَكِّدَ (غُوْلِدر) رأيه هذا بقَوْلَهَ : « إن العمل الكامل في تأليه يسوع يَقَعُ عبئُهُ على كَتِف يُوحَنّا » .

وتعود الأستاذة (فْرَنسِيْس يونْغ) في الفَصْلِ الخَامِس لِتَتسَاءَلَ : هل حقّاً جَاءتْ عقيدة التَجَسُّد من أصلَيْن فقط كما ذَكَرَ (غُوْلِدرْ) أمْ من أصول كثيرة مُتشابكة كالحَزْمة ؟ وتَنْقُل الأستاذة بتَفْصيل مِنَ التاريخ اليوناني الوَثَنِيّ القديم قِصَصاً وأساطِيَر عن الآلهة ، وكذلك روايات قديمة عن أُناس ادّعو النبوة فى فلسطين ، وكانوا يردِّدون : (أنا الله) أو (ابن الله) أو (الروح الإلهية) .. إلخ ، وكانت ثقافة الناس في تِلْك المناطق تَتَقَبَّلُ فكرةَ آلهةٍ بِشَكْلِ إنسان ، أوْ تَحوُّلَ الإنسان إلى آله . وعمليَّة التأْليه برَأْي الأستاذة (يوْنغْ) مُسْتَلْهَمٌ كُلّياً من الوَثَنِيّة ، وهناك قصص عن صعود (هِرَقْلِس) إلى الآله ، وتأْلِيه (اسْكْلِيُّوسْ) و (دِيُونِيسُوسْ) و(فيثاغُورُسْ) . وتذكر (يوْنغ) روايات وأساطير مماثِلةَ كانَتْ موجودةً حتّى فَتْرة القَرْن الميلادي الأوّل ؛ ثم تَتَحَدَّثُ عن عادةِ عبادةِ الحُكّام والأباطرة التي كانت شائعة أيضاً وتقول إنّها موازية لِمَا آسْتُعْمِلَ من ألْقَابِ لِيَسُوع . وتَذْكُرُ أنّ بَعْضَهم يَعْتَرِضُ على هذه الفَرَضِيّات في الوَثَنْنَةِ – التَحوّل إلى الوَثَنِيّة – الدرَاميّة للأناجيل في تاريخ باكر ، ويَقُول : هذا أمْرٌ غير مُحْتَمَلٍ بالنَظَرِ لِيَهُودِيّة الأصول المسيحية ؛ واليهودية تُؤمن بإلهٍ واحد ، وأنّ آمْتِدَادَ الكنيسةِ في العالم غَيْر اليَهوديّ هو سبب ظهور فِكْرة التجسّد والتأْليه لِيَسوع .

وبَعْدَ تَنْقيبَاتٍ تاريخيّةٍ بارِعَة تَصِلُ (يُونْغ) إلى وقائع وأسماء تُشيُر إلى أنَّ اليهودية الهلّلينيّة تَأثَّرتْ بالأساطير الوَثَنيّة اليونانيّة ؛ كما أنّ اليهود آسْتَوْحُوا أيضاً بَعْضَ هذه الأسَاطير من قِصَصٍ تَوْراتِيّةٍ عن صُعُودِ (إينوُخ) و (إِلِيجَا) إلى السماء ، وازدواجية الإله في السماء ، وعن (أبناء الله) ؛ وتقول : إنّ أفْكار الطوائف السامرية سَهَّلَتْ التَحوُّلَ الهِلّلِينِى في الأفكار اليهوديّة ، « وليس من المُسْتَبْعَدِ أنّ السامِرِيّين كانوا – جُزئيّاً على الأقَلّ – قناةً لهذه التأثيرات في الكنيسة

الباكرة ، والتي أدْخلت التجسُّد والتثليث والتأليه في المسيحيّة » .

وتَخْتُمُ آراءَها قائلة : « من الصحيح القول مَعْ (أ . د . نُوكْ) : إن تأثير صُورةِ يَسُوع بَلْوَرَتْ عَنَاصِرَ كانَتْ موجودةً قَبْلَ ظهورِه ؛ ويبدو أنّ هناك عناصر أساسيّة أربعة :

١ – آستعمال جُمَلٍ مِثْل (ابن الله) ، وكان هَذا مُتَدَاوَلاً قَبْلاً بلا شَكّ ، مع الاعتراف بأنّ هذه الجُمَل كانَتْ ، بتَضْميناتٍ مُتَعَدّدة ، مُطَبّقةً على البَشَرِ وعلى الكائنات – فوق المستوى البَشَرِيّ –

٢ – العادة في (تأليه) أو (صُعُود) الإنسان الاستِثْنَائي إلى مملكةٍ سماويّة في التقاليد اليونانيه واليهوديّة .

٣ – الاعتقاد بكائنات سماوية بَعْضُها يَنُوب عَنِ الله في يوم (الدَّيْنونَة) ، وأوّلهم ربّما كان أداةَ اللهِ في عَمَليّةِ الخَلْق .

٤ – فكرة ظهور رئيس لهذه الكائنات على الأرض في تَجَسُّدٍ حقيقيّ .

وكتب الفَصْلَ السادسَ الأستاذ (لِسْلِي هُوْلِدن) المحاضر في الأناجيل بجامعة لَنْدنْ . وفي صفحات البحث القليلة يُلامِسُ (هُوْلِدنْ) المَوْضُوْعَ نَفْسَهُ بقفَّازٍ حريرىّ ، ويحاول ، بأنْعَمِ وأرَقّ أسْلُوب وعبارة ، إقْنَاعَ المسيحيّين بِتَرْك التعابير القديمة عَنِ المسيح مِثْل (ابن الله) و (الله) ، للتاريخ .... لأنها لا تَصْلُح – برأيِهِ – ، للحاضِر ، ولا يمكن الدفاع عَنْها بالمفهوم الحَرْفيّ ، فَهِيَ رَمْزيّةٌ ولَيْسَتْ حَقِيقيَّة .

أمّا الفصل السابع فلقد كَتَبَهُ (دُونْ كويّت) عميد كليّة عمانُوئيل بجامعة (كِمْبْرِدْج) . وبدأ بِذِكْرِ (يوحنّا الدمشقي) – ٦٧٥ م – ٧٤٩ م – عالم اللاهوت المَشْرِقيّ حين آستَعْمَلَ الأخيرُ مَرَّةً جَدَلاً غَرِيباً جدّاً في مَجَال دِفَاعِهِ عن (الأيْقُونات) ؛ يقول (دُونْ كويّتْ) عن (يوحنّا الدِمَشْقي) : « ومن السُخْرِيَةِ أنَّ حُرّيتَهُ في الدفاع عَنِ الأيْقُونات كانَتْ بسبب حِمَايَةِ المُسْلِمين له ،

وهو يعيش بَيْنَهم ، فكان قادراً على الدفاع مِنْ داخِلِ بلاد الإسلام في وقتٍ لم يكن (يوحَنّا) آمناً لاتّخاد مِثل هذا الموقف في الامبراطورية المسيحية ! » .

ويُتابعُ (دوُنْ كوبّيت) : « وَرَدَّ يُوحَنّا على القائلين إنّ (الأَيْقُونات) لَيسَتْ في الكُتبِ المُقَدّسة بٱعْتَرافِه بتلْك الحقيقة مُضيفاً : « لَنْ تَجِدُوا أيضاً في الكُتب المُقدَّسة (التثليث) وثُنائية الطبيعةِ لِلْمَسيح ... ولكنْ نَعْلَمُ انّ هذه عقائد صحَيحه !!! » ويقول (دُونْ كُوبّيتْ) : « وهكذا ، بَعْدَ ان ٱعْتَرَفَ يُوحَنّا الدِمَشْقي انّ الأيْقُونات والتّثْليث والتجسّد كُلّها بِدَعٌ جديدة ٱنْتَقَلَ لِحَثّ قُرّائِهِ على التَمَسُّكِ الشديدِ بها كَتَقَاليد مُقَدَّسَة ٱنْتَقَلتْ إلَيْنَا من آبائنا ... فإذا ضَاعتْ هذه البِدَعُ يُصْبِحُ الإنجيل كُلُّه مُهَدَّدا !! » ويُعَلّق (دُونْ كوبّيت) على هذا الموقف قائلاً : « إنّه يَكْشِفُ صورةً غريبةً من المسيحيّة : التَقَلُّبُ ، وعدمُ الثَباتِ ، والسُّرْعَةُ التي تُضْفَىْ فيها القداسَةُ الدينيّة على البِدَع لِدَرَجَةِ أنَ كُلَّ مَنْ يَشُكُّ فيها يجَدُ نَفْسَهُ مُعْتبراً مِنَ (الهراطقة) » . ويُضيف (دُونْ كُوبّيتْ) : « ولكنَّ الإيحاء بأن عقيدة التَجَسُّد لا تَنْتَمي لروح المسيحيّة بل تَنْتمي لِفَتْرةٍ من تاريخ الكنيسة ٱنْتهى وَقْتُها ، .. هذا الإيحاء سَيُصيبُ ، بالتأْكيد ، بَعْضَ المسيحيّين بالذُعْرِ ، ومع ذلك فأنا أعْتَقِد أنّه هو الحقيقة » .

ويُتابع (دُون كُوْبّيتْ) : « وآخر دفاع قَويّ عَنِ الاعتقاد التَقْليدي بالمسيح ، في بريطانيا كان في كتاب (هـ ب . لِدُوْنْ) وعُنْوانُه (ألوهِيّة سيِّدِنا ومُنْقِذنا يسوع المسيح) عام ١٨٦٥ م أمّا زعيم الجِيلِ الذي تلاَهُ وهو تْشَاَلْرْزْ غُورْ) ١٨٥٣ - ١٩٣٢ م ، فَقَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ غِيْرَ قادرٍ على الاستِمْرارِ في هذا التَقْليد » . ويْضيفُ (دُوْنْ كوبّيتْ) : « ملاحظتي إذنْ هي أنّ مقالاتنا في هذا الكتاب لَيْسَتْ شيئاً جديداً في بَلَدٍ مُحاَفِظ مِثْل بريطانيا ، ففي الفَتْرةِ ما بينَ (لِدُون وغُورْ) بَدَأتْ النَظْرةُ التي شُكِلَتْ عنِ المَسيح في القَرْنين الرابع والخامس الميلادي ... تَنْهارُ ؛ ولا تَنْهارُ فَقَط في أذهان الناقِدين العَقْلانِيّين ، ولكن في أذهان زعماء الكنيسة اليوم ؛ وإذا كانَتْ التَغْييراتُ الاجتماعيةُ والسياسيةُ مَسْؤولةً

عن آنهيارها ... فَلَقَدْ كانَتْ مسؤولة أيضاً عن ظُهورِها أصْلاً . » .

ويتوج (دونْ كوبيّتْ) بَحْثَهُ بالاستِنْتاج أن عقيدةَ التَجسُّد أدّتْ على المدىٰ الطويل ، إلى الإضرار بالإيمان بالله ، وبإدراك علاقة الإنسان بالله ، ويُعَدِّدُ أرْبَعَةَ أدِلَةٍ آملاً أن تُوضّحَ رأيه الأخير :

أوّلا : التأكيد بأن الألوهيّة والبشرية مُتَّحِدَتان أبداً في شخْصٍ (السيد الإله المُتَجسّد) ، يُوحِي بآمْتِزاج نهائيّ والْتِئام وآستِمْرارِيّة بين الأمور الإلهية والأمور الدُنْيويّة ، وهذا يُشوّهُ دَعْوَةَ المسيح الذي نَادَىٰ بنَقِيض ذلك ؛ وسواءٌ آعْتُبِرَ المسيحُ نَبِيّاً مُوحَىٰ إليه أوْ حَاخَاماً حَصِيفا ، أو الاثنَيْن معاً – وهذا ما أعتقد – ، المُهِمُّ في دَعْوَته ، كان إبراز التَقابُل بين نِظامَيْنِ مُتَعَارِضَيْن ، وجاء التَجسُّدُ لِيُضعِفَ هذا التَعارُض المُمَيّز ، وَزَالَ ، في الامبراطورية المسيحيّة ، هذا الاختلاف المُتقابِلَ ، وتُوّجَ المَسِيُح امْبَراطوراً ؛ وفي التصْوير الأيقونيّ الذي بَدَأ في أواخر القرن الرابع لأواخِر العَهْد البيزنْطي ، لم يكن هناك فرق بين المسيح والامبراطور ، وأعلن علماء اللاهوت أنفسهم أن تبجيل أيقوناتِ المسيح مُساوٍ تماماً لِتَبْجيلِ أمَارات الامبراطور ، وأصْبَحَ المسيحُ أساساً للامبراطورية المسيحيّة وللسُلْطَتَيْن السياسيّة والكَهَنُوتيّة في هذا العالم ؛ وتبْعاً لذلك أصْبَحَتْ المسيحيّة – أوْ بالأحْرى جُعِلتْ – مُسْتَبِدَّةً مُطْلَقه .

ثانياً : المُعْتَقَدَ التَقْليدي يُؤكّدُ أنّ الإلهي والبَشريّ مُتحدان مُنْذُ حَمَلَتْ أُمّ المسيح به ، وهذا يجعل حياة يسوع الدنيويّه هَامِشيّه ، لان المُعتَقَد يُؤكّد أنّ آتحاد الله بالإنسان حَصَلَ قَبْلَ ولادةِ يَسوع ولا علاقة له بنضال وعذابِ يَسُوع في حياته .

ثالثاً : إذا كان الله ذَاتُه مُتَجسّداً كُلّياً في المسيح ، يُمْكِنُ عبادةُ يسُوع مباشرةً على أنّه الله دون المخاطرة بخطإٍ أو تجديِف ، ويمكن الدفاع هكذا عن عبادةِ المسيح كأمْرٍ مُتميِّز عن عبادةِ الله ؛ وهذا ما حدث فِعْلاً فعاد التَوجُّه المباشَر لِلْمَسيح في الطقوس التَعبُّديَّة ، والمَثَلُ على (وَثَنِيَّة) المَسِيحيّة كان في الاتّفاق

على تأسيس مَجْلس الكنائس العالمي على أساسِ العقيدةِ التي تَعْتِرفِ بأنّ سيِّدنا يَسوعَ المسيح (هو الله) وهو (المُنْقِذ) ولا شيء غير ذلك ..!!!

ويُضيفُ (دُوْنْ كُوْبِيِّتْ) قائلاً : « ربما كانَتْ النَظْرةُ الشالْسَيْدُونيّة هذه هِيَ الأَصْلُ الأكبر في عَدَمِ الإيمان الآن ، لأنّها بَدَأَتْ عملية نَقْلِ التَرْكيزِ في العبادةِ والطَاعَةِ منَ اللهِ إلى (الإلهِ المُتَجَسِّدِ) ، ثم انتَقَلَ التَرْكيزُ فأصْبح على بَشريَّة المَسِيح ، ثُمّ على الإنسانية بِعامّة ؛ بَلْ يَظْهَرُ أنّ هذه النَظْرة حَلَّلَتْ – شرْعاً – عبادةَ الإنسان للإنْسان ؛ كذلك لم تَسْتطع مُقَاوَمَةَ إعْطَاء لَقَبِ (أمّ الله) ، وتَعْبير (أُمّ الله) هو مِنْ ناحية المَبْدأ تجديفٌ وكُفْر ، إلا انه آستُعْمِلَ مُنذ مئات السنين وأسْهَم المسيحيون التَقْليديُّون بِنَشَاطٍ في تَرْويجه مُنْجَذِبين إليه بصورةٍ مُميتَةٍ لِمَا يُحْدِثُهُ فَقَطْ مِنَ الإثارة !! » .

رابعاً : إذا كان الأمر في التَجَسُّدِ هو أنّ الله نَفْسَه آتّخذَ ، وبصورةٍ دائمة ، طبيعةً بَشريّةً ، ويُمكن وَصْفُه – شرعيّاً – إنّه إله في شَكْلِ إنسان ، يمكن إذنْ إدْراكُ الألوهيةِ بهيئة تَرْكيبٍ بَشرِيّ ؛ وتَعُودُ ، هكذا ، فِكْرةُ الوثنيّين ، عَنِ الإله على أنَّهُ شَخْصٌ ذو جِنْسٍ مُعَيّنٍ فوقَ مستوى البَشر .

ويختم (دُونْ كُوْبيت) بَحْثَهُ بقوله :

« يجب أنّ تكون عَقِيدةُ المسيح بِحَيْثُ تُقوِّ ي وتُظْهِرُ ، لا أنْ تُعِيقَ وتَجُدَّ ، فَهْمَ البَشَرِ لَلسُمُوْ الإلهي ؛ وَمِقْيَاسُ التَدَيُّنِ الصَحِيح بِمَفْهُومِه الحَقِيقِيّ يَتَطَلّبُ ألاّ تُصْبِحَ دراسة شخصيّة المَسِيح نَوْعاً من مَذْهَب عِبَادَةِ الإنسان للإنسان ، إذْ يَجِبُ التركيزُ على اللهِ وليسَ على المسيح » .

ويعود البروفِسّور (وَايْلِزْ) في الفَصْل الثامن لِيَتَحَدَّثَ – أكاديميّاً – عن الأسطورة – الميثُولُوجْيا – في عِلْمِ اللاهوت ، ويُعَرِّفُها قائلاً إنّها القِصَصُ الأسطورية والخرافيّة التي تتداوَلها التقاليد الشعْبية ؛ وأَصْلُ الكلمة يونانّي ؛ ولقد دخل هذا التعبير عِلْمَ اللاهوت في القَرْنِ التاسع عشر الميلادي . وسواء آستُعْمِلَتْ

الكلمةُ في التاريخ أو الفلسفة أو الشِعْر فالرأي العامّ السائد عَنْها الآن هو أنّها خرافية وليسَتْ حقيقيّة .

وكتب البروفِسور (جُونْ هِك) الفَصْلَ التاسع عن يَسوع والديانات العالمية ، وقارَنَ بين ظهور (بوذا) ونُشوءِ البوذية – المَاهَايانيّة – ، وظهور المسيح ونشوء المسيحية مِنْ بَعْدِه . وكان نُمُوُّ الديانَتَيْن في وَقْتٍ مُتَقارِب ، بطُرُقٍ مُتَقارِنَة : (بوذا) الإنسان أصبح التفكير فيه على أنَّهُ تَجسيد لإلٰهٍ مُتَسامٍ ؛ و (الماهايانا) عقيدة الأجْسَامَ الثلاثة ؛ وكذلك الإنسان يسوع ، صار يُفَكَّرُ فيه على أنّه تَجْسيدُ للذّاتِ الإلهيّة الموجودةِ أبداً ؛ (بوذا) المُتَسَامِي هو مع الواحد المُطْلَق ... وكذلك في المسيحيّة (ابن الله) هو مَعَ الإله الآب . ويختم (جْونْ هِكْ) المقارنة قائلاً :

أنا لا أسْعَىٰ هنا للتعمُّق بِدِرَاسَةِ المُتَشَابِهاتَ بين الأفْكار المسيحية والأفكار البوذية ، وفي كُلِّ حالةٍ من هاتَيْنْ الحالتين أدّتْ التقاليد النامية إلى الحديث عن المؤسّس بأُسْلُوب وتعابير لم يَسْتَعْمِلْها المؤسِّسُ نَفْسُه ، كذلك أدّت إلى فَهْمِهِ عن طريق عقائد مُعقّدة نَشَأتْ تدريجيّاً على أيْدِي الأجيال المُتَعَاقِبَة من أتْباعِه .

ويتساءَلُ البروفسّور (جون هِك) : « ولكن كيف وَصَلَ اليهودُ مَعَ الأمِيّين gemtiles من المسيحين إلى عبادةِ كائن بَشريّ مُحطّمين هكذا فِكْرَتَهمُ في وُجُودِ إلٰه واحد ، بطريقةٍ أودَتْ بِهِمْ إلى الميتافيزيكية المُعَقَّدةِ للتّثْليث ؛ ففي تعاليم المسيحيّة الباكرة ، كما نَقَلْنَا عنْها من الكتاب الخامس للعهد الجديد – للقدّيس لوقا – ، أعْلَنَ يسوعُ أنّه إنسان أرْسَلَهُ الله إليكم مُؤيّداً بأعْمالٍ ضَخْمةٍ وأمارات ؛ وبعد ثلاثين سنة فقط أفْتُتِحَ إنْجيلُ (مُرقص) بهذه الكلمات : (ابتداءُ إنجيل يسوع المسيح ابْنُ الله) ؛ وفي إنجيل (يوحنّا) الذي كُتِبَ بَعْد ثلاثين سنة أُخْرى ، عُزِيَ هذا الكلام إلى يسوع نَفْسِه وصُوِّرَ على أنّه إلٰه يَمْشِي على الأرض ؟ لماذا وكيف حَصَلَ هذا التأليه ؟ ويُجيب (هِكْ) على تساؤلِهِ قائلاً : « عرَضَ (ميكائيل غُوْلِدِرْ) و (فْرَنْسِيسْ يُونْغْ) في الفَصْلَيْن الرابع

والخامس كَمْ كانت مُنتشِرَةً فِكْرةُ التَجَسُّدِ الإلٰهي في الحياة البَشريّة للعالم القديم ، لذا فَلَيْس من المُسْتَغْرَبِ البتّة تأليه يسوع في تلك البيئة الثقافية ؛ ففي اليهودية نَفْسِها ، كانت فِكْرَةُ تَسْمِيَةِ الإنسان (ابن الله) تَسْتَنِدُ إلى تَقْليد قديم ، لذا فاللُغة السَامِيَةُ التَمجيديّة التي آسْتَعْمَلَتْها الكنيسة باكراً ، والتي طُبِّقتْ على يِسُوع كانَتْ جزْءاً من التراث اليَهُوديّ » ويُتابع (هِكْ) قائلا :

« ومَعَ نُمُوّ اللاهوت المسيحي عِبْرَ القُرُون حَصَلَ الانتقالُ الهامُّ من (ابن الله) إلى (الإله الإبن) الأقْنُوم الثاني في التَثْليث وتغيّرت الصورة الشعريّة (ابن الله) إلى عقيدة التثْليث ،وتعَبْيرُ (الإله الابن) ظَهَر في الإنجيل الرابع وسمح به رسميا منذ ذلك الوقت داخل الكنيسة بقبول هذا الإنجيل دون نَقْدِه ؛ وآتَّبَعَ لاهوت الكنيسةِ مُجْمَلَ ما أعادَ (يُوحنا) كِتَابَتَه في هذا الإنجيل » ثم يقول (هِكْ) : « في الماضي قَبِلَ المسيحيّون بصورةٍ عامّة اللُغَةَ المتداوَلةَ عنْ يَسُوع كجزْءٍ مِنْ مَظْهَرِ إخْلاَصِهم دونَ ان يُثِيرُوا أيّة تَساؤُلاتِ عَمّا إذا كانت هذه اللغة مَنطَقيّةً أم لا ؛ مِثْل هذه التساؤلاتِ طُرِحَتْ فَقَط بصورةٍ مُباشرة في الأزْمِنِةِ الأخيرة ؛ ونَحْنُ كَمُعَاصِرين لثقافةِ عَالَمِنا نُثير هذه التساؤلات الوجيهة بَلْ والحَتْمِيّة ؛ إن القول (إنّ يَسوعاً الناصري التاريخي هو أيضاً الله) هو قوْلٌ خالٍ من أيِّ مَعْنىً كما لَوْ قُلْنا إنّ هذه (الدائرة) المَرْسُومة بالقَلَم على الوَرَقِ هي أيضاً (مُرَبّع) ؛ وأنا أقْترِحُ أنّ أحسن تَعْبير عن ذلك هو القول أنّ فكرة التَجَسُّد هي أسطورة - مِيثُولُوجيّة ، وأَسْتَعْمِلُ هنا تَعْبيرَ أسطورة بَمعْنى قصة تُروَىٰ ولكنّها ليسَت - حَرْفياً - حقيقيّة » .

وخُتِمَ الكتاب بالفَصْلِ العاشر للبروفسُّور (دِنِيسْ نَايْنْهَام) مدير كُلّيَة كِيبِلْ بأُكْسْفُورْدْ حيث ذكر الكاتبُ انه يَفْهَمُ شخصيّة يَسُوع على انه إنْسان مِنْ أجْلِ الغَيْرِ ، لا أنانية فيه ؛ ونَقَلَ آراءَ باحثين آخرين وَجَّهُوا نَقْداً عنيفاً للمسيح ، وقال : لا لَسْتُ مُسْتَعِداً للانْضِمَام إلى الذين يُنْكِرُون الوجودَ التاريخيّ ليسوع إلا أنّ على الإنسان أنْ يكونَ مُسْتعِدّاً للاعتراف بأنّ الدّينَ الذي أصْبَح مَسيحيَّةً

الامبراطورية الرومانيّة ربّما لم يكن له إلّا صلة قليلة بالواقع التاريخى لِمُؤَسِسى هذا الدين . ومنذ مُدّةٍ قصيرة وَعَىٰ المسيحيّون أنّ المسيحَ الذي يُدعَىٰ له في المواعظ لا يُطابِقُ تماماً يَسُوعاً التاريخي » . ثم يقول :

والاهتمام الرئيسيّ في هذا البَحْث هو التّأكُدُ - قَدْرَ المُسْتَطَاع - أنّ الذين يَسْتمِرُّونَ في آدّعَاء (الفَرادَةِ الميتَافيزيكيّة) : التَجسّد والتأليه والتّثْليث ، يَعُون تماماً المَشَاكِلَ المُتَضَمِنَةَ في تَقْديم وتَبْرير مِثل هذه الإدعَاءات . هناك أمْرانِ يَظْهَران بُوضُوح :

أوّلا : انه من المستحيل تبْرير هذه الإدّعَاءات على أُسسٍ تاريخيّة صرْفة مَهْمَا تَوَسَّعَتْ الشَبَكَةُ لآصْطِيَادِ الأدِلّة .

ثانيا : فيما يَتَعَلّقُ بالأناجيل ، المادّة فيها قليلة جدّاً ، وهي من العُمُوميّة في آخْتِيَارِها وتَرْتِيبِها بالنِسْبَةِ للاعتبارات الأُخرى ، بَحْيثُ لا تَسْتَطِيعُ تَوْفيرَ الأدَلَة اللازمة » .

والكتاب ، بصورةٍ عامّة ، مُنَاقشات يُمكن وُصْفُها بأنّها مُراجَعَةٌ ذاتيةٌ للمعتقداتِ الشائعة في المسيحيّة مع تحليلها ونَبْشِ أُصُولِها ونَقْدِها وآقْتراح الإسْتِغْناءِ عَنْها بإجماع المؤلفين السَبْعة ، كما أسْلَفْتُ . والجديد في هذا المجال هو أنَ علماءَ اللاهوتِ الكبارِ هؤلاء - من بروتِسْتَانْتْ وكاثوليك - يفكّرُونَ بِصَوتٍ مُرتَفِعٍ كما يقول التعْبير الإنكليزى Thinking Loud ، .... للمرّة الأولىٰ . !

ومن المُهمّ أنْ أُشير ، هنا ، إلى أنّ بَعْض ما أوردُوه في سياق مُنَاقَشَاتِهم يُخالِف تماماً ما نَعْتقدُه كُمسْلمين ، ولا مَجَال في هذا التعريب للكتاب لِتَفْنيد هذه الآراء وكُلّها معروفة بآنحرافها البّين عن عقيدة المُسْلم .

المُهمّ أنّ نتيجةَ أبْحَاثِهم نَقَلَتْهُم خَطْوةً في الاتّجاه الصحيح نحو الموقف العقيدى الثابت للمسلِم ، على دَرْب الإيمان بالله الواحد الأَحَدِ ، الفَرْدِ الصَمَدِ ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكن له كُفُواً أحد . وأرجو لِهؤلاء العُلَماء ولرفاقِهم في الملة مزيدا من الهداية لِيَصِلُوا إلى الحق المبّين : إن الدين عند الله الإسلام .

أمور عِدّة ... شَجَّعَتْني على القيام بتعريب هذا الكتاب ، ومن أُهَمِّها :

أولا : إيماني بِسَيِّدنا عيسى المسيح - عليه السلام - كَنَبِيّ من أنبياء الله سابق لِخاتَم الأنبياء والرُسُل سيِّدنا محمد (ﷺ) ، وآشْتِراكُ العديد من أتْباعِهِ مَعي في الوَطنِ والجَيرةِ والعمل .

ثانيا : أَمَلِي في أن يَقْتَنِعَ القُرّاء من أتباع سيدنا عيسى - عليه السلام - بحقيقة ما عَرَضَهُ مؤلِّفو الكتاب من كبار علماء اللاهوت ، فَتكون خطْوَة هامّة تُوَسِّعُ الأرْضِيّة المشتركة بين المسلمين والمَسيحين ، وتُقَرِّبُ عَقَائِدَ الأخيرين إلى عقائد الأوّلين - وهذا بَعْضٌ من أهدافِ المؤلفين أيضا - ، مِن خِلالِ النُقْطَتَيْن الهامَّتَيْن : وحدانية الله ونُبُوَّةِ سيِّدنا عيسى ، دون تَجسُّد أو ثنائيةٍ أو تَثْليث .

ثالثا : وُلِدْتُ في بيت يتوسّط مَسْجداً صغيرا بسيطا وكنيسةً كاثوليكيَة فَخْمة ضَخْمة ؛ وكان يتناوَبُ على سَمْعِي مُنْذُ طفولتي نداءُ المُؤذِّنِ وناقوس الكنيسة . ونَشَأْتُ بَحِمْدِ الله ، مُسْلَماً مُؤْمِناً ، فما حَمَلْتُ بَيْنَ جَنْبَيَّ مِنْ مَشاعِرِ للأشِقّاءِ من جيراني وأصْدِقائي وزملائي في الدراسة والعمل مِمَّن يقولون بأتْباع سيدنا عيسى المسيح - عليه السلام ، إلاّ ما أمْلَتْهُ عَلَيَّ عقيدتي من إيمان وتَسْليم بِنُبُوَّتِهِ وطهارةِ أمّة السيدة مَرْيم العذراء ، ومَوَدّةٍ دائمة لهم جميعاً ، بَعيداً عَنِ التَعصُّبِ الجَاهِلِ والتَفْرِقةِ الدخيلة التى جاء بها المُسْتَعْمِرُ لِيُقَسِّمَ الدار ويُشَتِّتَ الجَهْدَ الواحد لتحرير الوطن والمواطن وإطلاق الحريّة بعامّة ... وفي أصولها العميقة حريّة الفِكْر والمُعْتَقَد .

والمسلم المؤمن الواعي يَرَىٰ أنّ الدينَ هو أساسُ الفضيلة ، وكُلّ الديانات السماوية - أصْلاً - دعوةٌ للفضائل ؛ وكل دين سماويّ جاء مُكَمِّلاً لِمَا قَبْلهُ حَتّىٰ بَعَثَ اللهُ خَاتَمَ النَبِيِّين مُتمماً لِمَكارِم الأخلاق ؛ ومن هذا المنطلق : النَصْرانيُّ المُتَدَيِّن الصحيح أقْرَبُ مَوَدّةً إليَّ من كثَير من الذين يحملون أسماء مُسْلمة وَهُمْ تَائِهُون في صَحَارَىٰ الإلْحَاد . « ولتجدَن أقْرَبَهُم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نَصارَىٰ » .

لهذا كله ... وَجَدْتُ نَفْسي - بكلّ تواضع - مُؤهّلاً لمواصلة الوِدّ في تعريبي لهذا الكتاب ، عَسَىٰ أنْ يكْتُبَ الله لي فيه أجْرَ الساعين إلى الخير قَلْبا ولسانا ويداً ... ؛

﴿ قُلْ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نَعْبُدَ إلّا الله ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يتَّخِذ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً من دونِ الله فإن تولّوا فقولوا آشْهَدُوا بأنّا مُسْلِمون ﴾

« صدق الله العظيم »

المُعَرِّب

توطئة

لقد وَضحَ لمؤلفى هذا الكتاب – كما وَضحَ لعدد كبير مِنْ مسيحيّى اليوم – أن المسيحيّة ، على امتداد تاريخها ، كانت حركةً نامِيَةً متغيِّرةً باسْتمرار ؛ ونتيجة لذلك نَمَا لاهوتُها فى اتجاهات كثيرة غير محددوة .. عندما مَرّتْ الكنيسة بمَراحِلَ تاريخيّة متعاقبة وواجَهتْ حالاتٍ ثقافية شديدةِ الاختلاف ، وحقّاً ﴿ كما قال (ت . س أليوت) : « تُكيِّفُ المسيحيّةُ نَفْسَها باستمرار لِوضْع يُمكِنُ معه الاعتقادُ بِهَا » ﴾

﴿ في القَرْنِ التاسع عشر قامت المسيحيّة في الغَرْب بتعديلين رئيسيَّيْن في مواجهة التوسُّعَات الهامّة للمعرفة الإنسانية : فلقَدْ قَبلَتْ أن الإنسان هو جزء من الطبيعة وأنه برز ضِمْن تَطَوُّر أشكال الحياة على هذه الأرض ، وَقبلَتْ أن الأناجيل كُتِبَتْ بأقلام عدّة أشخاص في حالاتٍ متنوّعة ولا يُمكِن أنْ يُضفى على كلماتها عِصْمَة « الأمر الإلهى » ؛ ولم يأت هذان التعديلان دون صدام مع « أشواك » الحقائق التي سَبَّبَتْ جروحاً لم تَندَمِلْ تماماً حتى الآن ﴾ ومع ذلك تستمرُّ المعرفة الإنسانية في نُمُوّها بتسَارُع متزايد والضغط على المسيحيّة هو أقوى من أيِّ وقتٍ مضى لِتُعَدِّلَ نَفسَها لِوَضْع يُمكِنُ الاعتقاد به ويقتنع به المفكّرون الأمناء الذين تجذبهم بشدّةٍ صورة المسيح والضوء الذي تلقيه تعاليمه على معنى الحياة الإنسانيّة .

والمؤلفون مقتنعون أنّ تَطَوُّراً لاهوتيّاً رئيسيّاً آخر مطلوب الآن في الرُبع الأخير من القرن العشرين ، وتبرز الحاجة لذلك مِنْ نُموّ حجْم المعلومات عن الأصول المسيحية والتي تَضُمّ اعْتِرافاً بأن المسيح كان (كما هو مقدم في الكتاب

الخامِس للعهد الجديد – 2 . 21)(★) إنساناً اختاره الله لدور خاص في إطار الإرادة الإلهية ، وأن الاعتقاد المتأخر بأنه الله المتجسد(★★) ، الشخصُ الثاني – الأُقنوم الثانى – في الثالوث المقدس الذي يحيا حياة بشرية ليس هو – أي الاعتقاد – إلا أسلوباً أسطورياً أو شاعرياً للتعبير عن أهمّيته بالنسبة لنا . وهذا الاعتراف مطلوب منّا لمصلحة الحقيقة ، ولكن لهذا الاعتراف أيضا أهمّية متزايدة على صعيد الواقع بالنسبة لعلاقاتنا بالناس الآخرين من أبناء الديانات العالمية الكبرى .

﴿ هناك العديد من الناس–مِنَ المؤمنين المحافظين ، وربما بصورة أكبر ، مِنْ غَير المؤمنين–لا يوافقون على الأفكار الواردة في هذا الكتاب ، وسيتمسَّكُون بالفكرة القائلة ان المسيحية مؤلفة – وكانت دائما كذلك – من بعض المعتقدات المحدّدة و أن علماء اللاهوت الذين يسعون لتعديل أو إعادة تفسير هذه المعتقدات ... يفتقدون الذكاء والمهارة ، وأنه أكثر أمانة لهم أن يتركوا إيماناً لا يمكن الدفاع عن مِصْدَاقِيتِه . ولهؤلاء يجب القَوْل إنّ الأبحاث المعاصرة أظهرتْ أن فكرة المعتقدات المحدَّدة المفترض فيها أنها غير قابلةٍ للتغيير ... ما هِيَ إلا سراب ﴾ فالمسيحية منذ البدء كانت متنوِّعة ولم تتوقّف عن النموّ في التنوّع ، فاليوم المحافظون أنفسهم مثلا متنوّعون ومواقفهم المختلفة هى في أكثرها حديثة العهد فالأرْثُوذُوكْسِية***) – بمعناها اللغوي – هي .. سراب يمكنه أن يَمْنَعَ ، بَلْ ويمنع أحياناً كثيرة ، التفكير المبدع الذي تحتاجه المسيحية اليوم حاجةً شديدة جدّاً . لذلك نحن نطلب تقييم الأفكار والمناقشات في هذا الكتاب حسبما تستحقُّوكَما هِيَ

(★) - Acts 2 . 21 - Acts of the Apostles كتبه القديس لوقا مؤلف الإنجيل الثالث – – وكلمة العهد الجديد تعني الأناجيل وملحقاتها . (من قاموس أكسفورد للكنيسة المسيحية) سنة ١٩٥٨

(★★) معتقد « التجسد » يعني حلول الإله في جسم السيد المسيح

(***) الارثوذوكسية هنا تعني الاستقامة على العقيدة أو المنهج ولا تعني الطائفة المسيحية المعروفة باسمها وهذا هو المعنى الوحيد في استعمالِهَا المتكرّر في هذا الكتابَ .

وليس بالنسبة لانْسِجَامها أو عَدَمِهِ مع مرحلة سابقة من التطور المسيحي .

ويمكن لكتَابة من هذا النوع المعروض في الكتاب أن تكون ، بالنسبة للعديد من الناس ، مُقْلِقَة سلبيّة ، وهدّامه . حتّى الذين يتعاطفون مع المسألة المطروحة التي يتعرّض الكِتَابُ لأساليب حلّها ، قد يشعرون أحياناً أن المسيحية مصابة بنكسةٍ في مجال النقدِ وإعادة الصياغة . وهذا راجع من جهة إلى أن تنقية الأرض وتحضيرها لإعادة البناء واجب ضخم ، ومن جهة أخرى أن المزاج الناقد لا يسهم دائما بنفس الاستعداد في واجب البناء ، إلى هذا الحدّ يبدو أنه من السهل على الذين يزيلون العثرات من الأرض لتحضيرها البناء ؛ أن يهملوا ربّما المواضيع والحاجات الدينية . علينا أن نقول إذن أن أملنا هو تحرير الحديث عن الله وعن يسوع من الخلْطِ والتشويش مُحَرِّرين بذلك الناس لِخدْمة الله في الطريق المسيحِيّ بِكَمَالٍ أكثر .

والتعديلات التي غيّرتْ بها المسيحيةُ نَفْسَهَا في الماضي لتُصبح قابلة للاعتقاد ، كانت تسبب أحياناً عطباً ؛ إلا أن هذه التعديلات هي التي جعلت كثيراً من الناس في عصر ثقافتنا العلميّةِ التَوَجُّه ، مِنْ مسيحيّي اليوم . والتعديلات اللازمة الآن والتي تتمخّض بها ، حقاً ، العقود الأخيرة، لن تصبح ، على الأرجح ، مقبولة بصورة عامّة دون أن تُحْدِثَ عطباً في المحيط الكهنوتي . ولكننا نعتقد ان هذه التغييرات ستساعد على جَعْل الصُحْبةِ المسيحية ممكنة لأولاد أولادنا . لأن المسيحية لا تستطيع البقَاء كإيمان يمكن الاقتناع به بأمانة إلاّ في كونها منفتحة باستمرار على الحقيقة .

ليس هناك من جديد في الفكرة الرئيسيّة لهذا الكتاب ولاندّعي (الفرادة) . هناك عدد متزايد من المسيحين ، من علماء اللاهوت ومن العامّة ، يَنْحُون في تفكيرهم نفس المنحى . إلا أنّنا ألّفنا هذا الكتاب لتثبيت موضوعه على جدول أعمال المناقشات ، بخاصة في انكلترا حيث كان الاعتقاد التقليدي

بالتجسّد منذ زمنٍ طويل نوعاً من المُتَمَسّك الطائفي المَغْفِيّ من التَقَصّي المنطقي ، والمَطْرُوحِ بِحَرْفِيَتِهِ دون أيّة تساؤلات .

ربّما يجب القول أن تقسيم الفصول إلى قسمين يبحثان ، بالترتيب ، في المصادر المسيحيّة وفي نمّو العقيدة ، ليس مُطْلَقاً . فمناقشة المصادر يتعلّق أحياناً بصورة مباشرة بالموضوعات المعاصرة ، ومناقشة المواضيع المعاصرة ، كذلك ، يتضمّن أحياناً رجوعاً إلى المصادر . وهذا الكتاب يعرِض حقّاً ، كيف ان الدراسات التاريخيّة تُؤثّر باستمرار على العمل المعاصر في إعادة البناء .

وفي سياق تأليفنا لهذا الكتاب اجتمْعنا سوية للمناقشة خمس مرّات في السنوات الثلاث الأخيرة ونحن نقدّم الآن النتائج آملين ان تُثير مناقشات أوسع داخل وخارج الكنائس .

ونُحِبُّ ان نُعَبّرَ عن امْتِنَانِنا للدكتور :أ . س . وُورّال لتحضيره الفهرس .

الفصل الأوّل

مسيحيّة بدون تجسُّد

بقلم : موريس وَايلْز

توصف المسيحيّة غالباً بأنّها« إيمان تجسُّدي » . ويمكن فَهْمُ الجملة هذه بمَعْنىً ضيّقٍ أو فضفاض ؛ فالمعنى الفضفاض يُشخّص المسيحيّة كدين يتصّل الإنسان فيه بالله عن طريق العالم المادي بَدَلَ الهروب منه ؛ أمّا المعنى الضيّق فيُشكّلُ تشخيصاً للمسيحية كإيمان مرتكز على معتقد يؤكد تجسُّد الله في الفَرْدِ المعيّن « يسوع الناصري » . وليس من الضرورى ربْطُ الإيمان التجسّدى بهذا المعنى ، بالتصنيفات المحددة في التعريف الصادر عن مجمع شالسيدون(★) ، ولكنّه يؤكد أن يسوع الناصرى فريد ، بالمعنى المحدد للكلمة ، في كونه بشراً بالمعنى الكامل ، فهو ، وهو وحده ، أيضاً « إله كامل » ، الشخص الثانى – الأقنوم الثانى – من الأقانيم المتساوية الثلاثة . والسؤال الذي سأطرحه في هذا الفصل هو : هل الإيمان التجسّدى بالمعنى الثانى – الضيق – الدقيق التحديد هو في الواقع ضرورة أساسية للمسيحية ؟ هل من الممكن وجود مسيحيّة بدون تجسّد بهذا المعنى ؟ وأقترح تناول الموضوع بِبَحْثِ ما إذا كان سؤالي الذي طرحته :

١ – في محله – أى سؤال مناسب –؟، ٢ – هل هو سؤال ضرورى ؟

٣ – هل هو سؤال بنّاء ؟ .

(★) كان المجمع عام (٤٥١ م) في شالسيدون مقابل بيزنطة وأكد المجمع تعريف مجمع نيقيا والقسطنطينيّة عن شخصية المسيح وعن وجود طبيعتين إلهية وبشرية في شخصه الواحد لا تختلطان ولا تتغيران ولا تنقسمان ولا تنفصلان . (المعرب) .

١ - سؤال مناسب (في محله)

كان لِحَمْلَةِ « لاهوت موت الإله » تداوُلٌ كبيرٌ قبل سنوات قليلة . ومن زاوية علم اشتقاق المعاني نرى أن هذه الجملة متناقضة ، ويجب أن تُعطي معنىً محدّداً بعناية قبل أن تستطيع الادعاء أنها فكرة مفهومة جديرة بالاعتبار . وكلمتا « مسيحيّة » و« تجسّد » متقاربتان إلى حدّ الترادف في آذان كثير من الناس لدرجة أن « مسيحية » بدون « تجسّد » لها وَقْعٌ مُبهم وغير مفهوم بالنسبة لهؤلاء الناس . إلا أن موازاتهما ليس أمراً دقيقاً . التجسّد (بالمعنى المحدد الذي أستعمِله للكلمة) هو تفسير لأهمية ومغزى يسوع ، وفي سياق التاريخ المسيحي سيطر هذا التفسير إلى حدٍّ جعل كلمتَيْ « تَجسّد » و « مسيحية » متقاربتانِ حتّى إن الواحدة كانت تحلّ محلّ الأخرى أحياناً كثيرة إلا أنهما غير مترادفتين ، وليس هناك أيُّ انحراف فكري في رسم خطٍّ فاصل بين الفكرتين والتساؤل عمّا إذا كان من الممكن وجود واحدةٍ دون وجود الأخرى .

ويمكن توضيح ما أعنيه بِسَرْد متشابهات ثلاث من التاريخ المسيحي ، ففي القرون الوسطى كان القربان المقدّس ، وهو العمل المركزي في العبادة المسيحية ، يُفهم على أنه يضمّ تحوّل (الخبز والنبيذ المنذورَيْن) إلى جسم ودم المسيح . وعُبّر عن هذا الاعتقاد ، فلسفيًا ، بعقيدة القربان ، إلا أن الاعتقاد بتحوّل هاتين المادتين - الخبز والنبيذ - إلى جسم ودم المسيح كان أساسيّاً لإيمان الكثير من الذين لم يكونوا يفهمون محاسن فلسفة القربان . وفي عهد الإصلاح الديني ، عندما بدأ بعض المسيحيين يُؤكدون على هذه العبادة دون فلسفة القربان ، وفي بعض الحالات ، بدون تحوّل هاتين المادتين - الخبزُ والنبيذ - إلى جسم ودم المسيح ، كان المسيحيون الآخرون يرون استحالة مثل هذه الفكرة : فالقربان المقدس دون تحوّل الخبز والنبيذ إلى جسم ودم المسيح ... ليس قرباناً أبداً بالنسبة لهم

والمثل الثاني هو في الصلة بين سلطة وعصمة المخطوطات الدينية

- الأسفار - ففي معظم التاريخ المسيحي كانت السُلْطَةُ لِلْمَخطوطات، كما كان مفهوماً ، لأنّها تنقل لنا معرفة لم تكن لتصلنا عبْرَ طريق آخر ، عن الطبيعة وأسباب إنقاذ الله لنا . ويُعتقد بهذه المعلومات فقط لأنّها جاءتنا من الله مَمْهُورَةً بخاتم سلطته ... فما لهذا المرجع الإلهي ... إلاّ ان يكون هو الحقيقة ؟ فإذا ثبتَ عدم عصمة هذه المخطوطات الدينيّة ... فلن تكون بعد ذلك مرجعا ذا سلطة . والذين كانوا يفكرون على هذا النحو ، كان من المبهم عليهم بل من غير الممكن التفكير بالمخطوطات الدينية على أنها فعلا مراجع ذات سلطة ... ولكنّها غير معصومة .

والمثل الثالث هو الصلة بين عقيدة التجسّد وولادة السيدة مريم العذراء ، ففي أوائل هذا القرن عندما بدأت الشكوك تتردّد عن الحقيقة الحرفية لحمل السيدة مريم العذراء بالسيد المسيح ، كانت تُفسَّر هذه الشكوك غالبا بأنها هجوم مباشر على الاعتقاد بالتجسّد ، فلقد كانت ولادة العذراء تُعتبر بجزْم الطريقة التي حدثت بها عملية التجسّد ، فإمّا أن يبقى الاعتقادان .. أو يسْقُطا معاً .

ورغما عن ذلك نرى اليوم التمييز ، الذي شعر أجدادنا أنه غير ممكن القيام به ، هو ما يعتقد عدد كبير من المسيحيين أنه المناسب في الأمثلة الثلاثة . فهناك اعتقاد واسع الانتشار بالقربان مع إسقاط أية عقيدة عن تحوّل الخبز والنبيذ إلى جسم ودم المسيح التي حاولت الفلسفة تفسير عبادة القربان به . والكثير من المسيحيين يحفظون « للأسفار المقدسة » مكانتها إلاّ أنهم يتنصلون من أي إيحاء بِعصْمَتِها ؛ والتقرير العقيدي لكنيسة انكلترا عام ١٩٣٨ م ، مع اعترافه باختلاف وجهات النظر بالنسبة للاعتقاد بولادة السيدة مريم العذراء بين أعضاء اللجنة ، أكّد أن أعضاء الكنيسة و أعضاء اللجنة يحملون وجهتي النظر المذكورتين آنفا بالنسبة لهذا الموضوع . ويقبل أعضاء اللجنة كُلّياً حقيقة تجسّد الإله فى المسيح(١) .

طبعا الأمثلة التي ذكرت مُتشابهة وليست متطابقة متوازية ، ولا تثبت هذه ذاتها أن عقيدة مسيحيّة بدون تجسّد هي فكرة يمكن أن يُكتب لها الحياة ،إلا أن هذه الأمثلة تأخذها إلى مدى كافٍ على طريق الإيحاء بأن السؤال المطروح هو سؤال مناسب – في محله – ، ولا يمكن استبعاده مُسبقاً على أساس أنه سؤال مُبْهَم ، ويجب أن يُسمع للدعوى قبل إطلاق الأحكام .

٢ – هل السؤال ضروري ؟

هناك أسئلة كثيرة غير متناقضة مع نفسها وغير مبهمة ... ولكن ليس هناك ضرورة لِطَرْحِها ؛ ويطرح الإنسان السؤال عندما يكون هناك شيء محيّر وغير مُرْضٍ تماماً في قبوله لموقف يواجهه : هل هناك أسباب للادّعاء بأن موضوع فَصْل المسيحية عن التجسّد هو سؤال ليس فقط من المقبول إثارته بل هو سؤال لا مفرّ من إثارته . واقترح أن أبيّن باختصار الأسباب التي تبدو لي مشيرة بقوّةٍ إلى هذه النتيجة ، وهي – أي الأسباب – مشتقّة من الأصول ، من التاريخ الطويل ومن التعبير المعاصر لعقيدة التجسّد .

(١) أصول عقيدة التجسّد

يُبحث هذا الموضوع بتفصيل في الفصلين الثاني والخامس ، وهدفي هنا هو إعطاء مختصر انطباعاتي عن القصّة التي تَعْرِضُها (فِرنسيس يونغْ) بتفصيل كبير .

﴿ التجسد بمعناه الصحيح الكامل غير مذكور بصورة مباشرة في الأسفار المقدّسة ؛﴾ إنه عمارة بُنِيَتْ على أساس الأدلة المتنوعة في هذه المخْطوطات . وازدياد المعلومات التاريخيّة مَكّن جيلنا مِنْ رؤيَة الحقيقة عن الطريقة التي ظهرت بها عقيدة التجسّد أكثر مما تيسّر للأجيال التي سبقتنا . وكُتّابُ الأناجيل .. لم يكونوا فقط ناقلين لتعاليم المسيح ولما اتُّفِقَ عليه من عقائد الكنيسة ؛ بل كانوا

مفسّرين ووصفوا خصوصيّة يسوع التي يشهدون جميعاً بها بِطُرُق مختلفة . إنّهم يتحدثون عنه كنبيّ « الحَشْرِ والنَّشْر » و« ابن الإنسان » و« المسيح » .والبعض منهم يتصوره « تجسيماً » للحكمة الإلهيّة الأزلية التي تتحدّث عنها أدبيّات العهد القديم- كتب التوراة - ، أو كلمة الله - لوغوس Logos - وأحيانا تنمو وتتطور هذه الأفكار على خطٍّ شخصي أكثر فَيتحدثون عن المسيح كابن الله الذي كان موجوداً دائماً ثم نزل إلى الأرض . وكل الأناجيل (حتى الإنجيل الرابع وهو أشدّها اقتراباً) لم تَصِلْ إلى نقطة التأكيدات التي طبعت العقيدة المتأخرة للتجسّد . في البداية إذن كان التجسّد واحداً مِنْ أساليب متعددة فكَّر وتكلم بها المسيحيون عن يسوع ، إلا أنها الواحدة التي - بعد تطويرها ونموّها - أسست نفسها كنموذج لكل الأفكار عن يسوع في الإيمان اللاحق للكنيسة .

ونحن بحاجة لأن نحفظ في ذهننا فكرتين عن هذه العملية : **أولا** -البيئة التى ظهرت فيها هذه العملية . كانت واحدة من البيئات التى تؤمن أن فكرة التدخل الإلهى - فوق الطبيعي - كانت نمطاً طبيعياً للفكر والإيمان ، بطريقة لم تَعُد اليوم صحيحة بالنسبة لغالبية المسيحيين - حتى المؤمنين منهم - وفي إطار هذا الاعتقاد العام بالشكل الخاصّ للتدخّل الإلهي ظهرت ونَمَتْ عقيدة التجسد . **ثانيا** - تأثرت المراحل المتأخّرة لنموّ هذه العقيدة إلى حدٍّ كبير بما جاء به الإنجيل الرابع الذي فُهِمَ على أنه نقل تاريخي مباشر . فكيف كان عَلى الإنسان أن يُفسّر كلام المسيح تفسيراً آخر حين قال : « أنا كنت قبل إبراهيم » و« أنا وأبي واحد » ؟ وكما كانوا يعلمونني في صف التثبيت للخدمة الكهنوتية ، مثل هذا (اليسوع) يجب أن يكون « إمّا مجنونا أو سيئاً أو إلهاً » . ولكن إذا فُسّر ما جاء في الإنجيل الرابع بطريقة تاريخيّة أقلّ مباشرة (كما أعتقد أنها يجب أن تكون كذلك على أساس نقدي عام) عندها قد تُثبِتُ انعكاساتُها في مجال العقيدة ، انّها مختلفة نوعا ما عمّا بَدَت للأجيال السابقة .

ومثل هذه الاعتبارات لا تدْحضُ بالطبع عقيدة التجسّد . ولكن أعتقد أنها تُيَسِّرُ لنا منطقا أكثر لرؤية هذه العقيدة كتفسير ليسوع متناسب مع الفترة التاريخية التي ظهرت فيها بدلاً من تداولها كحقيقة غير قابلةٍ للتعديل تُقيّدُ وتُلْزِمُ كل الأجيال اللاحقة .

(ب) تاريخ عقيدة التجسّد

التعميمات السلبيّة هى أكثر الادعاءات خطراً وسوء سمعة ومع ذلك يظهر لي أن الكنيسة خلال تاريخ طويل من محاولات تقديم عَرْضٍ منطقي للمسيح كإنسان كامل وإله كامل ، لم تنجح أبداً في عرض صورة متماسكة ومقنعة . وكانَتْ بشريّة المسيح هي التي تأذّت في الغالب بهذا الأسلوب ؛ فالصورة التي عُرِضَتْ لا يمكن اعتبارها بمقاييس محاكاتنا (وهل عندنا غير هذه المقاييس) صورة إنسانية واضحة .

ويوَفّر لنا (دون كوبيت) بعض الإثباتات لنظرتنا هذه لتاريخ العقيدة من هذهُ الزاوية في الفصل السابع ، وأكتفي هنا بمَثَلين . شهد القرن السابع جدلًا حول الإرادة الواحدة للمسيح - مناظرة فيما إذا كان للمسيح إرادتان أم إرادة واحدة - هى الإرادة الإلهية - . وكانت النتيجة تميل إلى تأكيد وجود إرادتين ، الموقف الذي أعطى ، بطريقة ما ، وزنا أكبر لطبيعة المسيح البشرية . رغما عن ذلك أصرّ الموقف - للإرادتين - على القول إنه مع عدم وجود جهل أو هوى في المسيح لم تكن إرادته البشرية بحاجة أبداً لوزن الأعمال التي سيقوم بها بمالها وما عليها ؛ فلقد كانت إرادته قادرة دائما على معرفة الخير رأساً والوقوف بجانبه . هل هذه الإرادة القادرة هى حقيقة إرادة بشرية ؟

وتحيط مشاكل مشابهة بكل المحاولات لِوَصْفِ معرفة المسيح البشرية . الدكتور (ماسكول) وهو أبرز الذين نقلوا هذه التقاليد القديمة إلى يومنا الحاضر ، كتب عن معرفة المسيح البشريّة النَصَّ التالى :

« في المسيح ، مع ذلك ، يتميز « الأقنوم » حقّاً عن الطبيعة البشرية ؛ فالطبيعة المطابقة لهذه الذات ليسَتْ بَشرِيّة بل إلهيّة وبهذا فهي تشترك في « كُليّة المعرفة » التي هي بدون منازع مِلْكٌ (للإله – الرأس) . فهَلْ من غير المنطقي إذن الافتراض أن ما في العقل البشري للمسيح يضمّ ليس فقط المعرفة التجريبيّة التي اكتسبها في سياق نموّه من الطفولة حتّى البلوغ بطريقة مماثلة مادياً لطريقتنا في اكتساب معرفتنا – ولو أنّها أكثر تماسكا وبدون عوائق بما لا يُقاس – بل يضم أيضاً معرفة نقلت بطريقة مباشرة إلى طبيعته البشرية من « الذات » – الأقنوم – الإلهي الفاعل فيه والتي – أي هذه المعرفة – هي اشتراك في « المعرفة الكلية » الإلهيّة مَحْدُودة فقط بحجم قدرة التلقّي في الطبيعة البشرية »(٢) .

وينتهى هذا المقطع بسؤال بلاغي ينتظر جوابا هو : « لا ليس ذلك غير منطقى » ، إلا أن الجواب الوحيد الذي أستطيع أنا تقديمه هو : « نعم هذا غير منطقى » لقد وصل الجدل ، كما يبدو لي ، إلى استنتاج أبعد بكثير مما يمكن أن تبرزه ، عقلياً ، الشواهد المطروحة .

وبدخولي مثل هذا الاعتراض أنا لا أدّعي أن على الإنسان أن يكون قادراً تماماً على سَبْر غور السرّ الغامض لوجود المسيح قبل أن يكون مستعدّاً للإيمان به . نحن على كل حال لا نفهم تماماً سر وجودنا أو وجود الكائنات الأخرى . ولكن عندما يُطلب من إنسان أن يؤمن بشيء لا يمكن حتّى تحديده بتعابير مفهومه ، يكون من الحقّ الوقوف ودَفع التساؤل إلى مرحلةٍ أبعد . هل نَحْن متأكدون من أنّ فكرة التجسد – أي الواحد الذي هو في نفس الوقت إنسان كامل وإله كامل – هى على كل حال فكرة مفهومة ؟ .

(ج) تأكيد مُعاصر لعقيدة التجسد

ردود فِعْل بعض المعاصرين من الموضّحين لِعقيدة التجسد مشابهة إلى حد كبير لِمَا رَدَدْتُ به على المقطع الذي ذكَرْتُه للدكتور (ماسكول) . فَهُمْ يركّزون

على أنه ليس ليسوع معرفة خاصة تميّزه ، وليس له باب خاص يلج منه لمعرفةٍ تختلف عمّا هو متاح لنا - نحن البشر - وُيلحّون على أن يسوع لم يكن يعلم أنه ابن الله والإله متجسد فيه ، ولو فعل ذلك ، كما يصرّحون ، لَكَانَ حقّاً « أقلّ كليّة » في بشريّته . ومع ذلك فَهُمْ يُؤكدون بنفس القوّة أنه بالتحديد « ابن الله المتجسد فيه » . وهكذا كتب (جون بيكر) « أن يسوع لم يَرَ نفسه كأي بشر آخر ولا كمنقذ للعالم ولا ككائن إلهي موجود من الأزل في الجنان »[٣] ويعترف بأن يسوع أخطأ في البرنامج الذي وضعه الله لاتّباعه وينتقل ليُنَاقش في أن الخطأ في تفاصيل المستقبل هو صورة لحالة البشر التى لا يمكن التغلّب عليها إلا بإعطاء يسوع قِوَى أرفع من مستوى البشر وهذا ربما كان يُرضي الأحلام القديمة التَعِبة للوثنية ولكنه يَسْتَبْعِدُ كُليّاً كل تجسّد حقيقي للإله في المسيح[٤] .

وهنا تظهر صعوبات من نوع آخر . فأكثر المشاكل التي حيّرت المناظرات حول المسيح عبر التاريخ المسيحي تغيب ، لأن المضمون الاختباري الذي كان يُفهم أنه مشترك في التجسد ، تغيّر لدرجة لا يمكن معها التعرّف عليه تقريباً . وهذا الموقف الجديد يستدعي حقّاً طَرْح التساؤل فيما إذا لم تتغيّر فكرة التجسد إلى درجة أنها لَيْسَتْ الفكرَة التي كان يُعَبَّر عنها قبلاً رغم الاحتفاظ بنفس الكلمة . وعلى هذا المنحى ربّما يكون من الممكن إعادة النظر جذريّاً بتفسير كلمة تجسّد ؛ ولكنْ من المجدي ، على الأقل ، السؤال ، كاحتمال بديل ، أليس من الممكن طرح فكرة أخرى غير التجسّد قد تستطيع التعبير عن المغزى الإلهي المرغوب ليسوع المسيح .

٣ - سؤال بَنّاء

قد يوافق البعض على أن الصعوبات التي أثَرْتُها هي حقيقيّة فِعْلاً، ولكنّهم يشعرون أنها إذا أدّتْ إلى تَرْكِ الاعتقاد التقليدى بالتجسد فلا يمكن اعتبارها إذن إلا نتائج سلبيه هدّامة ؛ لذا يجب أن نسأل هل البديل هو في العودة إلى عقيدة

التوحيد القديمة التى رفضها الجسم الكَنَسيّ في الماضي لأنها، في نظره ، تخلو من الديناميّة التى تطبع الإيمان الحيّ ؟ أو يمكن النظر إلى اقتراح « مسيحيّة بدون تجسّد » كحلّ إيجابي بنّاء ؟ .

وليس من السهل الإجابة على هذا السؤال . الدين هو أكثر بكثير من مجموعة أفكار ذهنية ، إنه تقاليد حيّة متطوِّرة ، وفي اطار المسيحية ، المعنى الديني الأكبر في أغلبه مترابط بصورةٍ حميمةٍ بصُوَرٍ وأفكار التجسّد . كذلك الأمر بالنسبة للمقارنات التي ألْمَحْتُ إليها آنفاً . فالعناصر المنذورة في القُربان التى فُهِمَتْ على أنها هي جسم ودم المسيح ، كانت بؤرةً للولاء المقدس ، وتوقير العذراء كان يُحَسُّ به بعُمْقٍ ، مع أشياء أخرى ، كنوعٍ من الاستجابة لِسرّ التجسد. لذلك فالسؤال الذي أطرحه الآن لا يمكن بحثه ببساطة على المستوى الفكري فقط . اذا أُريد للاقتراح المقدم أن يُثبت إيجابيّته فيجب أن يكون هناك تحوّل في الفهم الديني والاستجابة بحيث لا تكون هناك استحالة ذاتية ، وهذا لا ينمو إلا تدريجيّاً . ومع ذلك ، ورغما عن أن المواضيع الفكرية المتعلقة بذلك لا تشكل كل القصة ، إلا أنه من الأفْضل أن تكون البداية .

وأقترح بَحْث ثلاث فِكرٍ في الإيمان المسيحي كما نما وتطوّر ، تتعلّق بصورة حميمة بالتجسّد . وفي كل حالة من هذه الحالات الثلاث سأناقشُ أنه رغما عن العلاقة ، فالفكرة ليست مرتبطة بالضرورة بالتجسد ولن تزول في « مسيحيّة بدون تجسّد » .

(ا) بدأت هذا الفصل بالبحث في المعنى الفضفاض الواسع لتعبير « الإيمان بالتجَسّد » والذي يعنى الاقتناع بأن العالم المادي قادر على أن يكون الناقل للقيم الروحية . وهذا التأكيد على معارضة « الثنائية » في المسيحيّة اعْتُبِرَ بصورةٍ طبيعيّة ومُناسِبة ، على صلةٍ حميمة متبادلة بالتأكيد الآخر الأكثر تحديداً للتجسد نفسه . مع أن الأساس الاعتقادى هو أمر تتشارك فيه المسيحية واليهودية

ولا يعني ذلك أن الأمر مقصور على عقيدة التجسّد ولكن ، بالقَدْرِ نفسه ، في عقيدة الخَلْق.وكل فكرة عن الهدف الإيجابي في التاريخ كما يُشاهد في معادلة الله لبني إسرائيل وللكنيسة . ومسيحيّة بدون تجسّد ، بالمعنى المحدّد لكلمة التجسد ، لن تكون إيماناً « غير تجسّديّ » بالمعنى الاكثر اتّساعاً والتي تستعمل في هذه الكلمات غالباً .

(ب) كان يُفْهم من عقيدة التجسّد أنّها تعني مغزى وأهميّة يسوع كمثالية إنسانية ، فاذا كان لنا حياة إنسانية كما عاشها ابن الله ، فيجب أن تُعطىَ بالتأكيد سلطة مطلقة علينا كالنموذج الحقّ للحياة الإنسانية . في الواقع يجب الاعتراف بأنّ أنواع الحياة التى اعتقدها الناس بكل أمانة وإخلاص أنها مستُقاة من نموذج حياة يسوع ، تختلف - أيْ هذه الأنواع - اختلافا هائلا فيما بينها . ولقد أوضح (دُونْ كَابّيتْ) بكلّ قوة هذه النقطة في مقاله (يسوع واحد ... وعديد من المسيح) « أنواع متعددة جدّاً من المثاليات الشخصية شُكِّلَتْ في الظاهر من مَثَل يسوع : إنسان تاريخي عاش فقط حياة واحدة فصار نموذجاً لأشكال مختلفة من الحياة الإنسانية . لقد أُعْلِنَ عن يسوع كنموذج للنُّساك والفلاحين و« الجنتِلْمان » والثوريين والمسَالِمين والإقطاعيين والجنود وغيرهم ؛ وحتّى لو حَصَرنا انتباهَنا بالحياة الدينية للناس في الغرب اللاتيني وحده لوَجَدْنا التنوع كبيراً جدّا بين مثاليات (بِنِدِكْتْ) و(فَرَنْسِيسْ) و(برونو) و(أغناطيوس لويولا)(٥) .

وهذا كله لَيْسَ نتيجةً فقط للخطيئة البشرية وعَمَىٰ البَصَر . في جملةٍ مشهورة ل (ر . هـ . لايتْفُوت) يقول فيها : « ماخَفِيَ عنا من حياة المسيح في جزئها الأرضي لا يقِلُّ عمّا خَفِيَ عنّا من جزئها السماوى »(٦) . قد يكون هذا تصريحا متطرّفاً إلا أنه يُعبِّر بصورةٍ جَلِيّةٍ عَن حقيقةٍ لا يمكن تجاهلها في ضوء الدراسة العِلْمية للأناجيل . وحتّى لو كان يسوع هو ابن الله المتجسد فيه وكانت حياته البشرية كاملة، لاتتوفّر لنا هذه الرجولة الكاملة مباشرة كنموذج مُطلق السلطة على حياتنا . لذلك فمغزى يسوع كمثال لحياة الإنسان لا تتأثّر مباشرة بالطريقة التى

تُفهم عن علاقتهِ بالله . وليس ليسوع في أي موقف من مواقف حياته ، حسب ما سُجِّل عنه ، مَغزى مُطْلَقٌ بالنسبة لنا . وفي أيّ موقف من المواقف التي يمكن أن نُسْبِغَ عليه – عقليا – صفة المسيحي، تبقى حياة يسوع ذات أهمية كُبْرَىٰ لنا .

(ج) إلا ان الأهمية الرئيسية ليسوع ، عند المسيحيين ، لم تكن أبداً في نموذج حياته البشرية ، بل بقيتْ على الأغلب في القناعة بأنه هو الذي نجتمع بالله من خلاله ، وعِبْرَهُ أخذ الله قراراً قاطعاً بإنقاذ العالم . فكيف يتسنّى ليسوع أن يكون منقذ العالم ، بمعزل عن العقيدة الكاملة للتجسّد ؟ ألن يعني أي نوع من التغيير المقترح أن عبادة المسيح التي كانت التقليد عبر كل التاريخ المسيحي هي وثنيّة الطابع ؟ وفي هذه النقطة بالذات يمكن الإحساس بأكبر الصعوبات . هل يمكن مواجهة هذه الصعوبات ؟ من المهم التذكّر أنه بالمعنى الدقيق المحدد ليس يسوع، ببساطة، هو الذى أنقذ ، ولا المسيح نفسه هو الذي يُتوجَّه إليه بالعبادة .

فيسوع الأقنوم الثاني والإله المتجسد في عقيدة التثليث هو الذي نَصِلُ عبْره إلى الإله الأقنوم الأول ، وهو الذي تتوجه الأقانيم الثلاثة من خلاله .. إلينا . وكما تُعَبِّرُ عنه بحذر الطقوس الدينية ، أن قاعدة العبادة المسيحية هي التقدم إلى الله عبْر يسوع المسيح « السيد » وغياب عقيدة التجسّد لا يُحَطِّم ببساطة هذا الدور الوسيط بِرمته . فمن الممكن بعد ذلك أن نرى يسوعاً ليس فقط كتجسيد للاستجابة البشرية الكاملة لله ، ولكن أيضا الشخص الذي يُعَبِّر ويُجَسِّمُ طريق الله إلى البشرية . لأن الله يأتينا دائما من خلال البشر حيث نتمكن من لقائه والاستجابه له . فمن خلال شخصية وزعامة موسى وهروبه من مصر تَعَرَّف (بنو إسرائيل) على قوة (يَهْوِه) المنقِذه . ومن خلال تجربة (هوسيا) وخدماته النبوية استطاعوا الوصول إلى الأعماق التي لا تنضب من حُبِّهِ – الطالب والمسامح أيضا – لذلك يمكن الادعاء بأن الله مَنَحَنا نفسه في حبّه من خلال يسوع الذي كان أتمّ تَعْبيرٍ عن ذلك ويمكن للبشر الاستجابة التامّة له . لأن يسوع لم يكن فقط معَلّماً عن الله.إن قدرة الله بدأت عملها في العالم بطريقة جديدة من خلال حياته وخدْمته وموته وانبعاثه على هذا الأساس ، من المعقول الاقتراح بأن قصصِ يسوع

وصورته ذاتها يمكن أن تبْقى بؤرة شخصيّةً لِتَحَوُّلِ قدرة الله في هذا العالم . ومن الممكن أن تستمرّ قصص يسوع وصورته في لعْبِ هذا الدور ، حتى بدون عقيدة التجسّد ، مع أنها لن تؤثر علينا تماماً بنفس الطريقة . ولكن ، كما رأينا قبلًا ، الطريقة المحددّة التي فُهِم بها يسوع وأثّر على حياة الكنيسة كانت عارضاً دائم التغيّر في تاريخ الكنيسة ، ولقد تَعرّض لتغيّرات كبيرة في السنوات الأخيرة بخاصة ، رغم المحافظة المُضنية على فكرة التجسد . ولا يمكن التنبؤ سلفاً ، بسهولة ، عن وجهة التغيّر الذي سينتج عن التخلّي عن عقيدة التجسّد لأن التنمية الدينية ليست ببساطة استنتاجاً منطقيّاً ولكنها حياة متغيّرة . والتغيّر الأكثر احتمالاً سيكون نحو تأكيد أقل خصوصية عن يسوع كممثل لكل البشر ولكل الثقافات وهذه الفكرة معروضة بتفصيل في بحث (جُونْ هِك) ، وليس فيها محاكمة تقول بتساوِي جميع الأديان في الحقيقة والقيمة . إنها تستَبْعِدُ الحُكْمَ بسُمُوّ إحداها على أخرى قبل معرفة واعية للإيمان في الديانتين . وهذا التغيير لا يمكن اعتباره إلاّ كسْباً .

وهكذا نعُود في النهاية إلى النقطة التي بَدَأْتُ منها – الأفكار المعقّدة المتشابكة الملازمة « لعقيدة التجسد » . وناقشتُ أن التخلي عنها كادعاء ميتافيزيكى (ولفكرة التخلي عَنْهَا أرى ، أساس متين)، لن يُؤدي إلى التخلي عن كل الادعاءات الدينية الأخرى التي تلازمها عادة . سيكون هناك فرق طبعاً . ولكن حقيقة حب الله الذى وهب نفسه فيه لنا، ودور يسوع في نقل هذه الرؤية للحياة في هذا العالم سيبقيان . وفي نظري يبدو أن الكثير من اللغة التقليدية والصور في موضوع التجسيد تبقى مناسبة كطريقة صورية من التعبير عن هذه الحقائق . ولقد حاولت في الفصل الثامن من هذا الكتاب أن أُبَرِّر هذه الدعاوى بتحليل دور « الأسطورة » في علم اللاهوت المسيحي . أمّا ما حَظّ وقَدْرُ هذه المحاولة من النجاح فَلِغَيْرِى أن يحكم في ذلك . إلا أنها على الأقل ، دليل على أن نيَّتنا بصورةٍ عامة في هذا الكتاب تضمّ كل مجالات النشاط النبويّ الذي طُلِبَ من (جيريمْيا) في الرؤيا الافتتاحية ، ليس فقط لاقتلاع وتحطيم وتدمير وخَلْع ، ولكن لبناء وزرع (جيريميا 10 . 1) . وفي حالة (جيريميا) كانت المجموعة الأولى من النشاطات هي الأكثر بروزاً في نظر

معاصريه . وبِنَظْرَةٍ أوسع للتاريخ يمكننا أن نرى بوضوح أكثر ، الصِفَةَ البَنَّاءَةَ في (جيريميا) . وقناعتنا بأن للطرح المعروض في هذه الأبحاث إمكانات بنّاءة مماثلة جَعَلَتْنا نجمع هذه الأبحاث لِنَنْشُرِهَا في هذا الكتاب .

NOTES

1. *Doctrine in the Church of England*, SPCK 1938, p. 83.
2. E. L. Mascall, *Christ, the Christian and the Church*, Longman 1946, pp. 56–7.
3. J. A. Baker, *The Foolishness of God*, Darton, Longman & Todd 1970, p. 242. Fontana edition 1975, p. 250.
4. Ibid., p. 312. Fontana edition p. 321.
5. In *Christ, Faith and History*, ed., S. Sykes and J. P. Clayton, Cambridge University Press 1972, p. 137.
6. R. H. Lightfoot, *History and Interpretation of the Gospels*, Hodder & Stoughton 1935, p. 225.

الفصل الثاني

سحابة من الشهود

بقلم فرنسيس يُونْغ

« في يسوع المسيح أرى بَعْضاً من الله » ... اعتراف من هذا النوع هو من قَلْب الإيمان المسيحي ؛ إنهُ يُلَخِّصُ الفكر المشترك للمُخْلصين . ومع ذلك فالحقيقة هي أن المسيحيين المؤمنين عانوْا وفهموا هذا الاعتراف بطُرُق عدّة . وبما أن الاعتراف بيسوع الآن وفي الماضي كان في بيئات ثقافية مختلفة شتّى من أنماط مختلفة من البشر لها آمال وتوقّعات مختلفة ، يجب احتمال وجود أنواع عدّة من البيانات عن شخصيّة المسيح متشابهة معْ ، ومعتمدةٍ على ، الطرق المتعددة التى عاناها وعَبَّر عنها المسيحيون في موضوعَيْ الكفّارة والخلاص . وفِعْلاً ، الموضوع الذي يتكرّر خلال هذا الفصل هو أن العروض في دراسة شخصية المسيح متطفّلة على تحديدات ومفاهيم الخلاص ، ولكن الجدل الرئيسيّ فيها هو ان التصريحات في موضوع دراسة المسيح يجب ألّا تُعتَبَر مُنْتَمِيَةً للُغَةِ الفلسفية أو العلم أو (الدوغما) (أي الآراء الجازمة) ، بل تنتمي بالأحرى لِلُغَة الاعتراف والشهادة .

الادّعاءات الخاصة أن هناك طريقة واحدةً لِفَهْم موضوع الخلاص عن طريق المسيح ، لم تكنْ قطّ جزءاً من القوانين الكنسيّة المقدسة ، لا في الاعتقاد ولا في التعريف ، مع أنّها غالباً ما سبّبت تَعَصُّبا بين المسيحيين . وبالمقابل تَعَذَّر الادعاء الخاص أن الطريقة الوحيدة لُفَهْم طبيعة يسوع هي بمعنى التجسد الإلهي الفريد وذلك ببيانات قويّة استعملت تقليديا لامتحان مدى الإيمان الأُرْثُوذُوكْسي - المستقيم - . وهذا ما جعل الشهادة الحيّة و الإيمان الحي يبدوان كحقيقة علميّة غير محتملة، وشَجَّع ظهور مواقف متعصّبة متعجرفة بين المؤمنين . وحجب أيضا

الغِنَى والتنوّع الكامِنَيْن في الصور والتأملات في دراسة شخصية المسيح بالمَيْل لِجَعْل كل شيء تابعاً للاعتراف بيسوع أنه ابن الله المتجسّد . والاعتراف بإمكانية وجود قيم متساوية في الاستجابات المتنوعة ليسوع المسيح ربما كان – أي الاعتراف – الطريقة البنّاءة الوحيدة للتقدّم في عالم بدأ يُقدّر الأوجه الغَنِيّة لتنوّعه وتعدّديّتِهِ .

وحتّى نفتح الطريق لاستكشاف هذه الإمكانية من الضروري أن تُعرَضَ الصِيَغُ التقليدية لدراسة شخصية المسيح ، وهي ابعد ما تكون عن تعزيز الحقيقة المتجليّة ، ... أن تُعْرَضَ على أنها حصيلة الشهادة والاعتراف في محيط تاريخيّ معيّن . وفي سبيل هذه الغاية يبحث القسمان الأولَيَان من هذا الفصل في شهادة العهد الجديد – الأناجيل – ونُمُوّ لاهوت آباء الكنيسة . وإذا تحاشينا مطالعة الأناجيل بنظّارات ملونة (بالدوغما) التى ظهرت بعد ذلك ، نميّز صورة في دراسة المسيح أو بالأحرى « صُوَراً » تختلف تماماً عن المنهج الأُرْثُوذُوكْسي المتأخّر ؛ للبيئة المعاصرة آنذاك تُمَيِّز ليس فقط العوامل التى أدّت (بالآباء) إلى مواقفهم الدوغماتية – القاطعة – والتى كان من خلالها التفسير التقليدي للأناجيل ، بل نميّز أيضاً الصعوبات المتأصلة في بُنْيتهم اللاهوتية .

وفي ضوء هذه الدراسة التاريخية تُصْبح أسبقيّة فِكْرة الخلاص بالمسيح واضحة ؛ ومن هذه الخلفيّة يمكن الاستمرار للبحث في القسم الثالث من هذا الفصل تناولاً شخصيّاً لفكرة الخلاص بالمسيح ونوع التأكيدات في دراسة المسيح التي تستدعيها هذه الفكرة في الإطار الثقافي للعالم الغربي . ونعُودُ بعدَ ذلك لِنَسْتَنْتِجَ في موضوع التعدّديّة ... بعضَ المشكلات ... وبَعْضَ المزايا .

١ – شهادة العهد الجديد – الأناجيل –

العهد الجديد هو أوّل وأكبر ملتقى للشهادة بمعنى أن مجموعة من الوثائق تشهد للنتائج المُنْقِذة في حياة وموت وقيام يسوع . ولهذه الوثائق أهداف

متعدّدة ، إنّها آتيةٌ من خلفيّات مختلفة ويتوزّع تاريخها على ثلاثة أرباع قرنٍ تقريباً وهي مكتوبة بديباجة أدبية مختلفة ، وأساليب مختلفة في اللغة واللاهوت . ومع ذلك فكل صفحة فيها متأثرة بحقيقة أن يسوع المسيح أصبح بالنسبة لِكُلّ مؤلِف من مؤلفي الأناجيل البؤرة المركزيّة لحياته ولإيمانه بالله .

مثل هذا التصريح ، مع أنه تعميم واسع ، يَحْظَى اليوم بصورة عامّة بتأييد الغاليّة من دارسي « العهد الجديد » . وسواء « قُبِلَتْ الدراسات الناقدة للشكل أو للأسلوب أمْ لم تُقْبل ، فالفرضية المشتركة هي أن إيمان الكنيسة بوضع تاريخي معيّن أثَّر على حِفْظِ ونَقْلِ آثار يسوع ؛ وإيمان كُتّاب الأناجيل بوَضْع معيّن أثّر في اختيارهم للمواد وترتيبها وحِفظِها . وقبل الوصول إلى هذه الاستنتاجات عن الأناجيل الثلاثة الأُوَل(★) كان إنجيل (يُوحَنّا) ، يُعامَلُ لأجيال طويلة ، كتفكير عميق في حياة يسوع أكثر منه رواية لتاريخ حياته ، وأكثر الأساليب ثَمَراً في الدراسات الحديثة كان اعتبار هذا الإنجيل مبْنِيّاً على مواعظ مؤسسةٍ على تقاليد إجمالية(١) .

وإذا التفتنا إلى رسائل بولص فمن المتفق عليه ، بصورة عامة ، أنّ فَهْمَهَا يستند إلى اعتبار دراسته اللاهوتيّة كمجموعة افتراضات مُسْبَقَةٍ واجه(بولص) في ضوئها مشاكل المجتمعات المسيحيّة المعاصرة له . وكذلك يمكن فَهْمُ رسائل(يوحَنّا) فقط إذا نُظِر إليها ضِمْنَ خَلْفِيّة انقسام الكنيسة الذي دفع لمزيد من التفكير في طبيعة الشهادة المسيحية للإيمان بيسوع المسيح(٢) . ويمكن أن نَسْتَمرَّ في هذه القائمة ولكنّ الغاية منها هو التأكيد على حقيقة أنّ شهادة المجتمعات والأفراد على تأثير الإيمان بيسوع المسيح في ظروفهم الذاتية المُعَيَّنة ، هي التي تُعطي الخواص الرئيسيّة المميّزة لكتابات الأناجيل ، وبتعبير آخر التأكيد على الصفة التاريخية المعيّنة

(★) أول ثلاثة أناجيل هي إنجيل متى وإنجيل مُرقُص وإنجيل لُوقا .

للوثائق ، والخاصيّة الثقافية للصور والأفكار التي أُستُعْمِلَتْ للتعبير عن الإيمان بيسوع المسيح .

ولْنَتَوجَّهْ الآن إلى الناحية الأكثر خصوصيّة في دراسة المسيح في الأناجيل ، فالنقاش هنا يميل إلى الدوران حول مجموعة « ألقاب » يسوع ؛ والمعاني المُمْكنة في الخلفيّة المعاصرة وفي إطار الأناجيل ، لِكلِمات ! (مسيح) ، (ابن الإنسان) ، (ابن الله) ، (السيد – Lord) ، (كلمة الله – Logos) ...إلخ ، هذه المعاني دُرِسَتْ بصورة مُتكَرِّرَة واستُهْلِكَ فيها النقاش[٣] . ويبدو أن مجموعة من الاستنتاجات قد برزت نتيجة لذلك : (أ) إن الألقاب والأفكار كانت موجودة قبل أن يتَبنّاها المسيحيون الأوائل أي يمكن الاطلاع عليها في وثائق غير مسيحية وبتفسيرات غير مسيحية . (ب) وبتطبيق استعمالها على يسوع حملتْ هذه التعابير مضامين جديدة وأصبحتْ التفسيرات الجديدة أمراً لابد منه عندما ظهر امتزاج جديد لأفكار كانت قَبْلُ مُتَمَيِّزَةً ، كلٌ بمفردها ؛ (ج) ومن المحتمل أن الامتزاج كان نتيجة لتفتيش المؤمنين عن تصنيفات يستطيعون بواسطتها التعبير عن استجابَتِهِمْ ليسوع ، أكثر ممّا كان – أي الامتزاج – نتيجةَ ادّعَاء يسوع أنه هو هذه « الشخصيات » المعيّنة ؛ (د) ولِكُلّ مجموعة كتابات في العهد الجديد توكيدها ومَزْجُها الخاص بها – أي صورة من دراسة شخصية المسيح خاصّة بها ، وبما أن مجموع دراسات المسيح ليستْ فقط مزيجاً من ألقاب ، يجب البحث والتنقيب في هذه المخطّطات لدراسة المسيح حسب ظروف قيامها وأُسُسِها ، وليس فقط بطريقة دراسة الألقاب التي آستَعْمَلَتْها . وهذه بعض الملاحظات عن كل نقطةٍ من النقاط الأربَع التي ذَكَرْتُها :

(ا) كانَت « الألقاب » سابقة لظهور المسيح : من الواضح أنه يستحيل هنا مراجعة كلّ الأدلّة عن هذه النقطة ، كذلك الخوض الآن في أسئلةٍ لا تزال مثار جدل . ومن بين أمور أخرى ، لازال الأمر غير واضح حقّاً فيما إذا كان علينا أصلاً اعتبار (ابن الإنسان) كلقب .. في أصله الآرامي[٤] ، والتوقّعات

المسيحية الدارجة كانت ، على ما يبدو ، أنواعاً متعددة جدّاً . ومع ذلك فمن المتفق عليه انه يجب استعمال العهد القديم - التوراة - والأدبيات المعاصرة له تقريباً لتأسيس معانٍ مُمْكنة أوّلاً ، وهذا لا ينْطَبِق فقط على الخلْفيات الفلسطينيّة والأصول الآرامية الممكنة ، بل على الخلفية لليهودية اليونانية- الهِلّينية - أيضاً والمفردات اليونانية في الأناجيل . بينما يتزايد الأمر وضُوحاًبأنّ تَصَوّرَ آنْقِسَامٍ ثقافي حادّ ربما كان شيئاً غير واقعي ، وأن كل مشاريع إعادة الترجمة قد تُصبح أمورا نظرية واضحة ، مع ذلك لا يمكن إنكار وجود إشارات لِفَهْم متزايد لتعابير مثل (السيد Lord) و(ابن الله) حسب الظروف اللغوية والثقافية المختلفة . ولمزيد من النقاش عن هذا الموضوع أُحيل القرّاء إلى المراجع المناسبة(٥) . والنقطة هنا هي : دراسة المسيح في الأناجيل مَبْنيّة من مادّةٍ كانت جزءاً من تراث ثقافي لِتِلْكَ الفترة من التاريخ ، وهذه النقطة معروضة بِتَوَسُّعٍ أكثر في مكان آخر من الكتاب(٦) .

تغيّرت الألقاب ونَمَتْ بتطبيق آسْتِعْمالها على يسوع . يبدو من المحتمل في ذلك الوقت أنه كان في المجتمع اليهودي آمال متنوعة سياسية واجتماعية ووطنيه وتَنبُّئية ودينيّة وعجائبيّة و(فوق الطبيعية Supernatural) بعضها مُتَدَاخل والبعض الآخر واضح المعالم ، غيرُ متوافقةٍ أحياناً ، وكلها تشترك في نوع خاص من ألقاب وطرق معيّنة من التفسيرات للوعود المذكورة في الآثار الدينيّة . والشيء الجدير بالملاحظة هو أن العهد الجديد - الأناجيل - يعكس الاضطرارية لرؤية كل التوقعات المُمْكنة وَقَدْ أُنجِزَتْ في يسوع . ويسوع لم يكن بصورة خاصة مسيحاً سياسيّاً جيّداً ، ولكنّهم ادعوا أنه من نَسْلِ داوود . من الواضح أنه لم يكن زائراً عُلْويّاً - فوق الطبيعي - إلا أنهم آدّعوا أنه ابن الانسان(٧) . لو كان من نَسْلِ داوود . ما كان باستطاعته ان يكون كاهناً حسب قوانين التوراة إلا أن « الرسالة إلى العبريين » تجد مخرجاً لهذه الصعوبة لكي تؤكد أنه « الكاهن الأعلى » الممتاز . ربما كان أقرب ما يكون لنبيّ ذي شخصيّة جذّابَةٍ مُرْهِصٍ

بمَجيء مملكةِ الله ، مع أن هذا الدور نُسِبَ إلى يوحنّا المعمدان ، ولكنّهم وجدوا في يسوع مغزى أكبر . ولكنْ لِنَعُدْ للنقطة الأساسية ، ماذا كانت نتيجة تعليق أدوار وألقاب مختلفة ليسوع بهذه الطريقة ؟ ولأنه لم يُنْجِزْ الآمال الوطنية السائدة آنذاك ، ولكنه مات كشهيد ، آسْتَعَادَتْ فكرة « المسيح » دورَ المَلِكِ المُتعذِّب(٨)؛ وبما أنه لم يكن طبعاً زائراً (فوق الطبيعي) كان على مَجْدِهِ المَغْمُور بالغموض على هذه الأرض أن يَتَجَلّى عند عودته ؛ ولأنه ظهر كنبيّ يمكن أن يُنْظر إليه كموسى جديد يؤسّس عهداً جديداً وتوراة جديدة(٩) والمزيج لكُلّ هذه الأساليب من التفكير هو ما نَجِدُهُ بطرقٍ مختلفة في الأناجيل المتنوعة ، ونَتَجَ عن ذلك صورة تختلف تماماً عن أي من الإمكانيات التى أسْهَمت في النموذج . ويمكننا أن نضيف انعكاسات (ابن الله) و(السيد lord) و(كلمة الله Logos) بخاصيّةٍ عندما تكتسِبُ معانٍ إضافية في بيئة يُونانيّة ، وهذا يكفي لتوضيح نقطة أنّ مزيج الدراسات الجديدة للمسيح تُصبح أكثر من ، ومختلفة عَنْ ، الأفكار التي أسهمت في وجودها . وهناك أطروحة مماثلة عُرضَت في مكان آخر من الكتاب تُفَسِّر الخصائص غير العادية للعقيدة المسيحية في التجسد - اي مزيج فريد من عِدّة دوافع جارية بالنسبة ليسوع الناصري(١٠) .

(جـ) نَسبَ المسيحيون الأوائل هذه الألقاب ليسوع ولم يدَّعِيها هو نفسه . آفْتُرِضَ ذلك في الجملة السابقة ، وهذا افتراض يحظى بمساندة كثير من الأعمال الحديثة في هذا الموضوع ، ويجب الاعتراف أنها ليست كُلّها مقنعة(١١) . والموقف الجذريّ المتطرف الذى يقول أنه لا يُوجد إلا القليل ، هذا إذا وُجد ، من إجمالى هذه المواد يعود أصله فعلا إلى يسوع نفسه ، أقول هذا الموقف هو ، بوضوح ، غير معقول . لكن الحقيقة تبقى إنه من البيّن أن تعديلات وتغييرات قد طرأت على هذه المواد عند استعمالها في الوعظ والتدريس والعبادة والمناقشات الجدلية للكنيسة طيلة جيل كامل تقريباً . ما هو نوع التغييرات الأكثر احتمالاً في حُدُوثِها ؟ من المؤكد أنّه التركيز المتنامي تدريجيّاً في إقحامها - أي الألقاب -

على شخصية المَسيح. ورسائل بولص – وبالفعل خُطَبُ الكتاب الخامس للعهد الجديد الذي كتَبَهُ القديس لوقا – تكشف أن إنجيل المسيحيين الأول كان عن يسوع المسيح . وهذا ممّا يزيد الاحتمال في أن الأناجيل تنقل بصحّة أن دعوة يسوع كانت مختلفة – كانت عن مملكة الله – لاشكّ ان هذه الدعوة تضَمَّنَتْ ادعاءات ذات تأثيرات بعيدة المدى . عزيمته تعرض سيادة الله في مواجهة قوى الشرّ (مَتّىٰ 28 . 12) (لوقا 20 . 11) ، وشفاؤه للمرضى يَعْرِض غفران الله (مرقص 10 . 2 ، متّى 6 . 9 ، لوقا 24. 5) ؛ وتعاليمه هي كلمة الله (مرقص 22 . 1 ، متّى 29. 7 ، لوقا 32 . 4) ومحاكمة الله للناس تكون في ضوء استجابتهم أو رَفْضِهم له(١٢) . ومع ذلك هنالك صعوبات في محاولة إسناد الادعاءات المسيحية الواضحة ليسوع نفسه . فبآستثناء إنجيل يوحنّا حيث تُوضَعُ بوضوح، مواضيع قابلة لِعدة تفسيرات ، على شفاه يسوع ، فالأناجيل الباقية لا تصور دائما يَسُوعاً بل آخرين ، باستعمالها لعبارات مثل (قُدُّوسُ الله المُقَدَّس) أو (ابن داوود) أو (ابن الله) .

ومن بين كل هذه الألقاب ، فقط (ابن الانسان) هو الذي يظهر بانتظام في استعمالات يسوع نفسه ، وحتى هنا يظهر الدليل مُحَيِّراً بسبب استمرار عدم التأكُّد من تضمينات هذا التعبير ، وكذلك لأنه يظهر في بَعْض النصوص كأنما يُشير فيها يسوع إلى شخْص آخر غيره . (مثلا في إنجيل مرقص 38. 8) . بالإضافة لذلك ينقل إنجيل مرقص انطباعاً بأنّ يَسُوعاً حاول أن يُبقي هويّته كمسيح سرّاً لا يُفْشِيه إلا في دائرة الخُلّص من أصحابه . ويَبْقى سبب هذه « السريّة » في إنجيل مرقص مشكلة بدون حَلّ بخاصّة عندما يظهر أحيانا ان الموضوع قد أُقحمَ بصورةٍ مُصْطَنَعَة ، وهذا يزيد في الانطباع أنّ يَسُوعاً ربّما فَضّل أن يُبْقي نفسه لغزاً في سبيل توجيه سامعيه بعيداً عن الحماس الزائف لذاته وإلى نتائج مجيء مملكة الله على حياتهم الحالية . وهذا لا يَعْني أن يَسُوعاًلم يُفكِّر في دوره ذاته ، بل يَعْني أنّنا لا نملك الدليل الآن للتخمين بواقعيّة عَمّا يُدْعَىٰ « بِوَعْي

يَسوع لِنَفْسِه كمسيح »[١٣] . (إذا كان علينا أن نقرأ ما بين السطور ربما نستطيع التخمين أن يَسوعاً اعتبر الادِّعَاءات الشخصية إغراءات شيطانية) . وتبقى الحقيقة طبعاً انه يجب أن يكون لِوَعْظِ الكنيسة عن المسيح بَعضَ الاستمرارية مَعْ ، وعلى أساس رسالةِ يسوع ، وليس على مَضْمونِها أن يكون متطابقاً ، وربَّما لم يكن أصلاً كذلك . والتحدّي والحكم على وَعْظِ يسوع يُذكِّرُ بوعظ الأنبياء الذين تكلموا أيضاً عن (كلمة السيد الإله) . وفي إطار فترة القرن الأول لليهودية ، ليس من المفاجيء أن تكون كلمة السلطة هذه التي تجاهلت المواثيق والتقاليد الدينية ، وتحدَّثَتْ عن قدوم مباشر لمملكة الله بل عن مجيئه الآن ، نقول ليس بمستغرب ان يُرَحَّب بها على أساس أنّها الإنجاز النهائي لوعود الله[١٤] ، فتركّزت التوقعات الحالية على الشخصية التي جاءت بهذه الرسالة . ولم تُصْبِحْ الادِّعَاءات الضمنية عَلَنِيَّةً فقط بل نَمَتْ بواسطة إيمان الكنيسة .

ناقشنا حتّى الآن في أن المجموع العام للألقاب التي أُطْلِقَتْ على المسيح في الأناجيل مشتق من الخلفّية الثقافية للبيئة المحيطة وأن المسيحيين الأوائل استعملوا هذه الألقاب للتعبير عن استجابتهم الإيمانية ليسوع الناصري . كان المسيحيون الأوائل يَبْحَثُون عن تصانيف يمكنها أن تُعَبِّر تماماً عن شعورهم الباطني بالخَلاص . والمهم أن البعض رأوا فيه حاخاماً والبعض الآخر نبيّاً ، وآخرون آعْتَبروه مُتَحَمِّسا متعصباً والبعض الآخر اعتبره « شافياً » ، وصاحب معجزات ، والبعض دعاه (السيد – Lord) والبعض سمّاه المسيح والبعض (ابن الله) .. وهكذا وإبّان حياته وفي إطار الكنيسة الباكرة استجاب له أفراد ومجموعات بطريقتهم الذاتية على أنه الواحد الذي حقّق حاجاتهم وآمالهم[١٥]ومن المستحيل المبالغة في زيادة التأكيد على الحقيقة المشتركة لأنماط مختلفة في التفكير وهي أن يَسُوعاً جاء بِمُبَادَهَةٍ من الله . ومن الأساسيّ في لاهوت الأناجيل ان نشاط الله في الانقاذ ظهر في يسوع كتحقيق لوعوده . ولكن رغما عن ذلك قُدِّرَتْ الوعود المختلفة بواسطة أناس مختلفين ودارت التوقّعات حول صور تخمينيّة بُنِيَتْ من هذه

الوعود . وهذا ظاهر في حقيقة أن يسوع كان يُشار إليه أنه كل واحدة من هذه الصور ، وكان لابد من مزيج جديد وتعديلات متبادلة إلى درجة ظهور صورةٍ مُختلفةٍ ، كانت خصائصها الأساسية أنّ يَسُوعاً هو تجسيد لكلّ وعود الله التي أثمرتْ . وأنا أقترح أن هذا التخصيص يُمثل شخصية المسيح في الأناجيل أفضَلَ مِمّا تُمثّله فكرة التجسّد ، وكان في الواقع بذرة لِنموّ أفكار أكثر فأكثر في دراسة شخْصيّة المسيح اذْ اعْتُبِرَ أن كل العهد القديم - التوراة- قد أنجز وتحقّق في المسيح(١٦) . ونجد في كتابات آباء الكنيسة تطبيق نُصُوصِ العهد القديم في دراسة شخصية المسيح متينَ الأساس . وكان شعورهم بأنهم وجدوا في يسوع ما كانوا يبحثون عنه، فبدأت بذلك دراستُهُم لشخصية المسيح ، وبكلمات أخرى آشْتُقّتْ صِيَغُ دراسة المسيح من شعورهم بالتجربة التي حدثَتْ لهم في الخلاص الذي وعدهم الله به - مهما كان تفسير ذلك - مِنْ وَخِلال يسوع المسيح .

ويزيد آتّضاح ذلك عندما نتّجه إلى النقطة الأخيرة (د) التي ذُكِرَتْ في البدء وهي أن تناول دراسة شخصية المسيح في الاناجيل فقط على أساس الألقاب وتطوُّرها ، يَفْشَلُ - أي التناول - في تقدير طبيعته الحقيقيّة . ودراسة شخصية المسيح في العهد الجديد موجودة في مجموعة من أنواع مختلفة من الكتابات نابعة من مناطق مختلفة وعوالم فكرية مختلفة ، وكل نوع من هذه الدراسات يعكس صعوبات معيّنة وأزماتِ إيمان مثلما يَعْكِسُ طُرُقاً مُعَيّنة في التفاعل مع يسوع بصفته تحقيقاً لآمال الإنسان في الخلاص . وعَرْضُ مختلف هذه الدراسات لمقارَنَتِهَا ومقابلتها الواحدة بالأخرى ، كذلك لمقابلتها ومقارنتها بالتطورات (الدوغْماتية) -- الجازمة - اللاحقة ، هذا العرض يجب أن يكون الخطوة التالية في نقاشنا . يمكننا أن نكتشف الخواص المعيّنة للدراسة شخصية المسيح في كل واحد من الأناجيل ، نستطيع أنْ نَعْرِضَ كيف أن فَهْمَ (يوحنا) للخلاص في إطار الوحْي ، أعطى دراسته للمسيح مَعالمها المميّزة ، وهكذا . ولكن لا يَسْمَح الحال بِبَحْثٍ كامل في هذا الموضوع ، وعوضاً عن ذلك أقدم تفسير بولس الذي يُظهِرُ:

(١) حقيقة أن واحداً من أهم مخططات دراسة المسيح في الأناجيل ليس فيه عقيدة التجسّد – رغم احتوائه على عناصر منها – ؛ (٢) الطريقة التي بُنِيَتْ بها دراسة المسيح من العديد من العناصر التقليدية والآثار المكتوبة ، تَشكّلت نتيجة ردود فعل على ضغوط ومشاكل معاصِرة ، كتعبير عن فهم خاص للخلاص . (ولا تُبحث هذه النِّقاط حسب هذا الترتيب إذْ أنها متداخلة في سياق العرض التالي).

في الرسائل البولصية اللقب المهم حقاً ليسوع ليس المسيح بل (كريوس Kyrios) – أي (السيد – Lord) ويسوع لازال « ابن داوود » (رسالته للرومان 3 . 1) ولم يكن المضمون القومي فيهما ويَظهر أن كلمة (كريستوس Christos) أى المسيح أصبحت كُنْية في الواقع »(١٧) . وكلمة (كريوس Kyrios) عبّرت الآن عن مغزّى ديني وسياسي رآه بولص والذين آمنوا عن طريقه ، في يسوع . لأن ولاءهم الكامل كان له (للسيد الذي قام) لَقَدْ اعترفوا به كَـ(سيِّد) في عملية (عمادتهم) (رسالته للرومان 9. 10) ، واستمرّوا بالاعتراف به في وجه الاضطهاد (رسالته للكورَنْثِين 3 . 12) . وماذا عَنَى ذلك بالنسبة لهم ، عُلِمَ من تَعَرُّفِهم بالآخرين الذين رَغِبُوا في (اللقب) . لقد قابلوا ما بين (سيدهم) وبين (السيد) الإسكندر(١٨) وبين (أسياد) معاصرين لهم من أصحاب الطقوس الدينيّة الغامضة . وما كان من الممكن أن يشاطِرُوا (السيد) طاولته في العشاء الأخير ويجلسوا على طاولة سيّد آخر (رسالته للكورَنْثِين 21 . 10) . وعلى عكس جيرانهم الذين عبدوا آلهات عدّة و(أسياداً) عدّة ، أكدوا هم على إله واحد و« سيد » واحد (رسالته للكورنثّين 6 - 5. 8) . « والسيد » يسوع المسيح ارتقى إلى مركز الساعد الأيمن لله (رسالته للرومان 34 . 8)؛ لقد أُعْطِيَ آسْماً هو فوق كل الأسماء (كيريوس) ، (رسالته للفيليبيان 11 . 2) وكلمة (السيد) التى جاءت للأنبياء السابقين هي الآن إنجيل المسيح (رسالته السيسالونية 8 . 1 . I) ، ويوم (السيد) الذي نبّه إليه الأنبياء السابقون هو الآن يوم مَجيء يسوع (رسالته السيسالونية

I . 5 . 2) . وهكذا كان إلـهُهُم هو إله العهد القديم و(سيدهم) ، يسوع ، كان نائباً لله – « وكيلاً مُفوَّضاً » .

وبالنسبة لبولص ، استلم يسوع هذا المنصب كنتيجة لعمله ، نيابة عن الله على السيطرة على قوى الخطيئة والموت والشر « لقد جُعل خطيئة » (رسالته للكورنثيين 21 . 5 . II) و« أصبح لعنة » ، لقد ألغى القانون (رسالته لِلغالِيّين 13 . 3) ، لقد تواضع وأصبح طائعاً .. حتى الموت ، الموت على الصليب (رسالته للفيليبيان 2.8) لكي يعطى للبشر الخلاص والمصالحة والعدل والطهارة ، ويصبح الإنسان فيه خَلْقاً جديداً (رسالته للكورنثيين II,5.17) . جعل الله يسوع المسيح حِكمتنا ، وحقَّنا وطُهْرنا وخلاصنا (رسالته للكورنثيين II,1.30) . لذا فَقَدْ رفعه الله كثيراً والآن يعيش المؤمنون فيه . ومن المهمّ في دراسة المسيح ان بُولُصَ استطاع أن يقول عنّا أننا جسد المسيح (رسالته للرومان 12،ورسالته للكورنثيين 12) وأننا نعيش في يسوع وهو يعيش فينا (رسالته للغالّيين 2.2) . ورغم ان الحقيقة التاريخية لموت وقيام المسيح كانت أساس إيمان بولص ، فإن قناعته بان المسيح هو الآن حي و أن فيه خُلِقت إنسانية جديدة ، شَكَّلَتْ تجربة بولص في حياته الإيمانية . وموت وقيام المسيح أصْبَحَ مَوْتنا وقيامَنا (رسالته للرومان .6) وهكذا أصبحت حياتنا حياة المسيح نفسه وأصبَحْنَا نحن حَقَّ الله . (رسالته للكورنثيين II, 5.21) .

ما قلناه حتّى الآن في تفسير بولص .. يمكن إعطاؤه شارة « التبنّي » التى فات زمنها ، والحق أنّها لا تَعْنِي فقط تبنى يسوع بل تبنّي كل البشر فيه . وهذا ، بالتأكيد لا يعنى تجسّد كائن إلهى الأصل . ومع ذلك ففي كتابات بولص أيضا قناعة مُتَنَامِيَة عن وجود أزلي لهذه الشخصية التي هي الآن (سيّد) المسيحيّين .

وأوضح ما تكون هذه الفكرة طبعاً في رسالته للكولوسيين (سواء كتبها بولص نفسه أو أحد اصحابه ... لا فرق) . وتتوجه هذه الرسالة الدينية إلى

موقف كانت فيه سيادة المسيح مهدّدة بالاعتقال بوسطاء آخرين وشخصيات روحّية أخرى أسهَمتْ في خلاص الإنسان . وباستعمال فِكَرٍ سَبَق أنْ آستُعْمِلَتْ عن الحكمه الإلهيّة(١٩) ، يدّعي المؤلف أن سيّد الكنيسة كان دائما اليد اليُمنى لله منذ بدء الخليقة ولقد سُرَّتْ ملاءَةُ الله أن تَسْكُنَ فيه ولم تَنْقَسِمْ بين عديد من نَسْلِهِ الروحي أو أحِبّائِهِ المُفضَّلين . وربما كان اكتمال هذه الفكرة يدين بوجوده للدراسات عن المسيح التي اجرتها فئة «المَعْرِفيين»(*) وكان فيها ، من وجهة نظر بولصية ، نقص واضح ، إلا أن اشارات إلى هذا النوع من الادعاءات وجدت في كتابات بولصية سابقة . ورسالته للكورنثيين (I,8.6) غير مفهومة إلا في خلفيّة « للحكمة » ومعنى رفض مكانة سامية سابقة لاشك موجود في رسالته للكورنثيين (II 8.9) كذلك في رسالته (للفيليبيان 2.5ff) ، أضِف إلى ذلك ان في رسالته (للرومان 8.3) يتكلم عن الله الذي أرسله بشَكْلِ جَسَدِ خَطّاءٍ ويظهر أنّ هذا يَعْني ضِمْناً تجسّد (ابن لله) له وجود سابق . فهل هذه إذن هي منشأ فكرة التجسّد الإلهي في موضوع شخصية المسيح .

هناك نقطتان تُشيران إلى أن الأمر ليس كذلك ؛ (١) فبولص لا يسمى هذه الشخصية (الله) ولا يقرنها فى أى مكان بالله(٢١) . صحيح أنها – أى الشخصية – تقوم بأعمال الله ، إنها بالتأكيد وكيل لله فوق المستوى الطبيعي يفعل بمبادهة من الله. ولكن في النهاية عليه – أيْ يسوع – أن يتخلّى عن السلطة التي منحها الله ليبقى الله هو الكُلّ الواحد . (٢) وهذه الشخصية موجودة سابقاً ، ليس ببساطة كنوع من كائن إلهي (مع أن الحكمة في الأقانيم قريبةٌ من هذا المعنى) ، بَلْ على أساس أنه إنسان من السماء(٢٢) ؛ وبُنُوَّتُه لله لا يُعَبَّر عنها بصيغة طبيعة إلهّية ، ولكن كنتيجة لِخَلْقٍ واختيارٍ إلهيَّيْن من جهة ولولائه الكامل عندما يقوم بعمل الله مُطَبّقاً تماماً

(*) طائفة بين المسيحيين اعتقدوا أن الخلاص هو بالمعرفة وليس بالإيمان – GNOSTICS

إرداة الله .. حقاً هو النموذج المثالي للإنسان والنموذج المثالي لابن الله الذي من خلاله أصبحْنا كلنا أبناء الله ، الرفاق الوارثين مع المسيح الذي سيَحْمِلُ صورة رَجُلِ السماء(٢٣) . وبكلمة أخرى ، عُدْنا مرة ثانية للنقطة التي أَكَّدْناها سابقاً وهي أن مركز الإيمان الحيّ بالنسبة لبولص هو اندماجُنا في المسيح وتجسّد المسيح فينا . وهذا الأمر وحده هو الذي يمكّننا من اتّباع القانون ومن حَلّ أزمَتِنا الأخلاقية ، ويُدْخِلُنا بعلاقة تامة – على أساس الميثاق مع الله – وعندما كتب بولص : « كان الله في المسيح ليتصالح مع العالم » ، كان من المستَبْعَد أنّه عَنَى استنْتاجاً كمَجْمَع (نيقيا) . كان يُعَبّر كتابةً عن أن مبادهة الله في إنقاذنا هي التي وفَّرَتْ لَنا طريق الخلاص هذا : «كل هذا من الله الذي دخل في وفاق مَعَنَا عِبْرَ المسيح (رسالته الكورنثية 19 - 5.18. II) وعندما كان بولص يَتَصَدّى لمُشْكلات السلوك في كنائِسه في مواجهة المتهوّدين من فئة (يوداس) وفئة (المَعْرِفيّين) ، كانت إجاباته دائماً مَبْنيّة على تركيزٍ كبيرٍ على المسيح ، لأن المسيح وحده كان دائما الصورة الحقيقيّة لله مثلما خُلِقَ الإنسان ليكون كذلك ، وبه وحده ، كما يعتقد ، يجد البشر حقيقة أنفسهم ويتعلمون أسلوب الطاعة الحقيقيّة لله والتبشير بهذا الإنجيل كان شغفه الملتهب ، والتعبير عن ذلك ينمو حسب المعارضة والمصاعب التي واجهَتْهُ . وحتّى يعبّر عن ذلك كان يستمد من الأدبيات الدينيّة لليهودية التي ورثها من كُتُبهم الدينية ، ومن العَناوين التقليدية التي استعملها المسيحيون ليُعَبّروا عن إيمانهم بيسوع . لَقَد رتّب خطّة بها بَعْضُ عناصر التجسّد وربما آعْتَمَدَتْ إلى حدٍّ كبيرٍ على الأجواء التوفيقية – وربّما الأجواء الدينية – لطائفة «المَعْرِفيّين» التي كانت آنذاك . ولكن في الأساس كان التعبير عن حقيقة أن الضعف الأخلاقي في بولص وجد عِلاَجَهُ في يسوع المسيح ، هو الذي أصبح نقطة التركيز الوحيدة لإدراكه واستجابته لله .

ومن هذا المسْح الذي لم يكن بدٌّ من إيجازه ، لدراسة شخصية المسيح في كتب العهد الجديد ، يُمكِنُ آستنْتاج نقاطٍ سَلْبيّة وإيجابيّة . في الناحية السلبيّة نميل

للاعتراف أولاً : وَفَّر لنا العهد الجديد دلائل عن كيفيّة رَدّ فعل المسيحيين الأوائل ليسوع ، وكيف أنهم استعملوا فِكراً متداولة ، بخاصة في فلسفة الحشر والنشر ، ليُعَبِّروا عن رد فِعْلهم هذا ؛ ولا توفِّر هذه معلومات مباشرةً مِنَ الوحي عن ألوهيّته . ثانيا: فكرة التجسّد بمعناها المَقبول تقليدياً لم تُوجَد في رسائل بولس بل في أذهان قرّاء هذه الرسائل التي فسّروها على هذا النحو ، وأنا ألاحظ أنه يمكن تطبيق نفس الجدل ، لو اتّسَعَ المجال ، على بقيّة الأناجيل . وفي الناحية الإيجابية يمكننا أن نُركِّزَ على ، أوّلا : إنه لأمْرٌ مميّزٌ حقّاً ان يثير يسوع آستِجاباتٍ بهذا العُمْقِ من أوسَاطٍ مختلفة متعدّدة . صيادو السمك في الجليل والحاخامون المثقّفون ، المتحمّسون المتعصبون وطائفة «المَعْرِفيّين» ، الفريسيون والخطّاؤون ، اليهود والأميون – gentiles – ، كان بأسلوب ما، كل شيء لكل الناس بحيث حَطّمَ الحواجِزَ الاجتماعية والسياسية والدينية ، كل فئات البشر وجدت الخلاص فيه ودُفِعتْ إلى التفتيش عن تصانيف تُفسِّر ظاهرته ولكنّها لم تجد تصنيفا واحدا بعينه يناسبه تماما فاستمر البحث عَنْ أساليب أرقى لتمجيده وعبادته وفهْمِه . ثانيا : رغم تمييزه الدائم عن الله الأب سواءً في شكله الأرضي أو بَعْدَ قيامه ، ورغم انّه لم يُعتَرفْ به مباشرةً كإله ، إلا انه كان يظهر من الاعترافات المستَعْملة أنه يحل محلّ الله وهو البؤرة التي من خلالها حَصَلَ الوحي والتجلّي للمستجيبين . وعلى العموم العهد الجديد بكامله تركيزٌ على المسيح . ربما لم تكن الاعترافات – مضمونا وإطاراً – متميّزة تماماً ، إلا أن تطبيقها المشترك كأصناف تفسيريّة لشخْص يسوع الناصري لا مثيل له . وقوة كهذه تَجْعَلُ يسوع الوسيط الذي تَجَلّى الله من خلالِه ، ويمكن التعامل مع الله بثقة عن هذا الطريق .

٢ – نموّ دراسة آباء الكنيسة عن المسيح

هناك البعض الذي ، على الرغم من اعترافه بالخُصوصيّة الثقافية للعهد الجديد ، يريد ان يُناقش في أن كُتّاب (العهد الجديد) كانوا يتلمّسُون طريقهم

شيئاً فشيئاً نحو فَهْمٍ كاملٍ للسؤال : منْ كان يسوع ؟ وتَوَفَّرَ ذلك بِنمُوّ المعتقد الكَنَسيّ بالتجسّد . وبزغ الفجر تدريجيّاً على الحقيقة الكاملة عن شخْصِ يَسوع المسيح ، وهذا تَطَوُّرٌ وَجَّهَتْهُ العناية الإلهية وأَوْحىَ به الروح القدس .

ولكن وجهة النظر هذه تستدعي أسئلة جذريّة ، بالقَدْرِ الذي تستدعِيه فِكْرة أن كل ذلك موجود في « العهد الجديد » وكان لابُدَّ من حدوث مزيد من التفكير العقْلاني ووجوب طَرْح أسئلةٍ فلسفيّة عن ادعاءات المسيحيين التي حَوَتْ بالتأكيد عناصر غاية في التناقض ولكنّ هذا لا يعني أن الأسئلة قد طُرِحَت بالطريقة الصحيحة وأن الحلول الصحيحة قد وُجدَتْ . وكما كان الحال في كتابات العهد الجديد فإنّ نموّ وتطور العقيدة في بداية حياة الكنيسة كان مشروطاً بالثقافة ومُحدَّداً بمسيرة التناقضات والمناظرات عدا العوامل الأخرى كالسياسة والشخصيات المختلفة وفُرص التاريخ . واختلاف مواقف الدراسات عن شخصية المسيح مُتَعَلِّق بأسلوب حميم باختلاف طُرُق فَهْمِ موضوع الخلاص ؛ لَقَدْ دُعِمَتْ هذه الدراساتُ بجدلٍ ناقِصٍ وتأويل مُشَوَّهٍ للآثار الدينية المكتوبة وابْتكِرتْ صِيَغٌ لِحُلُول وَسَط لم تَفْعَلْ أكثرَ من إعادة بيان التناقض المستحيل وتَرْكِهِ بدون حلّ .

وقد يكون الإغراق في التبسيط الخطأَ الأساسي في أطروحة تُغطّي مواضيع كثيرة ، ولكن يمكن القول بصورةٍ عامّة أن عالم اللاهوت المسيحي في القرون القليلة الأولى واجَهَ سؤالين أساسيين :

١ – ماهي الصلة بين يسوع السامي المقام الذي يُعبَدُ على أنه هو « السيد » وبين الإله الواحد الأحد ؟

٢ – ماهي صلة الله بالعالم ؟ ولابد أنّ أوّل سؤال أثّر على فِئةٍ آشْتَقَّتْ لاهوتها مِنْ فكرة وحدانية الله في كُتُب العهد القديم . ففي اليهودية ، واقعية الاتحاد المادي بين الإلهي والبشري للحكمة – أي التوراة – ، لم تَلْغُمْ فِكرةَ وحدانية الله لأنّها في النهاية كانت – أي فكرة الاتحاد المادي – نوعاً من التعبير غير المباشر ، آستُعْمِلَ لِتحَاشي مَعْني الصلة بين الإله المتسامي والمخلوقات ؛ صحيح

انه كان لها دور إيجابي من هذه الوجْهة ، ولكنَّ إيماناً يُمثِل هذا التركيز على الله لا يستطيع أبداً أن يسمح حقًا بتحدّي مُلكه الله ، وإصالتِهِ وسيادتِهِ النهائيتين . وبتحديد شخْصٍ بعينه (يسوع) على أنّه هو الشخصية الوسيطة ، وبعبادته وإعلان مِثْل هذا الإيمان المُرَكّزِ على المسيح آسْتَعْمَلَ المسيحيون أفكاراً متداولة وأثاروا تساؤلاتٍ حَوْل وَضْعِهِم هذا . ولم يكونوا فقط في موقف الدفاع أمام اليهود والفلاسفة .. عندما كان عليهم تفسيرُ كيف يعبدون إلٰها واحداً وسيداً واحداً .. لا إلهين ؟ (٢٤) بل كان عليهم أنْ يُبَرِّرُوا لأنْفُسِهِمْ آدّعاءاتِهم المتناقضة . ومادُعِيَ (بالهرطقات السُلْطانية) ، كانت التناقضات الداخلية التي أظهَرَتْ مُشْكِلَةَ العلاقة بين (السيد) يسوع وبين الله ... أبيه وتوفرتْ أكثرُ الطُرُق تأثيراً في حَلّ هذه المسألة في ترجمة لغة (الحِكْمة) اليهودية إلى فكرة – (الكلمة – اللوغُوس – Logos) التي عُرِفَتْ في فلسفة ذلك العَصْر(٢٥) .

صحيح أن الفلسفة في تلك الفترة بَدَتْ للمراقب المُتَوسِّط مُفَتَّتَةً في مدارس لها افتراضات مُسْبَقَة متعدِّدة وآدعاءات متعارضةً في الظاهر(٢٦) ، إلا أن الإطار المسيطر على الأفكار كان نوعاً من الأفلاطونية الشَعبيّة مع تأثيرات من الفلسفة الزَيْنُونية – الرواقية – والفيثاغورية . وكان المثقّفون يعتقدون بوجود كائن سامٍ ، وكانت تجذبُهم حياة الفضيلةِ والتأمّل بالحقائق الروحية(٢٧) . لم تكن هذه الفلسفة الأفلاطونية « شعبيّة » فقط بل كانت تبدو مناسبة أكثر ممّا هي غريبة عن أخلاقيات وحدانية الله في اليهودية(٢٨) . وكان مِنَ الطبيعي إذَنْ أنْ تُصبحَ البيئة الفلسفية السائدة هي التي أمْلتْ الفَرَضِيّات المُسْبَقَة التي نما في إطارها اللاهوت المسيحي بعد ذلك . وتقدّمَتْ التقاليد الفلسفيه لِتُجيب على السؤال الثاني المذكور سالفاً : ماهي صلة الله بالعالم ؟ كان التصوّر أن « اللانهائي » هو أساس الوجود وهو يؤمِّنُ الاستقرار والخلود اللذين هما في أصْلِ التغيّرات والفُرَصِ في هذه الحياة وتَنَوّع العالم . وبما أن الله عُرِّف بأنّه (هو) اللانهائي فهو كامل الصفات شكلاً ومادة ؛ وأي تغيُّر في هذا الكمال لايَعْني إلا

الانتكاس ، لذا لا يمكن لا التمييز ولا التقسيم في ذاته ، وهو لا يتأثر بأي شيء خارجي . لا يمكن أن يكون له تاريخ أو نموّ وتطور أو تورّط[٢٩] . ونتيجةٍ لِمثل هذه الفِكرة ، من الصعب إيجاد صلةٍ بين الله الواحد وبين تَعَدُّدية الأشياء في عالم من المُفْتَرَضِ أنّه هو مصدره وأرضيّة وجوده . وتساميه الكُليّ كان يعني عَدَمَ مناسَبَتِه للمشكلةِ التي كان هو في الأصل حَلاً لها . والأفلاطُونية الوسيطة وحليفتُها الأفلاطونية الجديدة تصارعتا مع فكرة « صلة الله بالعالم » ؛ كانت مشكلة مُسْتَوْطِنَةً في مجموع تعاطيهم مع الواقع . وكان لابُدّ للحلول من أنْ تحتَوِيَ على نوع من جهاز وُسَطَاء أو « هرميّة كائنات تَصِلُ « الواحد » الكُليّ السمُوّ الذي كان ... حتّى أبعد من متناول الكائنات ، مع العالم المعلوم[٣٠] . وهكذا نرى خُطَطاً من صدور ، ووساطة ، في كلٍّ من نظام الفلسفة ونظام طائفة (المَعْرِفِيّين)[٣١] ، وهذه حقيقة تُظْهر مدى انتشار الافتراضات المُسبَقة في تفكير تلك الحقبة من الزمن .

وللمسيحين المتعلّمين نظرة أساسية واحدة. لذا وَجَدَ اللاهوت المسيحي نَفْسَهُ مُجْبَراً على مواجهة نفس المُشْكِلات والتناقضات المتأصلة ، ولكنْ بحلول يقدمونها عِبْرَ تقاليدهم في دراسة شخصية المسيح فبالنسبة للفيلسوف المسيحي « الكلمة » شبه الإلهية (Logos) لَعِبَتْ دَوْر الوسيط الواحد الوحيد الذي كان في نفس الوقت (واحداً) ... ومتعدّداً يتقاسم ، بطريقة ما ، طبيعة الشَّكْلين (الواحد والمتعدد) ويُشكّل جِسْراً يصل بينهما[٣٢] . والمنطقي انه لم يكن هناك مجال في هذه الخِطّة للروح القُدُس ، إلا انه - أي الروح القدس - وجد مَكاناً له كشَكْلٍ آخر من صلة وسيطة في سلسلةِ الوجود مُشَكّلا بذلك ثالوثا لا يختلف عمّا قال به أتباع الأفْلاطونية الجديدة . صحيح أنّ في إطارهم المعاصر كانَتِ المدارس الفِكْرية المتنافسة ، بما فيها المسيحيون ، تعِي بصورة رئيسيّة الاختلافات الجذريّة بين حلولها المتعدّدة ، ولكنْ ، من وجهة نَظَرِ تُنَاسِبُنَا ، بَدَتْ كُلُّها متماثلة من حيث المبدأ ، إن لم تكن كذلكَ في تفاصيلها .

ووفّرتْ عقيدةُ التجسّد لهذه الصورة وجهَها المناسب . ومن المعروف تماماً أن وُجْهة نظر (أوغسطين) إلى هذا الموضوع، كانَتْ هذه النظرة ذاتها : ففي أعمال الأفلاطونية الجديدة ، قرأ كُلّ شيء عن (الكلمة الإلهية – Logos) ، ما عدا أهم شيء على الإطلاق ، وهو أن « الكلمة » أصبحت جسداً وسكَنْت فيه(٣٣) . وفي هذا المجال ، مِنَ المُهِمّ القول أنّ الكلمة الإغريقيّة (أويكونوميا Oikonomia)(★) قد استُعْمِلَتْ للتجسّد وللطبيعة المثلّثة الأقانيم للإله ، لأن كِلاَ العقيدتَيْن اهْتمّتا بالتوفيق بين طبيعة الله الأساسية والعالم .

وكانتِ الوساطة النهائية إذنْ هي قدُوم « الكلمة » في إطار هذا العالم حتّى تُنْقِذ البَشَر مِنْ تغيّراته وفُرَصِه ، من عذابِه وشَرِّه و« عدم كينونته »(٣٤) . إلا أن المناظرات عن الطبيعة الحقيقيّة وانْعِكَاسات هذا « الأوج المناسب » جَلَبَتْ في النهاية الانتباه إلى عَدَمِ منطقيّة هذه الخطّة ككُلّ . وكان جَدَلُ (أريُوسْ) هو الذي أبْرزَ ذلك ، وكان لابُدّ بعد ذلك من وصول دراسة شخصية المسيح إلى الطريق المسدود .

وفي الوقت الذي اعْتَمَدَتْ فيه الخطّة الأفلاطونية على التباين بين الإله المتسامي والعالم ، تَحَاشَتْ وَضْعَ خَطٍّ فاصل بين الإلهي والمخلوق في نظامِها الهَرَمي للوجود ؛ كان هناك تتابُعٌ في السلالات . ولكنّ (أريوسْ) طَرَحَ السؤال الضِمْني : أين سيكون الحدّ الفاصل ؟ كان هو نفس السؤال المُلحّ على المسيحيين أيضاً بسَبَب التأكيد التوراتي علي « غيرية » الله والتباين بين الخالق والمخلوقات . ومنذ طرْح هذا السؤال انهار مَنْطِقُ الخِطّة الكليّة وتعرْقَلَتْ كُلّ المناقشات اللاهوتية اللاحقة . وفي هَرَمِيّة للوجود بدون تمييز (أنتولوجي)(★★) ثابت يمكن أن يكونَ للوسيطِ صِلَةٌ لابأس بها بين ماهو هو أعلى وماهو أدنى من مرتبة في السُلّم الهرميّة ، تُوفّرُ رَبْطاً مُؤثّراً . ولكن إيجاد التمييز الأُنتولوجي لأي خَطٍّ حقيقي

(★) المعنى الحرفي باليونانية للكلمة تتصل بالاقتصاد والتوفير .

(★★) الانتولوجيا – ontology – هي عِلْم حقيقة المخلوقات ، أو عِلْم الوجود .

فاصل بين الإلهي والمخلوقات لا يكون إلا بالتأكيد على أن يكون الوسيط على جانب من جوانب الخطّ وبذلك يُحطّمُ إمكاناته كوسيط . والخطّ النايسيني(★) في التفكير لم يكن أفْضَلَ مِنْ خطّ (أريوس) . وحقيقة وجود الحدّ الفاصل تَلْغم ماكان يَبْدُو حلًّا مُسْتَحْسَناً لِمُشْكِلةِ علاقة الله بالعالم(٣٥) .

ولقد عَرَف (أريوس) الله بتعبير (أجينيتوس Agenetos) أي المصدر النهائي لكل شيء وهو لا مصدر له (٣٦) . وهذا ما يميّز الله في كينونته الأساسية عن كلّ ما عداه مِن كائنات ، وبمنطقيّة كافية أُجبر (أريوسْ) على التأكيد أن (الكلمة – Logos) أي المسيح يَشْتَقّ وجودَه من الله لذا فليس هو الله .. بالمعنى المطلق . حَطَّم (أريوس) « الهرمية » ودَمَّرَ فِكرة الوسيط في دراسة شخصية المسيح بِفَصْلِهِ الوسيط عن الله . ولكنّه ، بمعنى آخر ، جَاهَرَ بالافتراضات الضِمْنيّة للنَهْج الذي حَطّمَهُ . ويجب ألّا نَنْسَى أبداً ان أسْلُوبه كان من الثبات في الجدول الرئيسي للتقاليد بحيث جَعَلَ رَجُلَ كنيسة صَلْبًا مثل (أوزوبيوسْ) في قيصريّة ، يَشْعُرُ أنّه يُشاطِرهُ أفكاره ولا يجد ذلك في معارضيه(٣٧) . واستطاع (أريوسْ) ان يَقْبَلَ كلّ العقائد التقليديه وأكّدَ ، مثلما فَعَلَ مُعَارِضُوه ، أن (ابن الله) كان أوّل المخلوقات ومن خلاله خلق الله العالم وتجلّى ؛ وفي التجسّد جاء بمعرفة الله للبشر وآنتصَر على الخطيئة والشر اللذيْن آستَعْبَدَا البشر . والحقّ ان (أريوس) استطاع ان يُقدِّم عَرْضاً واقعيّاً لِنصُوص الأناجيل التي تَفْتَرِضُ ، في موضوع الغواية ، أنه كان ليسوع نَفْسُ تَجْرُبَتِنَا الأخلاقية ؛ لأنّ « الكلمة » – أيْ المسيح – كان مخلوقاً قابلاً للتقلّب ، وإمكانية الخطيئة واردة . وحقيقة أنه لم يُخطِيء ... كان لها مَغْنىً عميقٌ في إطار الإنقاذ والخلاص ، لأنها عَنَتْ أنّ البَشَر ، بآتّباع طريقته ، عندهم القُدْرَة الكامنة على عدم الوقوع في الخطيئة . وليس من الإنصاف لِـ (أرْيُوس) وَصْفُ عقيدته على أنّها – غيرتُورَاتيّة – ، أوْ اتهامه أنه آهتَمّ فقط بالمنطق على حساب مَوْضُوعَيْ الإنقاذ والخلاص .

(★) نسبة لِبَلْدَةِ (نَيسيّا) أوْ نِيْقِيا حيث قَامَ مجمع كَنَسِيّ (Nicea) .

لماذا ثارت الكنيسة إذن على مَنْهَجه ؟ وكان (آثاناسيوس) يُمثِّل المركز العصبي لردود الفعل المعارضة له . ويجادل (أثاناسيوس) أنّ « الكلمة » أصْبَحَتْ إنساناً حتّى نستَطيع ان نُصْبِحَ نَحْنُ ... آلهة ؛ [٣٨] وإذا كان الأمر كذلك فإن المسيح هو الله نفسه وإلّا لَمَا آسْتَطَاعَ أنْ يَهِبَ الألوهية للبشر . وفكرة الإنقاذ والخلاص حَدّدتْ دراسة شخصية المسيح . وبسبب الجاذبية العاطفية في هذا النقاش للذين عاشوا مؤمنين بيسوع ، وبالقدرة الإلهية التي آستُلِمَتْ في القُرْبان المقدّس والأمَل بحياة إلهيّة فيما بعد ، غُضّ النَّظَرُ عن الصعوبات الكامنة والتناقضات غير المنطقية لهذا الموقف . ومع ذلك فموقف (أثاناسيوس) هذا .. هو مشكلة لسببين : (١) لا حاجة للابن الحقيقي لإنتاج أبناء بالتَّبَنّي[٣٩] . وبما أنّنا نَسْتَقْبِل فقط أبناءً بالتَّبَنّي وألوهيّة مُشْتَقّة ، فالمنطقي أننا لسنا بحاجة لوجود إله أب وابن له يَنْقُل لَنا عِبْرَةُ الألوهيّة . (٢) حَسْب تَعريف الألوهية في الافتراض العام (المشروح سابقاً) ، مَتَى عُرِّفَ الإبن بكلمة (Homoousios Toipatri)(★★) . يصبح التجسّد مستحيلًا من الوجهة المنطقيّة ، وتَظْهَرُ مشْكِلةٌ (تَحَمُّل الأب والابن الألَم سَوِيّاً – Patripassianism مرة أخرى متنكرة بثوب جديد . لأنه ، إذا كان المسيح « الكلمة » كاملا أصلا وغير قادر على التغيير أو التقدم أو العذاب ، فليس باستطاعته أن يتوَسَّط أكْثر ممّا يستطيع ذلك الإله العلّي نفسه . وتِبْعاً لذلك فتفسير (أثاناسيوس) لِنُصُوصِ العهد الجديد التي تَفْتَرِضُ أن ليسوع في الغواية نَفْسَ تجْرُبتنا الأخلاقية وأنه كان جاهلاً وضعيفاً ... الخ ، هو – أي التفسير –

(★★) كلمة Homoousion تعني – باليونانيّة – مِنْ نَفْسِ المادّة ، وأسْتُعْمِلَت الكلمة في المذهب التأيِيبيّ لتُعَبِّر عن علاقة الأب والابن في عقيدة التثليث .

لامحالة ، ميلٌ نَحْو (اللوسيتية)(★) ولو لم يَكُن بِنِيَّتِهِ ذلك(٤٠) . وبينما فَصَلَ (آريوس) الوسيط عن الله ، فَصَلَهُ (أثاناسيوس) عن العالم .

وآنصَبَّ الجَدَل اللاحق في دراسة المسيح في مُعْظَمِهِ على المشكلة التي لاحَلّ لها الآن وهي : كيف يمكن للكلمة : « Atreptos Logos » غير القادرة على التغير والتألم أن تتجسّد أصلاً ؟ ولقد ورث أهل أنطاكية التقليد القديم في تناوُل موضوع دراسة المسيح من زاوية أنّ يسوع هو إنسان وُهِبَ « الكلمة » بصورةٍ فريدةٍ(٤١) . ومَثَّلَ أهلُ الإسكندرية آتّجاهاً بنفس القِدَم في تناول الموضوع ركّز عَلى تجسّد شخصيّة (فوق المستوى الطبيعى) وأساس هذين التَنَاوُلَيْن المُخْتَلِفَيْن هو في الاختلاف البيّن لِفَهْم موضوع الخلاص ، يُشْبهُ الاختلافات التي لُوحِظت سابقاً بين (أريوسْ) و(أثاناسيوسْ) وفي الفترة التي تَلَتْ مَجْمَعَ (نيقيا) ، لم يَسْتَطِع الطرفان شَرْحَ تناوُلِهِمَا بطريقة متماسكة تماماً ، لذا كانا عُرضَةً للانتقادات المتبادلة ؛ و(الكلمة – Logos) لا تستطيع حقّاً التورّط في شئون العالم ؛ لذا وَجَدَ أَهْل انطاكية أَنْفُسَهم يُلِحّون على الاختلاف بين « الطبيعتين » كُلّ طبيعة لها خصائصها الذاتية الأصيلة إلى درجة أنّهم لم يستطيعوا إعطاء تفسيرٍ مُرْضٍ عن اتحاد هَاتين الطبيعتين حتّى ولو أُجبروا على ذلك . وأهل الاسكندرية ، في تأكيدهم على الطبيعة الواحدة « للكلمة » التي أصْبَحَتْ جسداً عَرّضُوا للشُّبْهَةِ ، لا محالة ، التميز بين « الإلهي » و« البشري » كما هما محدّدان الآن . ويَتَلَخَّصُ الإبهام في جُمْلَة (Aphtos epathen) – وتعني : تعذّب ... بدون عذاب – وهي تُوحي أنّه بينما تَعذّب الجسد – أي يسوع الإنسان على الصليب – تَعَذَّبَتْ بطريقة مَا « الكلمة » تَعاطُفاً معه لأنّه

(★) اللوسيتّة : (Docetism) – ميل في الكنيسة الباكرة اعتبر بشريّة وعَذاب يسوع البشري ظاهرية أكثر ممّا هي حقيقيّة . وكانت طائفة (العارفين) تمثّل أوج هذه الفِكْرة . كانوا يقولون إن يَسُوعاً نجا من الموت فلقد حلّ محله (يوداس) أو (سيمون) قبل صَلْبه وكان أبرز الذين اتهموا باللوسيتّة (سيرلُوسْ سيرابيوس) مطران أنطاكية للفترة ١٩٠ – ٢٠٣ م ، وهو أول من استعمل تعبير (اللوسيتّيون) .

جَسَدُها – أو إنسانها – ، رغم أنّها بطبيعتها لا يمكنها أن تتعذّب .

المشكلة غير قابلة للحلّ ومن هُنا جاء الجَدَل ومن ثَمّ الصفة غير المُرْضِيَة للحلّ الوسط (الشالسيلوني) فما دُعِيَ بالتعريف يُعرَّف فقط بالمعني السَّلْبي بآسْتِبْعَادِ التطرُّف في كلا التناولين لدراسة المَسيح ؛ ودون ان يستطيع تَقديم أي فهْم إيجابي لدراسة المسيح . وفي ذلك الإطار الفلسفي تُصْبح الدراسة الإيجابية – منطقيّاً – مستحيلة منذ صار لِفكرة مَجْمَع (نَيْقِيا) (وحدة المادّة للأب والابن Homoousion) أساس قوي . وتبلورت المشكلة التى لا حلّ لها – أي علاقة الله بالعالم – في مشكلة مُماثِلة لا حلّ لها عن صلة الإله الأب والرجولة في المسيح .

قُصِدَ بالمصَوَّرِ الآنف الذِكْر ان يَعْرِضَ ما يلى : (١) إن مناقشة آباء الكنيسة لدراسة شخصية المسيح كانت تَلُور ضِمْن إطار فلسفي معاصر من افتراضات مُسْبَقة – أي بمعنىً آخر ، مثل دراسة العهد الجديد للمسيح ، كانت محدّدة ثقافيّا ؛ (٢) لذا ، وبآستعمال تَصانيف فكريّة مُعَاصِرة لتلك الفترة كان لامَنَاص للاهوت المسيحي من أنْ يَصلَ إلى نتائج لَهَا شبْهٌ واضحٌ بالخطوط الفلسفية لذلك الزمن ، وبالتالى لا يمكن آعْتبارها غير محدودة بالزمان . (٣) وحتّي في ذلك الإطار الفِكْري كانت الأمور غير المنطقية الملازمة له ، واضحة . (٤) وطالما أن أفْكَارَهُم المُسْبَقة كانت مُحَدَّدَةً بالثقافة الفلسفيّة المحيطة ، فمِن المنطقى ألاّتستطيع إبْراز مَعنى للرسالة التوراتيّة عن اشتراك الله مع عالمه ، وبخاصّة لم تَسْتَطِعْ مقاومة آنْقِيَادها إلى قراءَة دوسيتيّة للأناجيل . وفي النهاية لم تُثبِتْ الأفلاطونية مُنَاسَبَتَها للإيمان التوراتي رغما عن تشابههما السطحي . ومن الواضح أيضاً (٥) إن ردود الفعْل الإيمانية والافتراضات عن الخلاص كان لها معاً تأثير عميق على الكيفيّة التي عُرِضَتْ بها دراسَةُ المسيح .

ولو سمح لنا المجال لكُنّا تابَعْنَا توثيقِ حقيقة أنّ مسيرة المُشَادَّات العقيديّة

أخذَتْ شكْلَها ، ليس فقط من الصِّفَةِ المُلازِمة للمجادلات المستعمَلةِ بلْ مِنَ الشخصيات والسياسات . ويكْفِي أن نعْرِض تذكيراً بسيطاً كيف أن هجوم (سيريل) على (نِسْطوريوس) كان مُتَعَلِّقاً بالصراع السياسي بين مراكز السلطة الكهنوتية في الإسكندرية والقسطَنْطِينيّة الذي ظهر قبلاً في معاملة (تيوفيلوس) السفيهة (ليوحنّا كريزوسْتُومْ) ؛ ومن المهم أن (سيريل) تلاعَب بِصِيغَةِ الاجتماع عندما أزَالَ (نِسْطُوريُوسْ) من الطريق . ويجب ألاّ تُدْرس أبداً مسيرة التطورات العقيديّة بمَعْزَلٍ عن الإطار التاريخي للمناظرات التي جرت وسواء كان الأمر خطأً أمْ صواباً ، أثَارَتْ العواطف العميقة والتعَصُّب الشديد ، المجالسَ والكنائس وجُيوشَ الرُّهْبان نحو هَجَمات مُرْعِبةٍ على بَعْضِهم البَعْض وأدّتْ إلى الطَّرْدِ من الكنيسة والنَّفْي لمجموعة من زعماء الكنيسة المستقيمين المُخْلِصين . وهذه قصة إنسانية شديدة الكَرْب والغَمّ .

إذن هناك أسباب قويّة للنظر إلى التطوّرات والتفسيرات الكنسيّة لعقيدة التجسّد ليس على أساس انها انْبِلاَجٌ تَدْريجي لِشَمْسِ الحقيقة مُسْتَلْهَمٌ مِنَ الروح القُدُس بل على أساس أنها تطوّر مُحدّد قاد إلى الطرقِ المسدودة بسبب التَّناقُضِ وعَدَم المَنْطِقيّة واللوسيتيّة – Docetism . وليس من المُرْضِي التأكيد أن من عناية الله وجود النظام الفلسفي على الأقلّ ، آنذاك، الذي مَكّنَ من ظهور الصيَغ الصحيحة . والاستنجاد بالعناية الإلهية فَقَدَ قيمتَهُ بسهولةٍ مع ما جَرَىٰ بَعْدَ ذلك من تاريخ . ويوفّر لنا (أوزيبُوسْ) في مدينة قيصرية مثلاً مُفيداً : لَقَدْ رأي يَدَ العناية الإلهية تَعْمَلُ عندما دعا لقسطنطين على أنّه تقريباً مَظْهر جَديدٌ (للكلمة) يأتي بِمَلكُوتِ الله على هذه الأرض(٤٢) ؛ ومع ذلك ومن وجهة نظر تاريخيّة مفيدة لنا ، يبدو أنه بالتأكيد ، مُتَمَلِّقٌ خَسِيس يَخْدُمُ العَظَمَةَ الإمبراطورية ، ونظرته إلى عَمَل العناية الإلهية لا يُقْنِعُ أحداً، كذلك إذا آسْتَنْجَدْنا بالعناية الإلهية لتأتينا بالخير مِنَ الشر ، بالرغم عن العوامل السياسية والاجتماعية والعوامل الإنسانية الأخرى ، نقعُ في خطر آتّباع طريق تَحْكُمُ عليه الأجيال المُقْبِلةُ بالخطأ بخاصة بالنظر للصيغَةِ

المُشْكّلة للصِّيَغ التي وَصَلَتْ إليها دراسة المسيح . فالجهاز الفلسفيّ الذي عمل خلاله آباؤنا ، مع أنّه قيّم من وجهة معيّنة ، كان من وجهات أخرى ضرراً بالغاً . ربّما سَهَّلَ هذا الجهاز ، الالْتِواءات اللفظية والرياضية التي لَجأ إليها أصحابُ اللاهوت (الثالوثي) : ثلاثة كائنات إلهية لا تعني ثلاثة آلهة لأن المادة الإلهية التي يتقاسمونها كانت مبدئياً غير قابلة للتقسيم والتمييز(٤٣) . ومع ذلك في الوقت الذي تُسَهِّل الإدلاء بمثل هذه البيانات ، تمنع قيامَ تقييم ذي معنى لِظُهور الوَحْي الإلهي في يسوع ، وهذا هو أحَدُ أهَمّ العوامل التي سَبَّبَتْ نُمُوَّ اللاهوتِ الثالوثي من مبدئِه . فلقد كان من المستحيل الوصول إلى أجوبةٍ للأسئلة التي صاغوها في إطار الافتراضات المُسْبَقةِ . وليس عجيباً أن يُدْفَعَ آباءُ الكنيسة أنْفُسُهُم إلى الاعتراف بأن الطبيعة النهائية للإلهي وعلاقته مع العالم هي سِرٌّ غامِضٌ لا يمكن تفسيره بتعابير الفلسفة الإنسانية(٤٤) . وليس من الصِدْقِ لهذه النظرة أن يُعتَبَر لاهوتُهُم والفلسفة التي بُنِيَ عليها ، أشياءَ فوق حدود الزمان والمُسَاءَلة .

هل علينا ان نَشْعُر بالالتزام بنتائج التَطَوّر الذي كنّا نناقشه ؟ هل من الإيمان المسيحي أن يَرتَبِطَ بموقف في دراسة المسيح لم يكن أبداً مُرْضياً تماما ، وكان محددا ، بالتأكيد ، ببيئةٍ ثقافية معيّنة ؟ لا شَكَّ أنّ هناك قِسْماً كبيراً من اللاهوت الراديكالي – الجَذْري – المعاصر فَشَلَ في الإقناع بِسَبَب قِلّة الانتباه إلى الدوافع القويّة وراء المعارك المُرّةِ التي حَصَلَتْ في فترة سيطرة فكر آباء الكنيسة . فكثيراً ما رُكِّزَت الأضواء على ما دُعِي بالتصْنيفات المادية التي عفا عليها الزمن وانْتُقِدتْ دونَ تقدير للدوافع التي حَدَتْ بآباء الكنيسة آنذاك لتوضيح إيمانهم على المستوي الفكري بالأسلوب الذي اتبعوه . وتظهر الهرطقات القديمة باستمرار في ثوب عصري ، والجدير بالملاحظة أنها تُستَنْكَرُ لأسباب مماثلة . فَقَبْل ان توضَعَ الصِّيَغُ الماضِية جانباً، من الضروري وجود وَعْي وُدّيّ للاضطرار الديني الذي عَبّر عن نفسه بهذه الأشكال . فَصِيغَةُ التثليث والتَعْريفات في دراسة المسيح كانت نتيجة

(سؤال القَدَرِ للذَكَاءِ – Fides Quaerens Intelleetum)(★) ، وفي إطار عَصْرِها كانَتْ إنجازاً مَلْحُوظاً .

لذا ، مرّة ثانية .. لا أرغب أن أستنتج فقط استنتاجات سلبيّة من هذا المَسْح ، فكما رأينا ، من الحقائق البارزة ان يَشْعُر المسيحيون الأوائل أنّهم مضطرون ، عند مُواجَهَتِهِمْ ليسوع الناصري ، أو لِقصّته ، أنْ يستجيبوا باستعمال اكثر فأكثر للتصنيفات الأسطورية وفوق الطبيعيّة لتَصَوُّر طبيعته وأصله . من المهم أيضا الاعتراف أن الإحساس بالخلاص الذي وَصَلَهم عِبْرَهُ كان القوّة الدافعة لما جاؤوا به من صِيَغٍ فلسفية وعقيديّة كانت الحقيقة الديناميّة لتجربتهم التي حاولوا توضيحها ودَعْوَة مُعاصِريهم إليها . وليس بقبولنا للصِّيَغ التقليدية ككلام الله المُنْزَل الذي لا يُجادل فيه ، نَنْضَمُّ لِعُصْبة الشهود في الأناجيل وفي الكنيسة الباكرة ، ولكن بمصارعتنا لمشكلات التعبير الذكي في بيئتنا المعاصرة تكون شهادتنا للأثر المنقِذ للإيمان بيسوع الناصري .

٣ – شهادة شخصيّة

في أية محاولة لإعادة التفكير بالمعتقد عن المسيح يجب الاعتراف بأسبقيّة فِكرة الخلاص . فمعنى قصة يسوع المسيح تَوفُّرُ مفتاح الحياة ، الجواب للمثالية الأخلاقية للإنسان ، وقبل كل شيء تجلّي الإنخراط الإلهي في آلام وشرور العالم الذي انتقل – إلينا عبر إيمان أجيال ملتزمة بالكنيسة ومن خلال شهادة (العهد الجديد)؛ ولقد شُرِطت استجابتنا بالطريقة التقليدية للتعبير عن ذلك باصطلاح التجسّد . فإذا اقترحنا الآن أن هذه الرواية لَيْسَتْ مُرْضية تماماً ، يجب أن نكون مُنْصِفين بالنسبة لإيماننا ذاته ، ولِهويّتِنا كأعضاء في الكنيسة ، وشعورنا الذاتي

(★) الجملة هي باللغة اللاتينيّة وتعني الكلمة الأولى : القدر – Fides ، والثانية : يَسْأَل Quaerens ، والثالثة : الفكر أو الذكاء : Intellescteem .

بالخلاص عن طريق المسيح . لابُدّ من وجود نوْع من أنواع الدراسة عن شخص المسيح فيما يتعلق بالتعايش مع الشرور والآلام والخطايا عِبْرَ تأمُّلنا في قصة (الإله المصلوب) . هذه الاستجابة للصليب عُبِّرَ عنها بأسلوب ناقص تماماً في دراسة شخْصيّة المسيح التي قام بها آباء الكنيسة ، لأنّها بالتحديد ، كانت مربوطة بالفرضيات المُسْبَقَة الفلسفية لتلك الحقبة من الزمن . وإذا أعَدْنا فتح الموضوع الآن فالغاية هي ان نُمْسِكَ بِزِمَامِهِ بواقِعيَّة أكثر ونعرف كيف التقينا نحن ، مثل أجدادنا ، مع الله الذي ظهر في الإنسان يسوع .

عاش مسيحيّو الكنيسة الأوائل في عالم كانَتْ الأسباب (فوق الطبيعة) مقْبُولة فيه بدون سؤال ، والزوّار الإلهيُّون أو الروحيون لم يكونوا غير مُتَوَقَّعِين ، إلا أن هذه الافتراضات أصبحت غريبة بالنسبة لنا . ففي العالم الغربي سيطرت على الثقافة الشعبية وعلى ثقافة النخبة المتعلمة العلوم الطبيعة والإنسانية لدرجة أصبحت معها الأسباب والتدخلات (فوق الطبيعية)في أمور العالم،أشياء لا يُصدِّقُها غالبية الناس . والتحول في الفرضيات الشعبية حديث وبعيد المدى . ويمكن عَرْضُهُ من مصادر متعددة ؛ دعني أشير ببساطة لواقعة بارزة لَفَتَتْني حديثاً: (بنفينوتوسللّيني) أكْبَرُ صنّاع المعدن في عهد الإصلاح ، كتب مذكرات حياته التي تُظْهِرُهُ كَرَجُل دُنيا تماماً يهتم بمهنته وقليلا ما يهتم بالدين ، ومع ذلك فهو يعزو نَجاته من المشاجرات في الشوارع وعدم موتِه في المعارك إلى العِنايَة الإلهية أو حتّى للتدخل الإلهي المباشر . هذا الموقف مِنْ مِثْل هذا الرجل ، والأمر طبيعي في زَمَانِه ، شَيء لا يمكن تَصَوُّره الآن . وهذا لا يعني أن العالم اليوم يعيش بالضرورة ، أسلوباً آليّاً فجاً ، إلا ان المفترض مُسْبَقاً الآن هو النماذج المُنْتَظِمَة المتوقعة في السلوك في شتّى مناحي الحياة . لا مكان لله كمسبب للأشياء في حياتنا الصناعية والعالمية والخاصة ، لأن الإحصاء الاجتماعي والنماذج الطبيعية للأسباب والنتائج مُفترضة في علم الاجتماع وعلم النفس والطب وعلم التكوين الإرثي ، كما هو الحال في كل العلوم الطبيعيّة . ويُفَسَّر التاريخ عبْرَ عوامل سياسية وشخصية

واقتصادية وبُنْيَةُ السلطة الحاكمة . فلقد أحلت القوى السماوية مكانها للقوى الأرضية .
فماذا سيعني الإيمان بيسوع المسيح في هذه البيئة الثقافية ؟ هذا ، بالطبع ، ليس سؤالاً جديداً إلا أنني سأقدّم ببساطة ، طريقةَ تَناوُلٍ للمشكلة ، أرجو ان تتحاشي الاختزالية للاهوت الجَذْري المُؤَنْسَنْ ، دون أن يكون تأكيداً محافِظاً للنظرة القديمة . لأن إعادة مثل هذا التأكيد ليس فقط مكفوف البصر عن جدّية هذا الموضوع بل يميل إلى اتجاه اختزالي موازٍ بحيث يُجبر على استمرار دَفْع الله خارج الحدود التي كان يحتلّها سابقاً ، إلى فجواتٍ تزداد ضيقاً .

ودراسة شخص المسيح هي مجال من عدّة مجالات يمكن أن تظهر فيها الصعوبات . كان يسوع حتماً جزءاً من تاريخ العالم ووارثاً لروابط إرثيّة تكوينيّة طبيعيّة في نَسْل البشر(٤٥) . ولا يُسْعِدُنَا الاستنجاد بحديثٍ فوق الطبيعي في مجال فَهْمِنا للبشرية والتاريخ البشري . لا يمكن ليسوع أن يكون بشراً حقيقياً ، وفي نفس الوقت ، فريداً بمعني مغاير لفرادةِ كُلّ مِنا كأفراد من البشر . وعقيدة تجسّد بالمعني الحرفي ، مهما كان التعبير عنها مُعَقَّدَ الشَّكْل ، لا تستطيع تحاشي عُنْصر الدوسيتيّة – Docetism ، وتَوَرُّطَ المؤمن في آدعاءات « الفرادة » التي تبدو مباشرة غير معقولة للأغلبية من معاصرينا . ودراسة شخص المسيح ليست هي وحدها التي تأثّرت بهذه المشكلة ؛ فَمِثْل الآباء ، نَجدُ نَحْنُ أنّ مشكلة دراسة المسيح لها علاقة حميمة بالمشكلة الأكثر عموميّة عن علاقة الله بالعالم . وقُبُولُنا لرواية التَوْراة عن تَعامُل الله مَع شعْبِ إسرائيل يخلق لنا مشاكل موازية – هذا إنْ لم نَذْكُرْ حقيقة أن الاعتقاد بالقدرة والعناية الإلهيّة في عصرنا هَذا ، كثيراً مايُشَكُّ فيه إلى حدّ أن الإيمان والصلاة يبدوان غير ذى معنى وغير ذي موضوع . وبكلمات أخرى ، المناخ الحاضر غريب عن الموقف المسيحي الكُلّي كما أُدْرِكَ تقليدياً .

ومع ذلك فكثير منّا لازالوا مسيحيين مؤمنين . وإذا ألقينا نظرة إلى الوراء

عبر السنين نتبيّن عناية الله بِنَا في الصُّدَفِ البارزة والحُظوظِ المُبْدِعَة في حياتنا . وعندما نواجه صعوبات أو أزمات نتوجّه طبيعيّاً إلى الصلاة . وفي لحظات السُّرور نَشْكُر الله بصورة فِطْرية، وكلّ نهار أحد نحْمل أنفسنا إلى أماكِن حيثُ يُساعدنا المؤمنون الآخرون في تمجيد الله وعبادة الله الذي نَدَّعِي أنّه خالق وحافظ هذا الكون . ونعترف بِخَطايانا ونَقْبل العَفْو باسم يسوع المسيح ؛ ونُصَارِعُ الشَّر والآلام بِقوّة « السيد » . ونقدم الوساطة والشفاعة للمريض ونُصَلّي في مواقف الخُصُوماتِ السياسية والحرب . ولا يمكن اعتبار أيٍّ من هذه النشاطات منطقية حيث تبدو غير متماسكةٍ وغير مُتَنَاسبة مع افتراضاتنا الأساسية عن العالم الذي نَعيش فيه .

كيف نَسْتَمِرُّ في العيش إذنْ على هذه الوتيرة ؟ هل نحن مصابون كُلنّا بمرض آنفِصَامِ الشَخْصيّة – السكيزُوفرينيا – ؟ أنا أظن ان العديد منّا .. هم كذلك ، وفي أغلب الأحيان لا نَبْذُل إلاّ جَهْداً حقيقياً صغيراً جداً لِضَمّ فِكرَتَيْن عالميّتَيْن يجب أن يكونا متّصلتين بطريقة ما ، ومع ذلك تبدُوان غير متناسبتين ؛ واللاهوت الذي يحاول فَصْل الاثنين يُواجَه بالنقد لأنّه اختزالى . إنهم يُضيقون مجالات لحياتنا حيث الإيمان هامٌّ وضرورى برسْمِ الأجزاء التي يمكن ان تُوكَل إلى كلّ وجهة نظَر من الاثنتين ، مع أننا نَشْعر أنّ حياتنا ككل ، تخصُّ كل واحدةٍ منهما . وتقسيم الحياة على متصورات مُنْفَصِلة أمر غير ممكن عمليّاً . لذانجد أنفسنا نعيش ونَفْهم الأشياء على مستويَيْن مختلفين في نفس الوقت . نتوقع أن يجرى العالم حَسَبْ نماذج معلومة من أسباب ونتائج ولكننا نعتقد أن الله يتدخّل ، في مكان ما ، في الأمر كلّه .

ما نفعله هو غريزى . وعندما نَعْرِضهُ هكذا يبدو غير منطقي ، ولكن بالتأكيد ليس هو الموقف الوحيد الذي نجد فيه أنفسنا مُجْبرين على التعايش مع متناقضات غير محلولة ، أو تحليلات وَقْتيّة غير مُرْضية . حتّى العلم نفسه له متعارضاته الظاهرة فعندما يُفسرُ عالم نتائج تجاربه يبدأ باستعمال (نماذج) ، مثلا

يقول : لنفرض أنّ الإلكترون هو ذرّة ويُحسَبُ سلوكها كما لو كانت (كرة مضرْب) صغيرة جدّاً . ويُشكِّل هذا النموذج أكثر معطياته ، ولكنّه يصل إلى نقطة لا تناسب توقّعاته الرياضيّة ماظَهَرَ من دليل، فيضطرّ إلى البحث عن نموذج مَكمِّل ويحسب سلوك الالكترونات على أساس أنها موجات . ونموذج الموجات يَحلّ محلّ نموذج الذرات لأنه فَهْم أعمق لكيفية سلوك الإلكترونات مع أنه أقلّ صلاحاً في أغلب الحالات . ولقد أعطَيْتُ هذا المثل لأشير إلى ما عنيته بكلمة (نموذج) . ومن أجْل أهدافنا ، النقطة الهامّة هي أنه كان هناك حالات ، مثلاً في الفيزياء النووية حيث آستُعْمل نموذجان في نفس الوقت مع أنه من الصعب رؤية تناسبهما الواحد للآخر . فكل نموذج يفشل في التوقّع الدقيق لكل مايجده الفيزيائي ، ويجبر هذا الأخير بعد ذلك لاستعمال تعريفين مختلفين ولغتين رياضيّتَيْن مختلفتَيْن كل واحدة منهما دقيقة إلى حدّ معيّن ولكنهما على انفراد غير قادرتَيْن على وصْف جماع الصورة المعقّدة الناتجة عن معطيات التجربة . ربّما بتَقَدُّم الفَهْم يمكن لهذين النموذجين غير المتناسبين أن ينْسَحِبَا أمام نموذج أكثر دقّة وعمقاً يحِلُّ قِسْماً أكبر من التعقيدات ؛ ولكن حتّى ذلك الحين يعمل الفيزيائي في نفس الوقت بالنموذجين غير المتوافقين بصورة ظاهرة .

وما أريد اقتراحه هو أننا عندما ننتقل من المستوى التّافِه إلى المستوى المفْجع ، على حدّ تعبير (آرثر كِسْتْلر)(٤٦) ، وعندما نترك الأحداث اليوميه للتأمّل على مستوى أعمق مغزى للحياة الإنسانية ، من غير العادي لنا أن نبدأ في نفس الوقت بنماذج مُختلفة ، أحدهما يمكن إيقافه مُؤقتاً في أية لحظة معيّنة دون ان نرفضه . وعند التفكير بطبيعة الإنسان وقَدَرِه ، بخاصة كما ظهر في الأدب والدراما نقبل أصنافاً من « الحقيقة » نُحَمِّلُها أيّ معنى حرْفي وواقعي أو علمي . نقبل أنّ (تِس – Tess) كان لعبة رئيس « الخالدين » لأنّنا نعْترف ان هذا الأسلوب المجازى من الكلام يقول شيئاً عميق الحقيقة عن الحالة الإنسانية .

وهكذا يعيش المسيحي المؤمن أكثر من بُعْدٍ واحدٍ . ففي محاولته فَهْم العالم الذي يعيش فيه ، يجد نفسه مُجبراً على استعمال نماذج مختلفة ، غير متناسبة في الظاهر ؛ وكل نموذج له مناسبته واكتفاؤه الذاتي حتى نقطة معيّنة ، ولكن ليس هناك نمُوذج واحد يُمثل لوحده جماع الواقع المعقّد الذي ندركه ؛ وفي حالتنا الحاضرة من المعرفة، من المستحيل ان نرى كيف ستتناسب النماذج مَعاً في النهاية . وكما قال (بولص) في موضوع مختلف تماما ، « الآن اعرف جزئيّاً ... وبعد ذلك سأفهم .. الكُلّ » .

وكمسيحيين مُؤمِنين نحن نعمل إذن :

١ - بالنموذج العلمي الذي يجد تفسيرات للعوارض والسلوك والأحداث على أساس العوامل الطبيعيّة .

٢ - وما يُمكنُنا وصْفه فقط بالنماذج الأسطورية أو الرمزية هي النماذج التي ، مهما كان نَقْصُها ، تُمَثِّل الأبعاد الدينية والروحيّة من تجربَتنا . وتسمية هذه النماذج (أسطورية) ليس لتلطيخها ولكن للإشارة إلى أنها تعني حقائق لَيْسَتْ فقط بعيدة عن متناول الطُّرق العادية للبحث العلمي ولكنّها أيضاً غير قابلة للتعريف بتعابير لغة البشر ، وفي كُلّيتها - أي هذه الحقائق - لا تُدرَك في إطار القدرات المحدودة وتجارُب العقل البشري المحدود . وبينما يمكن توقّع النموذج العلمي إلى حدٍّ كبير ، فهو منطقي متماسك ومفهوم مبدئياً (رغم عدم تمكّننا جميعاً من معرفة متساوية فمُختلف الأخصائيين يعرفون أجزاء مختلفة منه) ، ليس هناك نموذج أسطوري واحد بل مجموعة من مُقارنات وصور وتَلَمُّسات مختلفة قد تبدو هي نفسها غير متناسبة فيما بينها ؛ ولأناسٍ مختلفين، نماذج أسطورية مختلفة . وهذا النوع من الحقيقة يُنقل - أو حتّى يُدْرَك - بشكلٍ شعري ودراميٍّ . ومن الصعب جدّا صياغة مقاييس ومواصفات . وهذا شيء محتمل الحدوث لأن كل لغةٍ عن الله هي من باب التشبيه ، إنّها التعبير عن المجهول والذي لا يمكن التعبير

عنه بصيغ المعلوم . ولنأخذ أبسط الأمثلة : ليس الله « أبانا » .. بالحَرف وليس « شخْصاً » بالمعنى الحرفي . ومن المستحيل إدراك السَمُوّ والحلول وكُليّة الوجود لشخْصٍ مِثل الأشخاص الذين نَعْرِفُهُم ، ومع ذلك فهذه الصفات أساسية في فَهْمِنا لله بصورةٍ أفضل من صورة « والد في السماء » . قد يكون لله صفات مشتركة مع أب أو شخص يجعل للتشبيه معنى ، ولكن يُحتمل في كل نموذج ان يكون « حقيقةً شِعْريّة » أو « حقيقة أسطورية » اكثر مِمّا هو حقيقة حرفية .

وفي ضوء هذا البحث .. كيف أُعَبِّرُ في البيئة المعاصرة، عن شهادتي الشخصية في الأثر المُنْقذ للإيمان يسوع الناصري ؟ الخلاص والفداء هما لُبّ الرسالة المسيحية . وبالنسبة لي تجربة الألم والخطيئة والتفسّخ والانحراف كأجزاء من بنْية العالم كلها، تجعل الإيمان بالله مستحيلا دون الأسطورة الدينيّة التي تَتمحْور حول (المذبح) . أنا أستطيع رؤية الله فقط داخلًا ظُلُمات العذاب البشري والشر، في مخلوقاته ؛ ومعرفتها حقّاً على ماهي عليه ومواجهتها بالانْتصار عليها ، بذلك أستطيع قبول نظرة دينيّة للعالم . وبدون البُعْد الديني تكون الحياة بدون معنى ، ولا فائدة من احتمال قَسْوَتِها؛ ومع ذلك فبدون الصليب يكون من المستحيل الإيمان بالله ؛ فالإيمان يستدْعي عقيدة الفداء ، والفداء يعني الاقتناع بان الله واجَهَ ، بطريقة ما ، الشرّ والخطايا بالتمّرد ، وأنّ على الصليب ... دخل الله عن طريق المسيح ، العذابَ والشرَّ والخطيئة في هذا العالم . دخل الظلام وحَوَّلَه إلى ضياء وإلى انتصار متوهّج ، وان الله نفسه حمَّل نفسه مسؤولية وجود الشر في خلقه ، وأنه تحمَّل أله وذنْبه قابلا بنتائجهما على نفسه ؛ وأنّه في حُبّه صَالَح قداستَه مع بشريِّةٍ خطّاءةٍ فاسدة مُبرّراً غَيْرَ الإلهي، وراضياً بالإنسان كما هو . ومع ذلك ، فَقَوْلُ مِثْل هذه الأشياء يستدعي استعمال لغة شعرية أو بشريّة الشكل أو أسطورية ، ولا يستدعي استنتاجاً لاهوتِيّا مبنيّاً على جدلٍ مَنْطقي .

وعلى كل حال مهما كان وَضْع اللغة ، إذا كان لمثل هذا الايمان أيّةأرضيّة، يبدو للوهلة الأولى ، أنه مطلوب الاستنتاج أن يَسُوعاً على الصليب كان

« الله » ؛ وبكلمة أخرى يبدو أن هذا يُجبرني على العودة إلى نوع من عقيدة « تَجَسُّدٍ حرْفي » سَبَقَ أنْ رفَضْتُها على أساس أنها « دوسيتيّة » ، والسؤال هو : هل تتوقف أسطورتي عن كوْنها حقيقيّة إذا وَجَدْتُ أنّه من المستحيل - فكرياً - إقامة المعادلة االأنتولوجية ؟ يسوع = الله ؟ غالبا ما يُجادَلُ ، وفي الأغلب يُفترض أن هذا هو الواقع ، ولكنْ هل الأمر كذلك ؟ هناك على ما أظن أسباب وجيهة للتفكير بأن الأمر ليس كذلك .

١ - المعادلة البسيطة : يسوع = الله ، لَيْسَتْ فقط فاشلة في تمثيل ما تدّعيه التقاليد المسيحية ، بل شاذّةً بِشَكْلٍ واضح . فاختصار « كُليّة الله » إلى تجسُّد بشريّ أمر لا يمكن تصوّرُه حقاً ؛ وهذه حقيقة كانت عقيدة التثليث آستجابةً تقليديَّةَ لها . فوَضْع كل لغةٍ عن الله ، كما أشَرْنا سابقاً ، هو وضْعٌ خاص . والمعادلة البسيطة لا تستطيع إلا بلبلة النموذجَيْن اللذين علينا ان نعْمل من خلالهما كما آقْتَرَحْتُ ؛ وبكلمةٍ أخرى إنّها تُحوّلُ « أسطورتي » إلى عِلْم . وبلبلةٌ موازية تماما تساعد في عَرْضٍ هذه النقطة في فترة الإصلاح الديني آسْتَعَرتْ المُشَادّات حول الطريقة الدقيقة التي بها يكون القربان المقدّس - الخبز والنبيذ جسمَ ودَمَ يَسوع المسيح . الوُجْهة الأولى أرادتْ تناول هذا الموضوع على أساس رَمْزي ، والوجْهة الأخرى .. على أساس حرفي . ولقد قُدِّمت رواية عن المعنى الحرفي على أساس « العلم » في تِلْك الفترة من الزمن : المادّة المُشَكِّلةُ - أي الخبز والنبيذ - أصْبَحَت الجسم والدم للمسيح بينما « الحوادث » ..بقيت خبزاً ونبيذاً .. ومثل هذا التفسير للمعنى الحرفي لا يُبْقى له أيّة قيمة عندما نُفكّر ليس بأسلوب المادة والحوادث بل بالذرّة والجُزيْء والإلكترونات والنُّوى . وسبب كل هذه المناظرة هو في البلبلة الحاصلة . بين « الأسطورة » و« العلم » . وان الخبز والنبيذ بالمعنى الحقيقي يُمثّلان الجسم والدم ، وهو ما يهمُّ التقاليد المسيحية أن تؤكّده ، ولكن لَن يفيد هذا آلاهتمام رَبْطُهُ بطريقةٍ حرفية أو علميّة للتعبير عنه ؛ فعندما يُصبح العلم غير ذي موضوع تُصبحُ الأسطورة في خَطَرٍ .

٢ – استعملت تعبيراً ميثولوجياً – أسطوريا – لعدّة أسباب منها أنها قصّة تَطرحُ موضوع الله بأسلوب بشريّ الشكل (Anthropomorphic)؛ وبأسلوب نفسيّ إنْ لم يكن ماديّاً ؛ وقد تكون هذه مقارنة مناسبة تُعبّر – بالقَدْر المستطاع – عَمّا نريد أن نقوله عن الله، ولكنّها لا محالة ناقصة ، وبالتأكيد ليست حقيقة بالمعنى الحرفي . ولكن إذا لم نَقْبَلْها بعد الآن كحقيقة حرفيّة هل تُصْبح القصّة بلا معنى ؟ رَبّما وجدْنا الجواب إذا عرضْنا أمثلة أخرى . فقصة آدم تبْقى ذات معنى مع أنني أوافق على أنه من غير المحتمل إلى حدّ بعيد ان آدم وُجدَ أصلاً، وان كل البشر هم من نَسْل أبٍ واحد ؛ وقصّة (بِرْليوز) (Grande messe des morts) تُجرِمُ وتُرْعِبُ، مع أنّني لا أقبل، بعد الآن، المعنى الحرفي لصورة المحكمة السماوية بعد الموت . وبمعنىً آخر هناك مجالات عدّة يستعمل فيها المسيحيون عادة قصصاً كان يُعْتَقد في الماضي أنّها حقيقة ولكن ليس الأمر كذلك الآن . و« الأسطورة » تبقى استحضاريّة، وتَنقل « حقيقة » على مستوى أبعد من المعنى الحرفي فقط .

٣ – والحقيقة في أسطورتي يمكن تلخيصها تقريباً بالقول إنه يجب فَهْم الله على أساس أنه الله المتألم، على الأقلّ بنفس المعنى الذي يمكننا الحديث عنه أنه مُحِبّ . كيف يمكنني حقّاً ان أعرف فيما إذا كان الله يُقاسِمُني حُزْني وألمي ، وصراعي مع الإغراء والغواية والشر والخطيئة ، وان حزْنه وألمه من الشرّ في مَخْلوقاته هو أكثر عمقاً من دموعي التي تتركّز عليّ فقط عند مواجهتي لمصاعِبي ؟ بالتأكيد سأقتنع بذلك وليس من حادثة فردية معزولة في الغالب، بل بالتجارب المتكرِّرة في حقيقة أن المتألمين الأبرياء والشهداء الذين يتحملون سوء معاملة الناس بالتسامح ، لهم صفات مماثلة لصفات الله .. من نَوْعٍ مُتَحَوِّل . وبتكرار التجربة في حقيقة أن الذي يُسَلّمُ أمْرَه لله، رغم الغباء وعدم الأهميّة البادِيَيْن في مثل هذا الموقف ، والذي يرفض أن يهرب من الشر أو يُقابله بشرّ أشد ، يستطيع تحويل الظلام إلى ضياء ؛ ومن تكرار التجربة في حقيقة أن الحب الحقيقي

يُوَرِّط الشَخْص في الألم سواء أحبَّ ذلك أمْ لم يُحِبّ . ويبدو بعد ذلك أن الأمر هو جزء من تركيب العالم والذي يكْشفُ،بِمعنى ما للمؤمن ، اللّه الذي خلقه والذي تعهَّده .

ويتحدث سِفرُ دانيال عن آلام اليهود المضطهدين في فترة حياة المؤلف نفسه إلا ان كلماته يمكن أخْذُها - كما فعل الاسرائيليون - كنبوءة لآلام اليهود في عَهْد هِتلر ؛ أو يمكن أخذها - كما فعل المسيحيون (تقليديّا)، كنبوءة لآلام يسوع . ومن المؤكد انه لا حاجة لتحديد انطباقها فقط على أيّ من هذه الأحداث والإنجازات . من المحتمل ، إنْ لم يكن واقعاً إن ما عُبّر عنه هنا هو نظرة نافذة عالمية في آلام المؤمنين بالله . الآلام التي تروي آلام الله . ولقد أُلمِح إلى هذه النظرة في أماكن كثيرة من الوثائق التوارتية ، في تجربة (جيريميا) وشِعْر (قُزحَيا٥٣)؛ إنها آلام يُطلب من الحواريين المسيحيين أن يتقاسموها . ويسوع ليس الدليل الوحيد لآلام الله(٤٧) .

ولكنه صحيح ، طبعاً ، إن التقاليد المسيحية رأت في هذه الحقيقة عن الله أن أسمى شاهد لها هو في آلام المسيح على الصليب ؛ ومن المشْكوك فيه أن يُنظَر إلى الأمثلة الأخرى بنفس الضوء، بدون قصة يسوع . واستجاب الحواريون لِموته واعتبروه أعظم آلام الشهيد ، التضحية التامة الكاملة الكافية لخطايا العالم كله . وهكذا تَرَكَّز انتباهنا على القِصّة المركزية التي تُوفّر للمسيحيين المؤمنين الإلهام بأنّ نشاط الله في الإنقاذ ، وحبَّ الله لمخلوقاته أشركاه في آلام وشرور العالم وأشركاه بطريقة ، هي على نَحْو ما، حقيقة؛ ولو أنّه لا يمكن إدراكها خارج إطار التشبيه المقارن ولا التعبير عنها خارج إطار الأسطورة .

وهكذا أرى نفسي مدفوعةً لرواية قصّتين للتفكير في إطار النموذجين ، اللذين لا يتوافقان معاً بالمعنى الحرفي ؛ أو يُحَدَّدان الواحد بالنسبة للآخر ، ولكنْ ، بمعنىً معيّن ، يعكِسان مَعاًالنموذج العلمي للعالم الذي فَرَضَتْه عليَّ

ثقافتي ، والنموذج الأسطوري الذي لا يستطيع إيماني الديني الهروب منه :

(ا) قصّة رجل كان نموذجا مثاليا للمؤمن الذي عاش مُسَلِّماً أمْره لله وقَبِلَ النتائج المُرّة لِغباءِ مِثْلِ هذا العيش وفَشَلِه المحتوم .

(ب) قصّة الله في آنغماسه بواقع الوجود الإنساني مع كل ما فيه من شبهات وظنون ، وغواية وعذاب وألم وظلم وقسْوة ... وموت(48) . لم يهرب منها ولم يَدَّعِ أنّ كل ذلك غير موجود بَلْ حوّل ظلامها إلى ضياء مُظْهِراً أنّه يتحمل مسؤولية كل ما يبدو باطلاً في العالم الذي خلقه(49) .

هاتان القِصّتان مَعاً تُوفّران لي التحدي بالتسليم لله في مواجهة أية عوائق، والالتحاق بالعمل المكلَّف بتحويل الظلام إلى ضياء ، وبالتأكيد على أنّ الله يَستَحِق التسليم له ويُقاسمنى المعركة والنصْر . هذه دراسة لِشخْصيةالمسيح يُمْكنها أنْ تنجح ، ليست غير مَعقولة فيما يتعلّق بأن يسُوعاً هو بشر حقيقي في الإطار الإنساني؛ وهي دراسة تسمو على حدود الفهم البشري وتسمح باللغز والإبهام في موضوع الاعتقاد بالله .

لذا أجد نفسي قادرةً على القول : « أرى الله في يسوع » و« كان الله في المسيح مصالحة بينه وبين العالم »؛ وغير ذلك من هذه البيانات التقليديّة دون أنْ نُفسِّرها بالضرورة في إطار تَجسُّدٍ حرفيٍّ . أنا أجد الخلاص في المسيح لأنّ فيه ... ظهر الله لي كإلهٍ يتألم . لم يَظْهَرْ الله فقط فيه ولا كان الوحي المُلهم محصوراً « بزمن التوراة »،إلا ان يسوعاً هو الرؤية السامية التي فتحت عيوني على الله في الحاضر، ومع أنه لا زال بشراً عاش في وضع تاريخي معّين، فَسَيبقى دائما البؤرة الفريدة لإدراك الله والاستجابة له .

٤ - استنتاج

إذا قَبِلْنا بأولويّة موضوع الخلاص لا بُدّ من أن نفتح البَوّابات للعديد من دراسات المسيح بدلاً عن الإلحاح على دراسة واحدة بعينها حيث يُتوقّع الجميع قبولها. ليس هناك أي إيحاء بأن تناولنا للموضوع في الجزء السابق سيكون ذا مغزى أو مقبولاً من الجميع . فالإيمان الأصيل بيسوع المسيح لا يحمل نفس الشكل عند كل المؤمنين . فالقليل من تاريخ اللاهوت يكشف لنا بسرعة هذا الأمر وهو أيضا صحيح في الكنيسة اليوم . أنا لا أشير ببساطة إلى عارض (اللاهوت الأسود) ، أو للاختلافات البيّنة بين أساليب التعبير عن المعتقد المسيحي في مختلف الثقافات والفنون الخ ، فهذا صحيح بالنسبة لأية (ابرشيّة) متوسطة . هناك عدد لا بأس به من المسيحيين المُتَبَقّين الذين يستمِرّون في الاعتقاد بما عُلموا وهم أطفال ومراهقون ؛ ولكن هناك أفراد يتزايدون باطراد (من الذين لم يَتّبعوا الإيمان) يجنحون - أو ينحرفون - بتأثير ضغوط هذا العصر غير المُتدين . وهناك كُتل من المسيحيين الذين يدّعون أنهم مرّوا بتجارب التحوُّل إلى الإيمان وهي - أيْ التجارب - واضحة التشابه ، وتؤكد معتقداتٍ ضيّقة مُعيّنة على أساس أنّها هي المسيحيّة الحقيقيّة ؛ وفي كل حالة يَسْلُك أتباعِها نموذجاً معيّناً - نفسيّاً وفكريّاً - ولكن ، إذا وضَعْنا هذه الحالات الشاذّة جانباً ، هناك في أيّة (أبرشية) متوسطة، العديد من الاستجابات المختلفة ليسوع المسيح توازي عدد الاختلافات في بصمات الأصابع . ومركز الثقل في إيمان كل فرد يختلف حتّى ولو اْستُعْمِلَتْ لغة ملتزمة في وصف هذا الإيمان .

ولا مجال، بالتأكيد ، للإنكار أن الاعتراف الأمين بهذه الحقيقة قد يكون خطوة إيجابية في هذا العصر المسكوني - التديّني -. وشعار« الوحدة .. وليس التماثل » يجب ان يُطَبّق على ما يُسمّى (بالعوامل اللاهوتية) . واختصار أي إيمان حتّى بجَعْلِهِ مجموعة تعاريف واقتراحات يُعَرِضُهُ للتشويه . ومحاولات إنتاج

معتقدات هي ، لامحالة ، قاسِمةٌ ومشْبوهة . وقَّع (اوزوبيوس قيصرية) على معتقد مجمع ((نيقيّا) في سبيل وحدة الكنيسة ، ولكنّه كان بوضوح مُخْرَجاً فيما فعل . ولسنا بحاجة لمعتقدات جديدة بل لانفتاح جديد يسمح بتَعَدد طُرق الاستجابة وتوضيح هذه الاستجابة . وربّما لا تبدو هذه الطرق متماسكة وربما كان عليها أن تتعايش في توتّر وتناقض ؛ ولكن لا حاجة بها لِتَبادُل إصدار الأحكام، الواحدة منها على الأخرى . وحتّى في أوقات الاحتكاك، يمكنها ان تُوفِّر طريقة قيّمة من النقْد المتبادل . ويجب ألا تُعْتبر أي منها أنها « هي الحقيقة » وأنّها أبعد عن متناول النقاش الناقِد .

قد يكون هناك عدّة اعتراضات على هذا الموقف :

(ا) بأيّة خصائص ومقاييس يمكننا ان نعرف ونحدد االارثوذوكسية أو الهرطقة إذا تخليْنا عن التعريف العقيدى ؟ وأنا أوجّه لهذا السؤال سؤالاً مُضاداً : إلى أيّ مدى علينا التمييز بين الأرثوذوكسية والهرطقة . « صيادُو » الهرْطقة أساؤوا دائما أكثر مما أحسنوا ولازال لِتَعَصُّب الماضي حصادُه المحْزن . والتعصب في التمسُّك بالحقيقة أمر قاسم مُفرِّق . نحن نحتاج لتحْطيم الحواجز وليس لِبِنَائها . ومن العجرفة الروحية الاقتناع بأنّنا نملك الحقيقة وكل الآخرين مُضلَّلُون . نريد اليوم ان نكون أحْراراً في مَدْح يسوع كَمُنْقذ، دون مواقف مؤذية للآخرين والتي تلازم الادعاءات المتعجْرِفة والدوغماتية – المواقف الجازمة في العقيدة–؛ والأسئلة التي يجب علينا ان نطرحها ، بالتأكيد ، هي :

(ا) ماهي (الأساطير) أو ادّعاءات الحقيقة الخَطرة أو المُضِرة – بدل ان تكون شافية وبنّاءة–؟ هذا المقياس يَستَبعد الكثير ممّا آعْتبر «أرْثوذُوكسية» في الماضي ، ولكنه يُرحّب بأية نظرة إيجابية وأيّة إشارة للمصالحة بين الناس .

(ب) اذا كان لكل واحد منّا دراسته للمسيح كيف يمكن وجود أسس حقيقية أو أنتولوجيّة لتبرير ذلك ؟ وأشير إلى أنّ بَعْض الاستجابات على هذا

التساؤل وردت في الجزء السابق ، و بالإضافة إلى ما قيل أضيفُ هنا نقطتين :

(ا) الاستجابة ليسوع كمنقذ ومسيح ليست شيئاً نقوم به بِمعْزل عن التقاليد ؛ الواقع ان كل إيمان فرْدى مُتطفّل على إيمان الآخرين أولاً ، وفي النهاية على استجابة حواريّ يسوع . هناك إذن أرضيّة مُشتركة لاستجابتنا ويجب ان يكون لهذه الأرضية أساس منطقي . ولا يمكن لشهادة العهد الجديد أن تكون بعيدة كُليّاً عن نوع الشخصية التى كانها يسوع : فمثلا اقتراح (بْرنْدُوْنْ) (٥٠)أن يسوعاً كان حقّاً وطَنِيّاً ، لازم عنْ قُرْب حركةَ الفدائيين المُتعصبّين... ، لا يَصْلُحُ أيْ -الاقتراح- لأنّه فشل تماماً في تَعليل الإيمان المسيحي ، وتأكيده على حُبّ المُضحّي بالنفس ... الحب حتّى للأعداء .ومهما كانَتْ إعادة بناء التاريخ معقّدَة لابُدّ وأنّ شيئاً ما، كان عن يسوع ، والذي يُوضّحُ الاستجابة، حيث رأى فيه كل تابع له الجوابَ لحاجاته العميقة وادّعى - كُلّ تابع له - أنّه يرى الله ظاهراً فيه .

(ب) ماذا يَعني المسيح بالنسبة لي ؟ هذا السؤال يُثير عادة في المسيحيّ المؤمن نوعاً من الادعاء بأن الله « ظهر » فيه . وما نُريد أنْ نقولَهُ هو : هو بالنسبة لي ... كما لو أنّه الله . والسؤال هو كيف يُمكِننا أنْ نُعبّر لفظيّاً عن هذا المعنى ؟ وهل هناك أي ضَير إذا عبَّرنا عنه بطُرُق مختلفة متعددة ؟ لستُ متأكِدَةَ من أنّ هناك ما يُضير ، وليست هي المرّة الأولى التى أرْجع فيها إلى حقيقة أنّه عندما نتكلم عن الله نُدخل لِوَضْعِنا مَجهولاً ... أو مَعْلوماً فقط بطريقة غائمة . وكل شيءٍ نقوله يدْخل في عالم التشابيه المقارنة التي هي (نِصْف مُناسِبة) لو كُنّا نعيش على أرضٍ بها بُعْدان فقط، يمكنُنا معاناة أشياء مثلثة الأبعاد بصيغ ثنائية البُعد، لنفرض أنّنا وَجدْنا (منفضة سجائر) دائريّة الشكل : نتعرف على قاعدتها كدائرة ، وعلى جانِبها ، إذا قُلِبَتْ كَخَطٍّ . قد نَعي عِدّة وُجهات مختلفة منها إذا ما أُسقطت على سطْحنَا الثنائى الأبعاد . وكل هذه التجارب المختلفة ربّما تُوحي لنا انّ المْنفضَة المثلثة الأبعاد هي أكثر تعقيداً وغموضاً مما أدْرَكْناهُ فيها، ولكنّنا لا نستطيع ان نراها أو حتّى ان نتصورها بواقعية ؛ يمكننا فقط وَصْف بَعض

صِفاتها التي تظهر لنا على الأغلب غير متجانسة . والرياضيّ الذى يُحاول بناء أو تَصَوُّر حاجة ذات أربعة أبعادٍ لا يختلف عن المُتَدَيّن في تصوُّره لحقيقةٍ مُركّبَةٍ لا يمكن اذْراكها ككلٍ في حدود تجربتنا الحاضرة . نحن نميل لمحاولة وَصْف (المجهول) بتعابير (المعلوم) ، وفعلاً، مُعاناةُ (الماوراء) بتعابير (الحاضر هُنا) ، ولكنّ ذلك يَتْرك مناطق غامضة حيث نظن أننا ربّما نتصوّر شيئاً ولكنّنا لا نستطيع الإمساك به تماماً . كل بيان عن الله هو ناقص لا محالة ، ويُعَبِّر عن واحد من عديد التصورات الممكنة لحقيقته ، وربما التعبير المتعدّد الأوجه هو الطريق الوحيد الذي نستطيع من خلاله أن نتصوَّر غبشاً أعماق الغِني في ما وراء ذلك . لذا إذا قُلْنا (إن الله ظهر فى يسوع) يُمكن أنْ نتصوَّر أوجهاً مختلفة ؛ لذا فتنوُّع دراسات المسيح أمرٌ لا بد منه لطبيعة الموضوع نفسه . والاعتراف بذلك لا يمكِنُه إلا مساعدة وإغناء وتعميق لَاهوُتِنا .

(ج) هل من الممكن تأمين (فرادةِ) و (نهائيةِ) المسيح إذا تخلّينا عن اتجاه واضح.حازم ؟ يجب ان يكون بَيّناً من ملاحظات ذُكرتْ آنفاً أنني أشك فيما إذا كان هناك أية ضرورة لتأمين ذلك بالمعني الأكاديمي لعلم دراسة الكائنات – Ontology – ، بل ربّما كان هذا مُضِرّاً . فالحقيقة عن العالم لَيْست موجودة في هذه الأيام ، في شواذ معيّنة فريدة، ولكن في مُعدّلات إحصائية؛ والعديد من الشواهد اكثر إقناعاً من واحد . وعلى مستوى العالم شهادة أنبياء مختلفين وايمانات مختلفة عن (الماوراء) أمر أهم لكلّ الديانات من الإدعاءات الخاصة المقصورة على كُلّ واحدة منها . طبعا ، بالنسبة لكُتّاب الأناجيل وللكنيسة ولجميع المسيحين المؤمنين يحظىَ يسوع المسيح بمركز فريد دون شك . وليس هناك ، لغيره ، دور مُمَاثل للإيمان . ولكن بالنسبة لغير المسيحيين ، ألم يُصبح الأمر متزايد الصعوبة في الإصرار على أنّ الإيمان بالمسيح أمر حيويّ لا غني عنه في سبيل الخلاص ؟ وفكرة نهائية المسيح متعلّقة بالتأكيد بافتراضات مُسْبقةٍ لِفلْسفة الحشر والنشر للكنيسة الأولية ؛ افتراضات مُسبقة

كانت مركزية وأساسية بالنسبة لهم،ولكن لا يمكننا نحن القيام بذلك إلا بنوع من الأشكال التي أُزيلَتْ منها الأسطورة ، وداخل تيار ثقافي واحد ؛ وفي إطار التقاليد الأوروبيّة « اليهودية والمسيحية » يمكن قيام نوع من تبرير لرؤية المسيح كنوع من (الحجر القنطرة) للنمو الديني في العالم القديم الذي كان القمّة الروحية للفلسفة اليونانية - الهِلِّينيه -والتى حَدَّدَتْ الثقافة الدينيه لأوروبا فيما بعد . ولكن الادّعاء ان يسوعاً له نفس المعنى النهائي بالنسبة للبشرية كُلّها دون اعتبار لزمان أو مكان أو ثقافة ، فهو بالتأكيد ، أمْرٌ غير واقعي .

(د) إذا سَمَحْنا لدراستنا للمسيح أنْ تُصْبح غير مُحدَدّة المعالم ، كيف نستطيع ان نتمسَّك بعقيدة التثْليث في الله ؟ يجب الاعتراف بأنّ نموّ لاهوت التّثْليث كان مُرْتَبطاً بأسلوب حميم بدراسة المسيح الكنسيّة - ولو أنّه لم يَقْتَصر عليها فقط -؛هل هذا يَعني أنّ إعادة التفكير بعقيدة التَجَسّد يقودنا للتخلّي عن اللاهوت الخاص بالمسيحية وهو ان الله هو «ثلاثة في واحد » ؟ وبينما سيلقى هذا العمل الترحيب بالنسبة للبعض لِتَخْليصهمْ من حِمْلٍ مُرهقٍ وغير مفهوم ، قد يبدو بالنسبة لكثيرين غيرهم آنفِصَالاً خطيراً عن التقاليد المسيحية . فهَل أبقينا على أيّ شيء يمكن ان يُدعى بعد ذلك العقيدة المسيحية في الله ؟ .

يبدو لي ان النقاش في هذه المواضيع يبقي مُعَرْقلاً طالما نُلِحُّ على إثبات كل التأكيدات المسيحية عن الله مدعومة بالحقائق . فبالإضافة للتعليقات الآنفة يمكننا ان نضيف الملاحظة ان النقاشات المعاصرة أَلَحَّتْ على استحالة تناول موضوع الله مِثْل الأشياء الأخرى التي يمكن ان يكون لها بيانات مدعومة بالحقائق . بالاضافة لذلك ، فمن الأمور المشهورة بصُعُوبَتِها توضيح عقيدة التثليث دون الوقوع في بيانات عن ثلاث آلهة أو سابلّيه Sapellian (★) . وهو الشيء الوحيد الذي

(★) (سابيلّوس - sabellus) عالم لاهوتي في القرن الثالث الميلادي من أصل روماني اعتقد أن « الإله الأب » تعذّب مِثل « الإله الابن »

مكّن (الكابادوسيين – Cappadocian)(*) من تحاشي هذه المزالق هو فَهْمُهم (للمادة) الإلهية ... الفَهْم المرتبط بأسلوب حميم بالتراث الفلسفي الذي عملوا في إطاره .

فليس من المفاجىء إذن إذا وُجِدتْ عقيدة التثليث في الله غير مفهومة في بيئات فلسفيّة مختلفة . ربما علينا ان نخطو إذن ، إلى أبعد من ذلك بإثارة السؤال : ماذا كان دور فكرة التثليث في الله في اللاهوت والإخلاص المسيحيّيْن وهل لفكرتنا عن الله حاجة ، بطريقة أو بأخرى ، لأن تُؤدى نفس الدور ؟ يبدو لي أنه كان لِتلْكَ العقيدة دوران هامّان .

١ – لاهوت « الكلمة –Logos» وعقيدة التثليث جعلتا من الممكن لله « الاشتراك » – في عالمنا–، فنظرة الإله المتسامي الذي لا يمكن الوصول إليه ... وهو أبعد من متناول الكائن .. كانت كافيةً فكريّاً وملهمة إسطوريّاً إلا انّها لم تُثِر الإيمان والإخلاص عند أكثر الناس العاديين؛ وعقيدتنا « الكلمة » « والروح » جعلتا من المستطاع الاعتقاد بإله هو في نفس الوقت « متسامٍ » .. و(حالّ) – أي متجسّد – مهما بدا ذلك متناقضا ! ولا نستطيع مواجهة خسارة هذا العُنصر في فهمنا لله : ومن الطريف أنّ اليهودية نفسها – قبل ردّة فعْلها ضد المسيحية – كانت تُنمّي لاهوتا عن الاتحاد بين الإله والإنسان لتحفظ هذه الوجهة من الإيمان بالله . وكانت، قبل فكرة التثليث بالنسبة للمسيحية، هي التي جعلت من المستطاع قيام فكرة فيها الغنى والتنوّع وقابليّة التّكيّف في الله . ومن هنا لم يكن هناك طلاق بين عمليه الخلق والتاريخ ووجود الله؛ ولذا يمكننا أن نقول أن اللاهوت التطوُّري واللاهوت التدرّجي ليسا غريبين عن التقاليد المسيحيه ، لأن اللاهوت المسيحي أكّد دائما ان الله ليس من معدن واحد – monolithic . وعندما لا تكون

(*) (الكاپادوسيّون Cappadocian) ثلاثة زعماء لفلسفة الارثوذكسية المسيحية في أواخر القرن الميلادي الرابع .

عقيدة الإله الواحد نوعاً فجاً من الأشكال البشرية ، يمكن لعقيدة الوحدانية الخالصة ان تُصبح (مُعْتَقَداً بِمَصْدَرٍ أوّل)، راكداً وبعيداً وغير ملائم تقريبا للحياة الدينييه(*) !!! .

٢ – لاهوت التثليث ، فقط لأنه يستَعْصي على واسطة التعبير ، كان إنذاراً مستمراً ضد لاهوتيات شديدة التبسيط مجَدِّفةٍ في محاولاتها حَصْر كائنيّة الله . والدين يَتحطّم بدون غموض بل وبدون تناقض . الإيمان والإخلاص يعتمدان على التأثير المتبادل للهيبة والاعتياد؛ والعقيدة المسيحية عن الله كآب وكأخ وكحاكم ومحام وكملك وخادم ، الذي نصلي له والذي نُصلّي معه والذي يُصلي في داخلنا .. كان لهذه دور أساسي في العبادة والتقاليد الروحية للكنيسة . ومن المفيد ان نقرأ أدبيّات القرون الوسطى مثل كتابات (جوليان نورْوِيْتشْ) . ولاهوت التثليث هو الطريقة التقليدية في التعبير عن غموض الله وعَدَم تَمام محاولاتنا البشرية في التعبير عن كينونته، سواء بالتخيّل والصيغ المقارنة أو بتعريفات فلسفية عويصة . وخسارته – أي اللاهوت التثليثي – هي إفقار جدّي . نحن نعبد إلهاً غامضا وليس إلهاً بشريَّ الشَكْل والملامح .

لذا فبالرغم عن الاعتراضات التي أثيرتْ يبدو أن المستقبل سيكون مع التعدّدية في دراسة شخصية المسيح . منذ مدّة والكنيسة تَتحرَّك نحو التعدّدية في التعبير عن الإنقاذ والفداء ، وبما أن دراسة المسيح مرتبطة بشكْل حميم بفكرة الخلاص فَعَلَيْهَا أنْ تأخُذَ عاجلاً أمْ آجلاً هذا المنحي . يمكن ليسوعٌ المسيح أن يكون كلّ الأشياء لكلّ الناس لأن كل فرد أو مجتمع في أي محيط ثقافيٍّ يرى فيه تجسيداً لخلاصِه(٥١) . فيصْبح، كما الأمْرُ بالنسبة لبولص ، المحرق – أو البؤرة – الفريدة لإدْراكِهم واستجابتهم لله .

(*) لم تكرمَ السيدة الكاتبة بتفسير كيف تستطيع عقيدة (تعدد الآلهة – Polytheism) إزالة « الركود » و« البعد » ، وتُلائم الحياة الدينية ؟؟؟ . (المترجم) .

NOTES

1. Developed particularly in Barnabas Lindars, *St John*, New Century Bible Commentary, Oliphants 1972.

2. J. L. Houlden, *The Johannine Epistles*, A. & C. Black 1973.

3. E.g. O. Cullmann, *The Christology of the New Testament*, SCM Press 1959; R. H. Fuller, *The Foundations of New Testament Christology*, Collins/Fontana 1965.

4. G. Vermes, appendix to M. Black, *An Aramaic Approach to the Gospels*, third edition, Oxford University Press 1967; R. Leivestad, 'Exit the Apocalyptic Son of Man', *New Testament Studies*, vol. xviii, 1971–2, pp. 243–67; J. A. Fitzmyer, 'The Contribution of Qumran Aramaic to the Study of the New Testament', *New Testament Studies*, vol. xx, 1974, pp. 357ff.

5. See note 3 above. A few of the other studies easily accessible in English include: W. Bousset, *Kyrios Christos*, Abingdon Press, Nashville 1970; H. Tödt, *The Son of Man in the Synoptic Tradition*, SCM Press 1965; A. J. B. Higgins, *Jesus and the Son of Man*, Lutterworth 1964.

6. See ch. 5 'Two Roots or a Tangled Mass?', pp. 187ff. below.

7. While it is true that 'Son of Man' could be an idiomatic phrase in Aramaic, referring to a human being or possibly a periphrasis for 'I', it is clearly used in the Greek gospels as some sort of eschatological title, at least in some contexts. This statement is therefore not inconsistent with my earlier remark.

8. Whether or not the Suffering Servant passages of Second Isaiah were understood messianically in pre-Christian Judaism has been a subject of much debate. Opposing views are represented by Zimmerli and Jeremias, *The Servant of God*, SCM Press 1957; and Morna Hooker, *Jesus and the Servant*, SPCK 1959. It seems most likely that Messiahship tended to have political success overtones in the New Testament period, but the idea of the suffering king was latent in the Old Testament texts, particularly the Psalms of suffering and possibly also Isaiah 53. Since the near-contemporary Maccabaean literature contains the idea that a martyr dying for the nation could expiate the nation's sins (see J. Downing, 'Jesus and Martyrdom', *Journal of Theological Studies* ns, vol. 14, 1963, p. 279), a positive understanding of the role of suffering was available, and not unnaturally associated with prophecies of an ideal king-Messiah, in the view of the kingly suffering motif referred to above.

9. Especially in Matthew's gospel; see W. D. Davies, *The Setting of the Sermon on the Mount*, Cambridge University Press 1964, and M. D. Goulder, *Midrash and Lection in Matthew*, SPCK 1974.

10. See ch. 5, pp. 87ff. below.

11. Bultmann and his pupils have been the main protagonists of this view. An easily accessible summary of their position is to be found in *Appendix III* in G. Bornkamm, *Jesus of Nazareth*, Hodder & Stoughton 1960. See also A. J. B. Higgins, op. cit., and R. H. Fuller, op. cit. Contrast the position of O. Cullmann, op. cit.

12. Implied in synoptic sayings like Mark 8.38; made explicit in John's gospel, e.g. 9.39–41. But note that the observations made in this sentence do not depend exclusively on the specific texts mentioned in the notes, but rather on the total impression created by the gospel material.

13. This is a possible interpretation of the incident of Caesarea Philippi (Mark 8. 27ff. and particularly v. 33). Cf. O. Cullmann, op. cit., p. 122, who argues that it certainly implies rejection of Messiahship.

14. Even though the 'realized eschatology' of C. H. Dodd has received justifiable criticism, the immediate imminence, and even presence, of the kingdom is certainly not absent from the gospel texts (e.g. Mark 1.15; Matt. 12.28; Luke 17.20; and

parallels and other examples). It is difficult to believe that it was *not* the core of Jesus' preaching. It is conceivable that Jesus himself was correcting the futurist and apocalyptic hopes of the people, reminding them, like the prophets of old, that *now* matters. Yet, he seems to have made use of current hopes to reinforce his message and provide it with sanctions. R. H. Fuller argues (op. cit.) that Jesus' own understanding of his purpose and person was in terms of the eschatological prophet, and this view is certainly attractive. However, the main point here is that, in view of the current assumption that prophecy had been dead for centuries and its arrival would herald the end, it was inevitable, whether or not Jesus claimed to be the fulfilment of prophecies, that his contemporaries should react to his message and authority in this way.

15. Although not advancing exactly the same point, an interesting comparison can be made here with E. Trocmé, *Jesus and his Contemporaries*, SCM Press 1973, who argues that different pictures of Jesus emerge from the different forms of material in the synoptic gospels, and these were the different impressions created on different groups with which he came into contact during his ministry.

16. It is instructive to observe the way in which Old Testament texts are used christologically in the Epistle to the Hebrews. Texts concerning the Lord (i.e. Jahweh) are taken to refer to Jesus (e.g. Heb. 1.10); and a text concerning mankind's status in creation is turned into a prophecy of the descent into flesh of God's Son, the heavenly man (Heb. 2.6–9). The use of collections of 'proof texts' in the early church is apparent in many parts of the New Testament. See e.g. Matt. 21.42; Mark 12.10; Luke 20.17–18; Acts 4.11; Rom. 9.33; I Peter 2.6–8. For discussion see B. Lindars, *New Testament Apologetic*, SCM Press 1961; C. F. D. Moule, *The Birth of the New Testament*, A. & C. Black 1962, ch. IV.

17. Cullmann, op. cit., p. 134; Fuller, op. cit., p. 230.

18. Implied by I Cor. 12.3 (as interpreted by Cullmann, op. cit., pp. 219ff.).

19. Col. 1.15–20. Cf. Prov. 8.22–31; Ecclus. 1.4; 24.3; Wisd. 725–26. See ch. 5 below.

20. C. K. Barrett, 'Pauline Controversies in the post-Pauline Period', *New Testament Studies*, vol. xx, 1974, p. 229.

21. Paul speaks of him as the 'image of God' (II Cor. 4.4; Col. 1.15), of his being in the 'form of God' (Phil. 2.6); and of God's fullness dwelling in him (Col. 1.20). These phrases imply a close relationship rather than identity (see note 23 below); and this is confirmed by the subjection of Christ to God (I Cor. 15.25ff.; 3.23; 11.3). It is sometimes said that he is called God in Rom. 9.5; II Thess. 1.12; and Titus 2.13; but it is more likely that the first is pious ejaculation unconnected with the syntax of the sentence; that in the second and third, the Greek is rather loose and in fact refers (in the former) to the grace of God plus the grace of the Lord Jesus Christ, and (in the latter) to the glory of our great God and of our Saviour Jesus Christ. (The Epistle to Titus is probably not the work of Paul anyway.)

22. Paul speaks of the 'man from heaven' in I Cor. 15.48. It is highly likely that when he uses phrases like the 'image of God', he thinks not only of the divine Wisdom, but also of perfect manhood, as man was created to be. This is particularly probable as an exegesis of Phil. 2.6, where there may well be a deliberate contrast between Adam, made in the image of God but tempted to be equal with God knowing good and evil, and Christ, also made in God's image (*morphē*) but humbling himself and not seeking equality with God. Cullmann, op. cit., pp. 174ff.

23. Rom. 1.3 and Phil. 2.9ff. *et al.* might seem to reflect an 'adoptionist' sort of Sonship and Lordship, but they may be pre-Pauline. Paul himself uses the title Son in a variety of contexts, but especially (*i*) of him being 'sent' to condemn sin in the flesh and to redeem men form the law, where his being born of woman and being in the likeness of sinful flesh is emphasized, and the point is his perfect obedience which destroys the power of sin and law over man (Gal. 4.4; Rom. 8.3); (*ii*) of his Sonship and our adopted Sonship (Gal. 4.4–7; Rom. 8.14ff.; note v. 29 where his chosen

ones are to be 'conformed to the image of his Son' (*summorphous tês eikonos tou Huiou autou*); cf. Eph. 1.5 (even if Ephesians is not actually from Paul's hand, I have regarded it as sufficiently Pauline in its thought and language to be used in this connection, and there are further references below). He is the first-born of many brethren (Rom. 8.29; cf. Col. 1.15, 18); and we are his fellow heirs (Gal. 4.7; Rom. 8.17). Clearly Paul thinks of Jesus Christ being 'Son of God' in a special way (Rom. 8.32: he did not spare his own Son), but he is not the only potential son and he is sent as perfectly obedient man. As man he is God's image. Son of God in the sense that Adam and Israel were destined to be sons of God if they had not been disobedient. He is sent (perhaps) in the sense that the prophets and John the Baptist were 'sent' by God (born of woman, Gal. 4.4). However, the phrase 'man from heaven' used elsewhere suggests that his sending meant that he came from outside into the world and the flesh. But he is certainly sent as perfect man: his coming from outside does not imply any 'substantial' relationship with God. He was the first-born of all *creation* (Col. 1.15), who as God's agent obediently carried out God's predetermined plan for the redemption of all the children of God (Eph. 1.5–12). Even the most far-reaching phrase about 'all the fullness of God dwelling in him' (Col. 1.19; 2.9) is paralleled in Ephesians by a phrase concerning men: 'that you may be filled with all the fullness of God' (Eph. 3.19); and furthermore, the fullness of God *was pleased* to dwell in him (*eudokesen*); it was choice, will, purpose, election, rather than essential derivative nature.

24. E.g., the charges of Celsus: Origen, *Contra Celsum*, viii.12: If these men worshipped no other God but one, perhaps they would have a valid argument against the others. But in fact they worship to an extravagant degree this man who appeared recently.

25. See ch. 4 below; the prologue of St John's gospel (whatever may have been the origins and connotations of the Logos in that context) gave scriptural authority for the development. The chief exponents of this theology were the Apologists; but the idea of the Logos was taken up and developed in a philosophical way by Clement and Origen, and Logos remained the normal title by which reference was made to the pre-existent and incarnate Lord right up to and after the Arian controversy. On the Logos-theology, see e.g. J. N. D. Kelly, *Early Christian Doctrines*, A. & C. Black, fourth edition 1968, ch. I and IV; E. R. Goodenough, *The Theology of Justin Martyr*, Jena 1923; G. L. Prestige, *God in Patristic Thought*, SPCK 1952; H. A. Wolfson, *The Philosophy of the Church Fathers*, Harvard 1964.

26. Origen, *Contra Celsum* provides valuable insight into the debates between rival schools; note especially i.10. The rivalry of different philosophical schools was in fact a commonplace of Christian apologetic and pagan satire.

27. The philosophers upheld an ultimate monotheism, while allowing polytheistic worship: e.g. Maximus of Tyre, *Dissertationes*, xxxix.5: The gods are one nature but many names. Cf. Celsus in *Contra Celsum*, v.45; viii.2. In Porphyry, grades of deity are expounded and fitting worship for each defined: *De Abstinentia*, ii.34–39. Alongside this, the stress on ethics (with metaphysics only a support to moral teaching) a stress which was characteristic of post-Aristotelian philosophy, meant that true worship of the Supreme God came to be seen in terms of virtue and gradual transformation into likeness of God until 'apatheia' of soul was achieved. The best example of this is to be found in Marcus Aurelius' *Meditations* (e.g. v.27, 33; vii.9), though here we see it in the framework of Stoicism. Maximus of Tyre, *Dissertationes*, xi, expounds the 'philosopher's prayer' as understood in Middle Platonism. Both Christian Platonism and Neoplatonism adopted these attitudes (e.g. Clement, *Stromateis*, vii.14, 31, 33; Porphyry, *De Abstinentia*, ii.34–5).

28. For a convenient exposition of the Platonist tradition in Jewish and Christian form, see H. Chadwick, 'Philo and the beginnings of Christian thought', in A. H. Armstrong (ed.), *The Cambridge History of Later Greek and Early Medieval Philosophy*, Cambridge University Press 1967.

29. These characteristics go back ultimately to Parmenides' One. In Philo and the Christian Platonists the identification with God is clear, and seems to have been used in Middle Platonism. For a convenient exposition, see E. F. Osborn, *Clement of Alexandria*, Cambridge University Press 1957, chs. I–III. For the attributes of God in patristic theology, see G. L. Prestige, op. cit., and in Christian Platonism, H. Chadwick, op. cit. For the One in Neoplatonism, see A. H. Armstrong in *The Cambridge History of Later Greek and Early Medieval Philosophy*, and J. M. Rist, *Plotinus, The Road to Reality*, Cambridge University Press 1967.

30. Plato, *Republic*, 509B: The Good is beyond Being. This statement was not only taken up in the ultra-transcendent theology of Neoplatonism (see Rist, op. cit.), but is found in the popular Platonism represented by Celsus (*Contra Celsum*, vi.64) and Justin (*Dialogue with Trypho*, 4). Platonism distinguished between the One as a unity in itself and a One–Many, that is, a composite unity. In Philo, for example, God in himself was the One, and the Logos of God, containing the Forms, was the One–Many, and the principle of creation. In Neoplatonism, the One is transcendent, but Nous and Psyche are composite hypostases linking the One with the world. For examples of this and parallels with the Logos-theology of Clement of Alexandria, see S. R. C. Lilla, *Clement of Alexandria. A Study in Christian Platonism and Gnosticism*, Oxford University Press 1971; and E. F. Osborn, op. cit.

31. Gnosticism was criticized by Plotinus as well as Christian writers. Both Neoplatonists and Christians were fundamentally opposed to any form of dualism; evil was not 'in Being' and everything had its origin in God. Gnostic myths portrayed a fragmentation of and fall of the divine which was alien to the Christian and Platonic outlook. Yet there is a similarity in spite of this very important difference. Even the same terminology is employed: e.g. Basilides (according to Irenaeus, *Adversus Haereses*, i.19) speaks of an unbegotten Father from whom was born Nous from whom was born Logos.

32. E.g., Clement, *Strom.*, iv.25; Origen, *Comm. in Joh.*, i.20. See Osborn, op. cit.; Lilla, op. cit.; J. Daniélou, *Gospel Message and Hellenistic Culture*, vol. II of *A History of Early Christian Doctrine before the Council of Nicaea*, Darton, Longman & Todd 1973.

33. Augustine, *Confessions*, vii.9.

34. Athanasius, *De Incarnatione* is the classic exposition. See my 'Insight or incoherence? the Greek Fathers on God and Evil', *Journal of Ecclesiastical History*, vol. xxiv, 1973, p. 113.

35. In post-Nicene theology, the notion of Mediator is still found, but it has been interpreted. Now the God-Man is Mediator because he is at once *homoousios tōi patri* and *homoousios hēmin*. E.g., Theodoret, *Comm. on I Tim.*, J.-P. Migne (ed.), *Patrologia Graeca*, PG 82: 800A. This is clearly a quite different concept of mediation.

36. This was hardly original, belonging both to the philosophical and Christian traditions behind him. The real point was the conclusions he drew from it. For Arianism and the reaction, see e.g. Kelly, op. cit., ch. IX; Prestige, op. cit.

37. For a discussion of Eusebius' position, see G. C. Stead, 'Eusebius and the Council of Nicaea', *Journal of Theological Studies*, NS, vol. 24, April 1973, pp. 85ff.

38. Athanasius, *De Incarnatione*, 54.3.

39. Athanasius himself insists that we do not become *theoi* or *huioi* in the same sense as the Logos is *theos* or *huios* (e.g. *Contra Arianos*, iii.19–21); but he does not perceive that it is a fatal admission for his argument, which may have religious force, but is not strictly logical.

40. Athanasius is driven to say '*ta hēmon emimēsato*', *Contra Arianos*, iii.57. See the classic article by M. Richard, 'S. Athanase et la psychologie du Christ selon les Ariens', in *Mélanges des sciences religieuses*, IV, 1947, pp. 5–54.

41. A. Grillmeier, *Christ in Christian Tradition*, Mowbray 1965, presents a case for seeing the Antiochene position as derivative from the Alexandrian in the post-

Nicene situation. However, one suspects that Paul of Samosata at least must have had views somewhat akin to the later Antiochene approach, though his condemnation was hardly a good recommendation for his views!

42. Eusebius, *Vita Constantini*, iv.29; iii.15.

43. Basil, *De Spiritu Sancto*, xviii 44–5; Gregory of Nyssa, *Contra Eunomium*, i.19 Kelly, op. cit., p. 268.

44. E.g. Gregory of Nazianzus, *Orationes*, ii.41.

45. Traditionalists may react by saying 'What about the virgin birth?'. Quite apart from the difficulty of 'proving' such a story, as a literal statement of Jesus' origins, it is virtually inconceivable in the light of modern knowledge of genetics and reproduction. The matter is discussed at greater length in J. A. T Robinson, *The Human Face of God*, SCM Press 1973, ch. 2.

46. Koestler, *The Act of Creation*, Hutchinson 1964, ch. XX.

47. These examples are particularly well emphasized by A. T. Hanson, *Grace and Truth*, SPCK 1975. His argument that humanity is the appropriate vehicle for divinity in the space–time context, and his use of biblical parallels to the suffering of Jesus, comes close to my position. However, he fails to see that all this implies that the traditional 'hard' distinction between God and man can no longer be upheld, and each man is potentially 'God incarnate'. The *ontological* uniqueness of Jesus cannot then be successfully defended.

48. I deliberately include the idea of God's death, since this highlights the 'mythical' and paradoxical nature of the Christian story. The fathers were nonplussed by the claim that God died on the cross, and tried to give an intelligible account of it; but this was to miss the whole point. I do not think it is possible to say exactly what is meant by God dying, but that it is an essential element in the saving story, I am sure.

49. This does not mean that I am suggesting as some do, that in Jesus 'myth' was 'actualized' in history, or that something happened in 'God's biography' when Jesus died on the cross. I am simply stating that as a matter of fact the story of Jesus has become a catalyst which has opened the eyes of those in the Christian tradition to this aspect of God as revealed in the world he created. That the same truth could be witnessed elsewhere is undeniable, e.g. in Jewish history

50. S. G. F. Brandon, *The Trial of Jesus*, London 1968.

51. A. T. Hanson's study of the incarnation, *Grace and Truth* (see note 47 above), has come to my notice since the first draft of this paper. It is interesting that he makes a similar plea for admitting more than one expression of christology.

الفصل الثالث

يسوع .. الإنسان ذو القَدَر العالمي

بقلم : ميكائيل غوْلِدِرْ

قبل سنوات قليلة سألني أستاذ الفلسفة في دائرتي ، وهو من الذين يتلذذون بمداعبة علماء اللاهوت ، إن كنت سمعت النكتة التالية(١) : قال الكرادلة في الفاتيكان للبابا ان بقايا جثمان يسوع اكْتُشِفَتْ في فلسطين ، وأجمع كل علماء الآثار الكاثوليك أنها بقاياه لاشكّ في ذلك؛ آه .. قال البابا: ماذا نفعل الآن ؟ حسناً قال الكرادلة : « بقيَ لنا أمل واحد .. هناك عالم لاهوت بروتِسْتَانْتِي في أميركا اسمه (تِلّيش) : ربّما تريد الاتصال به هاتفياً ، فاتصل البابا بـ (تِلّيش) ونقل له الخبر ، وبعد صمت طويل قال (تِلّيش) : هل تعني حقّا ان يسوع كان شخصيّة حقيقيّة ؟! .

والنكتة حادّة شائكة لِكَوْنِها طبعاً غير صحيحة . وفي أعين الفلاسفة فَقَدَتْ الديانة المسيحيّة سُمعتها لأنّها لم تَعُد تُثبتُ أي شيء . اعتقد آباؤنا بأشياء كثيرة موجودة في الكتاب المقدس ، ونحن لا نؤمن بوجود جهنم (أكثرنا)، ولا بوجود الشيطان ولا بالوحي – الكلامي–؛ وعندما يُسْخَر من هذه الأشياء نَشترك نحن في الضحك ونقول للساخر : أو هَلْ تَظُن أننا كنا نعتقد بهذه الأمور ؟ حتّى ولو سُخِر من عقيدة التجسّد ومن القدرة الإلهية ومن أية فكرة عن فداء المسيح للبشر ، تجد المسيحي يشترك في السخرية ... ولو لم يكن مرتاحاً لذلك تماماً .

حسناً يقول الفيلسوف .. يظهر أن « إيمانكم » أصبح شيئاً مَطّاطاً هل

تستطيعون البقاء والاستمرار دون معتقد « قيام المسيح » أو فقدان الإثبات التاريخي لوجود يسوع .. ألَسْتُم حقاً « لادينيّين إنسانيين » ولكن تَنْقصُكم الأمانة لتعلنوا ذلك ؟ .

سأروي لك قصة ثانية ، هذه المرة ... القصة حقيقية ؛ بعد وقتٍ قصير من استلامي لعمل كنسي أتَعَيَّش منه زرْتُ مريضاً في المستشفى وكان عليّ الانتظار فلَحِق في قسيّسان واحد من طائفة (العُمُوميِّين – congregationalist والآخر كان ، في رأيي آنذاك ، من صنِف أدنى ، خارج القانون تماماً . ولمّا لم يكن هناك شيء نعمله استغرقنا بصورة طبيعية في نقاش لاهوتي ؛ وخلال النقاش ذعِرت الممرّضة لِمَا كان يقوله قسيس طائفة (العُمُوميِّين – Con gregationalist) : « حسناً هناك شيء أكيد لم يكن يسوع نفسه يظن أنّه هو الأقنوم الثاني في التثليث » . لقد وجدتُ الملاحظة مزعجة من ناحيتين : أوّلاً لأنّني كنتُ أفترض أن يسوعاً كان يفكر أنّه الأقنوم الثاني في التثليث (ولحكمةٍ ما .. لم يذكر يسوع هذه الحقيقة) والآن يُقال هذا الأمر أمامي وكأنه شيء واضح جليّ ، وثانيا لم أستَعْذِبْ أن أتنَوَّر من قِسّيس ينتسب لطائفة ليست من الكنائس المُنَظَّمَة الثابتة .

وَضعْتُ القصة الثانية بموازاة الأولى لأنّهما ، كما يبدو لي، يُلخّصان الضغوط المزدوجة المتعاكسة التي يعيش تحت وطأتها المسيحي المفكّر اليوم ، بخاصة إذا كان قِسّيساً – أو رجل دين – ، وكانت الأرثوذوكسية – بمعنى استقامة الفكرالديني–توفّر الطريق حول الجبل الذي كَشَفَتْه العناية الإلهية لنا للوصول إلى الجنّة . وحتّى لجيل خلا .. ورغم انهيار حرفيّة الكتاب المقدس وأجزاء أخرى من « الطريق » ، كان هناك على ما يبدو ممرّ ثابت باقٍ .. حول الجبل، ثم دون ان نَعي ذلك ، رُدِمَتْ أجزاء أخرى من الطريق واكتشفنا ذلك فجأة في محاوراتنا الغريبة مثلما جرى لي في مستشفى (وايْتنكتن)؛وهكذا أصبح في طريقنا بعض القفزات على الثغرات ، وانحرافات حول منزلقات السُفوح . تعال .. قال لي

الصديق الفيلسوف ، فدَرْبُكَ مسدود لن تصل فيه إلى أيّ مكان وسيكون فيه موتك : شاركني في يأس نبيل ثابت،دربي هذا لن يقودك للجنّة ولكنه درب عِبْر حياة تكون فيها رَجلاً يهتمّ بالحقيقة وبإخوَتِه في الإنسانية . ولكن إذا لم نَشَأْ أو لم نَسْتطع ترك طريق الكنيسة ، هناك صفارات إنذار وراءنا تدعونا للأمان في الكوخ الجبلي للاعتقاد التقليدي هَلْ من الجَليّ تماماً ان العقائد القديمة عَنْ الله والمسيح والانقاذ والدينونة والقدرة وما بقي غير متماسكة وغير مفهومة ؟ أليس من الأفضل ان نستمرّ في اعتقادنا بما عُلّمْنا ؟ إلا أنّني اعتقد – كذلك زملائي الذين شاركوا في الكتاب – أنّنا لسنا مجْبرين على الاختيار بين هاوية الإلحاد وجمود الأرثودوكسية. التقليدية . هناك طريق إلى الأمام ، ليس الطريق الواسع الذي سلكه آباؤنا إلا أنه درب على كل حال ، وسأسعى جهدي لتوضيح مسيرته .

الاعتقاد بالديانة المسيحية هو الاعتقاد بشيء حول يسوع المسمّى المسيح ؛ وهذا يعني كما يبدو لي حتما الاعتقاد ببعض الأمور عنه كشخصيّة تاريخية . والتاريخ هو مسألة احتمالات ولا يستطيع أيّ ناقد مُثقّف في الأجواء الحاضرة أنّ يُؤكد كثيراً عن الاحتمالات التاريخية دون ان يَتعرّض لِخطر التناقض . وفي بَحْثٍ كهذا كل ما يمكنني فعْله هو أنْ أوضّح مقاييس وأترك للنُقّاد مُناقشتها أو مناقشة تطبيقها . والمراجع في هذا الموضوع هائلة لن تسمح لي بمناقشة مواصفات واستنتاجات الآخرين ، وحدَّدْت بصورة شديدة المراجع في حواشي أسفل الصفحة . إذنْ أنا أستَعْمل ثلاث مواصفات صلْبة مكبَّرةٍ بثلاثٍ أُخرٍ أكثر لُيُونة . والمواصفات الصلبة (إذا ما طُبِّقَت بأسلوب صحيح) يجب ان تُؤدي إلى نتائج كبيرة الاحتمال ، أمّا المواصفات الليّنة فتؤدّى إلى نتائج محتملة وهذه هي المواصفات :

١ – التماسك المنطقي – يجب أن يكون الموضوع متماسك الجوانب : فليس من المفيد الادعاء ان يسوع كان متعصّباً مُتحمسا (Zealot) دون ان نرى أي أثر للتعاليم المتعصّبة في بداية عهد الكنيسة أو ان « قيام المسيح »

كان تزويراً ما لم نُظهِر كيف استطاعت الكنيسة أن تبقى بعد حادثة «الصلب» .

٢ - المعلومات الطارئة - بولص يُحاول ان يقول لأهل (كورَنْثيا) أنّ يسوعاً قام من موته ؛ وقال إنه ظهر (لِسِيفَاسْ) : يقول لنا صُدفةً إنه كان هناك رجل اسمه (سيفاس) وهذا ما يمكن إذن الاعتماد عليه . والتحقيق والاكتشاف في ميداني الجريمة والتاريخ ، يعتمدان بصورة رئيسيّة على هذه المواصفة .

٣ - الأشياء التي تُقال لإحراج الكنيسة : نحن نعتقد ان البروتستانت « يعيشون » عندما يقولون شيئاً مُسيئاً عن (كرانمر) ، بينما « يعيش » الكاثوليك عندما يقولون شيئاً حسناً عنه[٢] . ولذلك يقول (مُرقص) لنا مراراً أشياء عن يسوع والحواريين بينما (متّى) و (لوقا) لا يَذْكرانها أو يُلَوِّنانِها[٣].

والمواصفات اللّينة الثلاث هى :

٤ - المادة التي يقولها (بطرس) .. سُلّمت إليه ، فبُطرس دخل المسيحية في أواسط الثلاثينات ، ربّما بعد أقل من خمس سنوات من « الصلب » وما عُلّم حين دخوله المسيحية لم يُحرَّف إلى درجة كبيرة على أغلب الاحتمالات .

٥ - الكلمات الآرامية والعبرية : (متّى) عادة و (لوقا) دائماً يُترجمان هذه الكلمات : ولم يَكن من الممكن أنّها ٱبْتُدعت في الكنائس الإغريقية .. ، والغالب أنّها كلمات قالها يسوع نفسه[٤] ويمكننا أن نؤيد بتحفّظ .

٦ - التقاليد المتداولة بشكل واسع ، على الأقل بالنسبة لادّعاءات عامّة مثل : ان يسوعاً كان رجل محبّة وهذا ظاهر بصورة غير مباشرة في الرسائل ، وظاهر مباشرة في الأناجيل . وهذه المواصفات الستِ هي التي يتفحّصها مؤرخ موضوعي فإذا كنّا نَنْشد احتمالات تاريخية ... يجب ان تكفينا هذه المواصفات الست .

ويبدو لي أننا نستطيع على أساسها إعطاء إثني عشر بياناً عن يسوع .

(ا) كانت مهمّة يسوع مؤسسة على الدعوة العامّة في الجليل وموضوعها الأساسي هو ان حُكم الله الموعود الذي ذكره الأنبياء ، قد ابتدأ وهذه النقطة مشتركة في الأناجيل الأربعة (مواصفة ٦) ، وبدون مثل هذه الرسالة الدينية لم يكن من الممكن التحديد المتماسك للديانة المسيحية (مواصفة ١) . وبينما مصلحة الكنيسة هي في المناداة بيسوع ، فيسوع في الأناجيل الثلاثة الأولى يدعو لملكوت الله (مواصفة ٣) .

(ب) واعتقاد يسوع ان ملكوت الله قد بدأ ، ينبع من القناعة ان مهمّة (يوحنا المعمدان) كان مُوحى بها من الله . كذلك تبدأ الأناجيل الأربعة رسالة يسوع بعَرْض قصَّة (يوحنا المعمدان) (مواصفة ٦) . كان هناك طائفة تتَّبع (يوحنّا المعمدان) (الكتاب الخامس من العهد الجديد ؛ 1903 - 18.25) والتي كانت تنافس الكنيسة إلى حدٍّ ما ، ووجهة نظر (مُرقص) عن (المعمدان) مُخفّفَة إلى حدّ كبير في إنجيل (لوقا) وإنجيل (يوحنّا) .

(جـ) ودَعم يسوع دعواه بما أُنجز من شفائه لعدد كبير من الناس ؛ وليس من الممكن إقناع الناس الآخرين بدَعْوى سامية كهذه ، ومن الصعب الاحتفاظ بالثقة بالنفس ما لم يكن هناك تأييد مستمر لها (مواصفة !) . وقصص شِفاء المرضى تحتل حيّزاً كبيراً من رواية (مرقص) وكثير من الأناجيل الأخرى (مواصفة ٦) . وتحتوي كلمات عبريّة مثل (أفّاتة) وكلمات آرامية مثل (تاليثا كومي)[٦] (مواصفة ٥) . (بولص) يذكر ان الشفاء والمعجزات كانت في الكنيسة ويَعزو ذلك إلى ان الكنيسة هي جسد المسيح (رسالة بولص إلى الكورنثيّين – 12.27f) أي الامتداد لعمل يسوع في حياته (مواصفة ٢)[٧] .

(د) كان يسوع يعتبر نفسه الوسيط لِبذء ملكوت الله وهذا هو المقصود

من البيانين(أ ، ج) فلقد كانت النبؤءة ان ملكوت الله يبدأ حين يُبْصِرُ الأعمى ويسمع الأطرش ..إلخ .

ويسوع أعلن بدْء الملكوت وشفْي المرضى ؛ ومع ان تَنَبُّوات اليهود أخذت أشكالاً مُتعدِّدة مثلاً : مسيح من نَسل داود أو (ليفي) ، (مِلْشيزيدكْ) ؛ و(إينوخْ) ، يوجد دائما شخصيّة تُدَشِّن العهد الجديد ، تُمَثِّل الله[8] لذا فَعِنْدنا مرّة أخرى شَكْلٌ من أشكال المناقشة المتماسكة (مواصفة ١) .

(هـ) الأرجح ان يسوعاً آعتبر نفسه كمسيح داوُودِيّ – نسبة لداوود – هذه هي أوسع الفِكَر للشخصيات التي آفتتحت العهد المسيحي ، وهذا أظْهر ما يكون في كل الأناجيل (مواصفة ٦) ؛ ومن جهة ، هذا يُناسب جيّداً عمل يسوع فلقد كان يرى نفسه زعيما اختاره الله لِحُكم مملكته المبتدِئة (بيان ج) . ومن جهة أخرى فهي غير مناسبة لأنّ المسيح بهذه الصورة ، كان يُنْظَرُ إليه كزعيم محارب أُوكِلَ إليه إقامة إمبراطوريّة يهودية تتجاوز إمبراطوريّة داوود : وهذا ما لم يَكُنْهُ يسوع . ومِثْل هذه الإزدواجية تتناسب جيداً وما يرويه (مرقص) من أنّ يسوعاً كان يعرف أنه المسيح ، ولكنه لا يستعمل هذا اللقب ويَرْجُو حواريّيه ألا يقولوا شيئاً عنه . وسكوت (مرقص) هو تثبيت لصحة روايته[9] . ورسالة الكنيسة في رأي بطرس وفي الكتاب الخامس للعهد الجديد (تأليف لوقا) ، هي أن يَسُوعاً هو المسيح ، وهذا اعتقاد (مرقص) أيضاً ، ولكن تكادُ لا ترى ذلك تقريباً في قراءة إنجيلية .

(و) ومن الأرجح أيضاً ان يَسُوعاً رأى نفسه – مثل دانيال – ابن الإنسان[10] . ودانيال تنبّأ بالإطاحة بالإمبراطوريات الوثنية ، وكانت تُصَوَّر كسِلْسلةٍ من الوحوش ، على يد مَمْلكة الله ، وكانت تُصوَّر كشخصيّة بشريّة . وفي تصوير (دانيال) أحيانا تُمثِّل الوحوش الإمبراطوريات وأحياناً الأباطرة . وربّما كان الاحتمال موجوداً بالنسبة لمملكة الله ولِحاكمها بخاصة ان التعبير (ابن

الإنسان) قد طُبِّق على ملك إسرائيل (في الإصحاح ٨ ، ٨٠) . و« ابن الإنسان) صورة كانت أكثر مناسبة ليسوع ممّا هي للمسيح - بسبب رَنين الإسم عالميّاً ويمكن استثمار غموضه من جهة ، ومن جهة أخرى لأنّه حَلَّ مُشْكلة التنافُر . ولفترة من الوقت يمكن إعلان ان مملكة الله قد بدأت والإشارة إلى الدليل على ذلك هي في سلسلة عمليات الشفاء المُدهِشة : ولكن سرعان ما يُصْبح واضحاً ان الظُّلمَ باقٍ على العرش بشكل اضطهاد مُلاَّك الأراضي وجُباة الضرائب للشعب والاسترقاق وعمليّات الصلب ، وإنه لم تَبْدر أية إشارة أو ملاحظة عن كيف يُمْكن قَلْب هذه الأوضاع . فإعلان بدْء مملكة الله على أساس ان يسوعاً هو الذي آفْتتح العهد أمر غير متماسك ما لم يتضمّن رسالة إذلال وقْتي (مواصفة ١) . وهذا يحتاج لفكرة مثل (دنيال) ابن الإنسان . كيف يمكن ان تبدأ مملكة الله في الأرض مع بقاء مملكة الوثنيين دون ان تَهتزّ ؟ والجواب في (دانيال ٧٠) : لن تقوم مملكة الله بسهولة يجب أن يتعرّض ابن الانسان للمحن فتْرةً أو فترتين ونصف (نصف أسبوع سواء من سنين أو أيام) ، وعندها فقط يسمو للحضرة الإلهية ويُعطىٰ الملكوت(١١) . إذنْ رأى يسوع قَدَرَه حسب رأي (مرقص) ، كان ابن الإنسان ونائب الله في الأرض مع كل الصلاحيات ليغفر الذنب ويلغي الوصيّة الرابعة من الوصايا العشر : ولكنه كآبْن إنسان كان يتوقع أن يتَعَذّب وأن يموت وأنْ يقوم بعد ثلاثة أيام ليُرفع إلى السماء ويُعطىٰ مملكته ليعود حاكماً كُليّ القدرة . ودليل فَهْم يسوع لنفسه أنه ابن الإنسان ليس فقط مذكوراً في كل الأناجيل (مواصفة ٦) ، وهذا مطلوبٌ في الواقع في مواصفة التماسك (مواصفة ١) : بل تُثبتُ ذلك حقيقةُ أنّ (بولص) لم يَذْكر الموضوع قط .

ولقد وجدتْ الكنائس الإغريقية نفْسها عاجزة عن التبشير بهذا الأسلوب ، كما هو الأمر الآن في عصرنا الحاضر . فهو بحاجة لمحاضرة لاهوتية . ليُمْكن فهمُه (مواصفة ٣) .

ولقد آستَعْمل (مرقص) هذه الفكرة رغم صعوبتها لأن التاريخ كان

يتطلّب ذلك . و(متّى) و (لوقا) تَوَسَّعا في آستِعمالها لما فيها من نبْرة إلهية مرتفعة .

(ز) من المحتمل ان يسوع فَسَّر تَعْبير المسيح بِمعنى صلة شخصيّة فريدة من البُنُوّة لله وكان على المسيح ان يكون مَلِكاً من سلالة داوود حتّى يُحقِّق نبوءات داوود ، وفي العهد القديم كان ينْظر للملك - الداوودي - كابن الإله : « سأكون له أباً ويكون لي إبناً : أنت ابني : اليوم أنجبتُك » لذا كان من السهل على يسوع أنْ يرى نفَسه ، بالنسبة لله ، ليس كمساعد ولا كنَبِيّ ، ولكن كآبْن . ونجدُ الدليل على ذلك في التعبير الآرامي الذي آستعمله يسوع في مكان العشاء الأخير (Gethsmane)(★) ، (أَبّا ABBA) حسب إنجيل (مرقص) (مواصفة ٥)(١٢) . وآستعمل التعبير في نشوة الصلاة في الخمسينات من القرن الأوّل (للرُّومان والغالاتيّين) مسيحيون اعتبرُوا أنفسهم مُنْضوين تحت رداء البُنوّة الفريدة ليسوع . ورغم وجود عدد من الأمثلة في الأدب العِبري عن حاخامين و « قدّيسين » تحدّثوا عنهم كأبناء لله إلا أنّه ليس هناك مَثيل جِدِّيّ موازٍ لاستعمال كلمة (أبّا Abba) عند مخاطبة الله ، والتعبير عادي بالنسبة لولد نحو أبيه(١٣) .

(ح) والمشهور عن يسوع هو تفسيره الأصيل لمملكة الله على أنّها حُكْم المَحَبَّة . كان الأمر بديهيّاً بالنسبة ليهود تلك الفترة ، بما فيهم الذين علَّموا يسُوعاً ، أن التعبير عن إرادة الله هو في القانون وأنّه عند مجيء المسيح سيتمَسَّك بَنو إسرائيل بالقانون (إنْ لم يكن هذا التمسك شرطاً مُسْبَقاً لمجيئه) . كل حرف فيه له قيمته والتناقضات الظاهرة فيه قابلة كُلّها للتوفيق فيمابينها؛ رأى يسوع نفسه نائباً لله ، وبهذه الصفة يستطيع أن يعمل كما يحلو له . وكان يحلو له ان يقوم بأعمال المحبّة ويُعلّم قيمة مبادىء الحبّ ولا شيىء غير ذلك . وعندما تعارضت

(★) وادٍ بين القدس وجبل الزيتون .

بَعض بنود القانون مع هذه المبادىء ألغاها . فلقد شفى المرضى في أيام السَّبْت وقال إن السبت هو للانسان (وهذه عقيدة خطرة منعها [متّى]) ؛ وتَحدَّث عن الزواج على أنّه غير قابل للفَسْخ مُتَحدِّياً بذلك التوراة (ديوتيرونومي Deuteronomy 24)(★) ، وقلب قوانين الطعام وأكل مع « غير النظيفين » ورَحَّب بهم في مجتمعه ممّا آعتبره المتدينون فضيحة . وأصالة يسوع ليستْ في أنّه قدّر المحبّة فكل تعاليمه تقريبا لها ما يوازيها في المصادر اليهودية ، بل هي في رؤية إمكانية الاختلاف أحيانا بين المحبّة والقانون وبتحمُّلِهِ مسئولية تجاوز القانون . ومن الصَعب التفكير بأنّ هذه التقاليد ليْسَتْ تاريخيّة . فهي ليست فقط مَنْثُورةً في الأناجيل (مواصفة ٦) مُخْرِجة بذلك للمسيحيين الذين يسعون لتبشير اليهود (مواصفة ٣) : ولكنّنا نَحْتاجُ لِمِثْل هذه الفضيحة ليكون رفض يسوع طيله حياته ، شيئا مفهوماً ومَعْقُولاً (مواصفة ١) .

(ط) من المستحيل تبْرير أي ادّعاءات أقوى من هذه « ليسوع بلا خطيئة » وإخلاصه التّامّ لإرادة الله أو لِموقفه غير المتبدّل من المحبّة . وما يمكن أن نقوله هو ان الحُب هو الصفة الطبيعية ليسوع كما صوّرته الأناجيل، وللكنائس كما صوّرتها السجلات الدينيّة (مواصفة ٦) ؛ ومن الصعب توافق هذه الشواهد لو كان يسوع قاسياً أو أُولمبيّاً أو « مسيحاً قانونيّاً » (مواصفة ١) .

(ى) لم يَدعُ يسوع فقط إلى أولويّة محبَّةٍ مُتفتحة غير أنانية ، ولم تكن فقط ، كما قال الشاعر الانكليزي أنه بدأ بتطْبيقها على نفسه ، بل أسَّس أيضاً مُجتمعاً على هذا الشعار ، ووضع المسيحيون كلّ آمالهم على استمرارية هذا المجتمع . ونِيَّةُ يسوع في تأسيس المجتمع هذا واضحة - جُزْئيّاً - من استعماله للقب ابن الإنسان (بيان - و -) لأنه منذ عهد دانيال يُفكر بابن الإنسان على أنه الشخصيّة المركزية حيثُ تتجمّع بقية المجتمع حوله ، ويتضح ذلك أيضاً من

(★) (ديوتيرونومي - Deuteronomy) هو خامس وآخر كتاب من كتب سيدنا موسى الخمسة (Pentateuch) - كما يدّعون - وهو (سِفْرُ التّثنِيَة) .

حقيقة أنّ يسوع عَيّن مجموعة من أتباعه ، وهم الذين عناهم بُطرس في إشارةٍ عابرة إلى (الاثنى عشر) (مواصفة ٢) . فما مَعنى تأسيس مجموعة الاثنى عشر ما لم تكن هذه نواة لبني إسرائيل جُدُد كما فهم ذلك حقّاً (لوقا) و(متّى)؟. وأُعطى بطرس كذلك اللقب الآرامي (سيفاس Cephas)لأن يسوعاً آعتبرهُ ، بطريقة ما ، صخرة (مواصفة ،٢ و٥)؛وسواء عنى بذلك سلطة الكنيسة كما فكر (متّى) أو راعيها كما فكّر (لوقا) فلقد تَشَكّل المجتمع تلقائيّاً على كل حال . (وبطرس) وآخرون من كُتّاب العهد الجديد آعْتَبَروا أنّ الإيمان والأمل والمحبّة هي روح هذا المجتمع والمحبّة في المرتبة الأولى ، ومن الصعب التفكير أنهم ، في ذلك على خطأ حين يرون الأمر استمراريّة ليسوع (مواصفة ٢) . والدليل العام في قبول يسوع للمنبوذين اجتماعيا في مُجْتمِعه حيث قبلهم هو نفسه مع الذين لم يقترفوا كثيرا من الأمور الفاضحة في حياتهم ؟ كل ذلك يشير لِنفس المعنى (مواصفة ٦) . وبالنظر للتقاليد التوراتية لم يكن هناك بُدّ من وَصف هذه التجربة بأنّها غُفران للخطايا : ونريد أن نؤكّد الوجهة الإيجابية أيضاً فَعِنْدما وَجدَ المُنْبوذون أنّ المجتمع قَبِلَهم وأحبّهُم صارت لديهم القدرة على محبّة الآخرين الذين لم يعرفوهم قبلاً .

(ك) لقد رأى يسوع ان مَوْتَهُ آتٍ وفسّر ذلك بأنه الوسيلة لصلةٍ جديدة بين الله وشعْبه . وهذا على الأغلب شيء أصْلي في استعمال يسوع لصورة « ابن الإنسان » (بيان ٦) ؛ وكان عليه أن يتعرض للمحنة لمدّة ثلاثة أيام ونصف اليوم كمقدّمة لتعظيمه وتمجيده ، ورغم أن التنبُّؤات بآلام يسوع ، في مُجملها قد صاحبها بعض التطوير والتَوْشِية ، فمن المحتمل أنّ بعض هذه التنبوّات كانت الأساس لمثل هذه التقاليد الواسعة الانتشار (مواصفة ٥)(١٤) . لقد عُلّم (بولص) عند اعتناقه المسيحية ان يسوعاً رأى في موته قدره وأن موته له مغزى (رسالة بولص لأهل كورنثيا 11,23ff) : وفي ليلة الغدر به فسّر الخبز والنبيذ في عشائه الأخير كرموز للميثاق الذي سيُوقّع بموته (مواصفة ٤) .

(ل) مات يسوع على الصليب وبعد يومين من ذلك رآه الحواريون وهذا ما أقنعهم بأنّه لازال حيّاً ، قام من موته ورُفع مُمَجَّداً لحضرة الله بالقُدرة . ولولا هذه القناعة لكان من المستحيل ان يُفسّر الإنسان بقاء الكنيسة (مواصفة ١) . لقد تَعلم بولص ذلك يوم اعتناقه الدين (مواصفة ٤) وهذا ما تفترضه كل وثيقة من وثائق العهد الجديد (مواصفة ٦) . لسْنا مُجبرين على قبول رواية المسيحيين الأوائل عمّا جرى من أمرٍ فوق المستوى الطبيعي ، والواقع أنّنا كمؤرخين سنكون مُجبرين على تفصيل الرواية الطبيعية إذا ما خُيّرنا في ذلك وهذا ما سأحاوِلُهُ بآختصار فيما يلي :

هناك في التاريخ البشريّ طبقة صغيرة من الناس يمكن ان نُسمّيها رجال ونساء القَدَرْ . وهناك تَقَلُّبات أمواج شديدة في التاريخ ، تغيّرات المناخ والتكنولوجيا ونسبة الولادات والقوى الاقتصادية والاجتماعية التي تخلق مجتمعات جديدة وطبقات جديدة وشعوباً جديدة . وتَصل هذه المجتمعات إلى نقطة الأزمة ، وفي الأزمة يمكن ظهور زعيم تُعَبِّر شخصيته كُلّها عن المجتمع ، والحركة التي هو جزء منها . وهكذا كان (ثيمستوكلس Themistocles) و(جان دارك) و(تشرشل) ؛ ويكون لهذه الشخصيّة وعي ذاتي بأن القيادة قَدَرُها في تلك الساعة ، ويكون هذا الوعي جزءاً من حياتها . فهؤلاء يعتقدون أنّهم « مُلْهَمون » ، ويسمعون أصواتا . كتب (تشرشل) عن مشاعره في الساعة الثالثة صباحاً ليوم ١١ إيار – مايو – سنة ١٩٤٠ م مايلي : « أخيراً جاءتني السلطة لإعطاء التوجيهات والتعليمات على كل المسرح . شعرت أنني أسير مع القدر وأنّ كل حياتي الماضية لم تكن إلا تحضيراً لهذا الساعة ولهذه التجربة » وفي تلك اللحظات تُؤخذُ السلطة من الذين لا يُجسّدُون روح الشعب ، مهما كانت قدراتهم ومواهبُهم . والحكام الدهاة المُرتشون المتناسلون لقُدماء الإغريق تركوا مكانهم لحكمة (ثيمسْتوكلس) الذي وضع أمامهم الخيار : الوحدة أو الاستعباد ، وأرسل أساطيلهم المشتركة إلى (سالاميس) ورجال البلاط المنهارون

في فرنسا في القرن الخامس عشر تخلّوا عن مراكزهم لابنة الشعب .. شعب الإيمان والشجاعة . والرجال المُذنبون في (ميونيخ) مع حروبهم الوهميّة .. أُجبروا على الاستقالة مع تفاقم تيّار الدمار ، لصالح رجلٍ قال فيما بعد أنه لم يفعل أكثر من التعبير عن مشاعر الشعب البريطاني في ساعة الشّدة . وعندما ،أُشير إلى مِثْل رجال ونِسَاء القدر هؤلاء لا أعني تأكيداً لِتميّزٍ مُطلق بينهم وبين الطبقة العريضة للرجال والنساء ذوي المواهب الذين كانوا ، بخلفيّاتهم وقُدراتهم على مستوى التحدّي في الحياة والذين أعطوا من أنفسهم في هذا المجال . هناك استمرارية ، في آخر الاستمرارية تكون المخاطر أحَدّ والمواهب أقلّ ، ويكون الإحساس بالروحانية والغموض حَيَوياً لا غنى عنه . والذي يُجسّد التقاليد الشعبيّة ، ويسمو فوقها ، والذي تتفجّرُ التقاليد فيه طوفاناً هو وحده الذي يستطيع العمل . (غاندي) ، (ماوتسي تونغ) ، و(مارتن لوثر كينغ) يمكن ان يُحْسبوا في عداد هؤلاء في الجيل السابق .

والإحساس بالقَدَر يأتي من مزيج من المخاطر الشديدة والمواهب الفذة النادرة جدّاً . هناك العديد من الزعماء ، بعضهم من الفئات المُتسلطة الحاكمة ، قد يَصْلحون للقيادة عندما تكون الأخطار قليلة ؛ هذه هي الأمور التي تُحدّد عَمَل رجال القدر : إنهم مُحرَّرُون إنّهم مُنقِذُون . ضيوف (كزركيس) قطعوا (هلليزبونت) ومَن يُواجههم سَيَموت من أجل لا شيء .. الإنكليز يحتلّون ثُلث فرنسا وولي العهد فقد تاجه ... ، بريطانيا ستواجه أجَلّ ساعاتها وحيدة ضد الجيش الألماني الذي لم يُقهر ... ، الهند قادرة على التحرر ، والأميركان السود لهم حقوق إنسانية ... في كل هذه الحالات يكون المجتمع إمّا في مأزق خطير أو هومُسْتَعْبَدٌ يأمل في التحرر ... والوقت مُناسب لحسم الأمور .

وفي كل هذه الأمثلة التي ضربتها كانت طبيعة الإنقاذ سياسيّة بصورة رئيسيّة إلاّ ان حريّة المجتمع الفكرية والروحية كانت أيضاً مهددة مثل الممالك السياسية ؛ والمعروف ان حريّة الدين والمعتقد هي جزء ، وربما كان جزءاً كبيراً ،

من هذه المطامح كما كان الحال في الثورة الهولندية التي قادها (وليم الصامت) ، أو الثورة الانكليزيه التي قادها (كروموِيل) . لقد كانت حُريّة المعتقد والدين عُنصراً قوياً في حركة (غاندي) و(مارتن لوثر كينغ) ، ولكن في كل هذه الحالات كان القدر في تحرير شعب مُعيّن من خطر معيّن يتهدّده ؛ وينسحب القول على كثير من رجال القدر في المحيط الديني الخالص مثل القديس (فرنسيس) ، و (لونز)و (أغناطيوس) . كان عمل القديس (فرنسيس) هو إعادة بناء الكنيسة في القرن الثالث عشر، أمّا (لوثر) و(اغناطيوس) فكان عملهُما لإصلاح الكنيسة في القرن السادس عشر .

ومثل كل الحركات في الفكر الإنساني ، كان لهذه تأثير كبيرٌ على قسم كبير من البشر ، إلّا أنه كان معروفا لدى قُوّادها ومُؤسسيها أنها تدابير وجهود عاجلة آستدْعتها ضرورات الساعة . وفي حالة يسوع عندنا شعور مُماثل : هذا هو إنسان يقف التاريخ المُبدع لمجتمعه على مفترق طرق : طريق القانونية عند الفريسيّين ، وطريق العُنف عند المُتعصّبين وطريق الانتهازية عند السَدّوسيّين(★) ، كُلّها طرق مختلفةٌ لإنكار الإبداع . ورَجُلٌ من الناس دعا إلى طريق ممتاز وسيَّر وراءه حركة ، كان يشعر أن عليه واجباً إلهياً ، ومَوقعه في التاريخ ... تنبأت به المخطوطات الدينيّة ، ولكن يسوعاً كان يختلف آختلافا مُهمّا عن باقي الزعماء ، في نيَّته وفي آثاره ؛ لم يكن مُحرّراً لمجتمع بعينه ولامُنقِذاً لشعب مُعيّن ... كان رجل الأقدار العالمي . لقد آعتبر نفسه كذلك ، والرمز الذي آتخذه لنفسه : ابن الإنسان هو نفسه الذي جاء في نبوءة (دانيال) : « له أُعطي السلطان والمجْد والملكوت وعلى كل الناس والشعوب واللغات ... خدمته » وسلطانه دائم لا يزول أبداً ومملكته لن تُدمّر (دانيال – 14 . 7) كان عليه أن يصبح نائباً لله مُفتتحاً مملكة الله التي تَلُفّ التاريخ الإنساني . كان عليه أن يصبح المُخلّص الأخير والمنقذ للبشرية ؛ ومَعْنَى أن الناس كلهم سيكونون أتباعه في

(★) طائفة دينية سياسية يهودية تُعارضُ الفريسيّين .

حُكم إنسانيّ مسؤول .. هوادّعاء يرجع تاريخه إلى الأفكار الإسرائيلية الباكرة كما هو في (إصحاح 87 ,47) ؛ والشاهد الملموس على اهتمام يسوع بغير بني اسرائيل نعتمده من أقوال (مرقص) عن المرأة « السورية - الفينيقية » وفي هذا إحراج (لمتّى) (مواصفة ٣) ، والقصّة الأقلّ آحتمالاً عن القائد الأممي .

وإيمان المسيحيين أنّ يسوعاً هو « المسيح » ، والمعنى الذي لا يُمكن فصلُهُ عن هذه الكلمة هو الاعتراف بالفرادة ..؛ لم يكن ببساطة ، واحداً من مجموعة رجال القدر مع (محمد) و(غوتاما بوذا) ... إلخ ، إنه هو وحده رَجُل القدر . وليس في نيّتي ان اتخذ الموقف المكروه ، وغير المفيد في محاولة إظهار ان مركز زعماء الديانات العالمية الأخرى هو أقلّ شرفاً من مركز يسوع ، وأترك لأبناء هذه الديانات أنفسهم شَرْح دَعاواهم . وتصريحي هو فقط من باب الاعتراف ؛ أنا أرى أنّ نموّ مُجتمع المحبّة هو الدفع الأساسيّ لإرادة الله في تاريخ البشرية ، وأرى هذا المجتمع مُتَمثّلاً بصورة أوليّة في الكنيسة التي أسسّها يسوع ، وهذا لا يعني أن ينكروا عمل الله في الديانات الأخرى وإمكانية تَعَلّمِهِم - أي المسيحيين - من تلك الديانات ، إلا أنّ على المسيحيين ان ينظُروا لِحركتِهِمْ على أنّها المركز ، ولِمؤسّسها ، تبعاً لذلك ، كرجل القدرالذي يسمو على الآخرين . والدليل القاطع الذي يستند إليه مثل هذا الإيمان هو تأثيريسوع والقديسين بالمسيحيين .

ومن صميم دعوات رجال القدر ، المخاطرة بآحتمال استشهادهم وهذا أمر يعرفونه . وتُسبّب لَهُم حركاتهم كُره الظالمين عندما يتحدّونهم ، وموهبتُهم النادرة في القيادة والزعامة تجعلهم الهَدَف الواضح لهؤلاء الظالمين . ومن بين من ذكرت من رجال القدر بعض الذين اعتمدوا على القوّة ، (تشرشل) و(ماوتسى تونغ) ماتوا بشرف . وآخرون من رجال القدر مثل (جان دارك) وبخاصة دعاة السلام مثل (غاندي) و(مارتن لوثر كينغ) تَعَرَّضوا لخيانة واغتيال وماتوا في سبيل إيمانهم . وينتسب يسوع للفئة الأخيرة . وهذا بالذات ما يجعل لعقيدة المسيحيين في الفداء والكفّارة معنى .

لقد أُنقِذْنا بدخولنا (مجمَّع المحبّة) الذي أسّسَهُ يسوع ولم يكن من الممكن التأسيس الفاعل لمثل هذا المجتمع بدون آستشهاد مُؤسّسه . والاحتمال كبير بأن موت يسوع كان ، تاريخيّاً ، نهاية حياته في المحبة التي أعطاها من نَفْسه . وكان لا بدّ للمحبّة ، بالأسلوب الذي أحَبّ فيه ، من أن تُثير عداوة الحاكمين وهذه كما رآها (بيان – و –) سَتنتهي بموته ، وهي السبيل إلى مملكة القدرة التي أعطاها الله له ، والواسطة لإقامة ميثاق جديد لِيَحلَّ مَحَلّ سيناء ، إلى الأبد . وقبولنا للميثاق في مقدسات وحياة الكنيسة يعني أننا على وفاقٍ مع الله . وهذا يتزايد حدوثه عند تخلّينا عن التركيز على ذواتنا ، وإعطاء الآخرين مِنْ أنفسنا كما فعل يسوع .

ومن تجربة الكنيسة نجد أننا لا نستطيع ذلك بالمحاولة ولا بالتأمل والتفكير وتقليد يسوع : ولكنّ إنقاذنا يتأتّى من انخراطنا في جسْمه ، وهو الكنيسة ، حيث تتنفّس رُوحُه فينا ونعيش عيشة المحبّة التي عاشها . نحن لا نُنْقَذُ فقط من جهنم – حقيقيّة أو رمزية – بسبب نقص المحبّة فينا ، كما كان – يَظُنّ أجدادنا ، بل نُنْقذ من نقص المحبّة ذاتها ، وفقدان معنى الحياة التي تستتبع هذا النقص ..؛فالمحبّة هي الخلاص .

وا أسفاه على الذين يحملون عبء الدفاع عن العقائد التقليدية في الفداء والكفّاره ! فالإفلاس الكامل أفضل من التخمينات الفارغة التي لانهاية لها ، والتي تتراوحُ ما بين « غير المفهوم » ... إلى « غير الديني » : النظريات التي تُشير إلى شياطين أقوى من الله (ما لم يستطعْ خداعهم) ! والذين يفترضون عدلاً لا وَجه له ... أقوى من الله ! والذين يجعلون المسيح فتىً يحمل العصا ، والذين يعْتبرونهُ رجل مصارف عالميّ مصادره كافية للتعويض عن نقصٍ في ميزان المدفوعات للعالم كله . كثير من هؤلاء المفسِّرين يختمون جهودهم بالتأمل المُؤدّب : « كل هذه الصور ناقصة فنحن نريدها أن تؤدّي حقّ كِبَرِ الحقائق » إلا أن النفايات إذا أضيفت إلى نفايات لن تُؤدي إلا إلى .. نفايات . وموْت يسوع ما هو حقّاً إلا

تتويج لحياته . لقد عرف (غاندي) أنه لن يستطيع تحرير الهند إلّا إذا جازف بحياته ، ما كان يكْفيه ان يدخل السجن ويعلن الإضراب عن الطعام ويعيش مع المنبوذين . ولكنّه ما استطاع أن يكسب الهند إلّا بحلول وسط تُثير له عداوات وأعداء مُتعصّبين لدرجة القتل . ولم يكن ثمن ما أنجزه في عذابه طيلة حياته بل في « استشهاده » آخر الأمر . و(مارتن لوثر كينغ) لم يَستَطِع أن يُعيد الحقوق المدنيّة للأميركيين السود إلا بالمجازفة بحياته ، ما كان عليه فقط ان يكون مستعدّاً لتحمُّل أذى رجال البوليس في الجنوب بل أن يتعرض للاغتيال ، وكلّما قرُب من النجاح كلما ازداد احتمال اغتياله . وهكذا كان الحال مع يسوع : أن يعيش حياة محبّة ويدعو للمحبّة ويُؤسس مجتمع المحبّة ... هذه زادت من احتمال الصلب . والتقليد يقول أن يسوعاً عرف ذلك مُنذ البداية وكانت له النبوءة الإلهيّة ، بالإضافة للمنطق ، موجّهة له في حياته . لذلك نحن لسنا في حاجة لنظرية الكفّارة والفداء لتفسير ما هو مُفسّر أصلاً . لقد أنقذنا في مجتمع المحبّة ، والكنيسة التي أسّسها يسوع بحياة المحبّة التي انتهت بقسوةٍ على الصليب . وبهذا المعنى يمكن أن نقول لقد شُفينا بجروحه أو ... ؛ لم يكن هناك ثمن كافٍ يوازي الخطيئة إلا هذا الثمن

ومُعلّمو الخير بصورةٍ عامّة مجموعة تثير الشجن والإشفاق فكما كان (بطرس) سريعاً في الملاحظة : لا فائدة من سماع ما هو حسن والموافقة عليه إذا لم تستطع ، لسبب ما، عمله؛ وكثير من رجال الدين والباحثين الاجتماعيين تعلّموا هذا الدرس بالأسلوب المُحزن . لو عاش يسوع داعيا للمحبّة فقط ثم مات بعد ذلك فمن الصعب التفكير أنّ مجتمعه كان سيعيش اكثر من أسبوعين . ولكن بتمام أمانته .. حتى الموت أنجز يسوع بدون أي تخطيط القدر الذي اتّبعه طيلة فترة عمله وهو إيجاد الواقع العملي لمملكة الله في مجتمع المحبّة الدائم . وفي نفس الإنسان قوىً محبوسة تطلقها أحداث من هذه النوعيّة؛ فهناك حدود لما يستطيع ان يتحمله الإنسان من تنافر(١٥) . (فبطرُسُ) بصورة خاصّة علّق ألوانه على السارية ، ترك داره وذويه وقاربه؛ وكِنْيَتُهُ ففضيحة جاءَتْ تُسَبّبُهُ ؛ ؛ ؛ له مشكلاته.

وضَعَها يسوع فيه (مواصفة ٢, ٥) ؛ ثم جاءتْ استنكاراته ففضيحة (بطرس) ، كان الإحراج الذي تُسبّبه سيمنعُ إذاعتها لولا أنّها صحيحة (مواصفة ٣) . كان يفاخر بأمانته بينما الآخرون ، بنظره ، سيسقطون ؛ ثم في فتره اربع وعشرين ساعة قاتلة رأى كلما كان يعتقده ... قد أخذ منه ؛ لقد نام وعُنّف ثلاث مرات وهرب وتبرّأ من معلّمه ثلاث مرات ، ونجا بجلده فقط ثم تخلّى عن معلمه عندما مات كأي مجرم . هناك شخصيات ظهرت مراراً في أماكن أخرى لا تتحطم تحت تأثير سلسلة من الضربات كهذه[١٦] ، ولكنّها تمر في التجربة إلى الاعتقاد والإيمان . وبدل التخلّي عن المعتقدات السابقة وفقدان الاحترام الذاتي ، الحيوي بالنسبة لنا ، تتلفّتُ - هذه الشخصيات - لإيجاد طريقة تَحِلّ التنافر والنشاز مع التمسك القويّ والاحتفاظ بمجموعة معتقداتها . يروي لنا (آرثر كِستلر) مثل هذه التجربة في كتاب (سَهم في الفضاء الأزرق)[١٧]حيث انقلب من ماركسيّ مُتردد إلى داعية إنجيلي) للإيمان الشيوعي . وفي صباح (أحد) عيد الفصح أنجز (بطرس) نفس القرار ؛ تَحوُّل جاء في تجربة بشكل رؤيا وطلع عليه فجرُ الحقيقة ليحلّ له مشكلاته . ويسوع لم يمت على كل حال ، لقد قام مرّة ثانية ورُفع إلى الله ليكون ساعده الأيمن في السماء وسيعود قريباً لتأسيس مملكته في القُدرة . وسرعان ما رُويَت تجربة بطرس للآخرين وكانت الهستيريا في مجتمع صغير من القوّة بحيث أنه في المساء ، وعلى ضوء الشموع ، ومع الإحساس بالخوف من الاعتقال والأمَل في تحوّلٍ متنامٍ في نفوس الآخرين أيضاً ، يبدو أن السيد المسيح دخل عليهم عبر الباب المغْلق ثم غادرهم . وهكذا خُتمتْ حياة يسوع . وتجربة الفُصح هذه كانت لحمة إيمان أوصلت يسوعاً إلى مرتبة الألوهية ونشرت تعاليمه في كل زاوية من الكرة الأرضيّة . ومن خلال كمال شخصيّة يسوع وخدمته في دعوته بالإضافة للعاطفة ، أنجز يسوع في الواقع التحوّل إلى الإيمان في يوم الفصح والأيام التي تلته . وهكذا انضم عُنصر العاطفة والمعقولية في الإنسان داخل الكنيسة بطريقة سلسلة التفاعلات المستمرة منذ ذلك الوقت .

وكانت الرؤى والتحوّل الإيماني بالنسبة للمسيحيين الأوائل ببساطة .. معجزات. يسوع كان حيّاً وهم شاهدوه ، الله زكى يسوعاً وأيّد أنّه هو ابنه ؛ وكانت المخطوطات الأولية كُلّها بشكل : « شوهد » ..، وبعد نصف قرن أضاف (لوقا) و(يوحنّا) بعض القصص التي أكّدت واقعه المادّي : كيف أن الحواريين أكلوا معه ولَمَسَهُ المتشكّكون . وكُرِّس التفسير الإعجازيّ لهذه الأحداث عبْر القرون وأصبح عزيزا على كثير من المسيحيين . لكنّها لم تكن إلّا الفجوة الأخيرة التي ملأها إله الفجوات . كُنّا نقول ان العلم لم يُفسِّر القفزة من القرد إلى الإنسان . والآن كثيرا ما نردد : العلم لم يُفسّر قِصّة « قيام المسيح » . حسناً ، كذلك لم يُفسّر العلم تماما موضوع (الظهور)؛ ولكن كما أشرتُ، هناك تفسيرات نفسية ، ولا تنقصنا السُّبل لتفسير تَنَامِي الروايات عن قيام المسيح . فهل من الحكمة لنا أن نجعل إذن من التفسير الإعجازى مبدأ (الخندق الأخير) للدفاع ؟ لقد آضطررنا ان نتخلّى عن كثير من (الخنادق الأخيرة) ؛ والتفسيرات الطبيعيّة حيث يمكن طرْحُها ، هي بالتأكيد أفضل على أساس (موسى أوكّام – Occamś Masor) . بالاضافة إلى أن ذلك التفسير الطبيعي يتناسق مع كل ما خبرناه بالنسبة لله فهو يعمل من خلال الطبيعة ويعطي المسؤولية لعالمنا بما فيه كنيستنا ، ولنا .

وكل ما قلته عن يسوع يمكن من أوْجُه عِدّة (للإنساني غير المؤمن) أن يقبله؛ فالإنسانيّون يعتقدون أيضاً بسُموّ المحبّة وقد يكون (إنساني Humanist) غير مُتحيّز مستعدّاً ليرى ويُعجب بيسوع كمصدر تاريخيّ رئيسي لأوّل التعاليم الفائضة بالمحبّة ، وتحقيقها عمليّاً في مجتمع بشرى ؛ على كل حال أنا لست (إنسانيّاً) بهذا المعنى وكان غرضي من استعمال جملة (رجل القدر العالمي) هو للحفاظ على الاستهلال الإلهي في يسوع . وبينما (تَعَلْمَنَتْ) بصورة عامة كلمات مثل (دعوة) و(قَدَرَ) لِحَذف أية صلة لها بالإرادة الإلهيّة ، فالمسيحي لا يراها كذلك ، فبالنسبة له قدرههو القدرالذي اختاره الله له ، وأنا

أفهم يسوعاً على أنّ قدر الله هو الذي سيّره لتأسيس مجتمع المحبّة بدون أنانية في العالم ، وهذا المعنى للقَدَر هو المفهوم المسيحي للكلمة . بعض المسيحيين الأكثر تقليدية يرون أنّ الله في تفاعل مستمر مع الإنسان داعياً كل فردٍ لأعمال معيّنة تبعاً لما يستجدّ في هذه الحياة من أحوال ، مُقدّماً نعمتَه التي من خلالها يقوم الإنسان بتنفيذ إرادة الله؛ كما يقول (أ . م فارير) : مثل معلم نَسج السجاجيد الشرقيه الذي يستطيع أن يضمّ في تصاميمه الأخطاء التي يرتكبها تلامذته ، كذلك الحكمة الإلهية تَضُمُّ في خطّتها النامية نتائج الخطايا . وحسب هذه النظرة للقَدرَ، تكون حياة يسوع العمل الإلهي الأمثل ؛ فعندما آن الأوان ، كشف الله ليسوع قدره وكان يسوع مطيعاً حتّى في موته على الصليب – أي أنه تجاوب يوماً بيوم للنظرة المتوسعة باستمرار والتي كان يتطلّبها قَدَرُه – .

وبعض المسيحيين الأقل تقليديّة يرون ان الله هو في علاقة مستمرة قويّة مع الكون ولكن بدون تفاعل وتبادل . لقد وضع الله العالم على الطريق الصحيح وفيه نظام من ذاته لتنميته المتطوّرة ، ومن جُمْلَتِه ظهور الإنسان وفي تركيبه الفطري تجاوب ديني مع الحياة ؛ كذلك ظهور بعض الناس بمشاعر دينيّة أدق وأعمق من غيرهم؛ وكان لابد من ظهور أناس فيهم أعلى المستويات من المشاعر الدينيّة ، وصدَفَ أنهم كانوا بني إسرائيل . ومنذ وقف العالم على قدميه لم يتدخل الله بعد ذلك فيه ولكنّه يُراقبه بشوقٍ وعناية ومحبّة منتصراً في تجاوب الإنسان الحُبّي، متألّماً مع عذابه . وفي مثل هذا العالم وبمثل شعب بني إسرائيل (النخبة الأولى) كان لابد من ان يقع القدر على واحد من بني اسرائيل ليبدأ مجتمع المحبة العالمي : ولم يكن من الممكن ممارسة مثل هذه الدعوة قبل ظهور درجة معيّنة من النضوج القومي ؛ ثم انفتح الباب لأي إسرائيلي له القدر الكافي من الولاء والإخلاص والشجاعة والتوجّه الشديد نحو الهدف ، ليتجاوب مع هذه الدعوة ، وكان الرجل الذي قبل التحدّي هو يسوع .

ويجب الملاحظة أنه في أيّ من النظرَتيْن يمكننا ان نتكلّم كما يجب عن حياة

يسوع كعمل من أعمال الله . ففي النظرة الأولى عَمَلُ الله هو الإيحاء المباشر ليسوع . ربح الجنرال (مونتچومري) معركة العلمين ولكنّه كان يحارب حسب الأوامر الصادرة له ، وبالتعاون المُفَصَّل مع الجنرال (ألكسندر) الذي أرسل برقية لإنكلترا يُعْلِناً ان العدو قد أُجليَ عن شمال افريقيا .

و(شارل الثاني) بنىٰ كاتدرائية القديس (بطرس) بَعْدَ حريق لندن مثلما فعل (كرستوفِرْسن) ومساعده التنفيذي . وتعوَّدنا ان نتكلم عن عمل واحد يُنجزه شخصان مختلفان حيث يكون واحدهم مُهتمّاً بتفاصيل القرارات والأعمال والثاني بإعطاء الأوامر والإلهام والتصميم والدعم(١٨) .

وفي النظرة الثانية يعمل الله من خلال يسوع بصورة غير مباشرة . في عام ١١٧٠ نادى هنري الثاني : من يُخلّصني من هذا الكاهن المشاغب ؟ لم يأمر(فيتز أورس) والفرسان الثلاثة الآخرين لقَتل (بكيت) في (كنْتر بري) . لقد صدف انّهم هم الذين فهموا أمر الملك وأطاعوه . نحن لا نناقش عدالة البابا في أمره بجلد (هنرى الثاني) كعقاب ، كذلك في طرد الفرسان الأربعة من الكنيسة . فلقد كان العمل – القتل – من صُنع الجهتين معاً .

وفي كل هذا قمت بدورة كاملة حول الدائرة لأعود للإيمان البدائي للكنيسة في نصّ (رسالة بولص الأولي للرومان – 1.3.f) وفي (الكتاب الخامس للعهد الجديد تأليف لوقا 2,13) والذي سأتوسع فيه في بحثي الثاني ، لدراسة المسيح كوكالة وليس كمادّة . وفي القسم الأخير من العهد التوراتي ظَهَرَتْ ، وأرجو أن أبيّن ذلك ، دراسة ثانية للمسيح عن تجسّد أقنوم الله في المسيح ؛ وكانت هذه هي التي قُدِّست في الكتب الدينيّة ، مع كل مشاكلها ، على يد آباء العقيدة . والمادّة فيها هي جزء من النظرة العالمية لأواخر الإمبراطورية الرومانيه وتضمّ متناقضات لا يمكن حَلُّها . وإيماني هو ليس ف وحده المادّة بل في وحدة أعمال الله ويسوع (وحده الممارسة – Homopraxis)، إذا أردنا بكلمة إغريقيّة وليس

(وحدة الشخصين Homoousia) . هكذا كان المفهوم – كما تقول لنا الوثائق ، عن يسوع نفسه ، والقديس بطرس : وهذا سيُوفّر درباً حول الجبل لمسيحيّ اليوم .

NOTES

1. I see this anecdote has also been used by F. Borsch in *God's Parable*, SCM Press 1975, p. 1.

2. See J. Ridley, *Thomas Cranmer*, Oxford University Press 1962, pp. 1–12.

3. Caution is needed in applying this criterion. There may be things which embarrass us, or embarrassed Matthew and Luke, which did not embarrass Mark at all.

4. The foreign words may have been retained by Mark for use by Christian healers, but this would not imply their creation by him; cf. D. E. Nineham, *Saint Mark*, Penguin Books 1963, pp. 162, 204.

5. See J. A. Emerton, '*Maranatha* and *Ephphatha*', *Journal of Theological Studies*, vol. 18, no.2 1967, pp. 427ff. The same mood of the same verb comes in Isa. 35.5 (*tippathahna*), 'The eyes of the blind shall be opened, and the ears of the deaf *unstopped*.' Using the rare word *mogilalos* for the dumb man in the story, Mark shows that he thinks of it as a fulfilment of Isa. 35. If the Semitic word goes back to Jesus, it is evidence that he saw himself as fulfilling Isaiah's prophecy of the coming of God to save.

6. R. Bultmann suggested that such words were 'stylistic elements' in the telling of miracle stories (*The History of the Synoptic Tradition*, second edition, Blackwell 1968, pp. 213f., 222), but this does not seem to show that they are unhistorical. Their use in church healings might be rather limited.

7. Paul sees the apostles as Jesus' delegates, continuing the use of his authority; the prophets as inspired to speak as he spoke under God's inspiration; the teachers as continuing his teaching. On the other hand, speaking with tongues is new, a gift of the Spirit. For continuity in healing, cf. Acts 9.34, 'Aeneas, Jesus Christ heals you.'

8. An exception is I Enoch 1–36, 91–104.

9. Mark's reticence can be interpreted in a quite different sense, viz. that Jesus' Messiahship was an invention of the church, covered over by Mark with the device of a Messianic secret, divulged first by God and the demons, understood slowly by the disciples and finally by the centurion: cf. Wrede, *Das Messiasgeheimnis in den Evangelien*, Göttingen 1901, ET, *The Messianic Secret*, James Clarke 1971 For a recent criticism of this theory see E. Trocmé, 'Is there a Markan Christology?' in *Christ and Spirit in the New Testament* (ed.), B. Lindars and S. S. Smalley, Cambridge University Press 1973, pp. 8ff.: it is especially striking that Jesus' commands to silence are so often balanced by commands to proclaim later in the gospel. Mark thought the mystery of the kingdom had to be first hidden and then revealed (cf. ch. 4); and it is easy to believe that his theory was rooted in what actually happened. For a full discussion see G. Minette de Tillesse, *Le Secret messianique dans l'Évangile de Marc*, Paris, 1968.

10. For recent defences of this highly controversial statement, see J. Coppens, 'Les Logia du Fils de l'Homme dans l'Évangile de Marc', in *L'Évangile de Marc* (ed.), M. Sabbe, Louvain 1974, pp. 487–528; cf. B. Lindars, 'Re-enter the Apocalyptic Son of Man', *New Testament Studies*, vol. 22, 1975, pp. 52–72. There is a good criticism of attempts (*a*) to dissociate Jesus from the use of Son of Man as a title (e.g. by G. Vermes, Appendix E to M. Black, *An Aramaic Approach to the Gospels and Acts*, third edition, Oxford University Press 1967); (*b*) to limit his use of Son of Man to this-world contexts (e.g. by E. Schweizer, *Erniedrigung und Erhöhung bei Jesus und seinen Nachfolgen*, ET 1960); or to future contexts (e.g. by R. Bultmann, *The History of the Synoptic Tradition*); in F. Borsch, *The Son of Man in Myth and History*, SCM Press 1967.

11. The one like the son of man is sometimes interpreted, e.g. by J. Barr in *Peake's Commentary on the Bible* (ed.), M. Black and H. H. Rowley, Nelson 1962, pp. 597f., as of the angel of God's people, rather than as the people itself (and its leader). But 7.26f. is in close parallel to 7.9–14, and the interpretation of the evangelists is plainly of the earthly leader's humiliation; so if Jesus used the concept, he is likely to have read it as they did.

12. It is often suggested, e.g. by D. E. Nineham, *Saint Mark*, p. 392, that the word was the church's 'reverent conjecture', derived from the Lord's Prayer. But it is more likely that the case is the other way round: that the Lord's Prayer is composed by Matthew from Jesus' prayers in Gethsemane and teaching on prayer (Mark 11.25) – see my *Midrash and Lection in Matthew*, SPCK 1974, pp. 296–301.

13. J. Jeremias, *The Prayers of Jesus*, SCM Press 1967; cf. G. Vermes, *Jesus the Jew*, Collins 1973, pp. 210–13. But Abba is not the same as 'Our Father in Heaven', and the single text Vermes offers (b Taan. 23b) does not provide an instance of God being addressed as Abba

14. See above, note 9.

15. Cf. L. Festinger, *When Prophecy Fails*, Minneapolis 1956; *A Theory of Cognitive Dissonance*, Evanston 1957; W. Sargant, *Battle for the Mind*, London 1957.

16. S. de Sanctis, *Religious Conversion*, London 1927.

17. Koestler, *Arrow in the Blue*, London 1952.

18. Cf. G. D. Kaufman, *God the Problem*, Harvard 1972, ch. 6.

الفصل الرابع

أصلان للأسطورة المسيحية

بقلم / ميكائيل غولدر

بدأتُ الفصل الأخير بآعتراف عن سيره حياتي : ففي بدء خدمتي الكهنوتيّة كنتُ لا أزال مؤمناً (مرتعشاً) بالأرثودوكسيّة « الشالسيدونية » -. يسوع كان هو الإله الإبن من نفس مادة الأب .. جاء من السماء؛والمعتقدات المُرتعشة لا تستطيع تغيير نفسها - فهي تتقوّىٰ يوميا بترديد الطقوس . وعندما التفتُ إلى الوراء أظن أنّ أصلب خشبةٍ تَرَكّز عليها اعتقادي كان المقطع المعروف في إنجيل (يوحنّا - ١) (تحوّلت الكلمة إلى « لَحْمٍ » وعاشت بيننا) . لم يكن الأمر مقتصراً على ذلك بل كانت هناك جُملةٌ مماثلة (في الرسائل الكولوسية والرسائل الفيلبيّة-2) . وتلميحات في رسائل (بولص) وفي (العبرانيات) . من أين جاء (يوحنّا) بهذا الاعتقاد ؟ ليس من يسوع (كان زميلي مُصيباً حتّى الآن) . كنتُ أعرف انّ (بولتمان) فكَّر في أسطورة المنقذ لطائفة « العارفين » ، وآخرون تكلّموا عن (الرجل السمائي) في الأفكار الفارسية القديمة أو الوجود المُسبَق « للحكمة » في (العهد القديم) ، إلا أنّها كُلّها لم تكن مقنعة تماماً ولقد آنتقدهُم بحَّاثة محترمون . وكان الجواب يبدو واضحاً : لقد استنبط يوحنّا هذا الاعتقاد عن طريق الإلهام ؛ كالعالِم الذي يُطْلِق لعقله العنان في تدقيق وتحليل العوارض لمشكلة غير محلولة فيقع في فرضيّة معقولة تجعله يُنادي في « حمَّامه » هيوريكا !!! وَجَدْتُها ! ، كذلك الحواريّ يُوحنّا .. في صلاته ، أو على الأرجح ، .. والقلم في يده، وهو يجاهد لينشر الإيمان في أبرشيّته ... رأى فجأة بوضوح لا خطأ فيه ... الحقيقة حول المسيح والتي « زاغت » منه قبلاً . كان « كلمة » الله وأصبحت الكلمة (جسداً) . والملابسات التي تما في

أجوائها معتقد (يوحنا) ضبابيّة ، والضباب له صيتٌ غير حسن في تَبَنّي الغموض ؛ إلا ان نظرية « الإلهام » كانت ... أحسن ما يُوجد في الساحة ؛ وكنت أظنّ أن بقاء الاعتقاد بالتجسّد ، حتّى ولو كان من الصعب على القائلين به التوضيح التام ، أفضل من إزالة هذه الأسطورة .

والدراسة التاريخيّة هي العَدُوّ الذي لا يرحم لهذه النظرية في الإلهام : فعندما نُزيل الضباب يزول الغموض ويظهر كما اعتقد أصلان لهذه الأسطورة المسيحيّة أي الرواية المسيحية لما جرى ويجرى وراء الكواليس في هذا العالم . الأصل الأول الأسطورة الجليليّة (نسبة للجليل) في فلسفة الحشر والنشر التي نشرها يسوع والمسيحيّون الأوائل . والأصل الثاني : الأسطورة السامرية في فلسفة طائفة « العارفين » ، وهي أقلّ شهرة ، ولها سأُخصّص الجزء الرئيسي من هذا الفصل . وكما أوردْت رواية يسوع ، نحن نقوم بإعادة بناء التاريخ ، ومثل هذه العمليّة لن تكون أبداً أكثر من احتمال ، هناك محاولات أخرى في إعادة البناء تُشير إلى نفس الاستنتاج على المستوى العقيدي. وفي الواقع وصل زملائي المشاركون في تأليف هذا الكتاب إلى نفس النتائج من طُرق أخرى ، وربّما كانوا يُفضّلون تلك الطرق؛ ولكن طريقتي هذه هي التي أقنعتني أوّلا ، وأقدّمها آملاً ان يجدها القارىء أيضا مُقنعة .

في الجملة الافتتاحية (البرنامجيّة) في الكتاب الخامس « للعهد الجديد » يميّز (لوقا) أربع مراحل في تقدّم الكنيسة في القدس ، في الجليل والسامرة ، وإلى آخر ... الأرض . ستّة فصول مُخصّصة للدعوة في القدس (7 - 2) واثنان للدعوة في الجليل (18. 11-8.26-40,9,32) ، وستّة عشر فصلاً للدعوة خارج فلسطين (28 - 13) . أما الدعوة في السامرة فهي محدودة باثنين وعشرين جملة (25 - 8.4) . صورتان فريدتان لقصة السامرة تُثيران التساؤل(١) . لماذا كان على السامريين أن يَنالوا « تثبيت الحواريين » : فالتّعميد – أو العمادة – في أماكن أخرى من الكتاب الخامس للعهد الجديد تَنْقُلُ هديّة الروح القُدُس دون ذِكر

وَضْع الأيدي ، ودون حاجة لأي عملٍ من قبل الحواريين ؛ وفي نفس الفصل نرى ان فيليب نفسه عمّد « الخِصْي » بدون الإثنين معاً : وَضْع الايدي وتثبيت الحواريين . ماذا كان المقام الحقيقي (لسمعان) ؟ يقول لنا (لوقا) أوّلاً أنه ادّعى « أنّه قُدرَةُ الله التي تُسمّى كبيرة » ، « شخص كبير » (الكتاب الخامس للعهد الجديد – 8.9f) ؛ والتي تَعني ، على ما يظهر ان (سمعان) فَكّر انّ الله تجسّد فيه ، وبعد ذلك يظهر أن (لوقا) خَفّف هذا التجديف والكُفر إلى معنى لا ضرر منه نسبيّاً فقال إنه كان « ساحراً » وربّما كان التفسير الأخير ضروريّا ليُبرِّر قبول (سمعان) في الكنيسة؛ إلاّ أن الادّعاء الأوّل هو الحقيقة المُزعجة التي تظهر في تاريخه المتأخرِّ ؛ رُبّما لم يَكُنْ لُوقا مُجبراً على ذكر السامرة في مقدمته ؛ يَبْدُو أن الدعوة في السامرة كانت إحراجاً له . كانَت من الأهمية الكافية بحيث لم يكن من الممكن ذكرها عابراً ، مثل الدعوة في الجليل ، ولكن لم يكن هناك أيّة قِصّةٍ مُرْضية تماما تُرْوَىٰ عنها؛ ورُبّما يمكن تشبيه ذلك بالرواية الماركسية لتاريخ الثورة البلْشفيّة في موقفها من قِصّة (تروتِسْكي) .

والانطباع هو أن البعثة في السامرة كانت ناجحة ، ولكن كانت لها أوجه لا تصلح للذكر؛ وإثبات ذلك من ملاحظات (هيجيسيبّس) (عام ١٦٠ ميلادية) المحفوظة في (أو سوييوس)(٢) :

« بعد ما استشهد جيمس العادل عُيّن (سيميون) بْطريركاً . كانوا يُسمّون الكنيسة عذراء : لأنّه لم يُصِبها الفساد حتّى ذلك الوقت بالتعاليم الباطلة . إلا أن (نيبوثيس)، وبسبب عدم تعيينه بطريركا ، بدأ يُفسِدُها سرّاً مع الطوائف السبع من الناس (اليهود) الذين كان هو نفسه مُنتمياً إليهم ، ومنهم جاء (سمعان) (وسُميّت جماعته بالسمعانيين) ، و (كِلِيُوبُيوس)و(دوسيثيوس) و(غورثيوس) و(المسْبُوطيُّون) . وتفرع عنهم (الميناندِرْيان) و(المارْسيّان). .

ويترك (هيجيسيّس) انتماء (ثيبوثسْ) مجهولاً ، ولكن ليس هناك شك في الطوائف الخمس للجيل الأوّل والعديد من طوائف الجيل الثاني الذي يدَّعى أنّ (ثيبوثس) خَلَفَها . ويقول (لوقا) عن (سمعان) إنه (سامري) ، و(جوسْتَان) - وهو سامري - يُسمّي مَسْقَطرأسِ سمعان قرية (جيّتو)[٣] . ويشترك (كلوبيوس) مع (سمعان) في الـ(ديداسْكاليا[*])[٤] . و(دويسيثيوس) هو زميل لسمعان في الـ(كْليمانْتين)[٥] .

وفي عدة نصوص جاءت بعدها ، يُقال عن (أوريغن) وغيره أنه (سامرى)[٦] ويجمع إيفانيوس الكورانثين واللوسيثين والسيبُوِيّين (ويُظن أنهم المسبوطِيّون) كثلاث من أربع طوائف مسيحيّة سامريّة[٧] . ويقول لنا (جوستان) أن (ميناندر) كان أيضاً سامريّاً من قرية (كاباريتيا)[٨] . والطوائف غير الأرثودوكسية في (هيجيسيبس) كلها سامرية الأصل . لذلك يظهر أننا نستطيع ان نقول بأمان إنه في الخمسينات من التاريخ الميلادي كان في القدس حزب كبير من المسيحيّين السامريين ولكنّهم فشلوا في تعيين مرشحهم كبطريرك بعد استشهاد (جميس)، وفي العقود التي تلت ذلك أصبحوا نواة لطوائف متكاثرة .

ويظهر مدى تأثير السامريين في المنحَى العام للمسيحيّة من عدد المرات التي يظهر فيها تناسب إيجابي في التفاصيل بين توراة السامريين، والترجمة الآرامية المفسّرة للعهد القديم (MTLXX)[٩]، خاصّة في إنجيل (يُوحنّا)، وفي كتاب (لوقا) (الكتاب الخامس للعهد الجديد - 7) مناسبة خاصة تُردَّدُ كثيراً ، ولكن من الخطأ تحديد التأثير السامري بحديث (اصطفان) : « النص المسيحي

---

* الديداسكاليا Didascalia : أمْرٌ كَنَسيّ - من التعاليم الكاثوليكة - للحواريّين الاثني عَشر يُقَال إنَّ واضِعَهُ هو طبيب تَحَوَّل من اليهودية ، والتاليف كان في شمال سوريا في القسم الاول من القرن الثالث الميلادي .

السامري » ، مثلا في الكتاب الخامس لموسى(*) (١٠) الذي لم يستَعملهُ الحاخامون إلاّ نادراً ، يُذكر تحت اسم بطرس في (الكتاب الخامس) للعهد الجديد في 3.2) وكذلك في (737) وكذلك في (إنجيل يوحَنّا 1.21) وغيره . ويُظهر (يوحنّا) بخاصّة تعاطفاً مع السامريّين . وله كذلك خلفيّة مُفصّلة. فالجزء الأكبر من الفصل الرابع مخصص لرحلة يسوع في زيارة امرأة في السامرة دخلت المسيحيّة وأدخلت معها مواطنيها بمقابل الحوار الأقلّ نجاحاً مع (نيكوديموس) في الفصل السابق . والتَعَبُّد في (جيريتزيم) يُقال إنّه خطأ ، ولكن هذا ما يقال أيضا عن التعبّد في القدس : الإنقاذ هو لليهود ، ولكن ادعاءات السامرة تستحقّ التنفيذ . وفي إنجيل يوحنّا (8.48) يقول اليهود ليسوع : أَلَسْنا على حقٍّ حين نقول إنك سامري ومعك شيطان ؟ وهذا يُثير التعليق على أنّ كنيسة (يوحنّا) نفسها في (إيفيسُوس) كانت مُتّهمة من قِبل اليهود بأنها مصابة بعَدوى الفكرة السامريّة . وفي إنجيل (يوحنّا 1) نرى بدل الحواريين الخمسة المذكورين أوّلاً في الكتب المقدسة (بطرس ، اندراوُس ، جيمس ، يوحنّا ، وليفي) حوارياً غير مُسمّىً : إندراوس وبطرس وفليب وناتانيال . والحواري فيليب ، كانت تعتقد الكنيسة الإفيزيّة عام ١٣٠ م أنه فيليب الداعية المسيحي للسامرة(١١) . و(ناتانيال) موعود برُؤية ملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان وهذه إشارة واضحة لرؤية يعقوب في (بيثيل) المعبد السامريّ(١٢) . و(ناتانيال) هو صيغةٍ عِبريّة لدوسيثيوس : ناثان = دوسّي = ومعناها أعطى ، و(إل) = ثيُوس = معناها (الله) .

ويجب أن اقول كلمة في الرسائل العبرية . فلقد سَمّى اليهود أنفسهم بعض الأحيان (عِبريّين) (Heleraic)(١٣) ولكن السامريين الذين لم يكونوا (أيوديوى Ioudaioi)(**) يستعملون اللفظ مراراً ، وهذا يُوحي بأن

(*) (Deuteronomy) – هو سِفْرُ التثنية .

(**) وتعني الكلمة (يواداسيّين) .

الرسائل العبرية كانت موجَّهةً للسامريين المسيحيين . ويثْبُتُ ذلك في الحقيقة الغريبة ان الجدل عن الفداء في الرسائل مأخوذ من « المعبد » وليس من (الهيكل)، لأنّ السامريين كان لهم فقط (البِنْتاتُوش) (الكتب الخمسة الخاصّة بموسى) بمثابة الكتاب المقدس وهكذا آحترموا (المعبد) واستفظعوا (الهيكل) في القُدس . أبطال الدين في (الرسائل العبريّة رقم ١١) ... كذلك ... وحتّى ف المُلحق – ولا يسمح لى الزمن بالرواية – ؛ الكُتُب الخمسة وكتاب (جوشوا) ، كانت هي الكتب التوارتيه المقبولة لدى السامريين ؛ وهناك لوائح مماثلة لأبطال المعرفة موجودة في المراجع السامريّة[١٤] .

كان الرأي الغالب والواثق للآباء ان المعلّمين السامريين كانوا أوّل فئة من العارفين[١٥] . ويروي (إرينيوس) نَفسه بتفصيل عن السمعانيين (أتباع سمعان)[١٦] ، ويروى أسْطراً قليلة عن (الميناندريّين)[١٧] تدعم هذا القول . (ميَنانْدِرْ) وتلميذه (ساترنيلوس) درساً في أنطاكية ، و(باسيلدس) ، وهو تلميذ آخر (لمينانِدر) ، سَكَن ودَرَّسَ في الإسكندرية[١٨] حيث نشر(سمعان) و(دوسيثُيوس) عقائدهما قبلاً ، حَسَبَ رأى (الكليمانتيين)[١٩] . لذلك يظهر من النظرة الأولى ان هناك أساساً في العهد الجديد وتقاليد الكنيسه للإدّعاء بأن المسيحيّين السامريّين كانوا طائِفةً قويّةً في كنيسة القرن الأوّل ، وان طائفتهم نمت وشكّلت طائفة العارفين في القرن الثاني . وكانت هذه الطائفة تُشكّل تحدّياً لمسيحيّة الجليل في كل مكان ، ولكن يظهر أنها ، منذ البداية ، استأثرت بمصر وشرق سورية[٢٠] . ومن قراءتنا للكتاب الخامس في العهد الْجديد ، قد نظنّ ان دعوة الكنيسة آمتدت فقط شمالاً وغرباً : إلا ان الستار يُكشفُ في آخر القرن الثاني لنرى الكنيسة مِثل الأشجار المُزدهرة ... فروعها ليس فقط في إيطاليا واليونان وآسيا الصغرى (ميدان عمل القديس بولص) ، ولكن فوق كل سوريا ومصر - وفي البلد الأخير مسيحيّة غير أرثودوكسيّة لاهوتها هو لاهوت (المعْرِفيّين Gnostics) –؛ والهَدَف مِنْ هذا الفصل هو الجَدَل في :

(ا) إن معرفتنا تُمكّننا من رسم صورة مُحتملة الحدوث لدى أية مواجهة مع المسيحيّة .

(ب) إنّ وثائق العهد الجديد – الأناجيل – هي انعكاس لجدَليّة وصل فيها الإنجيل البدائي لفلسفة الحشروالنشر إلى تركيب مماثل لهذا الموقف .

والصعوبة الرئيسيّة في الدراسات السامريّة هي في التاريخ المتأخِّر لأكثر شواهدها : فبأستثناء الكتب السامريه الخمسة والترجمة الآراميّة للعهد القديم وبعض المراجع القليلة غير السامرية ، نحن نعتمد على وثائق من القرن الرابع الميلادي ، وأهمُّها (تعاليم ماركاح) ، وما بعده . بعض الطقوس السامرية قديمة ولكن لا يصح ان نجادل بأن السامرين مُحافظون ولهذا لم يُنَمُّوا كثيرا أفكارهم وعقائدهم ؛ وإذا أردنا ادّعاء أي شيىء عن تعاليم السامريّين في القرن الأوّل ، علينا إذن إمّا ان نُظْهِر ان موقف (ماركاح) والطقوس هي جزء من المعتقدات الأوليّة لهذه الطائفة ، أو أن نقدِّم إثباتاً بأن هذه المواقف هي التي اتُّخِذتْ فعلاً في السنوات الأولى،وفي هذا المقام للسجلات المدوّنة عن (سمعان) أهميّة خاصة بالنسبة لنا لانه كان من زعماء السامرين الذين دخلوا في المسيحية .

والقطيعة بين القدس والسامرة حدثت بالتدريج خلال قرون بدءاً ببناء معَبد مستقلّ على جبل (جريزيم) في عهد الإسكندر(٢١) . ولقد استولي السامريون على الكتب المقدسة اليهودية الخمسة وعَدَّلوا ، بحدود ، بعض نُصوصها . وأكثر محتويات هذه الكتب يرجع تاريخه إلى ما قبل يوسف ، لذا لم تُثِرْ أيّة صعوبات . ولم تُذكر القُدس فيها إلا ان (شيخيم) و(بيثل) ... المركزان السامريّان ذُكِرَتا تكراراً في كتاب (سفر التكوين) ، وتُحبَّذ العبادة مراراً ، في (سفر التثنيه) على جبل (جيريزيم) وجبل (إيبال) فوق (شيخيم) .

ولقد قُبل (جوشوا) عندما كان يُوزّع الأراضي في (شيخيم) وجدَّد العهد هناك . وفي آعتقاد السامرين ان المشاكل بدأت لمّا نقل (إيليّا) المعبد المُقدس

إلى(شيلوح). وانحياز تواريخ (سِفْر التثنية) - وهي بشدّة ضدّ الشمال - بدءاً (بالمحاكمة 17) وما بعدها ، جعلها - أي هذه التواريخ - غير مقبولة كجزء من الكتب المقدسة . ولم يكن كُتّابها من الأنبياء أفضل حالاً : لذا فتوراة السامريين مؤلف من (الكتب الخمسة - Pentateuch) فقط، وبرأيهم ان الوحي انقطع بعد موسى . وهذا الاختلاف الأساسي مع اليهود يُؤدّي إلى ثغرةٍ لاهوتيّة هامّة : لقد كان رأي اليهود أنّ الله فاعلٌ في التاريخ ولقد أطّلع الأنبياء على فِعْله في الثواب والعقاب في الماضي واستمرّت فاعليّته في الحاضر في المعجزات التلموديّة و(الصّوت الآتي من السماء Bath Qol) رغماً عن عدم وجود أنبياء للتنبّؤ به . ويرى السامريون ان الله آنسحب من التاريخ . ولفترة ما بين (موسى وجوشوا) كانت فترة السرور الطيّب .. عندما كان فاعلاً . وبدأت فترة انكفائه من عهد (إيليا)، حيث لم يفعل شيئاً؛ أقَلُّ المجتمعات يعتمد إذن على قدوم عهد جديد من السرور الطيّب عندما يعود فاعلاً من جديد . ولا تنتشر هذه العقائد انتشارا واسعاً في أدبيّات السامريين ، وبأسلوب ضمني في بعض النصوص القديمه فقط(٢٢)؛ بل تَتَجتْ، منطقيًا، عن رفضٍ كاملٍ للتنبُّؤات اليهوديّة ومن الممكن في ضوء ذلك فَهْمُ الخصائص الخمسة للاهوت السامريّين :

١ - بما أننا لا نستطيع ان نَتعرّف على الله تاريخيّاً ، كان الوحي هو الوسيلة وذلك مدوّن في الكتب الدينيّة ، ومن الطبيعي ان تكون هناك مقاطع أكثر إيحاءً من أخرى ، والفصول التي تأمّل فيها السامريون كانت غالباً في (سفر التكوين 1) و(سفر الخروج 34)(٢٣) . وهي تكشف بصورة خاصّة صلة الله بالعالم . فهو النور الأسمى ومصدر كُل نور في خَلْقِه(٢٤) . يقول (مركاح) مثلاً : استجيبوا للنور في أنفسكم وسينمو ليتحد بالنور الأعظم(٢٥) . و(سفر الخروج 34) مهم بصورة خاصة ، ففيه يكشف الله عن آسمه لموسى ، ومنه السِرّ النهائي ... لقومه. (مَقْطَعًا 7,6): « السيد ...السيد » بَليتا في بعض المخطوطات السامرية من كثرة ماقبّلها الناس(٢٦) . ويتكرّرُ هذا المقطع ويتردّد

مراراً في الطقوس الدينية .... إلى درجةٍ تُثير الغثيان : « يمكنك ان تقبض على كلّ شيء بيديك بسِرّ آسمكَ المُقدَّس، إسمك هو الغافر للظُّلم ،والانحراف والخطيئة ، الرحمن الرحيم والمهيمن ، المعين ، الشافي ، المُتحمِّل ، المتسامح »(٢٧) . وهذا التوسع في نصٍّ (سِفر الخروج 34) يشهد على تطلّع المجتمع للغفران حتّى تتوقّف وتنتهي عهود الأحزان ، كذلك يشهد هذا النصّ على موقف المجتمع من الكتب المقدّسة كوحي من الله ذي الطبيعة السريّة في الخلود أكثر ممّا هو الأمر بالنسبة لعمله الحاضر .

٢ - ويستتبعُ ذلك أن وحي الله يجب الحديث عنه كأسرار وخفايا ، ويجب الإكثار من ترديد حكمة الله ومعرفته : « كل من له عِلمٌ بالله فَلْيُفَكِّرْ » (٢٨) و« الذين يعرفون عنك شيئاً من خلال أعمالك يعلمون أنّك ربُّهم »(٢٩) « عَلِّمْني واجعلني حكيماً وزوِّدني بالمعرفة ووجِّهني »(٣٠) . هناك صفوة وهم الذين يعرفون : « كُلّ الناس الحكماء وكل الناس الفاهمين »(٣١) . وهناك تمارين يمكن من خلالها آكتساب هذه المعرفة أو ربما تأتي من طريق الأحلام :(٣٢) « لا يمكن لإنسان أن يرى الله إلّا عن طريق الحكمة »(٣٣) ويُنْتَظَرُ من الكاهن الأكبر أن يكون المسؤول الأوّل عن نشر هذه الحكمة .

وهذا المقطع القصير من (ماركاح) يعرض مَيْلَ السامريين لعقيدة (العارفين) :

ونترك هذه لأمورٍ تتعلّق بنا، لِنبحث عن أصول الحكمة ، لماذا لم يُكتب بعض أجزاء القانون بكُلّ الأحرف (الاثنين والعشرين) إذْ أنّها كُتبت في الواقع بغياب سبعة حروف . لقد كشفتها لكم قبلاً حتّى تستطيعوا الفهم (تتْ ، نُون ، سِمكَات ، فَاى ، سَادي ، كُوف ، تُو)، أمّا لماذا غَابت أحرف سَبعةٌ بلا زيادة أو نقصان فمن الأفضل لنا أن نتقصّى هذا السِرّ . مجموعها يُكون (٧٨٩) وهذا شيء يُخبرنا ويُعلّمنا ما يُفيد عن مسألة آنيّة ... كلّ واحد يُيَسِّر فهما للمرور لأنه يتكلم ويُكمّل نفسه بالمعرفة ، فالمعرفة نور يَشُعُّ في القلب (ميمار .VI.2)

وحتّى لو كانت هذه الجُمل بعد ثلاثة قرون من دعوة الكنيسة السامريّة ، فهي متماسكةٌ تماماً مع النظرة الأساسية للسامريّين عن إلهٍ لايُعرف من نشاطاته الحاضرة في القضاء والقدر بل من الوحى الذي أوحاه مرَة لموسى .

٣ - الإله الذي - إذا عرضنا الأمر بدون أي تبجيل - أضاع قُروناً منذ (إيليّا) عابِساً مُتَجَهّماً ... هو لا محالة إله .. بعيد وكثيرا ما يتحدث عنه السامريّون باستعمالهم أسماء معنويّة - قُدرة ، حقيقة ، رحمة ، حياة خالدة ...إلخ(٣٤) . فاسمُ (القدرة) مثلاً هو أساس يظهر أنّه أساس آدِعاء (سمعان ماغوس) (في الكتاب الخامس للعهد الجديد 8.10) « أنه قدرة الله الذي يُدعى الكبير »(٣٥) . والتوتّر بين الإله الذي يسحَبُ نفسه من التاريخ وبين الإله الذي يتجلّى لموسى يُعَبَّر عنه بلغة مُزدوجة فيتحدَّثُ عن الإله القديم الأزلي أو الربّ الإلهي أما أقنومه الذي يتجلّى فيتحدّث عنه بكلمة (المجد) . كتب (مركاح) مايلي :(٣٦)

« نشر موسى فقط الكتب المقدسة عندما أمره الله بذلك . فلقد تجمّع (المجد) والملائكة والإله الأزلي .. كلهم معاً عندما كَتَبَ بيده ووقف الآخرون لتكبير الوصايا والأمر بما يجب عملهُ . ظهر الربّ الإلهي وأسّس العهد . وظهر (المجد) وضخّم ماهو خير . وجاء الملائكة لِتكبير كلّ ما يَمُتُّ للمجد بصلة واجتمعوا كلهم من أجل آدم . والرب السماويّ خَلَقَهُ ونفخ فيه نفخة الحياة وأكملَهُ (المجد) بروح كبيرة ؛ وكِلاَهُما كان معتمراً بتاج من النور العظيم » .

والازدواجية الشديدة في المقطع السابق ظاهرة من :

(أ) استعمال التعبير البارز : « الإله الأزلي - Pristine God » .

(ب) ومن ذكر (المجد) قبله ، بين الملائكة .

(جـ) والنشاطات المتوازية للإله الأزلي (للمجد) بخاصة في عَملية خلق آدم .

(د) ومن تعبير (كلاهما) ولا يعني ذلك إلا (الإله الزلي) و(المجد) وفي الجزء الأوّل من هذا المقطع يذكر النصُّ إعطاء الوصايا والعهد في (سفر الخروج 34) : بيديه (سفر الخروج 34.1) ؛ وفي الجزء الثاني هو خَلْقُ آدم في (سفر التكوين 2) . وفي مثل هذا التوجّه التوراتي القوي للديانة السامريّة يجب أن نفتّش عن أصْل لهذه الازدواجية في نصوص التوراة ، والجواب في (سفر التكوين – 1f) وربما جاء من وجود آسْمَين للإله . ففي قصة الخلق (P) في (سفر التكوين 1) الإله (إيلوهيم Elohem) يخلق الإنسان ؛ وفي قصة الخلق (J) (لسفر التكوين 2) إنه الإله السيد (يهوه إيلوهيم) الذي يخلق الإنسان وينفخ فيه نفخة الحياة : روايتان عن الخلق واسمان لله ؛ ومن هنا جاءت الازدواجية في (الإله الرأس) .

(المقطع 34من سفرالخروج) ذكره (ماركاح) بِتفصيل قبل ذلك بقليل[٣٧] ، السيد ... إله رحيم .. حتى الجيل الثالث والرابع (6f) .

ويُعلّق :

عندما أعلن « الواحد » الحقيقي أوّل عشر كلمات أمامه – أي أمام موسى – ورددها « المجد » أمامه واستجاب – أي « المجد » – وأعلن أيضاً عشر (كلمات) . وعندما أعلن « الواحد » الحقيقي لم يسمح لموسى بإعلانها ، ولكن عندما أعلن « المجد » سَمَحَ لموسى بترديدها . وأوّل هذه الكلمات العشر التي أعلنها المجد كانت (يَهْوِه) وآخرها كلمة (إميت) سفر الخروج 34.6 le).

لدينا إذن مناسبة ثانية تظهر فيها لغةُ الازدواج في نفس نص (سِفر الخروج 34) ؛ ولكن هذه المرة ليس هناك روايتان ولا ذِكْر آسمَيْ الإله . لعلّ سبب الازدواجية راجع لأسلوب تشكيل الجمل في (سفر الخروج 34.5) : « ونزل (يهوه) في الغيم ووقف معه هناك ونادى آسم (يهوه)» والقراءة الحرفية للنص

توحي بالازدواجية : أول (يهوه) في الغيم هو « المجد » « للسيد » في الغيم المشار إليه في (سفر الخروج – 24.15f) ، والثاني الذي نادى الأول بآسمه هو (الواحد الحقيقي) ، ... الإلهالأزلي .

هناك نصوص متأخرة في أدبيات السامريّين تُؤكد وحدة (الإله الرأس) : فكيف يمكن التوفيق بينها وين الازدواجيّة الواضحة في (ميمار ماركاح – VI. 3) ؟ والتوترات المماثلة في التوراة وفي كتابات سَامريّة أخرى تُوحِي بالتغلّب التدريجي لفكرة الوحدانية الأرثودوكسيّة . وتغلبت عقيدة الوحدانيّة في بني إسرائيل في نفس الوقت الذي كانَتْ فيه نظرية تعدُّديّة الآلهة واضحةَ في (الإصحاح 89, 82) . وهناك مشابه لذلك في كتابات السامريين لاحَظهُ(هـ.ج كيّنبّرْج)[٣٨] . وفي أوائل العهد الميلادي آدّعى (دُوسيثوس) انه النبيّ مثل موسى ؛ وبعد ذلك تميلُ الكتابات السامريّة لدفن هذا الادعاء ولكنّها تُكرر السؤال الجدلي : من هو الذي يُشبه موسى ؟ . ربّما ، وبأسلوب مُشابه ، كان التأكيد على وحدانيه الإله في الديانة السامرية هو نفسه نتيجة تَذَكُّر لاتجاه ازدواجيّ سابق ، كما هو ظاهر هنا .

٤ – الآن النقطة الرئيسيّة بالنسبة لأهدافنا هي أن (سَمْعَان ماغوس) اعتبر نفسه تَجَسُّداً لشخصٍ واحد من هذا (المزدوِج) ، وهناك شواهد على ذلك في جبهةٍ عريضة ، تُظْهِر أن تاريخ مثل هذا المعتقد يعود للثلاثينات من القرن الأوّل وفي الجالية المسيحية السامرية نفسها ، ولقد ذكرتُ سابقاً الإحراج الذي أصاب (لوقا) من ادعاء (سمعان) أنه (شخصية كبيرة) ... « قُدرة الله التي تُدعى كبيرة » (الكتاب الخامس للعهد الجديد – 8.9f) ، ويُعلّق (إ. هينشن) :[٣٩]

اعترف (لوقا) بحق أن كلمة (كبير – Megale) هي لقبٌ مع أنّ كلمتي (Tou Theou) في (إنجيل لوقا 22.69) ماهي إلا بريق خادع في هذا المجال : لذا « فالقدرة الكبيرة » ليست إحدى قدرات الله بل الإله نفسه وسمعان لم يكن فقط شبيهاً بالمسيح بل آدّعى أنه أكثر من ذلكَ بكثير . ويُظْهِرُ

(كيّنبرجْ) أن كلمة (هيلا ربّاح heilah rabbah) التي توافق كلمة (megale dynamis) هي جملة من الآثار السامريّة[٤٠] .

وكتب (جوسْتانْ) وهو سامريٌّ الأصل يقول :[٤١] .

« كان هناك سامريّ يُدعى (سمعان) من مواليد قرية (جتّو – gitto) قام بأعمال خارقةٍ من السحر في عهد (كلوديوس قيصر) وفي مدينتكم الملكية روما . كان يُعتبرُ إلهاً ، وعلى هذا الأساس كرمتموه بصُنع تمثال له حَمَل هذه الكلمات « Simoni Deo Saneto » وكل السامريين وحتى بعضَ الناس من الشعوب الأُخرى ، عَبدوه واعترفوا به (الإله الأوّل) ، أمّا المرأة التي رافقتهُ في ذلك الوقت واسمها (هيلينا) ، وكانت عاهرة قبلاً ، فيقال انّها كانت أوّل (فكرة Ennoia) وَلَّدَهَا وسواء انخدع (جوستان) بالتمثال أم لا ، فلربما كان هذا التمثال لتمجيد (سيموسَنْكَوس) آلهة (ساين) ، فلا فائدة من التخمين ، لأن كل السامريين في روما آنذاك اعتبروا (سمعان) إلهاً وعبدوه . كذلك لم يكن سمعان على كل حال « التجسُّد » الوحيد للإله ، فلقد اعتقدوا بأنّ (هيلينا) هي تجسُّدٌ لأول (فكرة – Ennoia) . وهكذا يدعُمُ (جوسْتانْ) ويُوسِّع آثار (لوقا) عن (سمعان) كما يُفسِّرها (هِينْشِنْ) .

ولكن أليس من الممكن أن هذا يعني ببساطة أنّ (سمعان) تبنّى الفكرة البُولُصيّة عن « التجسّد » وطبّقها على نفسه ؟ والجواب هو : احتمال ضعيف لأنّ التعبير الذي استعمله (سمعان) عن نفسه ، كما روى (هيبّوليتوس) و (كليمانت)في الاسكندرية ، وأشباه الكليمانتيّن ، ليس – أي التعبير – بولُصيّاً ، فقد سمّى (سمعان) نفسه (القائم – Stans, Hestos, Qa ʻem) ومن الواضح أن هذا اللقب الغامض يُمثّل آدّعاءً بالألوهية .

كتب (كليمانت)[٤٢] عن أتباع (سمعان) : « الذين يريدون تكييف حياتهم بأسلوب يُناسِب « الواقف – أو القائم » الذي يعبدونه » ؛

(هيبّوليتوس)[٤٣] يتحدّث عمّن (يقف ووقف وسيقف) و (الكليمانتيّون) قالوا إنه كان يُدعى (الواقف) وهذا يعني أنني لن أذوب وأنحل فجسمي مُتكوّن من « إلهيات حتى يدوم أبداً »[٤٤] . ويُظنّ أن (هيبّوليتوس) نقل هذا من منشور (سمعانيّ) اسمه (Megale Apophaxsis)[٤٥] . والآن أصل اللقب مطروح أمامنا في (سفر الخروج 34) .. المقطع الذي أشرتُ إليه « ونزل السيد في الغيم ووقف معه هناك ، ونادى باسم السيد ؛ كذلك في (مركاح) في مقطع ذكرتُه سابقاً (المجد والملائكة وقفوا – Qàmu) وضخّموا الوصايا وأمروا بما يجبُ عمله » . كلمات عَشر قيلت في اسم الواحد إلهي ؛ ولكن ماذا قيل في (المجد) ، كما يسميه (مركاح) ، عن (يهوه) في سفر الخروج – وهو غير متميّز – ؟ قيل أنه وقف بجانب موسى . وهذه الفرضيّة عن الله هي التي يدّعي سمعان انها (التجسّد) ؛ ويأخذ اللقب من النصّ السامريّ الكلاسيكيّ عن طبيعة (الإله الرأس) ، نفسُ النصّ الذي نشره (مركاح) بصيغة ازدواجية . لذا فالازدواجية وعقيدة التجسّد كانتا من الأشياء المقبولة في العقيدة عند بعض السامريين الذين دخلوا المسيحية في العقد الأول من تاريخ الكنيسة .

٥ – توقّعات السامريين من المستقبل كانت أقلّ نُموّاً من مثيلاتها عند اليهود في أواخر ذلك العهد ؛ تقول المصادر اليهودية والمسيحية الأساسية إنّ السامريين لم يَعتقدوا بالبعث[٤٧] ، وكثيراً ما قرنوهم من هذه الناحية (بالسَّدّوسيّين)[*] . وهذا معقول تماماً لأن فكرة البعث غير موجودة (في الكتب الخمسة) ، وكانت الفكرة لاتزال تجديداً غير مُتفق عليه في اليهودية ؛ ولقد استمدّت فكرة البعث دفعها من تجارب حرب الماكابيين ومن نبوءة (دنيال) ، والأمران الأخيران لم يكونا جزءاً من حياة السامريين . والصورة الثابتة في فلسفة الحشر والنشر السامريّة هي العمر الأخير للسرور الطيّب للإله

(*) طائفة يهودية من ثلاث طوائف عاشت في عهد المسيح .

مشتركة مع يوم الثأر والمكافأة (وفي سِفر التثنية 32.35) « الثأر لي ... والمكافأة » وربّما أخذت هذه الجملة كما كُتبت بتعابيرها الدنيوية الخالصة . وتوضيحات هذا العنصر المُستمر متنوّعة ، وفي أغلب الأحيان ، متأخرّة . وأقدم فكرة كانت في الغالب « النبيّ الذي يشبهُ موسى » والذي كان مجيئه موعودا به[٤٨] (الكتاب الخامس – 18.2 ,18.15) لأن هذا النص قد حُشر في الكتب الخمسة للسامريين بعد الوصايا العشر (سفر الخروج – 20) ، وآدّعىٰ (دوسيثيوس) أنه النبيّ الذي يشبه موسى ، في القرن الأول[٤٩] وتلميذاه (سمعان) و(دوسيثيوس) لم يُفسّرا تعاليمهما بمعنى البعث بل بمعني عدم الموت« سمعان سيقف .. لن ينحلّ»[٥٠]و « دوسيثيوس .. لن يموت »[٥١] . ولكن نجاح طائفة (دوسيثيوس) سبّب آشمئزازاً ، ولم يذكر (مركاح) النصّ مطلقاً . عوضاً عن ذلك نرى كلمة (تاهيب) ... ربّما يجب فَهْمُها على أنّها تعني (المُصلح) .. وهو شخصيّة غامضة لالون لها في الأديّات الكلاسيكية للسامريين ، والذي جاء فقط في أواخر الأيام[٥٢] ؛ أو أن الفكرة عن موسى كانت في عودته ليكشف الهيكل المخبّأ على جبل (جيريزيم)[٥٣] أو أنّ مكانا وُجد ليوسف[٥٤] . ولانستطيع أن نفترض ، واثقين أنّ أية فكرة من هذه الفكر الأخيرة قد حظيت بالتداول الحُرّ في القرن الأول .

والآن ليس من الصعب رؤية أي نوع من العقيدة كان من الممكن أن تظهر عندما جاء فيليب للسامرة في الثلاثينات ومعه قصة حياة يسوع وموته وقيامه . وكان الصليب ، كما قال بولص ، العقبة الكؤود في طريق الإيمان : وليس ذلك عجيباً . وتعبير (خريستوس) يعني الملك المرسوم من نَسل داوود ، ووظيفة الملوك هي أن يحكموا . وعند مجيء المسيح فسيقود إسرائيل إلى النصر مثل -الجنرال شارون في- حرب سنة ١٩٧٣ م ، لتأسيس الامبراطورية اليهودية من

المغرب إلى أندونيسيا ، إلا أن فكرة « مسيح مصلوب » فهي متناقضة ويصعب إقناع الناس بها . وكنائس(بطرس) و (بولص) بّرروا التناقض بالاستعانة (بدانيال) ، كان على ابن الإنسان في (دانيال . 7) أن يتعذّب ، وأخيراً يشكو من آلام « الحشر » لمرّة ولمرتّين ونِصْف ، ثم يُرفع إلى مركز الساعد الأيمن لله ويُعطى مُلْكاً عالميًا . وتعذّب يسوع حقّاً وبقى ثلاثة أيام في القبر قبل بعثه ليصبح الساعد الأيمن لله : ويبقى سنوات قليلة بعد ذلك ، على الاكثر ، ليصل إلى (الحضرة) ويحاكم البشرية . وهكذا ، (مرقص) و(متّى) ، وبنظر كثيرين :(لوقا) و(بولص) ، وهو لاهوتي بالولادة ؛ كُلهم سُرُّوا .. بالتناقض : يا لِعُمق ثروات الله في الحِكْمة والمعرفة ! لقد أنقذنا المسيح من لعنة القانون الذي أصبح لعنة بالنسبة لنا ؛ وكان موته تضحية ، كان إلغاءً للقيد الذي وقف ضدّنا ، كان واسطة العفو عن الخطايا السابقة ، تضحيتنا في عيد الفصح لِيُخرجنا من مصر ، لقد أصبح هو خطيئة بالنسبة لنا ...إلخ . وقيامه كان تزكية من الله له .

كيف يمكن لأىّ من هذه أن (تقطع الثلج) في السامرة ؟ داوود لم يكن في توراة السامريين ، كان شبه مُرتدّ بدأ العبادة في القدس . وفكرة « مسيح » لم تكن عقيدة سامريّة ؛ والسامريّون لم يسمعوا (بدانيال) أو ابن الإنسان . كانوا يؤمنون في إعادة طقوس عبادة (جيريزيم) وليس هناك واحد يمكن أن يكون موته تضحية ؛ وقيامه ، كان في الغالب ، فكرة غريبة عنهم ، وفي مجتمع يُفكّر في أقنوم ثانٍ للإله الرأس ؛ وبتجسُّده كانسان ... كان على الدعوة المسيحية عاجلاً أم آجلاً أن تدَّعى ذلك – أي الأُقنوم الثاني والتجسُّد – في يسوع..؛ أو تفشل؛ ويمكن لفيليب البدء في الدعوة ليسوع كنبيٍّ مثل موسى ، ولكنه يجب عليه في النهاية أن يضارع (سمعان ماغوس) . لم يكن ليستطيع التحدّث عن يسوع كابنٍ يهوديٍّ لداوود ، بل أوّلا وأخيراً ، كإله ساميٍّ أصبح إنساناً : وبدل الفلسفة البدائية في الحشر والنشر يُركّز الآن على الْ (Protology) –أيْ مقدّمة الحديث–

وربح فلاسفة الحشر والنشر نصف الحرب ..« لقد عبرت قواتنا إلى الضفّة الغربية من القتال » ، وَوَقْف إطلاق النار كان ، على ما يظهر ، كارثةً لسوء الحظ .. إلا أننا سنستولى قريباً على الإمبراطورية ؛ ينظر فلاسفة الحشر والنشر إلى مزيد من الحركة والعمل . أما عند الـ (Protologist) فليس الأمر بهذا الوضوح، القُدرة الكُبرى جاءت في يسوع نفسه لكشف الحقيقة وإعطائنا المعرفة بالذات الإلهيّة . فمن خلاله ومن خلال تقاليد (جيريزيم) نُعَرَّف على ما يقع وراء هذا الكون . نعْرِفُ هذا الكون، نعرف سِرّالخلق، والمعرفة هي الشيء المهم . هذه هي الحياة الخالدة ... أن نتعَرَّف على الله وعلى يسوع المسيح الذي هو أرسله . ومع بدء هذا التاريخ آفتُتِح عَهْدُ المسرّة الطيّبة وبدأنا نتقاسم معه الانتصار . لقد وجدنا النبي المشابه لموسى الذي أنشأ وصيّة جديدة . ولازال أمامنا يوم الثواب ولكن هناك الضوء الذي يُنير سبيلنا إلى ذلك ولا يحتاج ألـ(Protologist) حقّاً لمزيدٍ من العمل إنه مثل المستر (رابين) يتطلّع إلى معرفة أعمق بالحرب التي رَبحها .

لذا فدراسة المسيح من وجهة النظر السامريّة تميل إلى الإسهام بخمسة أشياء إضافة لتفسيرات أهل الجليل لمغزى المسيح .

١ - التأكيد على الحكمة والمعرفة كثمرات أوّلية لاعتناق المسيحية ، أكثر من التأثير على الإيمان والحب .

٢ - أسطورة الوجود السابق للمسيح في الإله الرأس وفي تجسُّد هذا الإله .

٣ - الدعوة (للمجد) بدل الدعوة لابن الإنسان وآتخاذ موسى النموذج بَدَل داوود .

٤ - التقليل من موضوع صلب وقيام المسيح فيسوع يجب أن يأخذ طريقه إلى الآب .

٥ - فلسفة حَشر ونشر مُنجزة حاضرة بدلاً عن فلسفة حَشْر ونَشْر مستقبليّة .

بالإضافة لذلك فإن التأكيد على كشف الأسرار التي تسمو على العالم تميل إلى خلق نوع من تقليل قيمة هذا العالم مع ملحقات سلوكيّة تقشّفيّة و (أنتينويان -antionmian)(*)، مثلما كان الأمر في مذهب (المُغْرِفِين) في القرن الثاني . كل هذه التأكيدات هي خصائص معارضي (بولص) في (كورنثيا)وهي أساس الخلافات التي سادت القرنين التاليين بعد ذلك .

أُلتفتُ الآن إلى أدلّة (العهد الجديد) التي يبدو أنّها تعرض هذه الميول السامريّة الخمسة كمعتقدات لِمُعارضيّ « بولص » ومصدر الجدل الذي أدّى إلى تركيب الأرثودوكسيّة الكلاسيكية .

١ - من أبرز خصال « بولص » التي تستحق الإعجاب ، مرونته وقدرته على « سرقة ثياب معارضيه عندما يستجِمّون » هل نحن بحاجة لرسائل توصية ؟ بعض الناس يحتاجُونها إلا أنّ الحواريّ المؤسّس « بولص » ليس ، بالتأكيد ، واحداًمنهم . ولكن إذا فكّرنا في هذا الموضوع .. أنتم بالذات « رسالة التوصية » ، رسالة المسيح مكتُوبة بروحه على صفحات قلوب الإنسان . وهذه ورقتكم الرابحة . والأمر مماثل في آدعاء الحكمة والمعرفة التي جعلت الحواري يتبرّمُ في (الرسالة الكورنثية1-3,-1-1) : « لم يُرسلني المسيح لأعظ بحكمة بلاغيّة فصيحة » ... « سأدمّر حكمة الحكماء وأُحبط فهم الفاهمين » . « أين الرجل الحكيم ؟ ألم يجعل الله حكمة العالم حُمقاً وغباء ؟ لم آتِ لأذيع عليكم شهادة الله بكلمات راقية وحكمة .. ، حديثي ورسالتي لا يُفهمان من خلال كلمات الحكمة الراقية»؛ ويبدأ « بولص » بمقارنة أسلوبه البسيط في الوعظ بالحكمة

(★) Antinomianism : تعني الفكرة القائلة إنّ المسيحيين- برحمة الله - قد سُمِحَ لهم بعَدَم التقيّد بالقوانين الأخلاقية وقد ادّعى خصُومُ القديس(بولص)أنه هو نفسه يحمل هذه الفكرة التي أتاهم بها أيضا كثيرٌ من أتباع مَذْهَب (المَغْرِفين) المترجم -

البلاغية للمُبشّرين الآخرين ولكنّه سرعان ما يتحرك للهجوم على الحكمة الدُنيويّة كشيء مُحْتَقَر. ولكن يُفكر أن يضع نفسه مع الناضجين الذين يُبَلّغون الحكمة ، مع أنّها ليست حكمة هذا العصر ولا حكمة حُكّام هذا العصر ، لم تَصِلْنا روحُ هذا العالم ولكن رُوح الله لِنَستطيع أن نفهم مِنَنَ الله علينا : ونحن نُبلّغها بكلمات لم نتعلّمها من الحكمة الإنسانية، بل علّمتنا إياها الروح القدس .

ويسرق « بولص » الحكمة من المبشّرين الآخرين أمّا « معرفتهُم » فلا يَمَسُّها – على الأقل في رسالته الكورنثية الأولى : « نحن نعلم أنّنا ، جميعا ، نمتلك المعرفة » . (المعرفة) تنفُخُ ، ولكن المحبّة تبني ، ومع ذلك فليس الكُلّ من مالكي هذه المعرفة ؛ بعض المسيحيين يعتقدون أن اللحم قُدّم فِعلاً للأوثان ، فتدنّس ضميرهم . انتبهوا فإذا شاهدكم أحد «المَعْرِفيّين» على طاولة في معبد للأوثان ... أليس من الممكن أن يُقاد للخطيئة ؟ وهكذا ؛ (معرفتكم) هذه يمكن أن تُحطّموا هذا الأخ الضعيف . « المعرفة » تُسبب كثيراً من الضرر . « لو كان عندي قُدرات كثيرة على التنبؤ .. وأفهم كُلّ الأسرار وكلّ المعارف . ولكن لا أمتلك المحبّة،فأنا لا شيء » (11;13.2) و (8.1,7,10) . وهي أي « المعرفة » ليست مذكورة في الفضائل الرئيسية الثلاث . ومع ذلك ففي (الرسالة الكورنثية الثانية) تملّك « بولص » المعرفة والحكمة : « ولكن الشُكر لله الذي نشر شذىٰ معرفتنا له أي « للمسيح » من خلالنا في كل مكان » . لقد توهّج الله في قلوبنا لنُعطي نور المعرفة لمجد الله في وجه المسيح ، « بالطهر ، والمعرفة والاحتمال واللُّطف ، وروح القدس » . « الآن تمتازون في كُل شيء : في الإيمان وفي التلفظ وفي المعرفة » « نُحطّم الجدل وكُل عائق متفاخر في طريق معرفة الله » ، « حتّى ولو أنّني غير ماهر في الكلام أنا لست كذلك في المعرفة » (الرسالة الكورنثية الأولى 1.5 2.14;4.6;6.6;8.7;10.5;11.6;cf) لا شك أن « بولص » وضع خطّاً فاصلاً بين معرفة المسيح ومعرفة كل الأسرار التي يدّعيها الآخرون . وفي حُبّه الذي لا يرتوى ، للإبهام ، يُمكنُهُ تمجيد الجنون أيضاً – « لا يظن أحد أنني

مجنون ولكن (بعد تفكير) حتّى لو ظننتم ذلك». ويبدو الأمر واضحاً في أن صِفَتَيْ السامريّين : « الحكمة » « والمعرفة » قد أُدخِلتا إلى الكنيسة بواسطة خُصوم « بولص » .. ولكنه في النهاية قبلَهُما هو نفسه .

وما أن أصبحت الحكمة والمعرفة شيئاً طبيعيّاً في الكنيسة حتّى صارتا « صناعة النمّو » . وفي أوائل الستينيات من القرن الأوّل يُصلّي بولص – إن كان هو نفسه بالفعل – ليمتلىء « الكولوسيّون » بمعرفة إرادة الله في كل الحكمة والفهم الروحيّين (1.9,15ff,25ff.; 2.2f.,8,23;3.9,16) وفي الرسائل الإيفيزيّة (1.9,17f.;3.3ff) كُلّ شيء هو حكمة وتَبصُّر ومعرفة أسرار ووَحْي – شيء بعيد تماماً عمّا في الرسالة الكورنثيّة الأولى . وأفعال مثل (أويدا وغينُوسكو oida and ginosko) لم تظهر إلا نادراً في الأناجيل الثلاثة الأُولى ، كلا الفعلين وارد أكثر من خمسين مرّة في إنجيل يوحنّا ومعرفة الله التي يُقدِّرها « يُوحنّا » هي معرفة شخصية وفيها ومنها الحياة الأبدية : ولكن في الرسائل الإيفيزيّة نحن على طريق ، ما يُسمىّ خطأً ، معرفة ، بما فيها من علم الأساطير وعلم تسلسل الأنساب التي كُتبت منها (التوجيهات الكنسيّة – Pastorals) وبعد ذلك كُتب (السلام مقابل الهرطقة – Irenaeus Adversus Haereses) .

٢ – كُتبت الرسالة الثيسالونية الأولى حوالي العام ٥٠ ميلادية قبل أن يحتك « بولص » باللاهوت السامري ، والأسطورة التي عَلّمها في (ثيسّالُونِكا) كانت تماماً فلسفة الحشر والنشر عند أهل الجليل . يسوع هو ابن الله (1.10) ، ولكن ليست هذه جزءاً من الصورة التي تتعلّق كُليّا بالحياة الأرضيّة ، ونشاطاته الحالية في السماء وعودته المنتظرة في أية لحظة : مما يمكن تسميته أسطورة « الإقلاع والهبوط » . وهناك أربعة وثلاثون مرجعاً في رسالة ليسوع ، يسوع السيّد ... الخ ، ومنها ، ربّما ، ستة لحياته على الأرض وأَحَدَ عَشَرَ لقدومه ، والسبع عشرة الباقية لحياته الحاليّة في السماء حيث يُوجِّه الكنيسة .. إلخ . ليس هناك ذكرٌ لوجوده المسبق وهناك تأكيد شديد على « قدومه »والذي يَظْهر في

كل فصل بصورة عابرة وكذلك كموضوع رئيسي في (4.13ff) . كان يسوع رجلاً على الأرض ولقد بُعِثَ الآن واستلم السلطة وسيأتي مرّة أخرى . وليس غريباً ألّا يُذكر موضوع (وجوده السابق) لأنه موضوع غير معقول لدى اليهود : المسيح كان الوريث المنتظر من مدّة طويلة من ذُريّة داود (أو ، بعض الأحيان من ذرية ليفي) الذي أُعطي (العهد) في الملكوت الدائم (صموئيل II SAM 7) .

ولقد ورث (بولص) هذا الاعتقاد عن المسيحيين الأوائل ، وأعتقد به دون أن (يهضمه) وهذا واضح من نقطتين في رسائله للرومان (1.3f) « والإنجيل المتعلّق بآبنه الذي جاء من ذُريّة داوود في جسده وعُيّن ابن الله بالقُدرة في الروح القُدُس بقيامه بعد الموت » يسوع هو المسيح أي أنّه جاء من ذريّة داوود جسديًا وفي (رسالته للرومان 9.5) يذكر (بولص) نفس النقطة في حديثه عن اليهود وعن جنسهم ، حسب الجسد الذي هو المسيح . لم يَخرُقْ الله الطريقة الطبيعية في تعاقب الأجيال البشرية ، حسب رأي (بولص) ، والإنسان هو (بذرة أبيه) حسب التفكير اليهودي ، فالأمُّ هي الناقلة فقط حيث تنمو فيها البذرة ويسوع في جَسَده،من ذريّة داوود ومن الجنس اليهودي ؛ ويرى (بولص)، التوتر بين عقيدته في البشرية العادية للمسيح الذي آنتظره اليهود ، وفي كونه (ابن الله) الشيء الذي آدّعاه حسبما جاء في الآثار الدينية المسيحية . ويفكّر (بولص) أنّه يحلّ تناقُض هذه الأمور بنظرة ذات مستويين : يسوع كان دائماً ابن الله ، ولكن كان عليه أن يُولد بطريقة ما .. وكان ذلك من خلال ذريّة داوود ، من ناحية الأب ، أما الابن الإلهي فقد أعلن ذلك بالقدرة في يوم الفصح . والسؤال غير المريح وهو : كيف يكون له أُبُوّتان وكيف يمكن تفسير ذلك فيتحاشي (بولص) الإجابة عليه بالمعادلة ... الفارغة ذات المستويين . وفرضية وجود أجداد ليسوع من البشر ، موجودة كذلك في (رسالة بولص للغاليسيين[*]) ، ولقد أعطيت

(★) منطقة غاليسيّا في آسيا الصغرى تضمّ انطاكية وكانت رسالة القديس بولص إليهم حوالي عام ٥٠ ميلادية

الوعود لإبراهيم ولبذرته ولاتقول لذريته بل لواحدٍ فقط من بذرته : « ولبذرتك التي هي المسيح »(رسالة الغاليسيّين 3.16) وتسقط هذه الحجّة تماماً إذا لم يكن يسوع بذرة إبراهيم .

أمّا أجداد يسوع من البشر فموضوع لا يظهر في رسالة (بولص) (للكولوسيّين ورسالته للفيليبيّين 2)؛ من أين جاءت إذن « عقيدة التجسّد المتنامية » ؟ إنّها تبدأ مُحدَّداً في (الرسالة الكورنثيّة الأولى – 8.6) : « هناك سيّد واحد ، يسوع المسيح في كلّ الأشياء ومن خلاله نعيش » . كان يسوع إلهيّا وأسهم في الخَلْق (الرسالة الكورنثيّة الأولى 10.4) : « الصخرة – في الفلاة – كانت المسيح » يسوع كان إلهيّا وكان وكيل الله في الصحراء (الرسالة الكورنثية الأولي – 13.47) : « كان الإنسان الأوّل من تراب ، إنسان من غُبار ، والإنسان الثاني من السماء » خُلق آدم من طين وجاء من هذا العالم : أمّا يسوع فكان إلهيّاً وجاء من السماء لهذا العالم (الرسالة الكورنثية الثانية – 8.9) : « أنتم تعلمون إلهنا يسوع المسيح ، فمع أنّه كان غنيّاً إلا أنّه أصبح فقيراً من أجلكم حتّى تُصبحوا أنتم أغنياء من فَقْرِهِ » . والرسالتان الرومانية والغاليسيّة كُتبتا في الغالب ما بين الرسالتين الكورنثيّتين ، وكلا الأثرين يشهدُ على هُبوط المتجسد إلى الأرض ثم إقلاعهُ في قيامة المسيح (الرسالة الرومانية 8.2) : « الله أرسل ابنه في شكل الجسد الخاطيء » (الرسالة الغاليسيّة – 4.4) : « وعندما آن الأوان تماماً أرسل الله آبنه الذي ولد من امرأة » فإذا كان يسوع « قد أرسل »فيظهر مِنَ المعنى أنّه كان موجوداً أصلاً قبل ذلك لكى يُرسَل (مرقص 12.2) . والأفكار الجديدة ... تحتاج لوقتٍ ... حتّى تُهضم : عندما كتب (بولص) للمسيحيّين الذين آعتقدوا بالتجسّد في (كُورنثيا) أدْخل ولو باختصار ، هذه الفكرة الجديدة عن المسيح . وفي كتاباته للرومان والغالسيّين أُبعدت هذه الفكرة الجديدة وآستُعيض عنها بالآراء المعروفة قبلاً ، حتّى في الرسالة الفيليبيّة ، وكانت هذه آخر رسائل (بولص)؛ ويَظْهَرُ تَرَنّح في المنطق : كان يسوع المسيح بشكل الإله وأفرغ

نفسه بولادته ؛ وكان مطيعاً حتّى الموت ... الموت على الصليب ؛ لذلك مَجّده الله كثيراً ووهبه الاسم الذي هو فوق كل الأسماء . ولكن إذا كان بشكل الإله،ألم يكن له أصلاً اسم هو فوق كل الأسماء ؟ ويبدو أن فكرة الهبوط من السماء كان مُحضَّرة مُسبقاً ، وليست مهضومة أيضاً ،... كفكرة الإقلاع في موضوع المسيح . ولكن لم يكن هناك ذِكْر للأبوّة البشرية ليسوع في (رسائل الأسْر) وهكذا آستُبعِدتْ الاختلافات الواضحة .

ويمكن على ما يبدو تفسير كل الشواهد بفرضيّة سامريّة : لقد تَمَلّك (بولص) فكرة التجسّد في سياق جدليّته مع الدعاة السامريّين في (كورنْثيا) و(إفيسوس) بين عام ٥٠ و ٥٥ ميلادية ، وكُنا نعرف أن بعثة غير بولصية ، كانت ناشطة في هاتين المدينتين في تلك الفترة بقيادة (أبوّلوس). يقول (لوقا) (في الإنجيل الخامس 18.24ff) : إنّ (أبولوس) جاء من الاسكندرية بمصر حيث لم تدُم كاثوليكية (بولص) هناك أكثر من قرن بعد ذلك ؛ وإن صاحَبيْ (بولص) : (أكيلّا) و (بريسيلّا) وجدا عقيدته ناقصة ، وكان (أبولوس) خطيباً مُفوَّهاً (الرسالة الكورنثية ، 1.2) ؛ وأنه جاء لكورنثيا مع رسائل توصيه (الرسالة الكورنثيّة الثانية 3) و(بولص) ، بدبلوماسيَّته الثقيلة الخطوة يكشف أن دعوة (أبولوس) شقّت كنيسة (كورنثيا) إلى فرعين (الرسالة الكورنثية الأولى 4-1) : « وعندما يقول أحدكم أنا أتبع بولص ، ويقول آخر أنا أتبع (ابّولوس) ألستما ، ببساطة ، من بني الإنسان ؟ » قال أصحاب (بولص) بحقّ إنّ تعاليمه كانت هي تعاليم (سيفاس) أيضاً (الرسالة الكورنثيّة الأولى 15.5) ، وأجاب أصحاب (أبولوس) أنّهم أصحاب المسيح . لذا فبولص قادر على لعب دور الأب ، ولحفظ ماء الوجه بالنسبة للجميع كان هناك أربعة أحزاب : حزب (بولص) وحزب (أبّولوس) وحزب (سيفاس) وحزب المسيح : ولكنّ الحقيقة لا تلبث أن تظهر باستمرار ، فلقد طَبّق (بولص) ذلك على نفسه وعلى (أبولوس) ..؛ لمصلحتكم أيّها الإخوة ، حتّى لا ينتفخ أحدكم دفاعاً عن واحد

ضد الآخر (4.6) . وكان الجدل مع الدعاة السامريّين عاصفاً . (بولص) استطاع العمل مع (أبولوس) (الرسالة الكورنثية الأولى 16.12)، ولكنه كان يذكر أعوان (أبولوس) بِسُخرية مُسمّياً إياهم (حواريّون مُتفوّقون Superapostles) (الرسالة الكورنثية 11.5;12.11) أوْ (حواريّون مُزيَّفُون) (11.11) في رسالته الثانية ؛ أمّا هويّة الدعاة المنافسين له فظهرت في (-11.22) : « هل هم عِبريّون ؟ » ولا يستعمل (بولص) الكلمة الطبيعيّة اليهود (Ioudaioi)(*) ، ولا إشارة أبداً لاهتمامهم بقوانين الغذاء أو الختان ... الخ الاهتمامات العادية للمسيحين .. اليهود . لقد ذكرتُ قبلاً أن كلمة العبريّين أطلقها السامريّون على أنفسهم لأنّهم كانوا عبريين ولكن ليسوا من يهود[٥٦] . إذن عندنا الآن تفسير للمصدر الذي أتت منه فكرة الهُبُوط ، ولكن ، بينما اكتفى السامريّون بأسطورة الهبوط والإقلاع حيث تجسّد الله أوّلا في المسيح ثم عاد للآب ، ألحّ (بولص) حتّى النهاية على فكرة الحشر والنشر المتوقّع في أيّة لحظة ، بهذا وفّر خطّة شاملة لأسطورة (الهبوط ثم الإقلاع ثم العودة) بالنسبة للمسيح ، والتي وصلت إلى بيانها الكلاسيكي في إنجيل القديس (يُوحنّا) .

ونفس الطريقة في جمع المتناقِضَيْن تَطْبعُ الأناجيل الثلاثة التي ظهرت قبل إنجيل (بولص) ، ويسوع في إنجيل مرقص ليس فقط ابن داوود (12.35f) بل هو (ابن الله) (1.1) ولقد كُشِفَتْ بُنُوّته في عِمَادته (1.11) وعرفها الناس في أعماله القادرة ، وأخيراً أصبحت واضحة لقائد الكتيبة عند الصلب 15.39) . ولكن في نفس الوقت ، هو إنساني وقِصّة (الآلام) تُسيطر على (مرقص) بحيث أنّها لا تناسب قط عقيدة السامريين في (الله – الإنسان) . ومَتّى في الثمانينات من القرن الأوّل يحلّ مسألة أصل المسيح بمساعدة قُزحيّا(7.14) : أمّه مريم كانت عذراء؛ والله ، وليس يوسف ، هو والده ، لذا فلقد كان في الواقع (ابن الله) منذ بدء حياته ، ومع أنّ هذه النظرة ليست هي لاهوت السامريين

(*) وتعني اليوداسيين – أى نِسْبة ليوداس ، أيضاً .

والفيليبّين : يسوع ليس آبن الله من الأزل إلى الأبد ولكن فقط منذ حملت به أمّه . ويظهر في كلام (لوقا) آثار أمينة لدراسة المسيح القديمة في الجليل ، عندما ينقل ، على لسان (بطرس) في (الإنجيل الخامس ، 2.22,3) : يسوع الناصري هو إنسان زكّاهُ الله ... فليعلم كُلّ بني إسرائيل بالتأكيد أن الله جعله « السيد » و« المسيح »(cf 13.23) . كان يسوع إنساناً شهد الله له بالمعجزات ؛ والآن بعد قيامه جعله المسيح ؛ وهذه هي نفس الآراء المسيحيّة التي تَجِدُها في (الرسالة البولصية الأولى للرومان – 1.3f) . ولكن في بداية الإنجيل يتّبع (لوقا) (متّى) في قصّة الحمْل العذري وكلاهما يواجهان مشكلة : ماذا يفعلان بالتقليد الذي يقول أن المسيح هو من نسل داوود ؟ أمّا (متّى) فكان حله للمشكلة باختراع (شجرة عائلة) مزيّفة تصل بالمسيح إلى داوود وسليمان مع أُبوة شرعية في آخر الشجرة ليوسف . ويتّبع (لوقا) طريقة (متّى) ولكنّه يمتدُّ (بشجرة العائلة) من ناحية الأب حتّى يصل إلى ... الله .

وحوالي العام (١٠٠ م) يذهب (يُوحنّا) العضو في كنيسة السامريين إلى آخر المدى ويقرن الفكرتين الرئيسيّتين للسامريين (سفر التكوين 1 ، وسفر الخروج 34) : « في البدء كان « الكلمة » ... ونحن نشهدُ مجده » ليس هناك كلمة عن الحكمة اليهودية . فهذه عقيدة السامريين الكاملة في (الثنائيّة) : الله السماوي ... والمجد . وفي (سفر الخروج) : نادى المجد « السيد » السيد وافر المحبّة والأمانة الراسختين (rale- hesedh we émeth) : موسى لم يُشاهد الله (33.2 af) ، وما جاء عن الرؤية كان القانون والهيكل « والكلمة » صارتْ لحماً وهيكلاً بيننا مليئة بالرحمة والحقيقة(٥٧) ؛ نحن نشهد ، بمجده ، المجد للابن الوحيد للآب . الرحمة والحقيقة جاءتا عِبْرَ يسوع المسيح . لم ير أحدٌ الله ، والابن الوحيد الذي هو في حِضن الآب ، عَرَّف به وأعلنهُ . ونفس (الثنائية) .. هذه تظهر في (الله) و(الكلمة) في نصٍّ (سِفر التكوين – 1) بأسلوب أوضح من أن يحتاج لِعرض.(وإنجيل يوحنّا – 1) هو الذي أرسى أرثوزوكسية المسيحيّة

وأعطى لمادّة موضوع التجسّد – الحلول – قيمة « الحقيقة المُنْزلة » والتي بقيت طيلة الألفي عام الماضية .

٣ – لم يكن عند (بولص) إلّا القليل عن حياة يسوع . والملاحظات التي أبداها في أول رسائله إلى كورنثيا هي عن (حاخام) بشريّ الصفات يُعطي التوجيهات عن تكرار الزواج ويدْعُم حواريّيه ويقوم بإعطاء (القُربان المقدّس) . والآثار المسيحية من الجليل تأتينا عِبْر (مرقص) حيثُ نعلم أن يسوعاً تنقّل في كُلّ أرض فلسطين كإنسان بشري عَرِفَ التعب والخَيْبة والخوف واليأس « أخذوه معهم عندما كان في مؤخّرة القارب نائماً على وسادة » « ياجَبَل الإخلاص إلى متى سأظلّ معكم ؟ » ماذا كنتُم تناقشون في الطريق » تَخلَّفْ عني أيها الشيطان ... نفسي حزينة جدّاً » . « أيها الآب أنت قادر على كل شيء،إرفع هذا الكأس عنّي » ؛ « يا إلهي يا إلهي لِمَ تَخَلَّيْت عنّي » (إنجيل مرقص – ;4.37, 38 9.19;33;8.33;14.34,36,15.34) . ولكن سرعان ماتآكلت الناحية الكاشفة لبشريّة حياة يسوع على أيدي الذين خَلَفُوا (مرقص) ، فحذفوا و(لَمَّعُوا) وآستَبْدلوا ، ولنأخذ مثلاً واحداً على ذلك : (لوقا) حذف صرخة يسوع اليائسة على الصليب ليستعيض عنها بنصّ أكثر تهذيباً : « يا أبتي أنا أضع رُوحي بين يديك » ؛ إلا أن العملية الكاملة لتأليه يسوع يَقعُ عِبئها على (يوحنّا) الذي لا يقول بأنه بشرٌ عاديّ بل كلمة الله الذي تجسّد ، ومشى على مستوىَ «بُوصة» أعلى من سطح الأرض . ولما رأى (ناتانيال) تحت شجرة التين عرف أنه إسرائيليْ ليس فيه مَكْر ، ويعلم أنه كان للسامريّة الغريبة خمسة أزواج ؛ لم يكن بحاجة ليشهد أحدٌ على الإنسان فهو نفسه كان يعلم ما في داخل الإنسان ، وعندما كان (بطرس) ، حسب إنجيل (مرقص) ، مع يسوع لِمُدَّةِ أشهر أو ربّما لمدّة سنتين عَرِفَ انه هو المسيح . و(أندراوُسْ) ، حسب إنجيل (يوحنا) ، عرف كذلك في ليلة واحدة .

(وناتانيال) في دقيقة واحدة قَدِرَ على المناداة : « أيها الحاخام أنت ابن

الله ... أنت ملك إسرائيل » (إنجيل يوحنا 1.49) . وفي انجيل (يوحنّا) عجائب يسوع هي إشارات تُظْهر مجده ، وعندما جاء الجنود لاعتِقاله تراجعوا أمام قدرة « كلمة الله » ووقعوا أرضاً . (يوحنّا) هو (دوسيتي)(★) تقريباً فيسوعه يبكي ويتعب ولكن كان ذلك هو حَدُّ بشريّته . كان يُصلّي ليُؤثر على الجماهير (11.42) ، ويقول إنه عطشان وهو على الصليب ليُحقّق ما جاء في الكتاب المقدّس (19.28)(٥٨) . والصليب كان انتصاره .... وليس يأسه وكان قادراً على النداء وهو يموت : « Telelestai ... أي لقد انتهى كل شيء » نحن في طريقنا إلى الفكر (الدوسيتي) الأسيويّ في (يوحنّا 1 ، وأغناطيوس) اللذَيْن يقولان عن (يسوعهم) إنه كان يمشي على مستوى (بوصةٍ) أعلى من سطح الأرض وأنه في الظاهر فقط وُلِد ومات ؛ وأناجيل طائفة (المَعْرِفِيّين) تقول بعدم وجود دعوة ليسوع فهو لا يعمل شيئاً وكل ما هنالك كلماته عن الوحي .

٤ – والواضح (من الرسالة الكورنثية الأولى) أنّ المبشّرين المناوئين خفّفوا من التأكيد على الصليب : « أرسلني المسيح لأبشّر بالإنجيل وليس بكلمات بيانيّة حتى لا يُفرَّغ صليب المسيح من قدرته . لأنّ كلمات الصليب جُنون بالنسبة للذين ينقرضون ...نحن ندعوا لمسيح مصلوب ... أنا قررتُ ألّا أتعلّم أيّ شيء معكم إلّا يسوعَ المسيح وصَلْبَهُ..؛ لم يفهم هذا أحدٌ من حُكّام ذلك الزمان لأنّهم لو فهموا لما صلبُوا « سيد المجد » (1.17-18,23;2.2,8) . والصليب الذي ألحّ (بولص) على جَعْله النُّقطة الرئيسيّة في عِلم اللاهوت عنده ، كان إحراجاً للسامريّين فقلّلوا من شأن الصليب وركّزوا على الحكمة التي جاء بها المسيح . ونفس التوتّر ... يسودُ أكثر كتابات الرسالة الكورنثية الثانية بصورة مباشرة أحياناً وبصورة غير مباشرة أحيَاناً أخرى ، لأنّ (بولص) كان يعتقد أنّ على المسيحي وبخاصّة الحواري ، أن يتقاسم آلام المسيح ويُصبح مثله في موته .

ورغم أنّ (بولص) دعا للصليب إلا أنّه لم يكن له (علمُ لاهوتٍ) واضح في هذا المجال ؛ فلقد توسّع في الموضوع في سلسلة من الصور المثيرة : قدم

(★) الدوسيتية – Docetism عقيدة ظهرت في أوائل أيام الكنيسة تقول إن بشرية وآلام المسيح هي مظاهر وليست حقيقة .

يسوع كأنّه (هيلاستيريوُن Hilasterion)(★) ، أصبح يسوع لعنة لنا ، لقد جعلوا منه الخطيئة ، لقد جرَّد المقاطعات من سلاحها . وفي الأناجيل الثلاثة الأُوَل كان حلٌ تناقض موضوع الصليب عِبْرَ (دانيال) : ابن الإنسان يجب أن يتعذَّب وبعد ثلاثة أيام (ونِصْف) يُمجّدُ لِيُصْبح الساعدَ الأيمن لله . ولم يُنجز جناح الكنيسة البولصية نظريةً كاملةً عن موت يسوع إلا عند ظهور (العبرانيات) . ومعاني الفداء الموجودة ضمنا في الرسائل للرومان تُفَصَّل الآن على أساس الكاهن السماوي الأكبر الذي قَدِمَ إلينا مرّة واحدة . والمسيحيون السامريون واليهود الذين لم يكن الصليب في إنجيلهم يُلامُون على أساس أنّ حاسّة السمع عندهم كانت مُتبَلِّدة : آن الأوان لِتَرْك الأشياء الثانوية والتركيز على الغذاء الصَّلب للناضجين ، عقيدة الكاهن الأكبر في (تنظيم ميلشيزينك) . وعقيدة التجسّد السامريّة آمتصّها الكاتب البولصي : « ابنٌ عَيّنه وريثاً لكل شيء ومن خلاله أيضاً خلق العالم » ؛ والغاية في هذه الرسالة هي ، بصورةٍ رئيسيّه ، نَقل وجهة نظر فَهْم (بولص) لمركزيّة موضوع الصليب . وكالمعتاد ، تظهر عقائد السامريين من خلال يوحنّا حيث الصليب كان ساعة تمجيد يسوع وذهابه إلى الآب . ويبقى (يوحنا) مسيحيّاً على نمط (بولص) في حقيقةِ مُعْتَقدِهِ، رغم روايته الكاملة للآلام . وتغيب قصة الآلام وقيام المسيح فقط عن أناجيل طائفة المَعْرِفيين كإنجيل (توما)، ففيه، مثل إنجيل (لوقا) ، يُذكر يسوع على أنّه جاء فقط لِكَشْفِ الحقيقة .

٥ – وأوّل رسالة من رسائل (بولص) – والتي بقيت محفوظة (الرسالة السيالونيّة الأولى) – تضُمُّ إشارة لعودة المسيح المنتظرة في كل فصل من فصولها ، كذلك رواية مُوسّعة للعقيدة في الفصل الرابع . ورسالته للفيليبيّين ، وربّما كانت هذه آخر رسائله كُلّها ، تَضُمّ إشارتين لـ (يوم المسيح) في (افتتاحيّتها 1.6,16) ، ويختمها بثقةٍ سعيدة ان السيد هو قاب قوسين أو أدنَى من العودة (4.5) . ولم يفقد أبداً إيمانه بالعقيدة البدائية لأهل الجليل في فلسفة الحشر

(★) (Hila) هي آلهة الموت كما كان يعتقد الأغريق و(sterion) تعني باليونانية « شديدة » .

والنشر . وفي كنائس (مَكدُونيا) لم يكن هناك خلاف على هذا الموضوع ولكن في (كورنْثيا) و (أفيسوس) كان على (بولص) أنْ يناقش آراء مخالفة لآرائه .

يفتتح (بولص) (رسالته الأولى للكورنْثيين) بالتأكيد على فلسفة الحشر والنشر لأهل الجليل : « أقدمُ لكم الشكر لأنه لا تنقصكم الموهبة الروحيّة وأنتم تنتظرون ظهور سيدنا يسوع المسيح ؛ الذي سيُبقيكم إلى النهاية بدون خطيئة في يوم سيدنا يسوع المسيح » (1.4,7,8) ؛ ويختم الجزء العقائدي في الرسالة (15) بوَصفٍ مُفصّلٍ لآخر الأشياء . وهذا له الأهمية الأولى (15.3) : « ولكن في نفس الوقت قال معلّمون آخرون أن الأمر خطأ » . كيف يستطيع بَعضُكم إنكار البعث للميّت (15.12) . ويُذكّرنا بالتقاليد الباقية عند الحاخامين والآباء(٥٩) : وهي أنّ السامريين أنكروا البعْث للميّت ولكن مُعارضي (بولص) في (كورنْثيا) يُمكنهم بالتأكيد الموافقة على فلسفة الحشر لِلْحَشْرِ.. قد وقعت وانتهت .. ، إن لم يوافقوا على موضوع البعث في المستقبل : « إنّ أوقاتٍ للمسرات الطيبة لله قد جاءت من قبل ! » « من قبل يهتف الحواري ، لقد آمتلأتم قبلاً ولقد أصبحتم أغنياء قبْلاً ! وبدوننا أصبحتم ملوكاً ! » (الرسالة الكورنثية الأولى – 8.4) . فلسفة الحشر والنشر الواقعة – أي الغابرة – هي بِنَظَرِهِ « تبجّح » يُثير أشدّ أنواع سخريته ومع الزمن ينمُو التبشير بالحكمة والمعرفة في (كورنثيا) في الخمسينات من القرن الأوّل لِيُصبح « المعرفة » – التي سُميت هكذا خطأً – في (أفيسُوس) بعد نصف قرن ، والتي تاه زُعماؤها فيما يختصُّ بالحقيقة عندما قالوا أنّ البعث وقع وانتهى في الماضي (IITIM,2.18) .

وليس الأمر مفاجئاً إذا كان نفس إنكار البعث المستقبلي ، ونفس الثقة بان رجل (المَعْرِفيين) « الهوائي » الذي رُفع إلى السماء ، مَيّزَا الجماعتين في (كورنثيا) و(أفيسوس) .

وفلسفة الحشر والنشر المستقبلية المنتظرة في أيّ وقت هي الجدول الأساسيّ (لمُرقص) و(لِمَتّى) وكُنْزِلْمان – Pace Conzelmann)(٦٠) ، ولا تزال قوة

كبيرة عند (لوقا). ولكن في العام ١٠٠ م فَقَدَتْ منطقّيتها في نظرة (يوحنّا) الصافية ، والبديل السامريّ أكّد جاذبيته . « من يؤمن به ليس مَقْضياً عليه ومن لا يُؤمن محكوم عليه قبلاً » . هذه هي الدينُونة ، أي أن النور جاء لهذا العالم والناس يعشقون الظلام أكثر من الضياء » . « الآن هو الحكم على هذا العالم والآنَ سَيغيب حُكام العالم عنه (إنجيل يوحنا - 3.18,19,12.31) . ولقد حُذف كُلّ حديث (مرقص) في (إنجيل مرقص 13) عن نهاية العالم وحَلَّ محله حديث وداع (يوحنّا) . والآن الأمر الرئيسي ليست عودة يسوع بل الروح القدس الذي سيأتيكم ويبقي فيكم . فالمسيحيّون لن يُشاركوا المسيح في حُكْمِه بالرؤية ولكن كل شيء يطلُبونه من الآب باسمه سيُعطيه لهم . و(يوحنّا) مثل السامريّين لازال يعتقد بيوم الدينونة الآتي إلا أن التركيز الآن واقعٌ على شيء آخر .

كان لفلسفة الحشر والنشر الواقع مستقبل عظيم بدأ منذ عهد (أفيسوس) و(يوحنّا) إلى عهد الدكتور (دُدْ) : وفلسفة الحشر والنشر المُنْتَظَر - أي المستقبلي - فقدت مفعوليتها في أواخر القرن الماضي وقَتَلَتْها ، رحمة بها ، عقيدة (بطرس II) التي قالت إن ألف سنة تساوي يوماً واحداً (إنجيل بطرس II,3.8 ، إصحاح 90,4). فإزالة احتمال وقوعها في أية لحظة حَرَمَتْها من معناها .

وتتميّز فرضيّة السامريين على كل الاقتراحات التي أعرفها ، من عدّة وجوه : نحن نعلم أن السامريّين كانوا مجتمعاً دينيّاً قائماً منذ قرون قبل الميلاد وليس عليهم أن يفترضوا « معارف » بدائية نابعة من مجموعة مثل مجموعة (وادى قمرْان) أو من مجموعة أبعد من ذلك . ومع أنه ينقصنا كثير من التوثيق عن قرون ما قبل الميلاد إلا أنّنا نستطيع مع ذلك أن نشير إلى إطار معتقداتهم ببعض الثقة من موقفهم الأساسي من اليهودية وعندنا سجلات كافية عن - سمعان - . نحن نعرف أنّهم كانوا ويُشكّلون قوة صلبة في بداية الكنيسة ؛ والاسم الذي أطلقوه على أنفسُهم (عبرانيين) هو الذي آستعمله في (كورنثيا) مُناوئو (بولص) من

المُبشّرين في الخمسينات من القرن الأول . وهناك دلائل كثيرة أنّ المُبشرين العبرانيين أدخلوا عقائد جديدة للكنيسة في (كورنثيا) و (أفيسوس) في مجالات خمسة على الأقل : التأكيد على الحكمة والمعرفة ، تعاليم أن يسوع كان الله الذي أصبح إنساناً ، تمجيده وإزالة الصفة البشرية عن حياته الدنيويّة ، التخفيف من موضوع الصليب وإحلال موضوع فلسفة النشر القادم مكان النشر الذي وقع . ولقد أعطيت الأسباب للتفكير بأن هذه الاتجاهات كانت طبيعيّة في مجموعة سامريّين آعتنقوا المسيحيّة والذين كان عقائدهم تضم أصلاً موضوع الوحي الإلهي والحكمة والمعرفة كفِكَر رئيسيّة ، وحلول - تجسّد - الله في البشر ونكرانهم للبعث . مثل هذه النظرية لا تفسّر بصورة مرضية على ما يبدو الجدل الأساسي في وثائق العهد الجديد فقط ، ولكنّها تُفسّر تطوّر جناح من أجنحة الكنيسة إلى حركة متميّزة (طائفة المعْرفيّين) في القرن الثاني ، وهي حركة كانت أولى أدبياتها في الظاهر مسيحية أمّا أصولها فهناك اعتقاد واسع الآن أنها من أطراف اليهودية ، مع أنّها بطريقة طريفة وميتافيزيكيه « ضدّ السامية »(٦١) . وتترابط هذه الأمور كُلّها بأسلوب مقنع إلى حدّ كبير .

والدراسات التاريخية لا تنقض النشاطات الإلهية بل تجعل نمط الوحْي القديم غير مفهوم . فلدينا هنا فلسفة الحشر والنشر لأهل الجليل لا يعتقد بها أيّ منّا لأن يسوعاً لم يعد أثناء حياة أي واحدٍ انتظرهُ ، و(بُروتولوجى - Protohogy)(*) - سامرية لا يعتقد بها أي منّا لأنها تشير إلى ثنائية في الكائن الإلهي؛ (سِفْر الخروج 34.2) فهي بالنسبة لنا تخمين غير مأمون . وعندما نرى هذين المعتقدين (الجليلي والسامري) موضوعَيْن سويّة « في حوليات القرن الميلادى الأول تُصبح الفكرة القائلة بأن المزيج من الاثنين حقيقة مُنزلة... « هباءً منثوراً». أنا لاأقول أن (مَزْجَهُما) كان بعيداً عن « ذهن » الله ، فمن الواضح أن خلق أسطورة آعتقد بها في العالَمين القديم والوسيط كان أمراً هاماً حاسماً بالنسبة لتأسيس

(★) Protology - تعني مُقَدمَة الحديث ، أو الحق في الكلام أوّلاً .

الكنيسة ، وما أعنيه هو أنه لا يمكن تصديقها اليوم وإنّ جيلنا مدْعُوٌّ لصياغة دراسة مسيحيّة جديدة . وكمسيحيين كاثوليك ، نحن نشتهي إعطاء سلطة لتجربة وإيمان يسوع نفسه ولأصحابه الأوائل وأكثر ذلك - كما أُشَرْتُ في الفصل الأخير - مفتوح مكشوف لنا . أما ظنون « التجسّد »التي أدخلها للكنيسة (سمعان ماغوس) ورفاقه السامريون فيبدو لي أنه يمكن الاستغناء عنها كُليّةً .

NOTES

1. For further details see E. Haenchen, *The Acts of the Apostles*, Blackwell 1971, pp. 300–8.

2. Eusebius, *Ecclesiastical History* (*HE*), IV.22.

3. Justin, *I Apol.*, 26.

4. *Didascalia* 6.8; see also *Apostolic Constitutions*, vi.8.1, vi.16.12. These and other texts noted below are conveniently collected in S. J. Isser, *The Dositheans*, Leiden 1976.

5. Pseudo Clement, *Homilies*, 2.22–4, *Recognitions*, 2.7–12; Isser, op. cit., pp. 19ff.

6. Origen, *Hom. Luc.*, 25; Isser, op. cit., pp. 27ff.

7. Epiphanius, *Panarion*, 9–12, Isser, op. cit., pp. 39ff.

8. *I Apol.*, 26.

9. There is a bibliography in C. H. H. Scobie, 'The Origin and Development of Samaritan Christianity', *New Testament Studies*, vol. 19, 1973, pp. 390ff. Some of the more impressive cases are given in M. Wilcox, *The Semitisms of Acts*, Oxford 1965.

10. Deut. 18.18–22 is inserted at the end of the Ten Commandments in the Samaritan Pentateuch. The text is interpreted messianically in Josephus, *Antiquities*, 20.97, 169 (J. Jeremias, '*Moyses*', *TDNT* IV, pp. 85ff.), and in one late rabbinic reference; Pes. de R. Kah., Pisqa 13 (112a). H. J. Schoeps, *Theologie und Geschichte des Judenchristums*, Tübingen 1949, p. 90, suggests that it was suppressed through Christian use: but why not through (far wider and earlier) Samaritan use? J. M. Allegro, 'Further Messianic References in Qumran Literature', *Journal of Biblical Literature*, vol. 75, 1956, pp. 182ff., claims 4Q Test. as evidence of its use at Qumran, but the messianic reference is obscure.

11. Eusebius, *HE*, V.24.2, 'Philip, one of the twelve apostles, who has fallen asleep in Hierapolis, as have also his two daughters who grew old in virginity, and his other daughter who lived in the Holy Spirit and rests at Ephesus' – cf. Acts 21.9.

12. H. G. Kippenberg, *Garizim und Synagoge*, Berlin/New York 1971, pp. 188ff. I have found Kippenberg to be the most careful and dependable guide on many Samaritan questions.

13. Cf. W. Bauer, *Lexikon*, ad voc. But the 'synagogue of the Hebrews' at Corinth may be a Samaritan synagogue.

14. Cf. Marqah, Memar VI.2. ed., J. Macdonald, Berlin 1963, Isser advances other arguments for a Samaritan relationship to Hebrews on p. 142, note 54.

15. The first to state so is Justin, *I Apol.*, 26.

16. *Adversus Haereses*, i.23.1–4.

17. Ibid., i.23.5.

18. Ibid., i.24.1.

19. *Homilies*, 2.22.2–4. Cf. J. M. Fennelly, *The Origins of Alexandrian Christianity*, unpublished thesis, University of Manchester 1967.

20. W. Bauer, *Orthodoxy and Heresy in Earliest Christianity*, ET, SCM Press 1972, pp. 44–60.

21. Kippenberg, op. cit., pp. 48–59.

22. Listed in Kippenberg, op. cit., p. 367.

23. Kippenberg, op. cit., p. 205.

24. J. Macdonald, *The Theology of the Samaritans*, SCM Press 1964, p. 119.

25. Ibid., p. 106, citing Marqah.

26. A. F. von Gall, *Der hebräische Pentateuch der Samaritaner*, Giessen 1918, app.

crit. ad loc.

27. J. Lerner, *The Special Liturgies of the Samaritans for their Passover* . . ., unpublished thesis, Leeds 1956, pp. 264, 292.

28. A. E. Cowley, *The Samaritan Liturgy*, London 1909, p. 69, 1.12.

29. Ibid., p. 492, 1.3f.

30. Lerner, op. cit., p. 243.

31. Cowley, op. cit., p. 491, 32.

32. Macdonald, op. cit., p. 306.

33. Ibid.

34. Ibid., pp. 73, 98, 115.

35. Cf. Haenchen, *Acts*, ad loc., p. 301.

36. Memar VI.3, Macdonald's edition, I.135; II.221.

37. Ibid., Macdonald, I.135; II.220.

38. Kippenberg, op. cit., pp. 316ff.

39 Haenchen, *Acts*, p. 301.

40. Kippenberg, op. cit., pp. 328–49.

41. *I Apol.*, 26. Note the Samaritanism, 'the first God'.

42. Clement of Alexandria, *Stromata*, II.xi.52.

43. Hippolytus, *Refutatio*, VI.13, 17.1f.

44. Pseudo-Clement, *Recognitions*, 2.7.1.

45. So G. Kretschmar, 'Zur religionsgeschichtlichen Einordnung der Gnosis', *Evangelische Theologie*, vol. 13, 1953, pp. 354–61. It is disputed by R. McL. Wilson, *The Gnostic Problem*, London 1958, p. 100.

46. Other explanations are offered by H. Leisegang, *Die Gnosis*, Stuttgart 1955, pp. 62ff., and by Isser, op. cit., pp. 138ff.; but the references to Ex. 33.21 and Deut. 5.28(31) are to the 'standing' of Moses and not the divinity. *Qa'em* occurs as an epithet of God in Samaritan liturgy, Isser, op. cit., p. 140.

47. Strack-Billerbeck, *Kommentar*, I, pp. 548f., 551f.; Origen, *Comm. Matt.*, xvii.29; Epiphanius, *Panarion*, 9.2.3f.

48. See Kippenberg, op. cit., pp. 306–27.

49. Ibid., p. 326.

50. *Recognitions*, 2.7.1.

51. Origen, *Comm. Joh.*, xiii.27.

52. Kippenberg, op. cit., pp. 276–305.

53. Ibid., p. 326, 234ff.

54. Ibid., pp. 255ff.

55. R. Bultmann, *Theology of the New Testament*, ET, SCM Press 1952, p. 49, and following commentators, take Rom 1.3f. to embody an earlier credal formula.

56 Paul only uses the expression 'Hebrews' in one other passage, Phil. 3.5, in a precisely similar controversial context.

57. For a recent and effective justification of this equivalence, see A. T. Hanson, 'John i.14–18 and Exodus xxxiv', *New Testament Studies*, vol. 23, 1976, pp. 90ff.

58. I am indebted to the Rev. David Cook for this suggestion.

59. See previous note.

60. H. Conzelmann, *Die Mitte der Zeit*, Tübingen 1953.

61. H. Jonas, 'Delimitation of the Gnostic Phenomenon', in *Le Origini dello Gnosticismo* (ed.), U. Bianchi, Leiden 1967, p. 102.

الفصل الخامس

أصلان ... أمْ أصول كحَزمةٍ مُعقّدة

فرنسيس يُونغ

قَدمّ (ميكائيل غولدر) في الفصل السابق نظريّة معيّنة تُفسّر ظهور عقيدة التجسّد . وهي تُوفّر مثلاً حسناً جدّاً لنوع من إعادة البناء النظري الممكن ؛ والاعتراض الرئيسي على مثل هذا النوع من النظرية هو أن التركيز المقصور على مصدر معيّن واحد أو مصدرَيْن يُودّي ، لا محالة إلى إهمال أدلّة موازية وأحداث مطابقة وُجدتْ في أماكن أخرى ، وهكذا تَظلِمُ ما يبدو أنه كان موقفاً توفيقيّاً مُعَقّداً في تلك الفترة من الحضارة اليونانية الرومانية بخاصة على تخوم اليهوديّة .

ولا أقدّمُ ، في هذا الفصل ، أيّة نظريّة معيّنة انّما هي محاولة لتقديم نماذج من نوع الأدلّة الموجودة التي يمكن ان تكون مُناسِبة ، ورسْمَ موجز لبعض النظريّات الأخرى التي اقتُرحت . ورغماً عن كلّ المواد الموجودة لدى الباحثين ، فالفجوات في معرفتنا لاتزال أوسع بكثير من المناطق التي غُطّيتْ؛ والتطبيقات الدقيقة لكثير من الأدلّة لاتزال عُرضةً لكثير من الجدل . ومع ذلك ، وفي الوقت الذي يجب الاعتراف فيه ، من البداية ، أنّه لايُوجد ، على ما يبدو ، أيّ تماثل موازٍ تماماً للعقيدة المسيحيّة في التجسّد ، وليس بالتأكيد ، فيما كان قبل المسيحية ، هناك مؤشّرات أنّ الاعترافات في دراسة المسيح عن يسوع تشكّلت بلا شك من مجموعة واسعة من التوقّعات والأفكار والصور والتخمينات الماضية التي كانت موجودة في ثقافة العصر والمجتمع اللذين ولدت ونضجت فيهما الكنيسة ؛ ولم تكشف الأبحاث بعد أجزاء كافية من « اللغز » لإعادة بناء صورة مُقْنِعَة تماماً عن مصادر ونُموّ المُعْتَقَد عن شخصية المسيح ؛ ولكن ، من المؤكد أن « اللغز » موجود لمحاولة حلّه ؛ أو – لِنُغَيّرْ المقارنة- ، قد لا نستطيع التعرّف

بثقة إلاّ على أصلَيْن فقط من أصول الأسطورة المسيحية ، ولكن كانت هناك أصول على كل حال ، ولو أنّها تبدو أكثر كحزمة معقّدة قد لا يكون حَلُّها الكامل ممكِناً في حدود المعرفة الحاضرة . فلنُنَقِّبْ حولنا لنرى ماذا سيظهرُ .

التقيبات الأولى

(أورغن) ، الذي يمكن وصفه بأنه أوّل كبار البحّاثة المسيحيين ، توكَّل حوالي العام سنة ٢٤٨ م بترتيب ردِّ الهجوم على المسيحيه الذي كَتَبه قبل سبعين سنة من ذلك ، وثَنِيٌّ يُدعى (سلسُوس) ، ومن ضمن هجمات (سلسوس) آستخفافه بالفكرة القائلة ان يسوعاً هو ابن الله وُلد بأعجوبة من عذراء، وفي طبيعة الجدل هذا، مع وضدّ الموقف المسيحي ، تنوير كثير .

(ا) آعتبر (سلسوس) أنّ يسوعاً هو واحد من « احتيالات » عِدّة لا يتأثر بها إلّا المُغفّلون ، والردّ الوحيد الذي استطاع (أورغن) تقديمه هو ان ما يُدعى « احتيالاً » لاقَ النجاح الكبير بينما تقلّص أتباع (سمعان ماغوس) أو (دوسيثيوس) إلى ثلاثين نفراً فقط[1] . وتفترض المناظرة بين الاثنين أكثر من مدَّعٍ واحدٍ لأصلٍ إلهي ، وكان من المستحيل التقرير بصحّة الادّعاء لأيِّ واحد منهم إلا عن طريق (إختبار جماليل) : « إذا كانت هذه العقيدة من صُنْع البشر فسيُطاح بها وإذا كانت من الله ، لايمكن ذلك » . وهذا نصّ نقله (أورغن) نفسه[2] . لم يكن هذا الجدل سيّئاً في الجوّ التوفيقي للعالم الهلليني – اليوناني – حيث وُجّه الإيمان إلى القوى الإلهية وليس إلى الشخصيّات الإلهيّة (أي ان المؤمن آهتمّ بنسبة نجاح الإله أو نبيّه أكثر من الاهتمام بهويّته وطبيعته المحدّدة)[3] . ومع ذلك ففي عالم الأفكار اليوم ، يكون الأمر ، بالتأكيد ، طبيعياً أكثر إذا فتّشنا عن أسباب تاريخيّة لتعليل كيف استطاعت ادّعاءات واحدة أن تعيش وتبقى بعد

موت كلّ الادّعاءات الأخرى . على كل حال يَعكس الجدل جوّاً ثقافيّاً يمكن لهذه الادّعاءات أن تجد فيه أصولاً ... وربما تزدهر . ويُشير (سلْسوس) فعلاً إلى عدّة أنبياء في فلسطين يتنقّلون من مكان إلى آخر قائلين : « أنا الله » أو « ابن الله » أو « الروح الإلهيّة »(٤) .

(ب) وأهم جَدَلٍ يُثيره (سلسوس) على الادّعاءات المسيحيّة عن يسوع كان نوعاً من التغيير في الموضوع الذي يقول : إن يسوعاً لم يكن زائراً إلهيّاً مناسباً جدّاً ؛ لم يكن ، ما يمكن ان يتوقّعه المرءُ من إله مُتَجسّد أن يكون . فالسائل الخاص (إيكور) ولبس الدم هو الذي يجري في عروق الآلهة ؛ ما كان الإله يُولد ويموت بالطريقة العادية ؛ وكان باستطاعة الكائن الإلهي الرؤية المُسْبقة لما خُطِّط له من موتٍ فظيع ، وكان يمكنه آستعمال قُدْرته لتحاشي ذلك ... إلخ . هذه المجادلات تعني ضمناً مناخاً ثقافيّاً كان فيه التجسُّد (الدوسيتي) إمكانية مقبولة وآدعاء أنّ إلهاً زار الأرض مُتخفيّاً بجسم إنسان ما كان ليثير أيَّ عجب ، بل والقليل من التعليقات . والذي كان (سلسوس) مصمّماً على تأكيده هو أنه « لا إله ولا آبنُ إله نزل ... وما كان لينزل »(٥) بالمعنى الذي قصده المسيحيون ، ولكن بالمعنى الذي نزل فيه (أبولو) و(إسكليبّوس) بإعلانات إلهية وعجائب . و(سلسوس) لا يعترف فقط بمثل هذه الإمكانية ولكنّه يُشير إلى تأكيد الشهود بأن (اسكليبّوس) لم يكن شبحاً : « عدد كبير من الإغريق والبرابرة يعترفون أنّهم رأوا مراراً - ولازالوا يرون - (اسكليبّوس) نفسه وليس شبحه يشفي الناس ويعمل الخير ويتنبأ بالمستقبل »(٦) .

(ج) كان ردّ (أوْرغِن) على التهجم في موضوع ولادة العذراء هو في الرجوع إلى قصص وثنيّة موازية « عند مخاطبة الإغريق ليس الأمر في غير محلّه إذا اقتُبس من القصص الإغريقيّة ، حتّى لا يبدو وكأنّنا الناس الوحيدون الذين يرون مثل هذه القصة غير المعقولة» فكّر البعض أنّه من المناسب - ليس بالنسبة

للقصص القديمة وروايات البطولة ، بل بالنسبة لأناس ولدوا حديثاً – أن يُسجّلوا ، كما أنّه ممكن ، أنه حين ولادة (أفلاطون) من (أمفيكسيون) مُنِعَ أرسطو من أية علاقة جنسية معها إلى أن ولدت الطفل والذي حملت به من (أبولُو)[٧] . ومن الواضح أنّ (أورغِن) عاش في مجتمع كانت فيه مثل هذه القصص دارجة وفكرةُ أبوّة إلهيّة لم تكن حقّاً خاصة بالدوائر المسيحية .

إذا نظرنا إلى العالم الديني الذي عاش فيه (سلسوس) و(أورغِن) نجد تثبيتاً أكثر لمثل هذه النظرة . وبصورة خاصة يعطي كاتبان الأمثلة على ذلك بوضوح .

في أعمال (لوسيان سافوزاتا) نتعرّف في أدبه الساخر على أمثلة للمتديّن المحتال (الشارلتان) ؛ عاش (لوسيان) الجزء الأخير من القرن الثاني الميلادي وعاصر (سلسوس) . وسنعرض هنا باختصار اثنين من شخصيّاته : (إسكندر أبونوتيكوس) و(بيريغرينوس) المعروف بلقب (بروتيوس) ؛ وبصورة نموذجيّة ، يُسرّ (لوسيان) باللعب على حقيقة أن آسمه هو اسم رجل البحر العجوز الأسطوري الذي استمرّ في تغيير شكله .

وهاتان الشخصيّتان ليستا من اختراع (لوسيان) ، فإسكندر أوجد وأُسّسَ مركزاً لنوع جديد من العبادة ومُنتَدىً مشهوراً للوحي الإلهي تشهد بذلك الأدلة الأثرية . وما اكتُشف من أحجار كريمة وقطع نقدية ونقوش تؤيد ما رواه لنا (لوسيان)، وتُظهرُ أن عبادة الأسرار الغامضة التي أسّسها (إسكندر) كان لها نفوذ واسع ودامت على الأقلّ قرناً من الزمان . كذلك ذكرتْ مصادر قديمة أخرى (اسكندر) و(بروتيوس) : مثلاً ، ناقش (أثيناغوراس) الكاتب المدافع عن المسيحيّة تماثيلهما ، ولكن المُفترض في الاثنين انهما كانا يقومان بإلقاء (كلام الوحي الإلهي) ، وشفاء المرضى[٨] . والعديد من الناس أخذوا بهذين الرجلين ، رغماً عن أن (لوسيان) نفسه لم يغترّ بهما .

وأهم ادّعاءات (بروتيوس) المريبة كانت تضحيته بنفسه حرْقاً بالنار في دورة الألعاب الأولمبيّة في العام ١٦٥ م . والحادثة بأكملها رُتِّبتْ بوضوح لتقليد أسطورة تأليه (هِرَقْلِسْ) . وكانت الدعاية المُسْبقة تقول ان (بروتيوس) هو على وشك الذهاب من محيط البشر إلى الآلهة ، محمولاً على أجنحة من نار[٩] . وقبل الحادثة ، كما يروي (لوسيان) ، اخترع (بروتيوس) أساطير وكلاماً إلهياً مُنزَلاً يوحي أنه سيُصبح (حارس الليل) : وظهر مقطع شعر من صاحبة النبوءة المشهورة (سيبل Sibyl) مُنبّهاً الناس أنّه عندما يضرم (بروتيوس) النار في (فناء زيوس) ويقفز عِبْرَ اللهيب ليصل إلى جبل الأُوْلَمْبْ الضخم (الدار الأسطوريه للآلهة) ، يجب على الناس أن (يتشرّفوا) بالذي مشى بالأرواح الكبيرة في الليل .... إلى خارج العالم ، وتُوِّجَ مع (هرقلس) و(هيفيستوس)[١٠] . ويَسْتَمِرّ سرد القِصة : « عندما مسَّ (بروتيوس) النار ورمى بجسمه فيها حدثت هزة أرضيّة كبيرة أوّلاً رَافقها انشقاق الأرض ثم طار عُقاب من ألسنة اللهب وذهب إلى السماء قائلاً بلغة بشريّة وبصوت عالٍ : لقد انتهيت من الأرض أنا متوجِّهٌ إلى الأولمب »[١١] . وهذه الرواية بدأها (لوسيان) مُتعمداً السخرية من سذاجة معاصريه ذاكراً كيف قابل بعد فترة قصيرة رجلاً عجوزاً آدعى انه رأى (بروتيوس) بعد تغيير شكله بآحتراق جسده ، وأنه شاهد العقاب يظهر بين ألسنة اللهب[١٢] .

ويَنْقل (لوسيان) في بدءْ روايته كهجوم مضاد على دعاية ألوهيّة (بروتيوس) كلمة مُهينة غير وديّة إلى حدٍّ كبير ، عن حياته كنبيّ هائم ، ويؤكد أن سبب تَرْكِهِ لبلده في الأصل هو الهروب الاضطراري من اتهامه بقتل والده وجرائم أخرى . ومن الأمور الأخرى في حياته المشبوهة يروى لنا أن (بريغرينوس) التحق بالمسيحيين عند وصوله لفلسطين[١٣] . « مُدّعيا النُبُوّة وزعيما لمذهب ورئيساً لكنيس ... وكل شيء آخر ، لوحده فقط ؛ وكانوا يبجّلونه كإله بعد الإله الآخر الذي لازالوا يعبدونه ... الرجل الذي صُلب في فلسطين » .

ويتبع ذلك رواية عن كيف أُوقفَ (بريغرينُوس) من أجل مذهبه وكيف أصبح محجّة للناس وهو في السجن، وجمع من ذلك ثروة كبيرة . واعتبر (لوسيان) المسيحيين مغفّلين بصورة خاصة : « إذا جاءهم محتال أو مشعوذ استطاع الاستفادة من الفرص ، فبإمكانه جَمْع ثروة بفَرضْ نفسه على بسطاء الناس » . وبعد إخلاء سبيله آزدهرت حياة (بريغريوُس) على حساب أموال المسيحيين إلى حدٍّ جعل مؤيديه في النهاية يشعرون بالإهانة .

وهكذا تُلقي روايةِ (لوسيان) الضوء على صورة المسيحيين في أواخر القرن الثاني للميلاد . كان المسيحيُّون معروفين بالبر واستعدادهم للموت كشهداء ؛ ولكن الهدف الرئيسي للوسيان كان السخرية والهُزء من حقيقة أن الناس البسطاء يمكن تحويلهم بسهولة وإقناعهم بتبجيل بعض شواذٍّ الأنبياء على أساس أنهم آلهة . وسوء فَهْم (لوسيان) لموقف المسيحيين من الشهداء يُثبت النقطة التي يُثيرها غير المسيحيين ؛ والتأليه الحالي مستلهم ، بالكامل ، من الوثنيّة . ولا يُشير (لوسيان) فقط لقصص صعود (هرقلس) إلى الآلهة عن طريق النار بل أيضاً لتأليه (إسكليبوس) و (ديونيسوس) « برحمة لاقط الصاعقة »(★) ! وإلى القصص الغريبة عن موت الفيلسوف (إنْبيدوكليس)(١٤) كما سنرى لاحقاً .

والمحتال الثاني من شخصيّتي (لوسيان): (إسكندر أبو نوتيكوس) هو مَثَلٌ أكثر فائدة إذْ أن الموضوع يتعلّق بتأثير مسيحي مباشر أقلّ ، سواء أسيءَ فَهْمُه أم لا ، ويذكُر المسيحيّن ، ولكن بأسلوب أكثر مودّة عِنْدَ ربطهم بالإيبقوريين كمعارضين ملحدين لإسكندر . وعَرْض (لوسيان) الذي يضمّ روايات عن أسئلةِ « ملغومة » مُتعمَّدة ... وغيرها ، كُتب - أي العرض - بعد عشر سنوات تقريباً من موت إسكندر في الثمانينات بعد المائة ميلادية .

(★) لاقط الصواعق - Thunderbolt - صفة كانت تُطلق على بعض الآلهة !؟!

وحَسَب قول (لوسيان) آستحصل إسكندر على أفعى مُدَجَّنة وعلّق بها رأساً بشريّاً مُزيّفاً ؛ واختار (أبونوتيكوس) كمكانٍ مناسب لأن أهل (بافلاكونيا) القريبين منها كانوا معروفين بسذاجتهم يُحملقون في أيّ موسيقيٍّ عابر أو أي (قارىء للبخت) « كما لو كانا آلهة من السماء »[١٥] . ورَتّب إسكندر تنبّؤات عن ظهور (اسكليبوس) وكلام مُوحَى :

« هنا أمام أعينكم أحد أحفاد (برسيوس) عزيز على (فيبوس) (اي الإلهة أبولو) ؛ هذا هو اسكندر الإلهي الذي له دم الشافي (أي الآلهة اسكليبوس)[١٦] ؛

ثم رتب ولادة أفعى صغيرة من بيضة نعامة ، وتبع هذه الولادة العجيبة في الظاهر ، نموّاً عجيباً ؛ وبعد أيام قلائل أجلس اسكندر نفسه على أريكة وكان يرتدي زيّاً يناسب الآلهة واضعاً في حِضْنه الأفعى الضخمة المدجّنة ومعها الرأس البشري المزيّف وعُرفت الأفعى باسم (غلايكون) ... التجسّد الجديد لأسكليبوس . وبخزعبلات مختلفة جاء إسكندر بتنبؤات ووَصْفات للشفاء من الأمراض وصَوّر نفسه كَنبيٍّ يستجيب للصلوات . وعندما سئل « الوحي » فيما إذا كان إسكندر تناسخاً لروح (فيثاغوراس) ، أجاب :

لا ، روح (فيثاغوراس) تلوح آناً وتغيب آناً آخر
أمّا هو نفسه ، بموهبته التنبُئيّة فصادرة عن عقل الله
أرسلهُ الآب لمساعدة الناس الطيّبين عند ضغوط التناقض
وستعود روحه إلى الله عن طريق لاقط الصواعق الذي يخصّ الله[١٧]

ومن الواضح تماماً أن العديد من الناس صدّقوه وأن عبادة (غلايكون) كانت ناجحة بمقياس طول مُدَّتها وآتساع رقعتها ؛ وهناك ميل إلى الاعتقاد بأنّه يجب تفسير ادّعاءات (إسكندر) كنوع من معاني التجسّد .

كان إسكندر (أبونوتيكوس) تلميذاً لفيلسوف فيثاغوريّ (أبولونيوس

تيانا) . وكتاب (حياة أبولونيوس) لمؤلفه (فيلو ستراتوس) هو أكثر ما يُردَّدُ كمشابهٍ موازٍ لحياة يسوع التي ذكرت في الأناجيل الثلاثة الأُوَل (متّي ومرقص ولوقا . وأُلِّف الكتاب قبل حوالي ثلاثين عاماً من كتاب (أورغِن) عن (سلسوس) ؛ ولقد قدَّمت له الأمبراطورة وكُتب على أساس رسائل حقيقيّة لـ(أبولونيوس) ، وبعض الوثائق المتوفرة، والملاحظات التى التقطها خلال أسفاره . كان (أبولونيوس) فيلسوفاً فيثاغوريّاً مُجدِّداً نال إعجاب الناس بحياته الزاهدة ، وكان ناقداً مُحطِّماً للدين المعاصر ، بخاصة ممارسة (عبادة) تقديم الأضاحي ، وشفى الكثيرين بصورة مُدهشة . وفي القصة التي رواها (فيلوستراتوس) عنه يذكر الكثير من فضائله وتقواه ومعجزاته وزيارته للبراهمانيين في الهند ودفاعه الناصع ضدّ اتهامه بالشعوذة والسحر الأسود أمام الإمبراطور . وكثير من ملامح هذه الرواية مُهِمٌّ من وجهة نظرنا .

I أولها هي قصة الولادة العجائبية وبها رؤيا أمّه (لبيرُوتيوس) متنكّراً بشكل شيطان مصري ؛ ولم تكن خائفة أبداً وسألته من هو الطفل الذي ستحمل به فأجابها (أنا) ، فسألته من أنت ؟ أجابها (أنا) (بُروتيوس) « إله المصريين »[١٨] . وبجانب هذه القصة[١٩] ينقل (فيلوستراتوس) انه كان هناك نبعٌ مقدّس لـ(زيّوس) قرب (تيانا) ، ويقول المواطنون المحليّون أن (أبولونيوس) كان ابن (زيّوس) مع أن الحكيم سَمّى نفسه (ابن أبولونيوس) وكان (أبولونيوس) يحمل نفس اسم أبيه .

II دعا (فيلوستراتوس) (أبولونيوس) : « ديمونيوس تي كاي ثيوس » – daimonios te kai thees (*) وفي تلك الفترة من الزمن كان الناس يعتقدون بالآلهة والشياطين كرُتبتين لِكائنات عُليا لذا وُصِفَ (أبولونيوس) بصفات أسمى من مستوى الطبيعة . أضف إلى ذلك ، أن في سياق دفاعه ، لا

(*) :وتعني باليونانيّة الشيطان والإله .

يدافع (أبولونيوس) عن نفسه ضدّ اتهامه ، بالشعوذة فقط، بل أيضاً ضدّ اتهامه بأنّه يشبه الآلهة وان الناس يعتبرونه آلهة[٢١] ؛ فهو يرفض أن يُوضع في مصافّ (إنبيدوكلس) على أساس إنجازه (انظره لاحقاً) .

III في النهاية تُقدّم سلسلة من تقارير غامضة عن موته غير المؤكد ، يروي أحدهم كيف أنّه دخل معبداً وسمع مجموعة من الفتيات ينشدن : « أسرع من الأرض .. أسرع إلى السماء أسرع » ، ولم تكتشف أبداً أية آثار لجسده ولم يُغامِر أحد في تساؤلٍ مرتاب فيما إذا كان خالداً - غير قابل للموت - ؛ أُضِف إلى ذلك أنّه تابع تعاليمه بعد موته ، لأنه ، على ما يبدو ، أقنع كل من يشك أن النفس خالدة لا تموت وأنه هو نفسه لازال حيّاً[٢٢] .

وتَنَوُّع تقييم مواد الإثبات هذه . آعتَبر (أبولونيوس) و(إسكندر) الأمثلة الرئيسيّة لعارفي (الإنسان الإلهي) في العالم القديم ،ومِنْ صُنَّاع المعجزات والأنبياء الذين آعتبروا كزوّار من عالم آخر ؛ وكان هذا العارض ، كما يُدَّعى ، هو السبب في نُمو عقيدة التجسّد في المجتمعات المسيحية غير اليهودية (من الأُميّين Gentiles) . ونظر آخرون إلى اكثر هذه الحالات، وكذلك الأدلّة في كتاب (كُنترا سلسوم Contra Celsum) المتعلق بالأنبياء الذين ادّعوا انهم آلهة أو أبناء آلهة ؛ واعتبروا ذلك تقليداًللادعاءاتالمسيحية عن يسوع ، ويعتبر البعض كتاب (حياة أبولونيوس) بخاصّة أنه ترتيب مقصود لمنافسة الأناجيل يركّز الضوء على فيلسوف محترم أكثر قبولاً ومناسبة من البربري يسوع الناصري . والواقع أن الاختلافات الكبيرة جدّاً بين هذا الكتاب والأناجيل يجعل موضوع الافتراض بان عمل (فيلوستراتوس) تقليداً متعمَّداً .. أمراً ضعيف الاحتمال إلى حدٍّما . وعندنا الدليل في (إيزوبيوس) انّه لم يكن هناك مقارنة مفتوحة بين (أبولونيوس) ويسوع حتى عهد (ديوكلتيان) أى حوالى مائة عام بعد تأليف (فيلوستراتوسْ) لكتابه (حياة أبولونيوس)[٢٣] . ومع ذلك يجب أن نُقدِّر حقيقة أن الدلائل التي بَحَثناها حتّى الآن جاءت بعد مائتى عام من فترة (العهد

الجديد) - الأناجيل -، وتخصُّ حالة كانت فيها الادعاءات المسيحية تستجلب أكثر فأكثر انتباه العامّة . وربّما تأثّر الجو بالنفوذ المسيحي . لذا نلتفت إلى سؤال : هل بإمكاننا آقتفاء الأثر الرجعي لمثل هذا الموقف قبل قرنين أو ثلاثة أو أكثر ؟

٣ - تعميق البحث في تاريخ الماضي

كان للعالم القديم استمرارية ثقافية بارزة . من أفلاطون إلى . أوغسطين، فترة بلغت تقريباً تسعمائة عام ؛ ومع ذلك شعر (أوغسطين) أنه ينتمي إلى عالم له نفس التراث الذي كان لأفلاطون ، ففي مدى مائتي عام فقط يجب ألا نتوقع درجة كبيرة من التغيير الثقافي ، وبالتأكيد ليست كبيرة إلى الدرجة التى حصلت خلال مائتي عام بعد استقلال الولايات المتحدة الأميريكية . ومع ذلك فإهمال مسألة السياق الزمني أمر غير علمي كُليّاً . والشواهد التي سقناها هي بعض أوْضَح الأدلّة المدوّنة الموجودة ، ولكن علينا أن نبحث عن أدلّة أقدم لتبرير أي آدعاء أن هذا النوع من المناخ الثقافي يمكن أن ينسحب على الفترة الزمنية للعهد الجديد - الأناجيل - .

وهناك العديد من الدلائل ذات أهمية بالغة :

(١) (أورغن) لم يخترع تداول قصة الولادة العجائبيّة لأفلاطون ، فلقد ذكرها قبل عدة أجيال منه (ديوجينيس ليرتيوس) . المؤلف الوثني لكتاب « حياة الفلاسفة » وَيَسْرُدُ ، كمراجع مُهمَّة ، (كتاب سبُوسيّبوس) : «عيد جنازة أفلاطون » وكتاب (كليرخوس) : (إنكوميوم أفلاطون Encomium on-Plato)(*) وكتاب (أناكساليدس) : « في الفلاسفة - الجزء الثاني »(٢٤) .

(★) إنكُومْيُومْ - Encomium - تعني تقريظاً ومَدْحاً .

كان (كليرخوس) تلميذ أرسطاطاليس - أرسطو - الذي كان بدوره تلميذاً لأفلاطون . ولكن أكثر ما يؤثّر هو حقيقة أن (سيسبّوس) كان ابن أخت أفلاطون (بوثون) . وقصّة القرابة الإلهية لأفلاطون يجب ان تكون تاريخياً قبل فترة العهد الجديد - الأناجيل - بكثير .

كذلك يجب ألّا نتصور أنّ أفلاطون وحده هو الذي استقطب مثل هذه القصص الخرافية . ينقل أيضاً (ديوجينيس)قصصاً تعني ضمناً الولادة العجائبية أو الموت العجائبي لفلاسفة آخرين ، معلّقاً معلوماته على مصادر من قبل العهد المسيحي مثل (هيراقليدس) من (بُونُس) ، أحد تلاميذ أفلاطون أو (هيرميبُّوس) الجامع لسِيَرِ حياة الناس وعاش حوالى العام ٢٠٠ قبل الميلاد . والفيلسوفان اللذان تجمّعت حولهما أساطير التَجَسُّدِ والتأليه كانا (فيثاغورث) و(إنبيدوقلس) قبل عصر سقراط . وتقول رواية من الروايات[٢٥] : كان (فيثاغورث) الابن المتجسّد لـ(هرمس) ، الذي ، رغم انه رفض فكرة الخلود ، سمحت له التسهيلات العجائبيّة في آستذكار سلسلة طويلة من حوادث التجسُّد ؛ إلّا أنّه كان من المفترض أنّ صحابته ادَّعُوا أنه كان (أبولُو القاطن في أقاصي الشمال) ؛ واقعة لم يذكرها فقط (ديوجينيس)[٢٦] ، بل (سقراط) أيضاً الذي عُزيتْ إليه المعلومات الإضافية التي تقول أن (فيثاغورث) « ظهر » للعديد من الناس وجاء ليشفي البشر[٢٧] . والتطوّر الكامل لِمثل هذه القصص الخرافية موجود في كتاب (حياة فيثاغورس) لمؤلّفه (إيامْبليخُوس) الفيلسوف الأفلاطوني المجدِّد الذي يَمتّ لبداية القرن الرابع الميلادي ، ولكنه من الواضح انه أكثر هذه المواد ظهر في الأصل قبل فترة - الأناجيل- بوقت طويل . أمّا بالنسبة لـ(إبيدوقلس) تقول بعض النُتف الباقية مِنْ تعاليمه: تحيّة إلهية لكم جميعاً! « أنا أتحرّك بينكم كآلهة لا تفنىٰ وليس كبشر فانٍ بعد الآن . » وأصبحت آدعاءاته أدباً معروفاً تقريباً لدى الجميع ، ظهر كما رأينا ، في عمل (لوسيان) و(فيلوستراتوس) . وروايات عن عمليات الشفاء ، واستنزال المطر والأعمال

السحريّة ترافق التقارير عن الناس الذين استجابوا لذلك بالتعبّد والصلاة له كما لو أنّه آله[٢٩] . ويُعطي (ديوجينيس) العديد من الروايات المختلفة عن موته ، وإحدى القصص التي كثر تكرارها وطال استمرارها هي أنّه رمى بنفسه في الفوهة النارية لجبل (إتْنا) لكي (يُثَبِّت الاعتقاد بألوهِيّته[٣٠] إلا ان القصّة التي رواها (هرقليدس) قالت أن (إنبيدوكلس) اختفى في إحدى الليالي ؛ وبعد ذلك آدعى أحدهم أنّه سمع صوتا عالياً في منتصف الليل ينادى (إنبيدوكلس) وعندما قام رأى نوراً مُتوهّجاً في السماوات ؛ ولما فشل في إيجاد أي أثر له ، قرر شُركاؤه أن « أشياء أبعد من مستوى التوقّع حدثت له وأن واجبهم أنّ يُقدّموا له القرابين حيث أنه الانّ إله »[٣١] .

(ب) ومع ذلك يأخذنا دليل (ديوجينس)، فقط – بالواسطة–، إلى ما قبل العهد المسيحي ، لذا ربما يُشعر الآن أن الأمر بحاجة لمزيد من التأكيد . يمكننا ان نعود إلى تاريخ أبعد بإلقاء نظرة على أعمال (بلوتارْكْ) عاش (بلوتَارْكْ) في أواخر القرن الأوّل الميلادي ، ولكن رغم انّه عاصر أكثر كتابات العهد الجديد – الأناجيل – ، كان بالتأكيد بعيداً – اجتماعيّاً – عن الحركة المسيحية . فهو ينقل أيضاً قِصّة ولادة أفلاطون ويتبع ذلك بما يلي :

« لا أجد ذلك غريباً إذا لم يكن الأمر مادياً كما هو بالنسبة للبشر ، بل بنوع آخر من الاتصال أو اللمس ، عبر وكالات أخرى ، أن يُحَوِّل الآلهة الطبيعة الفانية ويجعلها حاملاً لِذريّة أكثر ألوهية ..؛ بصورة عامة يسمح (المصريون) بصلات جنسيّة بين امرأةٍ فانية وإله ذكر، ولكن في حالة العكس لا يظنّون – أي المصريون – أنّ بشراً فانٍ يستطيع أن يهب آلهة أنثى مبدأ الولادة والحمل ، لأنهم يفكرون أنّ مادة الآلهة مؤلفة من الهواء والنَفس (أي الأرواح) ومن بعض الحرارات والرطوبات »[٣٢] .

ويتأكد أيضاً وجود روايات عن الولادة العجائبيّة في أشهر أعمال (بْلوتارْكْ) وهي مجموعة عن سير الحياة . هنا نرى « شجرات العائلة »

للعلائلات الإلهية ، وروايات عن « فوق الطبيعيّين » الذي يُنجبون مؤسسيّ المدن والحكّام البارزين ؛ ويمكننا البحث باختصار في (الاسكندر الكبير) و (رومولوس) .

I ادّعاء الاسكندر بأنّه سليل الآلهة يرجع إلى فترة حياته نفسها ، والنقوش والمصادر الأخرى تؤكد أن بيانات (بلوتارْكْ) ليست مبنيّة على تراكمات خيالية حديثة . وهكذا يعتبر (بلوتارْكْ) أن لا مجال للشكّ في أن الإسكندر كان من أحفاد (هرقلس) من ناحية والده ومن الأبطال الأسطوريين لطروادة من ناحية أمّه(٣٣) . إلا أنّه أقلّ ثقة بالروايات المختلفة عن ولادته ، مع انه يشعر انه مُكْرهٌ على نقلها . فالليلة السابقة لزفاف أبيه وأمّه يُقال إن العروس حلمت ان (اللاقط للصواعق) والمفترض أن أصله من (زيوس) وقع على رحمها(٣٤) ؛ وربما يوجد تأكيد لمثل هذا الادعاء في قِصّة رواها (بلوتارْكْ) بعد ذلك ، بما معناه أن نبيّاً سوريّاً رحّب بالاسكندر على أساس انه (بي – دين Pai Dios)(*) ويعتبر (بلوتارْكْ) أنّ في الكلمة خطأً ، فالمفروض أنّها (بي ديون – Pai dion) وهي كلمة ترحيب معروفة ، ولكنّ الاسكندر ، كما نقل (بلوتارْكْ) ، فسَّرها على أنه (ابن زيوس)(٣٥) . ولكنّ أكثر القصص الخيالية المتناقلة بتفاصيل مختلفة في الروايات المختلفة تعزو الحمل بالإسكندر إلى إله بشكل أفعى شوهدت في سرير أمّه (أولمبيا) نائمة معها . وتوقّف فيليب عن مضاجعة (أولمبيا) لانه اقتنع أنّها شريكةٌ لكائنٍ عُلويٍّ وذكر في الكلام الموحى أنه كان (زيوس آمون)(٣٦) الذي ادّعى الإسكندر بعد ذلك أنه من صُلْبه . أضف إلى ذلك أن الأفاعي لازمت عبادة (ديونيسوس) ابن (زيوس) ، والوصف (ديونيسوس الجديد) التصق بالاسكندر بعد فترة قصيرة من موته مع أن ذلك لم يكن متداولا في الغالب ، قبل مماته .

(*) كلمة Dios تعني : الإله و(Pai- Dios) تعني ابن الإله .

II وكما كان الحال مع الإسكندر كذلك كان مع (رومولوس) ، وينقل (بلوتارك) عدّة روايات مختلفة عن ولادته وأصله . وبدل أن نُجري مسحاً على تلك الروايات ، يمكننا أن نعرض واحدة ، وهي موجودة أيضاً في أعمال المؤرخ الروماني (ليفي) وتأخذنا إلى تاريخ أسبق أي قبل سنة ٢٥ قبل المسيح بقليل . يروي (ليفي)كيف آغتصبت العذراء (ريهاسليڤيا) وولدت توأمين قيل أن أباهما كان (مارس) إله الحرب[٣٨] ويثير (رومولوس) ، مع ذلك ، نفس القدر من الاهتمام ، بالنسبة للقصص الخرافية عن نهاية حياته ، ويعرض (بلوتارك) عدّة روايات أيضاً ، إحداها موجودة في أعمال (ليفي) الباكرة . أثناء استعراض الجيش لفّت عاصفة مفاجئة الجميع بغيم كثيف وحين مرّ الغيم فوق رأس (رومولوس) لم يعد هذا الأخير على هذه الأرض . وباتّفاق الجميع اعتُبر (رومولوس) كإله وابن إله ، الملك والآب للمدينة الرومانية . واسترحمه الجميع في صلواتهم لنيل رضاه كي يشمل أولادهم برحمته إلى الأبد ؛ وبعد فترة قصيرة آدّعى أحد النبلاء انه رأى (رومولوس) ينزل من السماء ومعه الأمر التالي : « اذهبوا وآعلنوا للرومان إرادة السماء بأنّ روما التي تَخُصُّني ،ستكون عاصمة العالم لذا عليهم أنْ يُعزّوا فنّ الحرب ولِيَعْلموا ويُعلموا أولادهم أنه ليس هناك قوة بشرية تستطيع مقاومة السلاح الروماني » وبعد ذلك قفل راجعاً إلى السماء[٣٩] .

(ج) آنتمى (ليفي) للعهد العظيم للأدب الروماني الذي آستُلْهِمَ من سلام ونجاح الامبراطورية تحت حكم (أوغسطوس) . وظهر في أعمال أدباء نفس الفترة الزمنية تقريباً ان الآلهة يستطيعون النزول إلى البشر والصعود راجعين إلى مسكنهم السماويّ . فلقد احتفى (بوسيس) و (فيليمُون) ب (كوكب المُشتري) و(كوكب عُطارِد) دون أن يعرفا أنّهما استضافا إلهين في شكلٍ فانٍ ، وكانت هناك أسطورة قديمة رواها (أوفيد) مرّة أخرى حول العام الميلادي - ٨ - في مجموعته الشعريّة (الميتامورفُوسيس - أي التحوّل الشكلي)[٤٠] بمعنى التحوّل العجائبي للشكل والذي رُوِيَ في أساطير إغريقية ورومانية . وهذا تذكير بأن

ظهور الآلهة للبشر على هذه الأرض كان من مخزون تجارة (الميثولوجيا) – الأساطير – ، والشعر بدءاً (بهُومر) وما بعده . أمّا مدى الجديّة التي أُخِذَتْ بها هذه الروايات الأسطورية فمسألة فيها نظر ؛ وأما عن وجود بعض الناس الذين لم يُشككوا في صحَّتها فثابت بدليل القِصّة في (الإنجيل الخامس – 14.11 f.f) حيث أخذ (بولص) و(برنابه) للمُثُول أمام (هرمز) و(زيوس) الإلهين الإغريقين اللذيْن تساوى بهما تقليدياً ، (المُشْتري) و (عُطارِدْ) على رأي (أدفيد) .

واختلاط البشر المعاصرين بالظهور الإلهي أمر يبرز بصورة مُعينة في صالات الحُكّام . وفي عهد يسوع تقريباً نجد الأمثلة التالية :

I في عام ٦٠ قبل المسيح كتب (شيشرون) يُشجّع أخاه الذي كان آنذاك حاكماً لمقاطعة آسيا ؛ فلاحظ أنّ الإغريق أعجبوا بمناعة حاكمهم ضدّ (الفساد إلى درجة أنهم ظنّوا أنه شخصية كبيرة من التاريخ الماضي أو أنه رجل إلهي من السماء نزل إليهم في مقاطعتهم(٤) .

II كتب (فرجيل) في العام ٤٠ قبل المسيح (نشيد الرعاة) مُوجَّهاً للقُنصل (بولِّيو) قارناً مجيء العهد الذهبيِّ بولادة طفل . وفسّر المسيحيون النشيد بعد ذلك كنبوّة بالمسيح مع انّه لم يكن بالمستطاع ان يكون ذلك قد خطر على بال (فرجيل) نفسه . وبتعبير أدقّ : ماذا – أوبالأحرى – مَنْ كان بذهن (فرجيل) عندما كتب النشيد فالأمر أشبع بحثاً ونقاشاً . وفي هذا (النشيد – Ecologue) يتكلم (فرجيل) عن ولدٍ يُصاحب الآلهة والأبطال ويحكم العالم بالسلام ؛ ويدعو الولد : « سليل الآلهة العزيز .. إن فيك جبلّة (المُشْتَري) »(٤٢) .

III وكتبت دوائر الديوان الملكي شعراً حول الأمبراطور (أوغسطُس) ، والذي وُلد يسوع إبّان حُكمه ، للاحتفال بحقيقة ان الآلهة قد

أرسلته – أي أرسلت (أوغسطس) – حتّى إنها توحي أنه هو إله أتى إلى هذه الأرض . كتب (هوراس) حول العام ٣٠ قبل المسيح مُوجِّها قصيدته الثانية لأوغُسطس :

من أي آلهة سيطلُبُ الناس العون في حاجات الإمبراطورية المُنهارة ... لمن سيُولّى (المُشْتري) واجب تطهير الذنوب . بعد تغيير الشكل تكرَّمْ أيها الابن المُجنَّح لمايا (أي عُطارِدْ) اللطيفة ، بالظهور على هذه الأرض كشاب يافع مُستعد لتلبية نداء الثأر لقيصر ، وبعد ذلك ارجعْ إلى السماوات ولتَرْضَ طويلاً بالعيش مع أناس (كويرينُوس) – أي الرومان – .

ويوضح المقطع الأخير أن (أوغسطس) كان يُخاطَبُ على أنه « تجسيد (عُطارِدْ)[٤٣] .

ومع أنه صحيح أن هذه الأمثلة يجب اعتبارها غالباً (أدَب الغرور) دون تحميلها كثيراً من الجديّة في المعني ، فإنّها مع ذلك تصلح لتذكّرنا أن مثل هذه اللغة كانت دارجة في عهد يسوع بخاصة بالنسبة للحاكمين ؛ حقّاً إن (التأليه : apotheosis) لأعضاء العائلة الإمبراطورية أصبح شيئاً غريباً في القرن الميلادي الأوّل إلى درجة أنّه أصبح دريئة واضحة للأدباء الساخرين وبخاصة أعمال (سينيكا) : (التحوّل اليقطيني Pumpkinifieation) وأعمال (كلوديوس) : (أبوكولوسنتوسس فور أبوثيوسس :apocolocyn-tosis(*) for apotheosis) التي كتبت بعد قليل من وفاة ذلك الامبراطور في عام ٥٤ بعد الميلاد .

لدينا إذن بعض الخلفيّات لتقصي أثَرَ المواقف المبيّنة في مناظرة (أورْغِنْ) مع (سلسوس) في تواريخ سابقة في العهد اليوناني – الروماني بل حتّى العهد المعاصر تقريباً لعهد يسوع ونُموّ الحركة المسيحيّة .

(*) ومعناها القريب باليونانية هو : (تَفسّخ فِكْرة تأليه الأباطرة) .

٤ - بعض الفَرضيّات الممكنة

في الجزء السابق أُشير إلى ملامح الخلفيّة العامة التي تنقل هذا الجو إلى ماضي أبعد ، أي :

I الميثولوجيا التقليدية بخاصة ما تعلّق منها بالخالدين من الآلهة مثل (هرقلس) (ديونيسس) و(اسكليبوس) الذين توصلوا إلى (عدم الفناء – Immortality) والأُلوهيّة بعد ماعاشوا أوّلا كبشر استثنائيّين .

II وحقيقية انّ روما ورثت لغة عبادة الحُكّام من العائلات الإغريقية الحاكمة في مصر وسورية . وهذه المواد مقرونة مع الشواهد التي قُدّمتْ مُسبقاً والتي أدّت – بدون أيّة غرابة – إلى عدّة فرضيات، تحاول اقتفاء الأثر لأصول المعتقد عن شخصية المسيح في المحيط الميثولوجي – الأسطوري – والديني الهلّليني – الإغريقي – العام ؛ وكل واحدة من هذه الفرضيّات تعرَّضت بصورة جادة ، لتساؤلات تفصيليّة ، أوّلا على أساس قلة أو تأخر الأدِلّة ، وثانيا لأنّ كل هذه الفرضيات لا تُوفِّر مقارنة مُشابهة دقيقة لادّعاءات المسيحيين عن يسوع . ومع ذلك من المهم التحقُّق أنّ هناك ، على الأقل ، أدلّة كافية أوصَلَتْ كلّ آقتراح إلى مستوى الإمكانية الجدّية ؛ والتأثير الجامع للأدلّة أدّى إلى قبول واسع لوجهة النظر القائلة إنّ المسيحيين الجُدُد – الأمميّين – Gentile – الناطقين باليونانية هم الذين حوّلوا يسوع المسيح – اليهودي من فلسطين – إلى كائن إلهيّ مُتَجَسِّد . ويقولون : طالما لا يُمكن تَصَوُّر مثل هذا التطور في إطار العقيدة اليهودية المُوَحِّدة لله فالبيئة الوثنية التلفيقيّة وحدها هي الأصل – لعقيدة التجسّد – .

(ا) **عبادة الحُكام** : في الكتاب الرائع « ضوء من الشرق القديم » جَمَع المؤلف (أدولف دايسمان) مجموعة من النقوش المُمثلة ، والملوّنات على ورق البُردى ، ليظهر أن الألقاب التي أضفاها المسيحيّون الأوائل على يسوع تتوازى

بصورة حميمة مع ما آستُعمل في « عبادة الأباطرة » . وهناك نقوش آسيويّة يرجع تاريخها إلى عام ٤٨ قبل المسيح تتحدّث عن (يوليوس قيصر) على أنه « إله ظاهر من نسل (آريس) و(أفروديت) ومُنقذ عام للحياة الإنسانية » . وهناك لوحة عتبة رخاميّة من (برغاموم) تحملُ النقش التالي : الامبراطور قيصر ابن الله ، وإلاله (أوغسطوس) المُشْرف على الأرض والبحر . ففي هذين المثلين وحدهما لدينا الكلمات الإغريقية (إله – Theos) (ابن الله – Theou Hyios) و (المنقذ – SÒTER) و(الظاهرالمُتَجَلّي – EPIPHANES) . و (على ورق البُردى – Oxyrhynchus Papyri) يوصف (أوغسطوس) بتعبير [(إله) و(سيّد) – Theou , Kurios,)] ، وعلى بعض الآثار الفخّاريّة يُدعى (نيرو) (بالسيد – Kyrios) ؛ والتعبير المرادف اليوناني (Despotes) – أي السيد ، قليلا ما آستُعمل ليسوع ، إلا أن تعبير (Basileus – أي ملك – هو مَثَل واضح جدّاً للألقاب التي آستعملت في (عبادة الأباطرة) وفي لغة الدراسة المُبكِّرة لشخصية المسيح . بل الشيء الاكثر أهمية هو حقيقة أن الأمور المُشتركة لم تكن فقط في الألقاب بل هناك أشياء أخرى أبرزها (الإنجيل Evangelion) وكلمة (عودة المسيح Paroussia) ، فمثلا (i) هناك حجر من منطقة السوق في (برين) دُوّن عليها ما يلي : « إلا أن يوم ولادة الإله وهو الإمبراطور (أوغسطوس) كان للعالم بداية الإنجيل بسببه » .

(ii) ما دُوِّن على ورق البردى وعلى الأدوات الفخّارية في عهد (بطليموس) في مصر يُشير إلى جمع التبرعات لتقديم هدية للملك بمناسبة عودته (Paroussia) أي اثناء جولته الامبراطورية ؛ وَصُكّتْ عملة بمناسبة زيارة (نيرو) إلى (كورنثيا) ، ويمكن تحديد التواريخ بدءاً بزيارةٍ – أو عودةٍ امبراطورية : ففي أحد النقوش سُجّل التالي : « في السنة ٦٩ لأول عودة Paroussia للالهة (هَدرْيان) في اليونان » . والكلمة البديلة

(EPIPHANEIA) - أي المتجلّي - موجودة هي أيضاً بمناسبة زيارة أمبراطورية .

ومنذ عَهْد الإسكندر الكبير كان يحظى الأباطرة والملوك بالتعظيمات الإلهية . فهل كانوا يُعتبرون آلهة مُتجسّدين ؟ بعض الدلائل بالنسبة للإسكندر ... مررنا به بسرعة آنفاً ؛ وملوك الإغريق ، بالتأكيد ، كانوا ينقشون صورهم ك(زيوس) و(أبولو) على قطع النقود . والحُكّام في العهود الإغريقية والرومانية كانوا يضعون تماثيلهم في المعابد إلى جانب تماثيل بقيّة الآلهة ؛ وكما رأينا نادى أحد الشعراء (بأوغسطوس) ك(مركيوري) - الآلهة - بشكل بشري . ويبدو أن الدلائل الأثرية والأدبية تعرض صورة متماسكة إلا أن المغزى الديني الدقيق لهذه الحقائق هو موضوع كثير النقاش والجدل . ويلاحظ (أ . د . نوك) : (i) أنّ هناك القليل ممّا يُشير إلى عزو أي أثر خارقٍ - للحُكّام بعد موتهم؛ وهناك ... الأقل من الصلوات الحقيقية التي تُقدَّمُ للحُكام المؤلهين في حياتهم أو بعد موتهم . (ii) إن أغلب التعابير المستعملة للحكام المؤلّهين غامضة وليس من العادي إيجاد معني التجسّد لآلهة مُعيّنة في شكل بشريٍّ ، يستمر - أي معنى التجسّد - على مدى حياة الآلهة . كان الحكام (إبّيفانوس) - أي فترات تَجَلّي - فقط ، وليس طيلة حياتهم ، وكان الأمر يتعلّق بمظاهر قوّة معيّنة بخاصة في الحروب ، مع أن الأمر في بعض الأحيان كان عن طريق العجائب أو شفاء الناس(٤٥) .

ومع ذلك فاللغة الالهية التي استُعملت للحكام توازي بصورة حميمة الألقاب التي أضيفت على يسوع في الأناجيل إلى درجة لا يمكن اعتبارها غير ذات مغزى . وحسب قول (جوزيفوس) تحمّل اليهود كل أنواع التعذيب على أن يعترفوا ، أو حتّى يُشيروا كأنما سيعترفون ، بأنّ قيصر هو سيدهم ، لأن الله كان وحده « السيد »(٤٦) . وبنفس الطريقة من الواضـ أن اعتراف المسيحيين الأوائل بالمسيح على أنه « السيد » -« Kyrios » كان يُعتبرُ على إنه استبعاد

لعبادة القيصر . والذين اضطهدوا المطران (بوليكارب) رُبّما اعتبروا أنّ الأمر بسيط في قول كلمة (Kyrios) لقيصر . ولكن ذلك لم يكن بسيطاً بالنسبة (لبوليكارب) نفسه ، ويكون أكثر تمنُّعاً إذا طُلِبَ منه شتم المسيح[٤٧] . وهناك بعض التفهّم لهذا الموقف عند إعادة القراءة في الأناجيل لهذا المفهوم وتفسير نُصُوص مثل (الرسالة الأولى للكورنثيين - 12.3) : « لا يقول أبداً من يتكلم بروح الله : « اللعنة على يسوع » ، ولا يستطيع أحد القول : « يسوع هو السيّد » ماعدا « الروح القدس » . ولقد امتدح اليهود والمسيحيون على السواء الوثنيين عندما أخذوا لُغتهم الدينية عن قيصر مأخذ الجد . واعتراف المسيحيين الأوائل بيسوع كـ(سيّد) - Lord يمكن النظر إليه على أنّه نظرية مقصودة مُضادة لمذهب عبادة الإمبراطور . الملك والسيد الحقيقي هو يسوع الذي كان ، مثل قيصر ، الإله المُتجلّي على الأرض ، والسيد والمنقذ للبشر .

(ب) **البشر الإلهيون** : في هذا العصر ، على كل حال ، يُعتبر مذهب عبادة الحاكم عادة سلبيّة بدلاً أن يكون مَثلاً يُحتذي به[٤٨] . وكان أكثر التركيز على الفكرة العامة (للبشر الإلهين) في العالم الإغريقي . والفرضية المقدمة مراراً هي أن المجتمعات الأوّلية غير اليهودية تبنّت أساساً فكرة الإنسان الإلهي في دراستها لشخصيّة المسيح ، و(مرقص) ، والمؤكد تقريباً أن إنجيله هو أوّل الأناجيل ، كان من المفترض ، أنه استعمل آنذاك ، أو رُبّما صحح مصدراً أو سجلاً عُرض يسوع فيه كبشر إلهي ، أي بشر وُهِبَ قدرة فوق قدرة البشر للقيام بمعجزات .

وخاصيّة (الانسان الإلهي) أعاد تركيبها (ل .بيلِرْ) بصورة تدعو للإعجاب في كتابه (Theios Aner) .[٤٩] فلقد جمع ورتّب كمية هائلة من المواد التي تفيد في موضوع أن بعض الأفراد في العالم القديم كانوا يُعتبرون أنهم ينتمون إلى طبقة - ما بين البشر والآلهة -، تُوصف بصورة عامة بالكلمة الإغريقية (ثيوس Theios) أو بتعابير مُميّزة أخرى . وهناك دوافع نموذجية وملامح حياتية

تلازم هؤلاء الأفراد ، مع روايات مماثلة عن حكمهم وقدراتهم الخارقة ونشاطاتهم البارزة ؛ ولقد ذكرنا آنفاً بعضاً من أحسن الأمثلة في هذا الفصل . ومن الناحية السطحية تُقدِّم هذه الأمثلة صورةً غاية في التأثير ، ولكن فيها عدداً من نقاط الضعف : مجموعة أدِلّة من عهد (هومير) إلى القرون الوسطى مَسُوقة لخدمة الغرض دون احترام كبير لتسلسل الزمن ، والمواد مصوّرة بتضخيم، مُعطية الانطباع على أن الملامح الموصوفة تظهر كمزيج مُتكرر أكثر ممّا هو عليه الأمر في الحقيقة ثم إن تحويل التعبير (Theios aner) لنوع من اللقب هي طريقة مشكوك فيها،لأن كلمة (Theios) كانت وصفاً عامّاً جدّاً لا يحمل في طيّاته أي تأكيد لمعنى التجسّد ؛ وهذا واضح من حقيقة أنّه في العهود اللاحقة كان يمكن وَصف القدِّيسين والآباء المسيحيين بنفس الكلمة ف(رحمة الله) أو (روح الله) كانت كافية لتجعل الرجل أو المخطوطات الدينية .. إلهيّة . وفي الاستعمال الوثني والمسيحي كان من الممكن لهذا الوصف ان يأخذ شكل مقارنة : أي ، مثلا ، « أكثر ألوهية » أو شكلاً تفاضُليّاً فائقاً مثل « الأكثر ألوهية » ! وهكذا ففي الاستعمال اللغويِّ العام كان يمكن للبشر وللأشياء أن تحوي درجات من الألوهية ! كان الأمر نَعْتاً شرفيّاً وكان من الممكن استعماله في نصوص وأُطرٍ مختلفةٍ ؛ فمن الصحيح إذن ، كما أشار العديد إلى ذلك ، أن كلمة : (Theios aner) لم تكن بالتأكيد تعبيراً ثابتاً ، وليس هناك نوع خاص أو مُحدّد لطبقة من الناس تُدعى بصورة عامّة « الرجال الإلهيين»(٥٠)؛ والنعت (Theios) ذاته لا ينقل أكثر من معنى (مُلْهِم) .

ورغم كل هذه الانتقادات ، فوجود تشابه صارخ بينهما وبين موضوع شخصيّة المسيح أمر « لا يمكن استبعاده كُلّياً » فنحن نُواجَهُ ليس فقط بحقيقة أن كل من يُعتبر استثنائياً أو بارزاً في شخصيّته أو قُدرته أو مركزه ، يمكن أن يُدعى (Theios) - أي إلهي -، ولكنّنا نواجه بحقيقة قصص الولادة الخارقة وقصص أسطورية عن اختفاء عجيب عند الموت ، وأعمال إنقاذ وشفاء للناس ، والتأليه

والتجلّيات من الأعالي كانت كُلّها تتلازم ، تكراراً ، مع شخصيات مثل هذه في العالم الوثني . ربّما لم تكن كلمة (ابن الله) لقباً متداوَلاً كثيراً ولكن ابن (هيليوس) وابن (زيوس) كانتا كلمتين معروفتين بصورة واسعة . من أين أتت هذه الألقاب والدوافع ؟ من الواضح جدّاً انّها استُعيرت من الميثولوجيا القديمة – قصص الأساطير القديمة – . وأسطورة (هركوليس) كانت مُؤثرة بصورة معيّنة[٥٢] . وفي الدوائر الزينونية(★) – Stoic بخاصّة ، أصبح (هركوليس) المثل الأعلى للرجولة يصرع الشر ويؤسس سلاماً عالمياً مُنتصراً على الموت باقتحامه لـ(هاديس) وأخيرا بإنجازه للخلود – عدم الفناء – بسبب فضائله . ونجد العرض الدراميَّ لهذه المقولات مع الدوافع الأسطورية التقليديه في مآسي (سينيكا) التي كُتبت في منتصف القرن الميلادي الأوّل . كان على الكُتّاب المدافعين عن المسيحية أن يحسُبوا حساب (هركوليس) و(اسكليبوس) و(ديونيسُوس) كمنافسين محتملين ... للمسيح ؛ وفي القرن الثاني ، مثلا ، كان لـ(شهيد جوستان) موقف متناقض بالنسبة للأشباه مستبعداً إياهم على أساس أنهم من جهة ، (اختراعات خادعة) لشياطين الشرّ قُصد بها تحجيم القصّة المسيحية إلى محض رواية للعجائب مثل القصص التي يرويها الشعراء ؛ ومن جهة أخرى ، مع ذلك ، استعملهم لإزالة حدّة (اللسعة) في سخرية الوثنيين من الادعاءات المسيحية[٥٣] .

وحسب رأي (بلوتارك) كان الإسكندر يعتقد أنه ، رغم أن الله هو الأب العام لكلّ الناس ، إلا أنه مع ذلك جعله هو – أي الإسكندر – بصورة خاصة ، أسماهم وأحسنهم ؛ وقرابة البشر للآلهة أصبحت أمراً فلسفيّاً معروفاً للجميع ، وكان يُعتقد بصورة عامة ، بين الفلاسفة ، أن الآلهة العديدين جاؤوا أصلاً من بشر تألهوا ، كما أوضحت ذلك أساطير الخالدين – الأبديين – ، ... ومهما كانت نقاط الضعف في نظرية (Theios aner) لا يمكن الإنكار أنه في

(★) الزَيْنونيّة نِسْبة لفلسفة (زَيْنون) .

حالة البشر الاستثنائيين، بخاصة الحكام والفلاسفة (الذين يمكن اعتبارهم زعماء دينيين ملهمين أو أنبياء العالم الإغريقي) ، فقصص أساطير (الأبديّين) آستعملت للتعبير عن معنىٰ أنّهم ينتمون ، أو أنّهم وصلوا لجنسٍ سامٍ وعالم آخر ؛ وبما أنه كان من الملائم ذِكْر هذا العارض بتعبير مختصر ، استمرّت كلمة (Theios aner) في أداء هذا الهدف . بالإضافة لذلك لا يمكن الاستبعاد المباشر لوجهة النظر القائلة أن شيئاً من هذا القبيل حصل بالنسبة لموضوع يسوع . ولنأخذُ مثلاً واحداً فقط : هناك تشابه عام بين رواية (ليفي) عن (رومولوس) وعن بعض الروايات المختصرة عن يسوع : ولادة عذرية وحَمْل عن طريق الإله ، وحياة بارزة واختفاء بلا أثر للجسد بعد الموت ثم ظهور بعد الموت لتكليف خلفائه ، وتقديم الصلوات له . وسيكون من المستحيل تقديم دعوى مقنعة عن التأثير المباشر للحالة الأولى على الحالة الثانية ... ولكن يبدو أن الناس الذين عاشوا تقريباً في نفس الفترة الزمنية أنتجوا روايات أسطورية متوازية في دَوَافِعِها .

٥ – الاعتراضات والبدائل

ركزنا حتى الآن على تصوّر نوع معيّن من البيئة المنتشرة بأسلوب واسع في العالم القديم وفيها كان من الممكن لأيّة شخصية ذات قدرات استثنائية أن تنال من عامّة الناس الذين يستجيبون لها ، التشريف الإلهي،وهذا يوفّر إطاراً تعليميّاً لبحث ظهور المعتقد في شخصيّة المسيح ، مع أنّ النظريات المعيّنة التي استقت دراستها للمسيح من هذه الخلفيّة لم تستطع أن تصبح مقنعة تماماً ؛ وهذا راجع ، جزئياً لصعوبة عَرْضِ أي تأثير مباشر ، كذلك ، ما من أحد يعلم تماماً درجة الأهمية التي يجب تقديرها للعديد من أنواع هذه المعتقدات والعبادات؛ ويبدو أن عبادة الحاكم أصبحت تقليداً ... نصف مهزلة لا يُقام إلا لأسباب سياسيّة فقط، ورُبّما لا يُؤثر على غالبيّة الشعب ؛ والميثولوجيا التقليدية يمكن النظر إليها ، بالتأكيد ، بشك وارتياب، على الأقلّ من قبل المتعلّمين .

وكفرضيّة بديلة إذن عُزيتْ أصول تحليل شخصية المسيح لعوارض دينيّة أكثر خِفْيَة في العالم الإغريقي – الروماني –، ولطقوس وآلهة استدعَتْ بالتأكيد وجود إخلاص ذاتي للفكرة . ولاستطلاع الإمكانيات المتنوّعة بتفصيل ، هنا، علينا ان نُوسّع هذا الفصل ليُصبح وحده كتاباً ؛ غير أن هناك صعوبة أساسها أن المواضيع غائمة ، إلى حدٍّ ما ، بسبب انعدام الاتفاق على التعاريف، والتمييز الدقيق في مدى الأفكار والمواد التي تبدو ذات صلة ببعضها البعض . إحدى الفرضيات الهامة تتعلق بالأمور المتوازية في المجتمع المسيحي الأوّل مع ما عُرف من ممارسات وتعابير في الأديان ذات السريّة الغامضة ، وفيها على ما يبدو ، يُمنح الإنقاذ للذين يدخلون هذه الأديان عِبْر هويّات أسطُورية لها آلهة تموت ثم تقوم بعد موتها؛ وفرضيّة أخرى تركّز الاهتمام على أمور مشابهة للتجليّات في أدب السحر . ولقد لازمت هذه العوارض الأجواء الدينيّة العامة في العالم القديم والتى دُعيت (بفلسفة المعرفة بدون الإيمان – Gnosticism) ؛ ولغة (بولص) فى التجسّد فُسِّرتْ آنذاك بربطها بما سُمّيَ (أسطورة المُنقذ ،المَعْرِفيّ) ؛ومجيء شخصيّة سماويّة نموذجيّة إلى العالم لكشف أسرار الكون وقدر الإنسان الروحاني . وكان لهذه النظريات نفوذ واسع ولكن لم تجد أيٌّ منها قُبولا عاما . وهذا راجع ، جزئيا ، إلى أسباب السياق الزمنى، فمن الممكن أن يكون (بولص) قد أثّر بمذهب (المَعْرِفيين) وقد يكون العكس ؛ ويرجع السبَبُ – جزئياً – لطبيعة الدليل فهو مفتوح لأنواع مختلفة من التفسيرات المُجزّأة المتفرقة أو حتى ... غير الموجودة ؛ والنتيجة هي أنه يمكن اعتبار المُشابهات المُفترضة كإعادة تركيب نظريّة في أذهان البحّاثة المُعاصرين لا تطابق الواقع التاريخي ؛ كذلك يرجع السبب جزئياً أيضاً إلى أنّه يمكن ، في أغلب الأحيان، اقتراح مصادر بديلة . وبدل الدخول في هذه المنطقة البالغة التعقيد والمناقشة ، يبدو أنّه من الأفيد الاعتراف أن هناك اعتراضاً كبيراً على كل الفرضيات التي وردت حتى الآن وهو أنّها تعتمد على (وثنيةٍ) دْرَاميّة للأناجيل في تاريخ باكر ؛ وهذا تطوّر يبدو غير مُحتمل بالنظر

ليهودية الأصول المسيحيّة ؛ والحقيقة الواضحة هي أنّ (بولص) أو كُتّاب الأناجيل الآخرين احتفظوا بالتحيزات والمواقف اليهودية . وانتشر الإنجيل في المجتمعات اليهودية الموزّعة حول الامبراطورية أو بين الملازمين المقرّبين للكنيس ؛ ولم يحصل الطلاق بين الكنيسة الباكرة وبين جذورها اليهودية إلا بعد خلافٍ داخلي شديد ، ورفضٍ مباشر من قِبل غالبية اليهود . فاليهودية إذن كانت إطار الأصول الأوّلية للمسيحيّة ، واليهوديه آنذاك كانت تقاوم النفوذ الوثني : لأنّه مع نجاح ثورة الماكابيين في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ، استنكر أغلب اليهود من ذوي النفوذ الديني الأكبر، مرّة واحدة، أيَّ تمثُّل للفلسفة التوفيقية – التلفيقية – المسيطرة في العالم اليوناني : كانوا مستعدين للموت على أن (يُميّعُوا) مُعتقدهم بوحدانيّة الله الحق ، بمساواته بـ(زيوس) أو غيره . لا يمكن عبادة أي كائن آخر، وليس هناك ابن حقيقيٌّ لله في الآثار العبرية . ومن هنا فالجاذبية السطحية لفكرة أن موضوع دراسة شخصية المسيح كما نعرفها ما كان من الممكن أبداً أن تَزْدَهِرَ في تربة يهودية ، وأن أساس الفكرة الطبيعي هو في التوفيقيّة اليونانية، و أن امتداد الكنيسة في العالم غير اليهودي هو وحده السبب في قيام عقيدة التجسّد . ولكن هذا الرأي يُغضي عن حقيقة أن (بولص) – اليهودي – هوأوّل شاهد على عقيدة : « أن عميلاً لله فوق مستوى البشر دخل العالم في شخص يسوع المسيح»؛ فهل يمكن (لبولص) مع كُلّ تحيّزاته اليهودية وتدرُّبه الواضح في اللاهوت اليهودي وتفسير الكتب المقدسة ..، هل يمكن لمثل هذا الرجل أن يتأثّر بديانات الأسرار الغامضة للأمميّين أو بمعتقدات وثنية أخرى ؟ ويظهر باطّراد أن الأمر غير محتمل . وفي اقتراحه لفكرة أنّ يسوعاً عُبِدَ بمقارنته التشبيهية « بالسيد » (سيرابيس) يقول (بوسّيه) :

« لم يستَنْتِجْ ذلك أحد ولم يخترعْه عالم لاهوت : ما كان يَجْسُر أحد ، دون أن يصيبه عناء لاحق ، أن يقوم بالنَقْلِ المباشر للاسم المقدس لله القوي الجبّار ..؛ ومثل هذه الطُرق تحدث في اللاوعي .. في .. الأعماق غير المنضبطة للنفسية الجماعية للمجتمع . وهذا أمر واضح بذاته ؛ وكأنّما هو معلّق في الهواء ؛ إن أوّل

المجتمعات اليونانية اليهودية أعطت لقب (Kyrios) لبطلها المعبود(٥٥) » .

ولكن لا يكاد يبدو هذا التفسير صائباً بمواجهة الاستنكار العميق الجذور في يهود ذلك الزمن لتعدُّد الآلهة وأساطير الوثنيين ؛ وفي الجيل الأوّل للكنيسة ، على الأقلّ ، يبدو مثل هذا التطوّر بعيد الاحتمال ، واستمرار المسيحيين في معاداة تَعدُّد الآلهة والفلسفة التوفيقية مثلما كان الأمر في الآثار اليهودية ، والأدبيات المسيحيّة طيلة عهد آباء الكنيسة ، يُبيّن قوةَ تَعَلُّقِ الكنيسة بالماضي الموروث .

هذا هو الاعتراض . والسؤال هو ما مدى قيمته ؟ فلقد نمت ، على كل حال ، في المسيحية عقائد مالت لِلَغم فكرة التأكيد على الإله الواحد ، بأسلوب مُحْرِج . ربما كان على هذه الحقيقة أن تُشجّعنا على تَقَصّي ما إذا كانت اليهودية التي نبعت منها المسيحية ،... من معدن واحد وغير قابل للاختراق بالتأثيرات الوثنيّة كما أوحى البعض بذلك . وكثيراً ما تُسيطر التأثيرات الحاذقة الخفية على المقاومة الواعية . ومن الواضح أنه أصبح لزاما علينا أن نُنَقّب بعمقٍ أكثر في شخصية اليهودية المعاصرة ودراسة موضوع ما إذا كان من المعقول نموّ فكرة التجسّد في إطارها .

٦ – تنقيبات حديثة

وعندما نلتفت للتحقيق في المنطقة اليهودية نحتاج تركيز استفهاماتنا في عدد من الأسئلة المتصلة : هل كان اليهود حقّا غير متأثرين كُلّيا بنوع المحيط الذي وصفناه آنفاً ؟ ألم تكن هناك حركات في اليهودية مماثلة للأسطوريّة اليونانية – الوثنية – ولفكرة (المَعْرِفيّين) ؟ هل ألزمتْ اليهودية نفسها بفكرة الإله الواحد المُبرّأة من أيّ خلط ، أو أنّه كان هناك تخمينات عن كائنات أخرى – فوق الطبيعيّة – ؟ هل كانت تعابير مثل (ابن الله) مستعملة دائماً بمضامين مختلفة تماماً عما كانت عليه هذه التعابير في العالم الوثني ؟ ويبدو أن السؤال الأخير هو أفضل ما نبدأ به :

(ا) هل كان تعبير (ابن الله) مُستعملاً في الإطار اليهودي بمعنى مُغاير تماماً ؟ لم يكن التعبير بالتأكيد صفة غريبة عن اليهودية ، ولم يكن أيضاً من المستحيل على يهودي أن يتصوّر الله مُخاطباً بعض الأفراد بكلمة (ابن). هناك دراسات كثيرة كُرِّست للقب (ابن الله) في العهد القديم – التوراة – ، وفي أدبيات فترة ما بين العهدين – القديم والجديد – لذا يبدو أنه من الأفضل ان نلَخِّصَ فقط بعض النقاط الأكثر أهمّيّة ثم التعليق على مضامينها .

– i – مثل هذه التعابير ... آستُعملت بصورة عامّة في أدبيات اليهود لوصف إسرائيل، ولقد ظهرت في التوراة مثلا في (صموئيل II 7.14, والإصحاح 2.7) كأوصاف للملك . من الممكن أنّها رمزت لوصف الملك المثالي – الملك المسيح في التوقعات قبل المسيحيّة . وهذا واضح في (II (4) ESD.7.28) إلا أن هذا النصّ قد لا يكون غير مُتأثّر بالنفوذ المسيحي ؛ وهناك نصٌّ اكتشف في (لفائف وادي قمرّان)، يبدو أنه في الغالب سيُنْهي الجدل في النقطة موضع الخلاف ، مع أنه وَصَلَنا مُتَفَتّتاً

[... إلا ان ابنك] سَيُصبح عظيماً في الأرض [أيها الملك ! وكل « البشر » سيصنعون [السلام] والكل سيخدمُونه وسيُدعي ابن [الرب] [الكبير] وسيُدعى باسمه وسيُنادىٰ به كـ(ابن الله) وسيُسمُّونه ابن العليّ الأعلى ...الخ .

وتشير الأقواس المُستطيلة إلى وجود أحرف مُتفتّتة غير أكيدة في النصّ ؛ ولكن كما يُعلّق (فِتزمَاير) لا شك ان ألقاب (ابن الله) و (ابن العليّ الأعلى) هي لكائن بشريّ في الإطار العجائبي لهذا النص من القرن الأول قبل المسيح(٥٦) .

وفي أدَبيات فترة ما بين التوراة والأناجيل آستُعمِلَتْ مثل هذه التعابير في كتابات (فِيلُون) وكتابات الحاخامين بالنسبة للرجل المستقيم والرجل الحكيم أو للإسرائيليين الذي يتّبعون إرادة الله . « كُن كالأب للأيتام .... فستكون عندئذ

كابن للعليّ الأعلى » هذا ما جاء في النص اليوناني (لإكلوس) – بن سيرا -4.10 – وأمّا النص العبري الذي أُعيد اكتشافه فيقول : « سيدعوك الله ابناً » .

– iii – مثل هذه التعابير تتلازم وبعض الحاخامين بخاصة (هنينا بن دُوسا) وهو شخصية ساحرة كان يقوم بالمعجزات في الجليل في القرن الأوّل . وهذه الشخصية هي التي وفّرت لـ(ج فرميس) مقارنته المضيئة بيسوع : وتوجّه صوتٌ سماوي إلى « آبني هنينا » تماماً كالصوت السماويّ في عمادة يسوع والذي دعاه : « ابني المحبوب »(٥٧) . هذه ... وغيرها من الشخصيات اليهوديّة في فلسطين مثل (هُوني) الذي يرسم الدائرة ، تحمل بعض الشبه لصانع الأعاجيب (Theios aner)،الذي بحثنا فيه سابقاً ؛ وفي النموذجين تظهر تعابير تعني ضِمْناً نوعاً من أنواع البُنُوّة الإلهيّة .

– iv – وتُستعمل مثل هذه التعابير في التوراة وأدبيات اليهود المتأخرة مشيرة إلى كائنات سماوية ملائكيّة ووسطاء فوق المستوى الطبيعي . ويصفُ (فيلو) (اللوغوس – كلمة الله – Logos) بأنّها تعنى ، بالنسبة له ابن الله البِكْر ؛ وسنستطلع بتفصيل أكثر شخصيات هؤلاء الوسطاء (فوق الطبيعيين) .

وبصورة عامّة يمكن القول ان (ابن الله) بالنسبة لليهود يعني كائنا له صفات مشابهة لصفات الله أو أنّه واحدٌ دعاه الله بصورةٍ خاصّة أو اختاره للقيام بواجب معيّن . رُبّما كان علينا ان نُميّز بين أفكار عن (ابن الله) وبين أبناء الله الآخرين ، فإذا كان الأمر كذلك فالتمييز ليس في الطبيعة ولكن في الوظيفة . وابن الله سواء كان من البشر أم الملائكة هو المفترض أنّه الوحيد المُقدَّر له أن يُنجز وعود الله . ولكن يُمكن للنبوءة أيضاً، وبنفس القدر، أن تخُصّ كائنات أخرى بشريّة وملائكيّة . فكلّ مخلوقات الله ... كان من الممكن أن يُعتبروا كأبنائه إذْ أصبحوا كذلك بالاستجابة لإرادته وهدفه .ومن المؤكد أن فكرة البنوّة الإلهيّة التي تعني حرفيّاً أن الله اشترك في صلة جنسيّة بيولوجيّة ، هذه الفكرة كانت

كريهة بالنسبة للتفكير اليهودي ، مهما كانت درجة تكرارها في أساطير اليونان . وفي الآثار الدينيّة اليهودية منذ التوراة وما بعده ، كان هناك قصص عن ولادات خارقة، ولكنّها لم تَعْنِ افتراض عدم وجود والد من البشر . بل كان التركيز على عدم قُدرة الأم على الحمل بدون تدخّل إلهيٍّ . ولقد قُدِّمت فرضيّتان معقُولتان عن ظهور الروايات المسيحية للولادة الخارقة ، لم يسبق أن ظهرت في الآثار اليهودية :

– i – يجادل (فرميس) في أنّ معنى (بكْر)ربّما كان يعني في الأساس أصغر من سِنّ الحمل ، مثلما كانت (سارة) و(هَنّا) و (إلياصابات) عجائز أو عواقر ، وعلينا أن نفهم الإنكار الواضح لدور يوسف كتطوّر وثني للقصّة الخرافية التي ترتكز على سوء فهم للكلمة اليونانية (Parthenos)(★) بمعني حرفيٍّ ضيّق(٥٨) .

– ii – أو أنّ مثل هذا التطور يُعزى في كثير من الأحيان إلى الاعتقاد بأن ما جاء في (إسحاق – 7.14) قد أنجز حرفيّاً ، وفي هذه الحالة يمكن أن يكون أصل هذه القصّة يهوديّاً خالصاً .

ومهما يبدو جواب هذه المسألة واضحاً ، للوهلة الأولى، رغماً عن استحالة توثيق التأثير الوثني المباشر ، كان هناك سابقات متشابهة ، عدا عن القصص الخرافية عن الأبوة الإلهيّة ، في طريقة معاملة الحكام اليهود والإغريق – المعاملة الواقعية منها والمثالية– ، للأنبياء والقديسين والسحرة وصُنّاع العجائب ، واعتبارهم – جميعاً – « إلهين » أو « أبناء الله » .

(ب) ألم يتأثر اليهود بالأساطير الإغريقيّة عن تآليه الحُكّام ؟ هناك عدّة نقاط تُوحي بأن بعضهم لم يكونوا ذوي مناعة كاملة ضدّ البيئة الثقافية المحيطة ؛ مع الاعتراف بأنّ استعمالهم المبدئي لمثل هذه اللغة كان يُصاحِبُهُ بعض الإحراج ؛ وفي نفس الوقت يبدو أن بعض التطور المحلّي في مثل هذا النوع من الاتجاه

(★) كلمة (Parthenos) تعني باليونانية بكْراً أو عَذْراء .

آستوحي من قصص توراتيّة عن الصعود المباشر (لإينوخ) و (إليجا) إلى السماء .

يمكننا أن نبحث أولاً القصص الخرافية عن موسى . ففي كتابه التحضير الإنجيلي Preparatio evan-gelica يحتفظ (أزويبوس) بأجزاء كبيرة ممّا كتبه الأدباء المدافعون عن اليهودية في العهود التي سبقت المسيحيّة ، ومن ضمنها مقاطع من رواية عن موسى كتبها (أرتا پانوس) في القرن الأوّل قبل الميلاد ؛ لم يكن موسى معروضاً كصانع مُعجزات ومُشرِّع فقط بل يُصبح معلّم (أورفوس) ويستحقّ ، بتقدير الكهنة في مصر ، أن يُكَرَّمَ كآلهة اسمها (هرميس) لتفسيره الهيروغليفية(٥٩). وهذا الميل لمعاملة موسى كـ (كائن فوق الطبيعي – Theios aner) يَتَثَبَّتُ أكثر في (يوسيبوس) . فلقد جارب (يوسيبوس) في سبيل بلاده في الحرب اليهودية عام ٦٦ – ٧٠ ولكنه اقتنع بعد ذلك بعدم جدوى الهدف،وساعد الرومان وقضى بقيّة حياته مُحاولاً أن يُوضّح اليهود للأُمميِّين غير المتعاطفين مع اليهودية ، وفي كتابه (أثريّات) يصف أن موسى شُوهِد لآخر مرّة وهو يتحاور مع ، ويعانق (اليعازر) و (يوشع) حينما ظهرت فجأة غيمة توقفت فوقه وغاب في بعض الوديان؛ مع أن الكتب المقدسة ذكرت أنه مات ، وكان ذلك بسبب خوفه من أن يُجازف البعض بالقول أنه ذهب إلى الله بسبب فضيلته غير العادية(٦٠).وفي مكان آخر يذكر (يوسيبوس) حقيقة أن بعض الناس فكّروا أنّ « موسى أُخذَ إلى الألوهية »(٦١) . والقصة تُذكَّر بالتأكيد بغياب (رومولوس) .

وقبل (يوسيبوس). بقليل نجد تلميحات مُماثلة في (فيلون) وهو يَهُوديٌّ إسكندري بقي وفيّاً لأصوله مع تبحُّره العميق بالفلسفة اليونانية . وكتابه (حياة موسى) ينتهي بالملاحظة بأن الرواية عن موت موسى تظهر في كتب كان المفترض أنه كتبها هوبنفسه ؛ لأنه « أثناء فترة تمجيده ... وكان مُستعدّاً بإشارة واحدة لتوجيه طيرانه المباشر إلى السماء ...، جاءه الروح القدس فَتَنَبَّأ ببصيرة ، وهو لم

يزل حيّاً ، بحكاية موته ذاته .. » . وموته - الحرفي - ودفنه الذي تضمَّنته الكتب الدينيّة مُتزاوج مع (صعود) ذُكِرَ سابقاً بتعابير « فكريّة » مميّزة إلا أنها تعْني ضمناً ، على ما يبدو ، ترجمة إستثنائية : « جاء الوقت الذي كان عليه فيه أن يحجّ من الأرض إلى السماء ويترك هذه الحياة الفانية لأُخرى خالدة ؛ آستدعاه إلى هناك الآب الذى حَلّ طبيعته الثنائية في النفس والجسد وجعلها وحدة واحدة مُحَوّلاً بذلك كيانه كله ، إلى عقلٍ صافٍ كضوء الشمس »(٦٢) .

مثل هذه التلميحات في المفهوم اليهودي لموسى والتي تأثرتْ ، بدرجات متفاوتة ، بالدوافع الإغريقية ، يمكن أن تُعزى في حالة الكُتّاب المذكورين ، إلى مصلحة الدفاع عن اليهودية..؛ ولكن هناك أيضاً الأعمال العجائبيّة المسماة (صعود موسى) ، والنصّ الباقي من هذه الأعمال أقرب إلى كتب «العهد»؛ ويبدو أنه يَفترض ان موسى مات ميتة طبيعيّة ، ولكن هناك إشارة في كتابة آباء الكنيسة إلى هذا الموضُوع تُوحي بأوصَاف أكثر وضوحاً عن (صعودٍ إلى السماء) . بالإضافة لذلك هناك علامات قليلة في كتابة الحاخامين عن أثرٍ يذكُرُ أنّ موسى صعد إلى السماء : « البعض يقول موسى لم يمت ، ولكنه يقف ويُؤدِّي عمله على رأس الخدمة (الكهنوتية) » ، « ثلاثة صعدوا إلى السماء : إينوخ وموسى وإليجا »(٦٣) . وهناك كِتابٌ عبريٌّ متأخر يصف تحُّول موسى إلى ملاك حسب نموذج تقاليد (إينوخ) والتي سنتفحّصُها بعد قليل .

والتخمينات اليهودية في هذه الاتجاهات ركّزتْ على الشخصيّات المذكورة الثلاث . بالنسبة لإليجا، يبدو أن التطوّر كان « محلّيا » وليس هناك إلا القليل من أثر التأثيرات الإغريقيّة ، رغماً عن ذلك تبقى المتشابهات مُلفتة للنظر . وحسب ما جاء في (الملوك II- 2.11) : صعد إليجا للسماء بعربة من نار وإعصار ؛ وفي كتابين من كُتب (أبوكريفا Apocrypha)(★) تفصيل آثار إليجا : فَحَسْبَ

(★) كتب دينيّة مشكوك في صحّتها .

ما جاء في (المكابيين I 2.85) أُخذ إلى السماء بسبب حماسه الكبير للقانون؛ وفي إكلوس (بِن سِيرا 48) نرى ترنيماً مدهشاً مُوجّهاً إلى إليجا الذي كُرِّم كصانع للمعجزات ، مُقيم للموتى ومُعارض للملوك والأمراء . وأهمُّ نُقطة ، مع ذلك هي الجزء الأوسط من الترنيمة (48.9-10) : « أُخِذ بإعصار من نار في عربة تجُرُّها جياد من نار ، يا من أنت مُستعدّ في الوقت المحدَّد ، كما هو مكتوب ، لتهدئة غضب الله قبل ان ينفجر في ثورة هائجة ، ولإعادة قبائل يعقوب » . وهذا المعنى عن عودة (إليجا) قبل « يوم السيد » يعود تاريخه للنبي (مالاشي) (مالاشي 4.5) ؛ وتأتي جملة بعدها : إلى أين يعود (إليجا) وتتردّد أربع مرّات في (المقالة الثنائية Mishnaic Traetate) وفي (باباميتْزيَا) كما تردد أيضاً في الأدبيات الحاخاميّة . وموضوع أن (إليجا) عاش ككائن « فوق الطبيعي » ويمكنه التدخل في هذه الأرض ، مذكُور في تلمود البابليين حيث يُعرَّف غالباً في إطارالقصص، إذ يظهر أحياناً متخفّياً ليساعد شعب الله المظلوم : مثلاً حسب (تآنيث – 22a) تَعَوَّد الحاخام (بيرو كاهوزاعا) التردّد على السوق في (بي لاپات) حيث تجلّى له (إليجا) مراراً، ويتبع ذلك مثل لمناقشة مهذّبة بين الاثنين تَتَعلّق بمن سيكون له سهمٌ في العالم المُقبل ؛ وفي جزء سابق من نفس المنشور قصّة مرويّة عن وُصُول إليجا متخفياً لِيثني مَجلساً عن عزمه على إبادة اليهود . مثل هذه الأعمال هي أعمال ملائكةٍ وآلهة وسواء كان بالإمكان آقتفاء أثر أصولها في أساطير (هوميريه) أم لا ، فإنّ لها بالتأكيد متشابهات موازية في تلك الأساطير .

وبالنسبة لتاريخ التخمينات عن (إينوخ) فلدينا توثيق أكمل في سلسلة كُتب (إينوخ) التي تَمُتُّ إلى العالم العجائبي والأسطوريّة اليهودية الخفيّة . وربما كان من المهم أنّه في سياق السلسلة ننتقل من الرؤى العجائبيّة للكتاب الحَبَشي (لإينوخ I) إلى أوصاف ، في النصوص المتأخرة ، لأسرار سماويّة لها إطار واضح من فلسفة (المَعْرِفِيّن) . وهذا ، كما يبدو ، يدعم النظرة التي كثيراً ماتُتَلَمَّس الآن، وهي أنّ فلسفة العارفين ، وهي أبعدُ من أن تكون تحويلاً جذريّاً إغريقياً للمسيحية

كما فكّر (هَارنك) ، نشأت – أي هذا الفلسفة – في الواقع في الدوائر اليهودية أصلاً؛وتركت التقاليد الخفية آثارها في التلمود نفسه حيث توجد تلميحات عن تعاليم سريّة خطيرة عن الخَلق والمرْكبة – « عربة العرش » ... عرش الله الذي وُصفَ لأوّل مرة في رؤى النبي (قُزحيًا)(٦٤).وألقي مزيد من الضوء على هذه التخمينات في نصوص عبرية ، غير مؤكدة التاريخ(٦٥) ، وأكثرها منشور إلا انّها غير معروفةٍ نسبيّاً ؛ ومن بينها ما يُسمّى الكتاب العبري لإينوخ (إينوخ III)، وهو من بعض النصوص القلائل المنشورة مع ترجمة وتعليق كامل(٦٦) . والصعوبات في تحديد تاريخها تظهر من حقيقة أنّ هذا النص ربّما وُضعَ في القرن الثالث الميلادي أو متأخّراً ... في القرن الثامن الميلادي .

وتَطَوُّر صورة (إينوخ) في النصوص الموجودة لدينا يوحي بقوّة بنوع من التأليه . وحسب (سفر التكوين 5.24) مشي (إينوخ) مع الله ، ثم غاب لأن الله أخذه . ومن الممكن أن الكتاب العجائبي المعروف بـ(إينوخ I) سبق ظهور المسيحية ، وفيه يُصبح (إينوخ) واحداً رأى تَجَلّي الكيان المقدّس في السماوات وأعراضا عجائبيّة نموذجيّة أخرى ؛ ثم في النهاية تحوّل إلى سماء السماوات حيث رأى العرش نفسه محاطاً بالملائكة « وجماعة الله المقدسين » . وهناك نصٌّ سُلَافِي يُعرَف بـ(إينوخ II) ، يمُتُّ في الغالب لبداية العهد المسيحي ، يُفصّل سفرياته عبر السماوات بأسلوب يميل للأسطورية والنظرة (المَعْرفيه) ويصف بوضوح تحوُّله إلى ملاك ، ولكن التطوّر الأكثر بروزاً موجود في الكتاب العبري لـ(أينوخ) . في هذا الكتاب الملاك وأمير الحضور (ميتاترُون) يقود الحاخام إسماعيل لرؤية (المركبة)؛ واستجابة لسؤالات إسماعيل يُفسّر له – أي الملاك – انه كان فى الماضى (إينوخ) الذى حُملَ على أجنحة (الشيكينه – Shekinah)(*) إلى أعلى السماوات، حيث (الكائن المقـدس) « تبارك اسمه » جعله أكبر الملائكة بطريقة موصوفةٍ بصورة مكتوبة، مُؤكِّدة حجمه الكوني ورداءهُ النورانّي ،

(★) كلمة شِيكِينَة – shekinah – استعملها اليهود لتعنى (الحُضُور الرَّبّيُّ للإله) .

وتاج مجده وطبيعته النارية . وهكذا (ميتاترون) الكائن السماوي ذو الاسم والأصل المجهولَيْن ، هو معروف جيّداً لدى حملة السجلاّت الحاخامية، ويُعرَّف في هذا النص على أنه كان الإنسان (إينوخ) الذي تحوّل إلى ملاك .

على كل حال ، بالنسبة لغاياتنا ليس تحوّل (إينوخ) هو الذي يهمّنا فقط بل العلاقة غير العادية بين (ميتاترون) والله ذاته . يجلس (ميتاترون) في السماء لا يماثله أيّ كائن آخر إلا الله . إلا أنّ الحاخامين خفّفوا من وَقع ذلك بملاحظتهم أنه كان عليه أن يجلس ك (مُسجّل) سماوي(٦٧) ، ولكن في كتاب (أينوخ – III) ذُكر أنّه يجلس على العرش الذي وُصِف بأنّه « مثل عرش المجد »(٦٨) . وفي نواح أخرى أيضاً يظهر أنه متجهّز مثل الله ويعمل وكأنه الحاكم لله على كل قدرات السماء. كل باقي الملائكة « خرّوا ساجدين عندما شاهدوني . ولم يستطيعوا إمساكي بسبب جلالة مجدي وجمال مظهر الأضواء الساطعة من تاج المجد على رأسي » . ولقد كشف الله كل أسراره ل (ميتاترون) ، سمّاني (يهوِه) الأصغر في حضرة كل أفراد البيت السماوى ، كما هو مكتوب في (سفر الخروج 23.21) « لأن اسمي هو فيه » .

ومثل هذه الصورة (لميتاترون) ، ومع التعريف به أنه تحوّل (لإينوخ) الإنسان ، هي بوضوح ، قريبة جدّاً من تأكيدات (بولص) عن يسوع أي أنه يجلس على يمين الله (رسالة « بولص » للرومان – 834) وأن « الله رفعه وكرّمه وأضفي عليه آسماً فوق كل آسم آخر (أي اسم الله) ، وأنه عند ذكر يسوع يجب أن تركع كل رُكبة في السماء والأرض وتحت الأرض؛ وعلى كل لسان أن يعترف بأن يسوع المسيح هو « السيد » (وهذا لقب يُعرّف الله به ويُوجّه إليه) ، والمجد لله الآب (رسالة « بولص » للفيلبيّين – 11 - 2.9) . ومع ذلك عندما نقرأ في مكان آخر في (أينوخ III) أن بعض الكائنات السماوية هو خارج إطار حاكميّة (ميتاترون) أي « الأمراء الثمانية الكبار » المُحترمون والمُكرَّمون المُسمُّون (يهوِه) بآسم ملكهم (أي ربّما الملائكة النموذجيين الذين

أسماؤهم مُرَكّبةٌ من آسم الله) ، أقول عندما نقرأ ذلك ربّما كان علينا التردّد في إلحاحنا أن النَصَّ يُوفِّر مُوازياً دقيقاً . من جهةٍ أخرى ، قصّة خلع (ميتاترون) عن العرش التي نجدها في النصوص الحاخامية كذلك ، كإضافة للنصّ في (إينوخ III)[٦٩] ، بينما تقصِدُ إضعاف قوّة التخمينات عن (ميتاترون)، وتستبعد مخاطرها ، تُبرِزُ في الواقع انعكاساتها الكامنة ؛ لأنّ المقطعين يُشركان خلع (ميتاترون) برواية عن حاخام مُؤلّه ، والذي قال عندما رأى المركبة ، وآعتلاء (ميتاترون) العرش بالأمجاد : « حقّا هناك قُوّتان إلهيّتان في السماء » . بعد هذا نكون مُنصفين على كلّ في رؤية تشابُه قريب بينها وبين التأكيد المسيحي عن يسوع ، وأهميته أنّه ، بوضوح ، نصٌّ ظهر بعد قيام المسيحيّة مهما كان تاريخه المحدد. إنه يوحي بوجود بعض الميل الموروث الذي كان عادة مكبوتة في معارضة المسيحية .

إلى هنا ويوحي تحليلنا للمصادر اليهودية بثلاثة أشياء :

(ا) إنه رغم الاختلافات ، هناك متشابهات بين الاستعمالين اليوناني واليهودي لِجُمَلٍ مثْل (ابن الله) ؛ - ii - إن الدوافع الأسطوريّة اليونانية كادت تؤثر على تعابير اليهود الناطقين باليُونانيّة على الأقل ، مع استمرار بقاء بعض التحفظ . iii - وإنّ الأفراد الاستثنائيين ارتفعوا ، على الأقل ، إلى مرتبة الملائكة ؛ وألاحظ أن هذه الصورة تُشْبه العادة الوثنيّة ، في تأليه الحُكّام أكثر ممّا توحي به النظرة الأولى . لأن فلاسفة الوثنيين في ذلك العهد آعتبروا كلّ الآلهات : القديمة والحديثة ككائنات أدنىٰ من الإله الأعلى حَسْب النظام الملكي السماوي ، كذلك اعتقد اليهود بنظام ملكي للكائنات الأدْنىٰ - أي الملائكة ، تحت إلههم الواحد الأحد . والاختلاف كان إلى حدّ ما ، خلافاً في التعابير يصحبه عدم اتفاق حول ما إذا كان على « الآلهة الصغار » أن يُعبَدُوا أم لا ؛ وفي هذه المناظرة يتخذ المسيحي (أُرْغِن) موقفاً أقرب لليهودية من بعض زملائه المؤمنين عندما يؤكد أن العبادة مع أنّها تُقدَّم عن طريق الابن ... يجب أن تُوجَّه فقط للآب .

(ج) بمناسبة الحديث عن الملائكة نتذكّر أنّ هذه الكائنات - فوق الطبيعيّة - ذاتها وُصِفتْ سابقاً على أنّها (أبناء الله)، وطبيعة عمل هذه الكائنات السماوية هي بوضوح الموضوع التالي الذي يتطلب الفحص .

وفي العهد القديم - التوراة - تُوجد حكايات عن الله الفاعل من خلال الملائكة أو الرُّسُل . فهو يُرى مراتٍ عدّة في مجلس سماوي مثلا (في الإصحاح - 89.7) وفي (أيوب I) . وكان الوصول إلى عقيدة الإله الواحد بإخضاع الكائنات الإلهية الأخرى لإله إسرائيل الأكبر أكثر ممّا كان استبعادها . وفي عهد (دانيال)، وأدبيّات فترة ما بين التوراة والأناجيل بدأنا تأسيس دراسة مُفصَّلةٍ عن الملائكة وبها رؤساء ملائكة يُؤدّون وظائف معيّنة . والتفسير التقليدي للتوراة - midrash - عن موضوع الخلق في كتاب (جوبيلي) يُفسِحُ مجالاً لخلق عالم للملائكة ذي نظام متسَلسِل له مراتب مختلفة . ولقد فُسِّرت مقاطع من التوراة على أنّها تعني هذه الكائنات مُشيرةً إليهم بتعبير (أبناء الله)، مثلا في (سِفر التكوين ؛ 6.2,4) وفي (آخر كتب موسى الخمسة - Deuteronomy ; 32.8) وفي (الإصحاح - 29.1) . وكتاب (أينوخ 1) يُشير بصورة خاصّة وباستمرار إلى الملائكة على أنّهم (أبناء الله المقدسون) أو (أولاد السماء) .

وفي القصص الخرافي اليهودي والتخمينات العجائبيةتُصوِّر هذه الشخصيّات - فوق الطبيعيّة - على أنّها تنزل إلى الأرض متخفيّة غالباً بشكل بشر . ويمكننا مقارنة استقبال إبراهيم للضيوف الإلهين (سِفر التكوين 18) بنزول (المشتري) و(عُطارِدْ) لزيارة (بوسيس) و(فيليَمُون) اللذين لم يرتابا بهما . والذي يُشير أنّها فُهمت في فترة الأناجيل كزيارة ملائكيّة غير مُدْرَكةٍ، هو ما جاء مثلا في (الرسالة للعبريين 13.2): «لا تُهمل أن تعرض الضيافة للأجانب»، وهكذا آستضاف البعضُ الملائكة دون وعي بذلك . وكمثل لأنواع القصص التي تطوّرت يمكننا أن نأخذ كتاب (توبيت) وهو قصة يهودية رومانسيّة تعكس

حالة المهاجرين البابليين حوالي العام ٢٠٠ قبل المسيح ، رغم أنّها تمثل قصة المنفى قبل قرون من ذلك . ويُعْرَضُ (تُوبيت) كيهوديٍّ طيّب مُخلص أصيب لسوء حظّه بالعمى ، وآستجابة للصلوات أرسل الله الملك (روفائيل) ليشفيه (-3.17) ، وأيضاً لإسعاف امرأةٍ فتيّة محزونة فقدت سبع مرات زوجها في ليلة زفافها بسبب نشاط شيطاني عُدواني ، وصدف أنّ (توبيت) قرّر إرسال ابنه في رحلة ليستردَّ مالا أودعَهُ قبل سنين ، ورافقه (روفائيل) متخفياً بشكل (أزارياس ابن أنانياس)، وهو رجل يُستأجر كدليل وكخادم (5.4) . وعن طريق نصائح ومساعدة (روفائيل) أعلن (توبياس) زواجه من هذه المرأة الفتيّة وتخلّص من الشيطان ، ثمّ أتمّ بنجاح مهمّته ورجع ليداوي عمىٰ أبيه . وعندما جاء (توبيت) وابنه لمكافأة (أزارياس) أعلن عندئذ : « روفائيل .. أحد سبعة ملائكة مقدّسين يُقدّمون صلوات القديسين ويدخلون أمجاد الواحد المقدس » . 12.15) . ونزول كائنات سماوية للتدخّل في أمور دنيوية ، في الغالب للمساعدة ، هي بوضوح مَلْمَحٌ من ملامح القصص الأسطورية الوثنيّة واليهودية ، ولقد وُجدت بالتأكيد قبل العهد الجديد - الأناجيل - وقبل الآثار الأولية لفكرة (المَعْرفيّين) عن المنقذ الذي سيهبط من السماء(٧٠) .

والاستمرار في التفْصيل المُوسَّع لدور الملائكة في العجائبيّات وغيرها أمر يقع خارج إطار هذا الفصل من الكتاب . ومع ذلك من المهمّ بَحْثُ الطريقة التي تربط التخمينات عن الملائكة بنشاطات الله في الأيام الأخيرة؛ وبإمكاننا التركيز على جزء هام من (لفافات قمران) التي لها علاقات بارزة بالأناجيل ، وعلى الرسائل الدينيّة العبريّة بشكل خاص . وإذا عُرضت استشهادات من النصّ ستكون مُبْهمة وطويلة بالنسبة للقارىء غير المُطّلع ، لذا يكفي عَرْضُ مُلخّص مُفسّر . والشخصية الرئيسية في القطعة هي (ملشيزيدك) الموصوف بأنه (سماوى) وهو الذي يُنفّذ أحكام الله. يُحاكِم (بيليال) وينتقم من أرواحه الشريرة ، بمساعدة « كائنات سماويّة أخرى » . وهذا يَفْتَتِحُ عهد الخلاص ، وتُصوِّر أكثر نشاطات

(ملْشِيزِيدكْ) في نصوص وكلمات مستعارة من (قزحيا) في إعلانه للحريّة وصُنعه للكفّارات لكل أولاد الضياء وآستجلاب بشارات طيّبة لصهيون . وهناك بعض الأساس في ربط هذه التخمينات عن (ملشيزيدك) مع الملاك الرئيسيّ (ميكائيل)[٧١] . ولكن فيزمَاير)[٧٢] يجادل في أن النصّ يُقدِّم ، على ما يبدو ، شخصيّة أعلى من الملائكة يُخوِّلها الله صَلاَحياته في الحكم والرحمة في اليوم الأكبر يوم الدينونة في آخر الزمن . وهناك متشابهات متوازية مع وظائف (أينوخ) و (ابن الإنسان) في (سِفر الرُؤيا الحبشي) . ففي الحالتين يُصبح كائن سماوي نائباً عن الله يوم الدينونة الأخيرة ؛ وفي الحالتين تخمينات عن شخصيّات بشريّة غامضة منذ العهد الباكر للخليقة ، مرتبطة بواحد فوق الملائكة ورؤساء الملائكة . وربّما ليس عجباً على كل حال أن تجادل الرسائل الدينيّة العبرية في (الفرادة) المتسامية (للواحد) بعد نظام (ملشيزيدك) (الواحد) ... الأرق من الملائكة في نفس الوقت الذي يُلحُّ فيه على (بشريّته) ؛ وبقيت تفسيرات آباء الكنيسة الأول غير متأكّدة فيما إذا كان (ملشيزيدك) في سفر التكوين هو بشر أو كائن ملائكي[٧٣] .

وتبدو نقطتان هامّتان :

(i) من الواضح أن التخمينات في فلسفة (الحشر والنشر) لم تَدُر حول مسيح بشريّ « ابن الله » فقط، بل أيضاً حول عميل محتمل – فوق الطبيعي –، ربّما ابن الله فوق مستوى الملائكة أو ابن الإنسان الذي ينوب عن الله في يوم الدينونة الأخيرة . والذي حدث في دراسة شخصية المسيح هو امتزاج هاتين الصورتين لفلسفة الحشر والنشر .

(ii) يحيط بالنصوص اليهودية بعض عدم التأكد ممّا إذا كان هذا العميل – فوق الطبيعي – هو ملاك أو أكثر من ملاك ؛ وهذا مشابه وموازٍ لمعالجة (فيلون) لموضوع الكلمة (كلمة الله)، و (آللوغوس Logos) [راجع

ما يتبع] ؛ والميل المستمرّ في النصوص المسيحية لمعالجة موضوع (ابن الله) أو (كلمة الله) كملاك أو كرئيس ملائكة، ...وهذا الميل بقي حتّى تاريخ (الجدل الأرياني) في عمل المسيحيّين الأوائل : (راعي هرماس) ؛ هناك ستّة رُؤساء ملائكة بدلاً عن سبعة مع وجود « بشر جبّار » في وسطهم أي ... (ابن الله) ؛ وفي الكتابات (Pseudo- cypria-nic) يُوصف « السيد » – -Lord – بأنه خلق سبعة ملائكة وأحدهم قرّر أن يجعله ابنه . ودراسة شخص المسيح مرتبطة بالتأكيد ، بطريقة ما ، بموضوع التصوّرات اليهودية عن الملائكة(٧٤) .

والحقيقة أن أقرب شبيه موازٍ للاعتقاد المسيحي هو في هذا الإطار : (التصورات التخمينية اليهودية عن الملائكة) . ففي كتابة دينيّة يهودية مشكوك في صحّتها – معروفة باسم (صلات يوسف) – ومفقودة الآن وليس لدينا منها إلا مقتطفات مذكورة في أعمال (أورغِن)(٧٥) ، يقول فيها يعقوب : « أنا يعقوب وإسرائيل المتكلّم إليكم أحد ملائكة الله وإحدى الأرواح الرئيسيّة . أنا يعقوب ، كما سمّاني الناس ، ولكن اسمي هو إسرائيل لأن الله سمّاني إسرائيل – ويعني ذلك – « الإنسان الذي يرى الله » ؛ وأنا ... أوّل المخلوقات الحيّة التي أعطاها الله الحياة » . وبهذا الادّعاء المركّب يُقدّم إلينا كائناً له ملامح ملائكيّة وبشرية وهو مع ذلك أرقى من الملائكة لكونه هو أوّل من ولد من الله . ويتبعُ ذلك مقطع عجيب يبدو أنه يعني ضمناً أنه في المصارعة المشهورة في (ساقية جابّوك) (سفر التكوين – 32.24)،كان هناك ملاكان رئيسيّان (إسرائيل) و(أوريل) وكلاهما متجسّد بشكل بشرى ، وكلاهما يدّعي أيضاً أنه يعقوب ؛ وقد تبارزا ، وأعلن (أوريل) – أحد ملائكة الله – قائلاً : « نزلت إلى هذه الأرض وعشت مع البشر » . أمّا يعقوب فيؤكّد سُمُوّه ويكشف قناع (أوريل) ويميط اللثام عن أنه هو « (إسرائيل) الملاك الرئيسيّ لقُدرة « السيد » الإله وأعلى جنرالاته بين أبناء الله ..، أوّل الذين يخدمون في حضرة السيد الإله». وهكذا فإنّ أبا شعب إسرائيل يُنظر إليه كتجسيد لكائن – فوق

الطبيعي – . ويبرز الشبيه الموازى بصورة أكثر وضوحاً في تلميحات الأناجيل عن فرضيّة أساسية قوامها أن يسوعاً جمع كل مااختارتْ إسرائيل أن تكونه وأسّس إسرائيل جديدة ...هي الكنيسة .

(د) « جذور الأمل المسيحي هي فلسطين ؛ أمّا اللاهوت المسيحي ، وأهم من ذلك كله ، دراسة شخص المسيح فجذورها في الإسكندرية »(٧٦) ...؛ كان ذلك استنتاج (أ . د . نوك) أحد أكبر الخبراء في الأمور الدينيّة للعالم اليوناني – الروماني . ما الذى قاده إلى هذا الحكم يا تُرى ؟

لقد ألمحنا لكائن سماوى آخر عُرّف انه (ابن الله) – اللوغوس – (فيلون) . و(فيلون) الذي ذُكِرَ فيما عرضناه سابقاً عاش ، على وجه التقريب ، معاصراً لـ(بولص) ، وكتب مثل (بولص) باللغة اليونانيّة ويهوديّته ، رغم أنهاّ أرثودوكسيّة الممارسة ، كانت مصبوغة ، من الوجهة اللاهوتيّة ، بفهم ودّى للفلسفة اليونانية وربّما للديانات الإغريقية الغامضة . وفي نفس الوقت كانت هناك روابط مع التقاليد الفلسطينيّة والكتابات الدينيّة للحاخامين . ولقد أوضح (فيلون) بجلاء أنّ اليهودية ، رغم خصوصيّتها ، يمكن أن تُصبح يونانيّة في تفكيرها في الوقت الذي لا تزال فيه محافظةً على نفسها . ودليل آخر يُوحي بأنّ (فيلون) يجب ألاّ يعتبر شخصيّة معزولة تماماً بل كأبرز مثل للتقليد في التفكير الديني والدفاع عن اليهوديّة ، والذي كان متداولاً في الأجواء اليهودية الناطقة باليونانية خارج فلسطين .

وعقيدة اللوغوس – Logos – لـ(فيلو) معقّدة جدّاً ومن المستحيل أن نَقوم بأكثر من لفت الانتباه إلى عدّة نقاط مثيرة فيها بخاصّة بالنسبة لنمو وتطوُّر دراسة شخص المسيح .

i – عقيدة (اللوغوس) تستدعي نوعين من ثنائية بالنسبة لله ، وتعترف بالتمييز بين الله العليّ الأعلى والله البشري . « وعندما تقول الآثار الدينية انّ الله

خلق الإنسان على صورته ، تعني أنه خلقه بصورة « الإله الثاني » الذي هو اللوغوس – أي كلمته – لأنّه لا يمكن لفانٍ أن يُصنَع على شكل الواحد العليّ الأعلى وأبي الكون»[٧٧]. والعالم المفهوم – حسب أفكار أفلاطون – وُجد أوّلاً في ذهن الله ، ومثل (لوغوسه) (الكلمة) وفّر نموذج الخليقة ؛ إلّا ان (اللوغوس) هو أكثر من نموذج لأنه هو الرباط الجوهرى الذي يتخلّل الكل ويحفظ الخلائق المتعدّدة الأشكال في وحدةٍ لا تنكسر (٧٨)) . وهكذا فالله العليّ الأسمى مرتبط بالعالم عبر وسيطه (اللوغوس) .

ii – اللوغوس ليس فقط (الله) ولكنّه أيضاً (إنسان) ويَتَطَلَّع البشر طامحين أن يصبحوا أولاد « إنسان الله ، ولكونه كلمة الخالد ينبغي أن يكون هو نفسه غير قابل للفناء »[٧٩] . والذين يعيشون في معرفة « الواحد » يُسمَّون بحقّ « أبناء الله » . مثلما سلّم بذلك موسى عندما قال : « أنتم أبناء السيّد الإله » (الكتاب الخامس من كتب موسى – 14.1) « الله هو الذي خلقكم » (الكتاب الخامس من كتب موسى الخمسة – 32.18)، و « أليس هو أباكم » (الكتاب الخامس من كتب موسى – 32.6)ولكن إن كان هناك حتّى الآن مَنْ لا يستحق أن يُدعى ابن الله فليسْعَ أن يحتل مكانه تحت أول مخلوق لله « الكلمة » الذى هو البِكْر (وهذه تتضمن معنى الأولوية والمكانة الرفيعة) في الملائكة ، كما لو أنّه « رئيس الملائكة » (ويعني حرفيّاً الملاك الحاكم) »[٨٠] .

iii – وهذا الإنسان السماوى أو المثالي (اللوغوس) هو الصورة الأولى لله ويتمتّع بمعرفة مباشرة بالوقائع والحقائق أكثر ممّا يعتمد على تلقّي التعليمات فهو إذن يَمْنَحُ الوَحْي. ويعمل أيضاً « كنائب لله » ؛ لأن الله الراعى « يقود قطيعه المُقدس حسب الحق والقانون ولكن يضع فوق ذلك (كلمتَه) الحقيقية وابنه المولود الأوّل »[٨١] .

وقد حفظت الكنيسة وكرَّمت كتابات (فيلون) ووفّرت بذلك الإلهام لِلاهوتٍ مسيحي فلسفي مُعقّد ؛ والواقع أن (فيلون) تنّبأ من عدة أوجه ،

بالعرض الرسمي لدراسة شخص المسيح . ورغم أنه - أي فيلون -لا يُعرّف رَجُله (اللوغوس) السماوي بأية شخصية تاريخيّة مُعيّنة - لأن كل البشر يشتركون فيه بدرجات متفاوتة ، كما تشترك سمات « معيّنة في الفكرة » الأفلاطونية ، إلا أن (فيلون) وَفّر بالتأكيد صورة ، قبل ظهور المسيحية ، لكائن سماوي وسبط من النوع الذي عَرَّف به المسيحيون يسوعاً . والمتشابهات الكثيرة في لغة (مقدّمة يُوحنّا) وفي (الترنيمة الكولوسّية) عن المسيح الكوني لم تَمُرّ دون ملاحظة . واللغة المشاركة مشابهةٌ تماماً لتعابير (بولص) ويوحنّا عن « البُنُوَّة ... بالتّبَنّي » « كائنة في المسيح » « تسكن فيه وهو فينا » . إلا أنه من المستحيل التحقّق مما كانت كتابات (فيلو) معروفة لدى أيٍّ من كُتّاب الأناجيل (رُبَّما باستثناء مُؤلف العبريّات) ، ومن المستبعد - إلى حدٍّ كبير - أن يكون لفلسفة (فيلون) المعقّدة أي تأثير مباشر على النموّ الباكر لعقيدة التجسّد .

ولكن وراء (فيلون) العالم الواسع لليهودية اليونانية - الهلّينيّة - ... عالم لا نعلم عنه - مع اشتياقنا المُعذّب لذلك - إلّا القليل، لأن أكثر شواهده قد ضاعت . ومع ذلك يبدو من المحتمل جدّاً أن (شاؤول من طرسوس) وقع تحت تأثيرات مماثلة لخلفيّات (فيلون) وبخاصّة أن كليهما استلهم ممّا يُدعى (حكمة وحدة الطبيعتين الإلهيّة والبشرية - Hypostatization of Wisdom) .

وفي كتاب الأمثال ، بجانب الأقوال الواضحة المباشرة التي تقول بقيمة الحكمة والمعرفة ، تبدو الحكمة بشكل شخصاني قوي « صارخة بأعلى صوتها في الشوارع » ..، داعيةً مُعنِّفةً الناس الذين يَرفضون اتّباعها . وفي أكثر الكتاب يبدو الأمر كما لو أنه ، ببساطة ، أسلوب كلامٍ مُلوّن ؛ ويبدو أنّ الحكمة تُقابل بامرأةٍ غريبةٍ « المومس » التي تقود الشاب إلى الشرّ ؛ وهذا ، بدون شك، تشخيص للجنون . ومع ذلك ففي الفصل الثامن يبدو أن هناك شيئاً أكثر من الحكمة تُنادي الناس مُجدّداً ولكنّها تعلن هنا لائحة طويلة من فضائلها وإنجازاتها ؛ وبعد ذلك هناك وصف للأسلوب الذي امتلكها به « السيد الإله » في

البداية ؛ كيف جيىء بها قبل الخلق وكيف أنها عملت على أساس أنها وَلَدُ الله أو ربّما مساعد له (والتفسير ليس أكيداً) عندما حدّد أُسُس الأرض . وهذا يُعتبر أيضاً في الغالب أسلوب كلامٍ مُلَوّنٍ ويدعم هذا الرأى وجود تعابير مماثلة في الكتاب نفسه (مثلا – 2.6;3.19 ...إلخ) ؛ ولكن خاصية هذه القصيدة توحي بشكل قويّ (بالإفتخار بالفضيلة)(*) لِ (إيزيس)، في النُّصوص التي تُصوّر فيها الآلهة الغامضة (إيزيس) على أنّها تدعو الناس وتعلن عن فضائلها الذاتية وإنجازاتها بصيغة المتكلم . ومن المفهوم إذاً أن يَرَى (و . ل . نُوكْسْ) هنا التحريفيّة، التي كانت محاولة مقصودة للتعميد في عهد (بطليموس) ، كما لو كان الأمر في التقاليد اليهوديّة ، صورة الأنثى (إيزيس) بكل جاذبيّتها(٨٢) .

ومهما كانت أصولها ، فهذه الصورة للحكمة الصادرة عن الله والفاعلة كعميل له ، تطوّرت أكثر في (إيكلوس – بن سيرا– 24) ؛ هنا نرى أنّها خُلقت قبل كل الأشياء ، وفي الجمع الحاشد للعِليّ الأسمى تَعلن عن نفسها أنّها تعيش في أماكن عالية « عرشي على عُمَدٍ من غيم » . والنقطة المميّزة في هذه (المباهاة بالفضيلة)(★) هي في مجيئها لتسكن في إسرائيل على أساس أنّها « التوراة » .

لقد نظرنا ، حتّى الآن ، في موادّ هي ، بالتأكيد ، فلسطينيّة الأصل حيث يُمكن تقييم انعكاسات التشخيص بعدّة وجوه؛ بالمقابل يتناول الكتاب اليوناني (حكمة سليمان) في الفصل السابع ، هذه التقاليد ويُحوّل الحكمة إلى نوع من « اللوغوس » الرواقي « روح الله الجوهرية » التي « تتخلّل وتدخل كُلّ الأشياء بسبب طهارتها ؛ نفس قُدرة الله ، الانبثاق الواضح لأمجاد القادرالجبّار والتألّق للنور الدائم..، مرآة لا لطخة فيها ، لعمل الله ، وصورة لطيبته ... » بعض هذه الجمل بالذات تظهر مرّة أخرى في كتاب (العبريّات – 1.3) بالنسبة ...للإبن .

(★) تعريب كلمة – Aretalogy : هو افتخار أوْمباهاة بالفضائل .

في هذا التطور يبدو كما لو أنّ إحدى صفات الله- أي حكمته - أصبحت شبه مُستقلّة ، لكونها تعمل كوكيل لله . ومن الواضح أن (لوغوس) (فيلون) هو من خاصيّة مشابهة ؛ عقل الله أو إدراكه يُقدَّم على انه (كلمته الخلّاقة) . ولكن هذا النوع من الأفكار ليس محصُوراً باليهودية اليونانية . ففي النصوص الحاخامية يُتابع (بن سيرا) موضوع تعريف الحكمة والتوراة ويبدو أنّ التوراة تصبح شخصية إلهية (حسب فلسفة الوحدة بين الإلهي والبشري) ؛ اسم الله و (كلمته) وقبل كل شيء (حُضُوره) تُعتبر كُلّها ، بطريقة ما ، كأعراض غير مباشرة لقُدسيته السامية إلى درجة أنها تحظى تقريباً بوجودٍ مستقل . ومهما بدا الأمر غريباً يظهر أن مثل هذه الأفكار لم تكن تُعتبر إهانة لعقيدة الإله الواحد . وقبل تلازم هذه الأمور مع شخص يسوع المادىّ كانت تُعتبر فقط - آفتراضاً -بشكل مُعتم ، أموراً شخصيّة ويستطيع علماء اليهود بصورة معقولة ، أن يردوا عن الحاخامين تُهمة أنّ تفسيراتهم هذه هي مسيحية الطابع . ومع ذلك فمن الشيّق حقّاً أنّ بعض أسماء الكائنات المذكورة التي تخيلوها ... ماديّة : رؤساء الملائكة توحي بإضفاء الصفات الإلهية على الأشخاص البشر ؛ (جبرائيل) - هو قدرة الله و (فانوبل) هو وجه الله .

ومن هذه المواد يتّضح أن التأملات اليهودية في وسطاء شبه إلهين كانت موجودة في الأجواء . والذي حدث في دراسة شخص المسيح هو أن قيام المسيح ، الذي أصبح حتماً موجوداً سابقاً لتأسيس العالم ، نَسَخَها كلها .

٧ - الاستنتاج

لم يكن في نيّتي الإيحاء بأنّ أيّ واحد من الأدلّة المُقدّمة في هذا الفصل ، بل أيّة نظريّة معروضة يجعل الأمر ممكناً في إعادة تركيب تقرير نهائي عن قيام مُعتقد التجسُّد في الكنيسة الباكرة . فالاعتراضات الدهائيّة والتفسيرات المناقشَة

للنصوص مُمكنة دائماً . والذي حاولت عمله هو عرض الجوّ الثقافي للعالم القديم الذي لم يتخلّل فقط الدوائر الوثنية ولكن ، أيضاً ، سائر أنواع التقاليد اليهودية ، مُؤثِّراً ، حَسَب عِلْمنا، على الكثير من الطبقات الفكرية والاجتماعية، ومُؤدِّياً إلى نمّو هذه الفكرة – التجسّد – . وعلينا أن نفتّش في الحالة التوفيقيّة العامة للدين في الفترة المعيَّنة تلك ، عن تفسير لقيام هذه العقيدة .

إذاً فالاستنتاج الوحيد الذي أريد التشديد عليه هو أن الموقف اللاهوتي الذي نُوقش في هذا الكتاب لا يعتمد على نظريّة مُعيّنة منيعة على النقد العلمي . واقتراح (مايكل غولدر) في الفصل السابق هو إعادة تركيب مُدهشة ومعقولة ، ولو لسبب واحد فقط هو أنّها تستعمل بصوابيّة أكثر من أيّة نظريات معيّنة أخرى ، تأثيرات معروفة على الكنيسة الباكرة في فترة هي من صميم اهتمامنا الأوّل ؛ ولكن ليس من الحيوي الذي لا غني عنه للأطروحة العامة أن تكون فكرة التجسُّد قد اعتمدت ثقافياً على غيرها . وبالفعل ، يجب أن يكون الأمر واضحاً الآن في أن بعض ملامح لاهوت السامريين التي لُفتَ النظر إليها ، كانت في الواقع واسعة الانتشار في مناطق أخرى ؛ فالإلحاح ، كما رأينا ، على سُمُوّ الله البعيد له ما يوازيه في نُصوص اليهودية اليونانية، واليهودية الحاخامية ؛ والميل إلى تحويل صفات الله من تصوّرٍ إلى واقع بشريٍّ بخاصة الحكمة ، يمكن أن يؤدّى إلى ثنائية مماثلة تُثير نفس الاحتجاجات باسم فكرة وحدانية الله كما هو الأمر مع (فيلون) بالإضافة لذلك يمكننا ملاحظة أن معنى غياب الله لمدة طويلة شعر به أيضاً يهود تلك الحقبة من الزمن . لأن السَدّوسيّين(★) ، مثل السامريين رفضوا كل الكتب ما عدا (البِنْتَاتُوش= كُتب موسى الخمسة) . والذين قبلوا مجيء الوحي مرّة أخرى في التاريخ اعتقدوا أن الروح القُدُس ترك إسرائيل بعد الأنبياء الأخيرين : (هاجاى) و (زكريا) و (مالاشي)؛بل إنّهم اعتقدوا ان الروح القدس لم تكن قط موجودة في المعبد الثاني – Second Temple(٨٤) . وعاش

(★) طائفة من ثلاث طوائف يهودية كانت تعيش حقبه حياة المسيح .

كثير من اليهود آنذاك آملين بإله أحسُّوا أنّه بعيد أو غائب . والبعض منهم تَرَقّبوا إنفجاراً عجائبيّاً قادماً أفتُرض أن هناك نبوءة عنه من الماضي البعيد ... عندما كانت النبوءة لا تزال حيّة . والبعض الآخر بدأ يُفتّش عن الإيمان بالمعرفه، والتجلّيات الروحية وليس بتدخُّل في التاريخ..؛ وبمعنى آخر ، شاركت أفكار السامريّين بعض ميول اللاهوت اليهودي في العهد الهلليني - الإغريقي - ؛ والواقع، مع الاعتراف بغموض أصول السامريين نستطيع ملاحظة إمكانية تقديم سبب معقول لظهورهم في أول العهد الهلّيني كشكلٍ من أشكال عدّة لليهودية التي بدأت في ذلك الوقت أتباع تعايش مُتوتّر، وأحيانا عُدواني، بوضوح؛ (والمثل الآخر هو طائفة قمران)(٨٤) . ولم يكن التحوّل الهلّينيّ في اليهودية مُتناسقاً ، فتفاعلت وتطوّرت المجموعات المختلفة بطُرق عدّة . وربما كان هناك ، في الواقع نقطة عامّة مواتية لموقف (مايكل غولدر) في أن استمرار اتهامات اليهود لطائفة السامريّين، كانت مُوجَّهةً إلى طبيعتها التوفيقيّة؛ ويُصبح هذا الاتهام أكثر معقوليّة إذا كان كتاب (الماكابيين الجزء الثاني - 6.2) صحيحا في إيحائه أن السامريّين تعاونوا مع (أنطيوخُوس) في سياسة التحويل الهلّيني . وإذا كان هذا التقييم عادلاً ، أصلاً ، ليس من المُستبعد أن السامريين كانوا - جزئيّاً على الأقل - قناة للتأثيرات التوفيقية في الكنيسة الباكرة .

ويجب النظر إلى التوفيقيّة ، خارج الجدول الرئيسيّ لليهودية ، وبدرجات متفاوتة داخلها ، كإطار واسع يحتاج المرء لتقييم النظريات المحددة داخله . يبدو أنّه ليس هناك مشابه دقيق واحد للادعاء المسيحيّ الكُلّي عن يسوع في الكتابات التي هي قطعاً - في فترة ما قبل المسيحيّة ؛ فالأساطير عن المُنقذ بِكُل أحجامها وأبعادها موجودة دون شك بعد ظهور المسيح وليس قبله . ومع ذلك فمن الصحيح بالتأكيد القول مع (ا . د . نوك) إنّ تأثير صورة يسوع بلْوَرَتْ عناصر كانت موجودة قبل ذلك(٨٥) ويبدو أنّ هناك أربعة عناصر أساسيّة :

(i) استعمال جُمَلٍ مثل « ابن الله » ، كان هذا بلا شك مُتداولاً ، مع

الاعتراف بأنه كان بتضمينات مُتعدِّدة واسعة ومُطبّقاً على البشر وعلى الكائنات - فوق المستوى البشرى - .

(ii) العادة في تأليه ، أو صعود إنسان استثنائي إلى مملكة سماوية ، استطعنا تتبُّع أمثلة عنها في التقاليد اليونانيّة واليهودية .

وآستُحضر هذان العنصران معاً في الادعاء بأن يسوعاً كان المسيح ابن الله قام من الموت وصعد ليُصبح اليد اليُمنىٰ لله في السماء .

(iii) الاعتقاد بكائنات سماوية أو وُسطاء سماويّين بعضهم يمكن أن ينزل ليُسعف الناس ؛ وواحد منهم ربّما يعمل كنائب لله في محاكمات يوم الدينونة ؛ وأوّلهم ربّما كان أداة الله في عملية الخلق .

بعدما أخذ المسيح الذي قام ، مكانه في السماء، فليس من العجيب ، في التخيّل المسيحيّ ، أن يعزل أو يُخفِّض رُتبة كلّ هذه الكائنات المذكورة ، في نفس الوقت الذي يتسلَّمُ منهم أكثر وظائفهم، وهكذا يُصبح موجوداً قبل الوجود .

(iv) العنصر الأساسي الرابع هو فكرة ظهور رئيس هذه الكائنات السماويّة على الأرض في تجسُّد حقيقي . ومن خلط مُعطيات العناصر الثلاثة الأولى يبدو أنّ النتيجة هذه طبيعيّة ومنطقيّة ولكن ، هنا بالذات تُصبح المماثلة غير صائبة . يمكن للأساطير الوثنية أن تتصوّر تجسُّداً (دوسيتيّاً) - أي ظاهريا وليس حقيقيّاً - ؛ وتستطيع القصص الخرافية اليهودية أن تتصوَّر مجيء ملاك بزَيٍّ مُتنكّر . وآدّعاء اشتراك أشخاص تاريخيّين أو معاصرين في تجلّي الآلهة كان في حوادث قليلة ، ولكن يبدو أنه لم يحمل تماماً محمَلَ الجدّ . فهل من العجب أن تعتبر - الدوسيتيّة - أول هرطقة مسيحيّة ؟ والخاصة المميّزة للعقيدة المسيحية في تيّارها الرئيسي، هي عدم استطاعتها الشرود بعيداً جدّاً عن الواقع التاريخي ليسوع الناصري ، رجل صُلِبَ في حُكم (بونتيوس بيلاطوس) وسرعة ظهور مذهب

(المَعْرفيّين) بين المسيحيين ، وما تبع ذلك من مشاكل في تعريف وتحديد دراسة شخص المسيح ، مشاكل لم تُحل أبداً بصورةٍ تامة ، تُظهر، أن هذا المرسى في التاريخ ، رغم دوام تأكيده كان باستمرار ، غير آمن؛ طالما أن معنى ومغزى وأهميّة هذا (اليسوع) فُسِّرت حسْب تصنيفات وَفْرتها التخمينات التأمُّلية - فوق الطبيعيّة - للعالم الإغريقي - الروماني .

وسواء استطعنا أم لم نستطع نبش الأصول المضبُوطة - الدقيقة - لمعتقد التجسّد فالواضح المؤكد أنّها تمّت بصورة طبيعيّة كافية لعالم كانت تبدو فيه الطُرُق فوق الطبيعية في الكلام أعلى وأفضل تعبيراً عن الأهمية والنهائية للواحد الذى عرَّفوه أنّه مسيح الله ورسوله المنتظر .

NOTES

Notes have been mostly confined to identifying passages actually quoted. Translations follow the Loeb Classical Library where it is available, apart from occasional changes introduced by myself. Other translations used include: H. Chadwick, *Contra Celsum*; E. H. Gifford, *Praeparatio Evangelica*; the Soncino edition of *The Babylonian Talmud*; H. Odeberg; *III Enoch*. Other texts (e.g. Qumran) are quoted from the secondary sources referred to.

1. Origen, *Contra Celsum*, i.57, the Simonians number thirty; ibid., vi.11, Dositheans under thirty.
2. Ibid., i.57.
3. A. D. Nock, *Essays on Religion and the Ancient World*, ed., Zeph Stewart, Oxford University Press 1972, vol. I, p. 35.
4. Origen, op. cit., vii.9.
5. Ibid., v.1.
6. Ibid., iii.24.
7. Ibid., i.37.
8. Athenagoras, *Legatio*, 26.
9. Lucian, *The passing of Peregrinus*, 4.
10. Ibid., 29.
11. Ibid., 39.
12. Ibid., 40.
13. Ibid., 11-16.
14. Ibid., 4.
15. Lucian, *Alexander the false-prophet*, 8–9.
16. Ibid., 11.
17. Ibid., 40.
18. Philostratus, *Life of Apollonius*, i.4.
19. Ibid., i.6.
20. Ibid., i.2.
21. Ibid., viii.7.
22. Ibid., viii.30–end.
23. Eusebius wrote a treatise against an attempt by Hierocles to turn Philostratus' *Life* into a rival gospel; he provides a critique of Philostratus' claims for Apollonius. See appendix to Loeb Classical Library ed. of Philostratus.
24. Diogenes, *Lives of the philosophers*, iii.2.1.
25. Ibid., viii.1.4–5.
26. Ibid., viii.1.11.
27. According to Aelian, *Varia Historia*, ii.26.
28. Diogenes, *Lives*, viii.2.66.
29. Ibid., viii.2.59ff. and 70.
30. Ibid., viii.2.69.
31. Ibid., viii.2.68.
32. Plutarch, *Table Talk*, viii.1.2.
33. *Alexander*, 2.
34. Ibid.
35. Ibid., 27.
36. Ibid., 2–3.
37. A. D. Nock, op. cit., pp. 134–52.
38. Livy, *Annales*, 1.4.

39. Ibid., 1.16.
40. Ovid, *Metamorphoses*, VIII.626–721.
41. Cicero, *Ad Quintum fratrem*, I.i.7.
42. Vergil, *Eclogue*, iv.
43. Horace, *Odes*, I.2.
44. Adolf Deissmann, *Light from the Ancient East*, ET, L. R. M. Strachan, Hodder & Stoughton 1927. For the following material see pp. 342ff.
45. A. D. Nock produced many studies of ruler-cults, the most important being in the posthumous collection cited above. For these remarks see p. 841 (vol. II) and p. 152 (vol. I).
46. Josephus, *Jewish War*, VII.x.1.
47. *Martyrdom of Polycarp*, 8.
48. Martin Hengel, *Son of God*, ET, John Bowden, SCM Press 1976, p. 30.
49. L. Bieler, *Theios Anēr*, Vienna 1935 and 1936.
50. See W. von Martitz, *Hyios* in TDNT, VIII, p. 339.
51. C. H. Talbert, 'The concept of immortals in Mediterranean Antiquity', *Journal of Biblical Literature*, vol. 94, 1975, 419ff.
52. Arnold Toynbee, among others, has popularized the parallels between Hercules and Jesus; see *A Study of History*, Oxford University Press 1939, vol. VI, pp. 465–76. M. Simon, *Hercule et le christianisme*, Paris 1953, is a more cautious historical study.
53. Justin, *I Apology*, 54ff. and 21ff., for these two different viewpoints.
54. *Alexander*, 27.
55. W. Bousset, *Kyrios Christos*, ET, John Steely, Abingdon Press 1970, p. 146.
56. J. A. Fitzmyer, 'The contribution of Qumran Aramaic to the study of the New Testament', *New Testament Studies*, vol. 20, 1974, pp. 382–407.
57. G. Vermes, *Jesus the Jew*, Collins 1973. See particularly p. 206.
58. Ibid., p. 218ff.
59. Eusebius, *Praeparatio Evangelica*, 9.27.
60. Josephus, *Antiquities*, 4.8.48.
61. Ibid., 3.5.7.
62. Philo, *Life of Moses*, II.288–91.
63. J. Jeremias, *Mōysēs*, TDNT, IV, p. 855.
64. *Hagiga*, 11b, 13a, 14b.
65. G. G. Scholem, *Major trends in Jewish Mysticism*, New York 1946, ch. 2; and *Jewish Gnosticism, Merkabah Mysticism and Talmudic Tradition*, New York 1960.
66. Hugo Odeberg, *3 Enoch or the Hebrew Book of Enoch*, Oxford University Press 1928.
67. *Hagiga*, 15a.
68. This and the following quotations will be found in *3 Enoch*, 10–14.
69. *Hagiga*, 15a and *3 Enoch*, 16.
70. That we do not need to posit Gnostic sources for the descent–ascent pattern is argued by C. H. Talbert, 'The myth of a descending–ascending redeemer in Mediterranean Antiquity', *New Testament Studies*, vol. 22, 1976, pp. 418ff., where further examples will be found.
71. M. de Jonge and A. S. van der Woude, '11Q Melchisedek and the New Testament', *New Testament Studies*, vol. 12, 1966, pp. 301–26.
72. J. A. Fitzmyer, 'Further light on Melchisedek from Qumran Cave 11', *Journal of Biblical Literature*, vol. 86, 1967, pp. 24–31; republished in *Essays on the Semitic Background of the New Testament*, Chapman 1971.
73. M. de Jonge and A. S. van der Woude, op. cit.
74. J. Daniélou, *The Theology of Jewish Christianity* (*A History of Early Christian Doctrine*, vol. I), ET, J. A. Baker, Darton, Longman & Todd 1964, pp. 122–3, and all of ch. 4: 'The Trinity and Angelology'.
75. Origen, *Comm. in Joh.*, 2.31.

76. A. D. Nock, op. cit., vol. II, p. 574.

77. Philo, *Qu in Gen.*, IX.6.

78. *Plant.*, 8–10; *Fuga*, 112; *Qu. in Ex.*, II.118.

79. *De Conf.*, 41.

80. *De Conf.*, 145.

81. *De Agric.*, 50ff.

82. W. L. Knox, 'The Divine Wisdom', *Journal of Theological Studies*, vol. 38, 1937, pp. 230–7; and *St Paul and the Church of the Gentiles*, Cambridge University Press 1939, ch. III.

83. E. Schweizer, *Pneuma* in TDNT, VI pp. 385ff.

84. R. J. Coggins, *Samaritans and Jews. The origins of Samaritanism reconsidered*, Blackwell 1975.

85. A. D. Nock, op. cit., vol. II, p. 932.

الفصل السادس

عقيدة التجربة

بقلم / لسلي هُولِدن

ليس هناك دراسة واحدة لشخص المسيح في كُتب العهد الجديد - الأناجيل - بل هناك عدّة دراسات ؛ وأصبح من المعلوم الآن لِكُل الناس تقريباً أن النظر في كتابات العهد الجديد من أيّة مسافة - أقرب من جبل بعيد - يُميّز مجموعة مختلفة من الصور عن المسيح . وبالفعل سترى أن لِكُل كاتب تصوّره الخاص ويمكنك أن تُقرّر أن واحداً منهم ، (بولص) ، قد غيّر وجهة نَظَرِهِ في إطار ماكتبه، وكشف لنا فيه فكره . وذلك لا يعني أنه ليس هناك قاسم مشترك عريض لسائر تلك الصُّور . فمن كثرة تداخلها وجدت الأجيال المسيحيّة المتعاقبة - التي نظرت بعين التركيب وليس بعين التحليل - أنّها كُلّها إسهامات جريئة لمجموعة متناسقة جمعتها وحددّت إطارها تعابير الأرثوذُوكسيّة المتأخرة . أما اليوم فأكثرنا من المحلّلين - سواء كان ذلك حسناً أو سيّئاً -، ويطول الأمر كثيرا إذا ما حاولنا تفسير لماذا نحن محلّلون : يجب أن نقبل مُجمَل أوضاعنا التى وَرِثْناها عن التنوير،ونُحاول أن نستفيد منها قدر المستطاع . ولكن رغماً عن حقيقة أنّ أعيننا تدرّبت على التمييز أكثر من التنسيق المتناغم ، يجب ألا تجعلنا غير مُبْصرين لادّعاءات الوحدة . طبعاً يتّحد كُتّاب الأناجيل كُلّهم ، ماعدا (جيمس) ، في رؤية المسيح على أنه المفتاح الذي يفتح كُل الأبواب عندما يكون الأمر متعلقاً بالله ، وأنّه الدليل الذى يكشف كُلَّ الأسرار . وباستطاعتنا رسم خلفيّة مُشتركة عبّر كُلُّهم في إطارها، عن تلك القناعات العظيمة المُسيطرة عليهم .

وأوّل واجب ، بعد الإقرار بالتنوُّع ، هو تقرير كيف يمكن تقيم هذا (التنوُّع) . ففي وقتٍ ما ، كان من العادي أن نأخذ ألقاب يسوع كأساس

للتحليل ؛ يتحرّى الواحد خلفيّات هذه الألقاب في أصولها اليهوديّة واليونانية ، ويصل لمعناها . ويتنقّل الواحد من إنجيل لآخر فاحصاً استعمالاتها - أي الألقاب-، مُسقِطاً المعنى في فكر كُل كاتب مُقدس، واحداً بعد الآخر . ولكن بُؤرة التركيز قد تغيَّرت . ولقد وصل الأمر إلى درجة أن الواحد يبدو خشباً لا مشاعر فيه إذا افترض أن الألقاب تُعبِّر عن صوتٍ واحد..، ربّما في منطقة جغرافية واسعة وبإمكانها أن تكون كذلك في إنجيل بعد الآخر .

لذا فأساس التحليل الآن هو ، بصورة أعمّ الكاتب نفسه، مع آحتفاظ الألقاب بمكان لها في التحليل ؛ فهو - أي الكاتب - الأداة الرئيسية في الاستكشاف . وهذه الطريقة هي أكثر حساسيّة من الوجهة الإنسانية وأكثر إرضاءً من الوجهة الأدبيّة . عندما يُقال لى ماذا تعنى كلمة « ابن الله » في القرن الميلادى الأوّل يبقى الأمر معنوياً حتّى أسمع لمن كانت تعنى ذلك . إذن نبدأ بالتعرّف على صورة يسوع التي رآها كلُّ واحدٍ من كَتَبَة الأناجيل ونَصِفُ دراسة شخص المسيح بالرجوع إلى الألقاب التي عبّر بها الكُتّاب عنه ؛ فنذكر الدراسة البولصية لشخص المسيح بعرض استعمالات (بولص) لألقاب مثل المسيح ، « ابن الله » ، « السيد » و « الحكمة » بالنسبة ليسوع . نقارنه بـ (يوحنّا) مُلاحظين أنّ عند (يوحنّا) أيضاً ألقاباً وصوراً أخرى تلعب دوراً مع اختلاف في النِّسب . وهكذا نُميِّز ونربط الصور المعقدة ليسوع في كُتُب العهد الجديد . وعناصر التركيب تتغيّر وتتطابق في نفس الوقت، ولكن كل رواية لها هيكلها الخاص بها ، وتركيبها الخاص بها ورسالتها الخاصة بها . وهذا ما كان يعنيه يسوع بالنسبة لهذا الكاتب أو ذاك . وبمزيج متميّز من المعلومات والتخمينات والقناعة والتقوى ، أصبح يسوع يعنى هذه الأشياء . وتلك كانت طرق التعبير عن تلك الأشياء .

وأصبحت الألقاب العنصر الأساسى كأداة للتحليل المنهجى . ورغم عدم نضُوب هذا الميل إلّا أنّه ربّما (لُغِمَ) من النّاحية المبدئية ، إلى حدٍّ كافٍ ؛ زد على ذلك

أن يترك هذا الأسلوب في التناول نوعاً من الفجوة عند البحث في كيفيّة التعبير الآنَ عن دراسة شخص المسيح ؛ على أيّة خطوط وبأيّ تفكير منطقي .يعمد واحدُنا إلى وضع هذه التعاليم القديمة بأسلوب جديد مفترضين أنّه لا يرضى أن يعيدها بكل بساطة كما هي ؟ من الجدير بِنا أن نبحث عن أساليب أخرى لتحليل أفكار هذه الكتابات ... حتّى ولو وطأنا أرضاً أقلّ ثباتاً . ولكن قبل أن نبحث عن إشارات واعدة في هذا الاتجاه ، لِنَتَعمّقْ في مسألة أساسيّة .

ما هو وضع روايات العهد الجديد التي تُقدم إلينا عن شخصية المسيح ؟ لِنأْخذ كتابات (بولص) . لنبدأ مثلاً باستعماله لكلمة (السيد -The Lord). إنه يستعملها مرّات ومرّات في هذه الأُطُر النحويّة : وإلى هنا نحن على أرضٍ آمنة . لنتقدّم إلى أُطُر المعاني التي يستعملها فيها ونُصنِّفْها ، محاولين رَبْطها بمعلوماتنا عن معاني الكلمات في الكتب العادية . نجد أنّ الأرض تحتنا أقلّ أمناً وثباتاً . ومع ذلك نبني صورة نافعة يمكن التعرّف عليها عندما نستمرّ في هذا الخطّ رابطين كلمة (السيد – أو المالك – Lord) بألقاب أخرى استعملها (بولص) . وفي هذه المراحل الأخيرة يلعب الخيال دوراً ضرورياً يُساعدنا على تحديد نموذج وتحضير بُنية نُعدّ لها خلال تَقَدُّمنا في الاستقصاء .

ولكن ما هو « وضع »هذا النموذج ؟ ولدى الوصول إليه في تفكيرنا نحن ثم عند عرضه ، ربّما ، على الآخرين خطابةً أو كتابة–، ماذا نفترض أنّنا أنجزنا ؟ إنّها روايتنا نحن لدراسة (بولص) لشخص المسيح ؛ ولكن ماصلتها بما كان يجول في خاطر الحواريّ (بولص) ؟ وإذا وَصَلْتُ إلى نقطة الوعي بالفجوة بين صورتي عن أفكاره وصورته هو عن أفكاره – مع الحيرة فيها والمكابدة منها–، فهل أستطيع الاستفادة من العواطف أو عمل أيّ شيء لسد هذه الفجوة ؟ .

الاستفادة من هذه العواطف هي في الإحساس بها ، وكل ما أستطيع فعله لِسَدّ الفجوة هو إدراك وجودها . وكلا الأمرين أفضل من انتحال موضوعيّة

خاطئة لروايتي عن أفكاره . إنهما يُشكّلان استقلاله الذاتي في نفس الوقت الذي يسمحان لي فيه بالنظر إليه وصياغة آنطباعي عنه .

الاعتبارات تخلق جوّاً من الهشاشة تُقيّم من خلاله روايتُنا لدراسة (بولص) لشخصيّة المسيح في مثلنا هذا . إنها تُؤكد على انها روايتنا نحن لدراسة (بولص)، وليست دراسة (بولص) نفسها . إنّها تفرض سكوتاً عمّا يلوح للوهلة الأولى أنه أساس لموضوعيّة صلبة . وكلما أوغلنا في حسابنا وتصنيفنا يظهر أننا نتقدّم نحو مناطق محدودة المسِاحة وإذا احتلَلْناها تكون مِلْكَنا . لذلك نُحِسُّ بصدمة قاسية عندما نكتشف أنّ الحديث عن « احتلال » غير مناسب بالنسبة لما قُمنا به . ويكون الأمر أسلم إذا اعترفنا بالمحدودية المتأصلة في هذا العمل الذي نقوم به، ليس فقط بسبب وجود هذه المحدوديّة بل لأنّها أكثر وضوحاً في أساليب البحث الأخرى، ويمكن أن نشعر بالإحباط إذا فكّرنا –خطأ–أن هذه المحدودية غير واردة في أساليب البحث التقليديّة المُتّبعة .

وهكذا وبدل التعامل مع ألقاب يسوع ، يمكننا أن نَشْرَعَ في التمييز بين معتقدات كُتّاب الأناجيل عن يسوع بالرجوع إلى درجةِ قُرْبهم من الرؤية الشخصية المُستَجِدّة . ولكي نُفسِّر، علينا أن نتجرّأ على الجزم القاطع. في بدء حركة دينيّة جديدة بخاصّة، يجد بعض الناس أن التعابير الموجودة – المتداولة – لاتفي بغرض التعبير عن التجربة . ولا تصلح إلا الكلمات الجديدة (أو لا كلمات أو جَمْجَهات أو استعمال جديد لكلمات قديمة) وقد تبدلت التجربة مع الله بقدوم عناصر جديدة أو بدافع إعادة ترتيب العناصر الموجودة في نماذج التفكير السائدة . بوضوح كان يسوع « هذا » العنصر الجديد والعامل على إعادة إعادة الترتيب. ويمكن وصف تأثيره المحسوس كَمُنَشِّط للحياة ومهندس لِشُعورِ أناسٍ بالله . لقد ازداد الوعي بوجود الله ، ودعوة الله ووعود الله وقوة الله . والذين تأثّروا ، يعرفون الله الآن بصورة تُغاير ما عرفوه قبلاً .

ولا يعنينا الآن كُنْه هذا الشعور الجديد بالله . المهمّ هو الرَبْط الحميم بين التجربة والكلمات : تجربة مُنعشة قادت إلى كلمات ... أُعيد سَبْكَها ولن نفاجأ أنّه في مثل هذه المناسبات ، نفس العامل ، يسوع ، أنتج نماذج مُتنوعة من الكلمات ؛ وليس مُفاجئاً عدمُ دِقّتها وعدم توافقها وعدم تماسكها . والواقع، يكون هناك ميل لتنظيم وترتيب اللغة على حساب الإبداع إلى حدٍّ ما ..ممّا يُثير الشك في أن التجربة قد آعْتُبرتْ مُنفصلة، قبل ترتيبها في ... كلمات .

هل بالمستطاع إذاً فَصْلُ مرحلة من الإبداع اللاهوتي عن أُخرى قد تتبعُها بسرعة أو تحدث متوازية معها ؟ يمكننا ان نُسمّي الأُولى (تَجْرُبيّة) والثانية (إيمانية) . وفي المرحلة الثانية تضعف الصلة وتطول وتتعدّل بين التجربة والبيان . تضعف لأنّ التجربة الآن معادة ومُقلّدة تُعلّم بَدَلَ أن تُوحي ؛ فهي واجب بدل أن تكون اندفاعاً لايُقاوَم، ووَصْفيّةٌ فاترة وليست منزلة باهرة ؛ مُطوّلة لأن هناك سياقاً من التفكير والتنظيم والترتيب الذي تدخّل فيها . وتحوّل النّبع المنْبَثِق من الإيحاء إلى جريان منضبط للأفكار؛ مُعَدّلة ... لأنّ روحاً جديدة دخلت السياق . واعتبارات السياسة والحاجات المؤسّسيّة التي تأتي من التعليم والعبادة ، والضغوط الخارجية التى يمارسها المجتمع المحيط .. كلها تكسو التطور العارى وغير الخجول برداء يمكن أن يُستَشْعَرَ فى البدْء أنه مُعوّق للحركة، ولكن سرعان ما يُرحّب به لأنّه يجلب الارتياح . وفي « العهد الجديد » أمثلة للمرحلتين بخاصة في دراسة شخص المسيح والأمور المتعلّقة بالاعتقاد ، لأن ذلك كان البؤرة المركزية للانتباه المسيحي المُبَكّر . وليست المرحلتان مفصولتين بدقّة بالنسبة للزمن ، فالأولى احتلّت سنين عديدة وجاءت الثانية إثرها ؛ مع أن الأُولى كانت أبرز في البداية . وليستا أيضاً مُنْفصِلَتَين في الأناجيل . فآنتماء (بولص) في غالبه للمرحلة الأُولى مع أنّ به عناصر قويّة من الثانية، وبعض هذه العناصر موروث من المسيحيين الذين سَبَقُوه؛ بينما يمكننا تصنيف كاتب رسائل الرعويّة الكنسيّة غالبا في المرحلةالثانية، لذا مع أننا نتكلم ، بصورة عامة ، عن مرحلتين ، يجْمُل بنا الحديث

عن نوعين من التعبير ؛ عن نوعين من التَناوُل الذي يمكن حدوثهما في أوضاع دينيّة مُعيّنة .

هناك عنصر قويٌّ من الوعي الذي جاء بعد الفيلسوف (كَنْت) الذي يُميّز بين تَناوُلَيْن ؛ ونحتاج إلى أن نحسب حساب حقيقة أنّ الذين اشتركوا في كتابة الأناجيل المبكّرة ، لم يكونوا بالتأكيد ، واعين لمثل هذا التفريق . فلو امتدّ عمر (بولص) لُيدقّق (رسائل الرعويّة الكنسية – Pastoral epistles) وشعر أنه مدفوع لِنَقْضها، ما كان لِيُفكّر أو يقول إنّه فعل ذلك لأنّها انعطفت بصورة لا يمكن احتمالها من الشكل التجريبي إلى الإيماني . ولو كان بإمكاننا أن نُفسّر لـ (بولص) أنّنا اعتبرناه مُبْدِعاً غير دقيق وخيالياً واضحاً في أسْرِهِ لتجربته، واضعاً إياها في دائرة كلمات جديدة..؛ لو قلنا له ذلك لما اعتبره مديحاً . بل على العكس فإن كلاًّ من (بولص) و(راعي الكنيسة) سَيدَّعيان ، بدون شك ، نفس الادّعاء : أنّهما يُبيّنان الحقيقة الحقّة عن الله وعن يسوع في أعمالهما من أجل البشريّة .

ولكنّنا نجد أن هذا الادّعاء غير دقيق فليس هناك إنسان عصريٌّ مُفكّر ، مهما كان مُتعلقاً بالإيمان المسيحي كما عبرت عنه الأناجيل ، غير قادر على التميز بين مستوى الحقيقة ومستوى التخيّل في أعمال (بولص) : ربّما يقول : نعم أنا استطيع ، بسرور ، ترديد ما قاله (بولص) من أنّ الله يُبرّر وجودي عبر المسيح ، ولكنّني أعرف طبعاً أنّي و (بولص) نستعمل صوراً ليست مؤكدة الأصول فهي إلى التجربة أقْرب . فالله ليس بالتحديد (كذا) بل هو (مِثْل كذا) ولا دليل لدينا للافتراض أنّ (بولص) نفسه كان راغباً في مثل هذا التميز . صحيح أن المسيحيين يميلون إلى إضفاء صفة المعنى المباشر – الحرفي – لبعض تعابير مركزية في المسيحية مثل (السيد – Lord) أو (ابن الله) مثلما يفعلون بكلمةِ مثل (تبرير) . ولا نحتاج إلا القليل من الجهد المتواضع في تفكيرنا لنرى أنّه يُوجد هنا أيضاً إطار من الصُور والفِكَرِ التي شَرَطَت استعمالات المسيحيين

الأوائل لهذه التعابير ؛ ومهما علا تقييمنا لهذه الكلمات في سياق التعبير عن إيماننا ، هناك عُنصر تقريبي في الإمكانية الوصْفيّة لهذه التعابير بالنسبة للمسيح . فالتحدث عن يسوع ، أو استعمال اللفظ فى وصف مسيحى مؤمن ك(ابن الله) هو استعمال تشبيه بالبُنُوّة الإنسانية التي نَحْتاج لتحديدها واستغلالها ، إذا قررنا أنها لا تزال تصلح للاستعمال رغم مشروطيّتها التاريخية ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة (السيد – المالك – Lord) رغم تبنّي استعمالها في الماضي دون أي انتقاد .

فإذا افترضنا أن (بولص) لم يع التميز بين الجُمل الوصفية والبيانات الحقيقيّة والتصوُّر كأنواع يُمكن تصنيف اللغة اللاهوتية حسْبها، ولم يَع أيضاً أن النوع الوصفي غير مناسب دائماً ، ليس هناك سبب يَمْنَعُنا من الإقدام على إسعافه في هذا المجال . وإذا كان لن يتعرف على تمييزنا بين (التجرُبي) و (الإيماني) في اللغة الدينية ، فليس هناك سبب يمنعنا نحن من تمييزنا لها باسمه ولكن هل لهذا التمييز أية تطبيقات عمليّة ؟ .

إن له انعكاسات كبيرة على فَهْمِنَا للطريقة التي توصّلوا إليها في البيانات المسيحية في الأناجيل ونقاط مراجعها .

لَنبحث مرّة أخرى في الطريقة الإيمانية . فالذي يصوغ بيانات عن يسوع بهذه الطريقة يعتمد على التقاليد الموروثة أكثر من اعتماده على التحوّل الإيماني الحديث ويُحسُّ بالولاء للصيغ أكثر من ولائه للاندفاع النضالي في سياق بحثه عن طرق جديدة للتعبير ؛ لذا فإنّه في الغالب سَيَنْغَمِسُ ، على جميع المستويات ، في استعمال لغةٍ دينيّة (وصفيّة وحقيقيّة مُدَّعاة) . فعندما يتكلّم عن يسوع ك (السيّد – المالك –) أو (ابن الله) فهو لا يحسب فقط أنه يتكلم الحقائق (ولو فقط بسبب نقص في الوعي عن احتمال وجود بديل آخر) ؛ ولكن ليس هناك سبيل أيضاً نستطيع عبره الإشارة إلى مستويات أخرى من الوعي محجوبة

عنه ومنفتحة لنا لِتَمْحِيصها من زاويتنا. بكلّ بساطة ليس هنالك سبيل . الطريقة الإيمانية في البيانات مُنفتحة فقط على الترداد وإعادة التأكيد أو الاستكار المباشر . وتناوُل بيانات تدّعي الحقيقة عن الله وعن يسوع لا يمكن إعادة تفسيرها بأسلوب جذريّ، وأحسن ما يمكن عمله ، ببساطة ، هو نقلها من إنسان لآخر. إنها تستدعي التشبُّث وتجنبُ الإبداع .

ولكن إذا استَخْلَصْنا أنه يجب ألّا نسمح بالبيانات الوصفيّة للحقائق عن الله ، تُصبحُ الطريقة الاعتقادية غير ذات موضوع . وإذا آعتُرف أن البيان عن يسوع كـ (ابن الله) أو (السيد - المالك - أي الله نفسه -) هو للتشبيه والمقارنة، فالإنسان الذي يعتمد كُلّياً على أنها حقيقة ووصف لا يمكن إلا أن يُعتبر مُخطئاً،فاعتقاده اذن لم يكن ما فكّر أنّه الاعتقاد السليم - وهو أمام الطريق المسدود ليس له جهة - يرجع إليها . وهكذا فالإنسان الذى يعتقد أن نهاية العالم وشيكة الوقوع فقط على أساس حادثة مُتنبأ بها،ثم يكشف مرور الزمن خطأها ، على هذا الإنسان أن يتخلى عن اعتقاده هذا ورُبما ... أن يتخلّى أيضاً عن تعلقه بالسُّلطة التى دعمت هذا التنبؤ،وهذا يشير إلى أن الاعتقاد لم يكن في بادىء الأمر تنبؤا إلا في أقلّه،لذا لم يَقُد كَشْفُ خَطَئِه إلى انهيار الإيمان . ومهما كان القليل الذي استطاع المسؤلون أن يَضَعُوه بهذا الشكل ، فإنّ اعتقادهم كان طريقة للتعبير عن الله-، إيمانا بقدرته وسيطرته النهائية - أكثر بكثير من كونه فقط (هو الذي سينهي هذا العالم في يوم قريب) .

والاعتقاد من خلال الطريقة التجريبية يُقدّم لنا آمالاً أخرى . فَوَصْفُه المُفترض غير مُرضٍ ، كذلك تعبيره اللفظي في أغلب الأحيان لأنّه مُعرَّض لعدم الدقّة وعدم التماسك . إلا انه على اتصال وثيق بمنابع الدين : إنه يقودنا إلى حيث تجاوب الإنسان مع الله في أعمق صُوَره . والنُقطة الهامّة الآن هي اللحظة التي وجد الشخص فيها نفسه مدفوعاً لأوّل مرة ليقول عن يسوع إنه (ابن الله) - على أساس أنّه التجاوب الوحيد المناسب . وهذا التعبير (الإله السيد - Lord)

(المسيح) (ابن الانسان) الذي سُحب منه ، يُخبرنا ، عندما نعلم معناه أو معانيه الدارجة ، بعض الشيء عن التجربة التي أوجدها يسوع .

يجب أن نلاحظ أنّها تجربة دينيّة – أى تجربة تتعلّق بالله . أثار يسوع أو أنتج قناعات جديدة هامّة ليس فقط فيما يَخُصُّه هو (مهما ظَهرت هذه على هذا الشكل)، بَلْ فيما يخُصُّ الله . ورُبطت الألقاب به لأنّه كان هو العُنصر الملموس الجديد ، ولكنه كان في الواقع العامل الذي توسَّعت وتحولت من خلاله التجربة الإلهيّة . وبهذا المعنىٰ تَتطفَّل دراسة شخص المسيح على علم اللاهوت ، وأوضح مثل على ذلك فى الاعتقاد من خلال الطريقة التجريبيّة . أما الطريقة الإيمانية فهى أقلّ وضوحا في هذا الباب :

يستطيع الواحد ، دائماً وَصْف جزءٍ من الصورة مع تجاهل بَقيَّتها؛ وبعض الروايات عن مغزى يسوع كانت من هذه النوع . ولكن في البدايات المُبدعة للإيمان المسيحي لم يكن الأمر كذلك . وكمُجدِّد عقيديّ كان يسوع ، بصورة مُحددَّة، خادماً لله .

فألقاب يسوع لم تكن إذن في المرحلة التجريبيّة « يافطات » تُعلَّق على شخصية،لكنّها بيانات منحرفة ... عن الله . كل بيان منها تكلم عن طريقة جَلَتْ مُجدَّداً الله والعلاقة به محمُولةً على مستوى جديد . ولنأخذ أعلى وأدنىٰ هذه البيانات : إذا اعتبرنا يسوعاً نبيّاً فهذا يعني توقعات جديدة جلّية أثارها وهي إلهيّة الإيحاء والتوجيه ؛ وإذا اعتبرناه هو « الحكمة » فهي تعني – في بعض النُّصوص – رؤية مُتحوِّلة للنظام الجديد : وضعه وإمكاناته . ولنأخذ النقطة التى كان لها أعمق الأثر : إذا نظرنا إليه على أنه هو المصلوب، يُؤدى ذلك– بطُرُق ملتوية لِتصوُّرِ الكتب المقدسة– إلى معنىً جديد عميق بعيد المدى في التجربة البشريّة ضمن الإطار الإلهي .

ولكن ، لنفترضْ ، أن لهذا التحليل قيمة ما ، هل يقودنا الأمر إلى أي

مكان في محاولاتنا الكلام عن يسوع الآن ، آخذين بعين الاعتبار العوامل التي تؤثر الآن على هذا الكلام ؟ لاحظوا أنّ ما فعلناه ليس إلا رفعاً – بالقوّة – لغطاء الكلمات التي ترتكز في الأناجيل على الإثارات المُبكرة للأفكار عن دراسة شخص المسيح ؛ ومثل الغطاء الثقيل لصندُوق كبير ، يصطفق هذا الغطاء على الصندوق ، كما كان قبلاً ، في أية لحظة نُوقفُ جهدنا في رفعه . ولكن علينا محاولة الاستمرار في هذا الجهد (وأغلبه على المستوى التَصوُّرى) لفترةٍ كافية لنربح نظرة جديدة إلى الواجب الذي يُواجهُنا . وإذا كان لنا تحفّظات على ما سمّيناه بالطريقة الإيمانية ، ليس فقط لأن صيغ الماضي تُصبح عقيمة ، ولكن ، أساساً ، لأن استعمال مثل هذه اللغة لا يناسب الحديث عن الله؛ لذا يمكن أن ننتهي لصياغة سؤالنا عن دراسة شخص المسيح بالأسلوب التالي : ماذا عليّ أن أقول عن يسوع عندما أصلُ ، بطُرُق عدّة ، وبسببه هو إلى تجربتي مع الله والتي كانت من نصيبي وامتيازاتي ؟ وقد يكون الجواب الناتجْ خارج نطاق الكلمات التقليدية، إلا أنه سيتحاشى العوائق الفنيّة وسيكون له واقعيّة مُنْعِشَة واتجاه رُوحيّ ... يكون بالتحديد ، لاهُوتياً . وربّما يتجاوز أيضاً بعض المسائل التقليديّة ويسحب لذعة الهموم التي غالبا ما تكون فيها : بأي معنى كان يسوع فريداً ؟ كيف كان بشراً وإلهاً في الوقت نفسه ؟ كيف كان الإله المتجسد ؟ إذا استعملنا الطريق الجانبيّة قد يُصدم البعض بها مُعتبرين أنّها تهرُّبٌ من دخولالمدينة أمّا بالنسبة للآخرين فهي طريق للوصول الأسرع إلى الهدف .

ويتّفقُ المسيحيون على مركزية يسوع في كل ما يتعلق بصلة الإنسان بالله وفَهْمه له وكل ما يتفرع عنها بعد ذلك . ويتفقون أيضاً – رغم أنّنا قد لا نفكر بحدوث ذلك – بالتمسّك بتدخل الله الحميم العميق بالعالم والجنس البشرى الذي هو خالقه . ومن الشذوذ، الرغبة في تعلّق أي شخص بالأهداف المسيحية إذا لم يُشاطر في مثل هذا الفهم ومثل هذا النوع من المعنى الرُوحيّ .

ولكن هل مركزية يسوع بالنسبة لفهم الإنسان لله مُماثِلٌ مسموح به

ومساوٍ لبيانات مهمة عن دراسة شخص المسيح في المعتقد النيقيّ أو التعريف الشالسيدُوني ؟ وهل اهتمام الله العميق الحميم بالعالم ترجمة مسموح بها لما هو مُجَازف به في بيان يقول : إنّ « الكلمة أصبحت لحما » .كثيرون يُصِرُّون على أن الإجابة هي : لا ...؛ رُبّما لأنهم مُقترنون – لأسباب وجيهة أو غير وجيهة – بالشكل الذي وصلنا إليه بالطريقة الإيمانية للاعتقاد ؛ ربّما لأنّهم يُفكِّرون أن كثيراً من « روح » و« مادّة » البيانات التقليدية قد ضاع . فالبيانات الجديدة ليست ، بأي مقياس معقول ، مساوية للبيانات القديمة، حتّى ولو أنّها سَحَبَت من البيانات القديمة كثيراً من معناها . وبعض الذين يتبنّون هذا الموقف ، قد يجدون أنفسهم ضائعين في محاولة لمعرفة كيف يمكن تقييم هذه المساواة : على أي أساس يمكن لكلمات جيل مُعين أن تُنقل لاستعمالها في حوار جيل آخر .

وهناك فئة – ولو قليلة – رُبّما تُصفّق للبيانات الجديدة دون الاشتراك في الاهتمام بمساواتها بالإيمان القديم : لنتكلم الآن، طالما نحن قادرون ، ذاكرين بكلمات مُستقيمة واضحة ماذا نستطيع أن نُؤمن به الآن ، تاركين الكلمات القديمة للأجيال القديمة مُحترمة ، معروفة ،مبنيًا عليها، ولكنّها متروكة بمكانها في الأجيال العابرة .

وهناك البعض الذين يرغبُون في ملاحقة الموضوع إلى مدى أبعد، إنهم يشعرون بقوة الحساسية اللغوية والتاريخية التي وضعت الصيغ التقليديّة في موضع التساؤل، وعَرَّضَتْها لأساليب جديدة في التدقيق . إنهم سيعرفون ضغط الحقيقة العامّة التي تجعل بعض طُرُق التفكير ضمنيّة في الكلمات القديمة، لأنّها لا تصلح للعصر ، ولا يمكن الاعتقاد بها . وسيعرفون أنّه إذا كان للدعوة المسيحية أن تجد طريقها في هذه العوالم المختلفة المتنوّعة من الحوار والنقاش التي تواجهها ، فعليها أن تسعى أكثر للوضوح والفهم وأن عليها اكتشاف وآمتياح أعمق مستويات الكمال

الروحي . وفي سبيل هذه الغاية ، يجب إيجاد تعابير بسيطة واضحة للتجربة المبكّرة مع الله من خلال يسوع ، قد تُسهم ببذر البذور في العقول المسيحيّة التي تبحث الآن عن طريقة تستجيب بها له بكلماتها هي .

الفصل السابع

مسيحُ ... البلاد المسيحية

بقلم / دُوْنْ كُويَت

عالِم اللاهوت المشرقي يُوحنّا الدمشقي (٦٧٥ - ٧٤٩ م) استعمل مرّةً جدلاً غريباً جدّاً في سياق دفاعه عن الأيقونات . ومن السخرية أن ذلك راجع لمعيشته في حماية المسلمين ...قبل أن يُصبح(★) الإسلام بصورة عامّة ضد الأيقونات ، فاستطاع - يوحنّا - الدفاع عن الأيقونات من داخل بلاد الإسلام في وقت لم يكن أحد آمنا في الدفاع عنها داخل الامبراطورية المسيحية . فلقد ردّ يُوحَنّا على المنتقدين القائلين أن الأيقونات ليست في الكتب المقدسة ، باعترافه بتلك الحقيقة مضيفاً : أنكم لن تجدوا أيضاً « التثليث » أو « وحدة مادة الآب والابن » .. أو « ثنائية الطبيعة في المسيح » في الكتب المقدسة ، ولكننا نعلم أن هذه المعتقدات صحيحة . وهكذا .. بعد أن اعترف بأن الأيقونات والتثليث والتجسد كُلّها بدع مستحدثة ينتقل (يوحنّا) لحثّ قرّائه على التمسك الشديد بها كتقاليد مقدسة نقلها لنا آباؤنا . وإذا ضاعت - أي هذه التقاليد - يصبح الإنجيل كله مُهدّداً .

لم يكن (يوحنا الدمشقي) الوحيد الذي استعمل مثل هذا الجدل : « تيودور ألستُوْيْتْ » (٧٥٩ - ٨٢٦ م) تبنّاه أيضاً . وهذا يكشف صورة غريبة من المسيحيّة : التقلّب وعدم الثبات والسرعة في إضفاء القداسة الدينيّة على البدع لدرجة أنّ من يشك فيها يجد نفسه معتبراً من أصحاب البدع الخطرين ومن

(★) كان الاسلام دائما ضدّ الأيقونات ، ولكنّها حرّية المعتقد والعبادة التي يُوفّرها الاسلام لغير المسلمين في بلاد الاسلام ، فهي التي يسّرت لعالم اللاهوت (يوحنّا الدمشقي) أن يقول ما يشاء في الأيقونات ولو أنه كان مخالفاً لما يعتقده المسلمون . (المترجم) .

المراطقة . والمَثَلُ المُسلّي في أيّامِنا هذه هو التأكيد الذي تُظْهِره الكنيسة في مدْحها « العائلة » والدفاع عنها بحيث أن المبدأ الأوّل في السلوك المسيحيّ ، تقريباً ، هو احترام العائلة وإنجاز واجبات كُلّ فرد فيها نحوها . ومع ذلك لاتزال الأناجيل هي القانون الكنسي. والظاهر من الأناجيل هو أنّ يسوعاً انتقد العائلة بشدّة لأسباب دينيّة قوية . فبالنسبة له كان نداء « المملكة » بعيداً عن الأدوار العائلية وليس فيها . والمثالية التي تُضْفىٰ على العائلة هي اختراع ثقافي عصري أثبتت الكنيسة شرعيّته ولا يوجد الآن بطريرك عصري واحد يحلم بتأييد يسوع عَلَناً في نظرته للعائلة .

ومن الممكن تماماً أن يُعْتَقَدَ في أنّ رأياً ما هو رأي مستقيم -أرثوذُوكسي - وتقليدي ومحافظ وكاثوليكي بينما هو في الواقع حديث جدّاً في أصوله . ولكن الاقتراح بأن عقيدة التجسّد لا تنتمي لروح المسيحية بل تمُتُّ لفترة ما من تاريخ الكنيسة قد آنتهى أمرها، فسَيُصيب - أي الاقتراح - بالتأكيد بعضَ الناس بالذعر . **ومع ذلك فأنا أؤمن أنّ هذا الاقتراح - هو الحقيقة** . ولنبدأ من النهاية ، لقد مرّت فترات معيّنة في القرن التاسع عشر بدأ فيها الانهيار الداخلي (للأرثوذُوكسية الشالسيدُونية القديمة) في نظرتها للمسيح ، والتي سادت مدّة ألف وخمسمائة عام . والدفاع المُتمكّن الأخير عن عقيدة أرثوذُوكسية كاملة في النظرة للمسيح ، في بريطانيا كان دفاع (هـ . ب لِدُّون) في كتابه : « ألوهية سيدنا ومُنقذنا يسوع المسيح » (١٨٦٥)م . وزعيم الجيل الذي تلا (لِدُّون) وهو (تشارلْز غُورْ) (١٨٥٣ - ١٩٣٢) وجد نفسه غير قادر على الاستمرار في هذا الموقف التقليدى .

ومن المهم أن نتذكّر أنّ (تشارلْزغُورْ) كان من « أهل البيت » ، وفي هذه الأمور بالذات تكون آراء « أهل البيت » هي القاطعة أكثر من آراء الخارجيّين . فخلفيّةُ وتربيةُ ومهنةُ وولاءُ (غُورْ) كان كل ما يجب أن يتّصِف بِه رجل كنسيّ كبير حَسْب رأي البورجوازية الإنكليزية القديمة .. والتي بدأت تزول الآن .

وبهذه الصفة لم يكن (غورْ) خادماً وقتياً للكنيسة بل مُفكّراً - كاثوليكياً انكليزياً واشتراكيا - ولو أنّ لونه كان فقط وَرْدِياً وليس أحْمرَاً قانياً .

وفي شبابه كان (غُورْ)، على ما يظهر ، مُتأثِّراً بما قرأ للسير (جون سيلي) في كتابه (Ecce Homo) (★) الذي ظهر عام ١٨٦٥ وكان الكتاب رائداً من نوع لازال مشهوراً بعاطفيّته عن حياة يسوع وبوهميّته- بالمقياس العلمي - . ومع ذلك ظلّ (غور) يعتقد ، حتى آخر حياته ، أنّ لهذا الكتاب قيمة تاريخيّة حقيقيّة ، والذي يُلْفتُ النظر أنّه ظلّ يكيل له المديح حتى عام ١٩٢٧ م . (١) كان (غور) ينتمي لجيل بدا له أن الدراسة الكلاسيكية في كتاب (Mods and Greats)(★★) مع دراسة خاصة بعدها للكتاب المقدس باليونانية ودراسة الآباء كافية للتربية اللاهوتية . لم يكن جذرياً في نقده للتوراة ، ولم يعرف شيئاً عن اليهودية الحاخاميّة . وبالنسبة له أظهر كتاب (Ecce Homo) شيئاً عن حقيقة الحياة الإنسانية ليسوع والتي حجبتها الكنيسة .

ورؤساء (غُورْ)، رجال مثل (لدُّون) و (إ . ب بوسي)، كانوا يستخفّون بكتاب (Ecce Homo) ، وليس من الواضح الآن لماذا كانت فكرة (غور) عن الكتاب حسنة جدّاً . كان يعرف تماماً ويُلحُّ دائماً على أنّ الكنيسة دعت أبداً لإنسانيّة يُسوع الكاملة . كان يقول ، بصلافة ... إلى حدّ ما ، إن القدرة الإلهية وحدها هي التي استطاعت ان توُجّه (الآباء) لتأكيد إنسانيّة المسيح « في عصر لم تكن أفكار الكاثوليك تميل فيه قطعاً لفكرة إنسانية»(٢). ولم يَدُر بخلد (غور) أبداً أن يُطلّق الأفكار الأرثوذُوكسيّة لأنه كان يعتقد حقّاً بالتجسّد . لم يعتقد أبداً أنّ يسوعاً هو إنسان وذو أقنوم إنساني (Hypostasis) (شخص بالمعنى التقني مُساوٍ تقريباً « لمبدأ الشخصانيّة » أو « فرد متميّز منطقي

(★) (Eccehomo) كتاب عن حياة المسيح يهتم بيسوع تاريخيّاً أكثر من التركيز على المسيح الميتافيزيكي ومعنى عُنوان الكتاب « المُصلِحُ الأخلاق » .. تقريبيّاً .

(★★) ويعني (الاجتماعات والكبار) .

يمكن التأكد منه » ، وهذا أضيق في معناه من فرد روحيّ « المادة » !!) . كان (غور) يعتقد أن في يسوع شخصاً واحداً فقط وأنه شخص أتى من كلمة الله لذا فيسوع ليس بشراً يعيش عيشة البشر ولكنّه الكلمة الإلهيّة تعيش حياة بشريّة . لم يتعلم (غور) من (سيلي) أنّ يسوعاً كان بشراً على كل حال . فلقد قاده (سيلي)للتفكير أنّ ما ضاع هو واقعيّة تصوّريّة كاملة لِما كان كلمةً (إلهيةً)، عاشت في الواقع حياة بشريّة كاملة .

أكّد (لِدّون) وحاول إثبات ما أكده من أنّه لافرق بين التاريخ و (الاعتقاد الجازم – Dogma) وأن « يسوع » الأناجيل كان حقّاً (خريستُوس بانْتوكْريتُور) البيزنطي « الإله الذي نعبده نحن المؤمنون»[٣]. ولم يقل (غور) إن هناك تناقضاً حقيقيّاً بين « يسوع الأناجيل » ومسيح الاعتقاد الكنسيّ،ولكنه اعترف بتميزٍ حقيقي ، بل بتوتّرٍ ما ، فعلاً ؛ وهذا ما كان مُهمّاً للمستقبل .

وأولى مناوراته كان في نفس خطِّ التقاليد الأنجليكانية ، لقد أكدَّ أن المعادلة القديمة (طبيعتان كل واحدة كاملة بمفردها ، مُتّحِدتان بدون اختلاط في شخص إلهيٍّ ضروريٌّ للألوهية في طبيعته الإلهية وضروري لنا في طبيعته البشرية وليس في هذه المعادلة أيُّ تفسير للتجسّد أو تحليل لمضمونه . ولكنّه عرَّف فقط بعض الحدود للأفكار الأرثوذُوكسيّة المنظمة ومَنع كلّ انحراف عنها . لقد عرض المضمون ، وليس المواصفات ، للإيمان الكاثوليكي بالمسيح . لم تكن هذه أرضيّة لبناءٍ عقيدي بل حدوداً تُشكّل إطاره . كان (غور) يُميّز بين المادة والشكل . ولمعرفة « الكلمة » « المتجسّدة » يجب أن تفعل شيئاً أكثر من تعلُّم التعاريف . يجب قراءة الأناجيل بتوجيه الأناجيل . فالدوغما (المعتقدات الجازمة) تصف الشكل والأناجيل توفّر المادة للمعرفة المسيحية للسيد الإله المتجسّد .

ولكن لو كان هذا جواباً كافياً لما كان هناك مشكلة . والصعوبة هي ، كما

عرف ذلك (غور) جيداً ، : إذا كان المذهب الأرثوذوكسيّ « الدوغمائي » غير متماسك داخليّاً، فلن يستطيع أن يكون سوراً أو حدوداً لأنه فشل في احتواء وتخصيص مساحة مفهومة للعقل المسيحي ليتجوّل الأخير فيها . ولقد دُفع (غور) إلى اللَعِبِ بالتعاريف، ليجعلها تضمُّ مثل هذه المساحة الحقيقيّة - المطلوبة - .

لم يكن (غور) فيلسوفاً في علم اللاهوت ولم يَصُغ أسئلته بأسلوب مُحدّدٍ دقيق وفنّي. لم يسأل كيف يمكن للواحد أن يميّز في الله بين الشخص والطبيعة وصفات هذه الطبيعة . لم يسأل بشكلٍ فنّي كيف يمكن للواحد أن يُؤكد بأسلوب مفهوم ، أن فرداً واحداً ، « الكلمة الإلهية » ، يمتلك ثلاث مجموعات من الصفات : المجموعة التي تحوي الطبيعة الإلهية ، والمجموعة التي تضُمُّ طبيعة البشر الأساسية ومجموعة ثالثة من الصفات البشريه الطارئة ، عندما تبلو بعض صفات المجموعة الأولى غير ممكنة الوجود - في شخص واحد - مع بعض الصفات في المجموعتين الأخريين؟. ومن المؤكد أنه لم يسأل كيف يمكن (لكائن) أنّ يكون كامل البشريّة ، في الوقت الذي هو كائن (ميتافيزيكي) - ماوراء الطبيعي -ذو حياة غير بشريّة بل إلهية ؟ إنه أي (غور)، لم يطرح الموضوع على هذا المستوى الفني الخالص . إلا أنّه أثار ضمنيّاً مثل هذه التساؤلات بالأسلوب الذي عرض فيه مسألة الوعي البشري والمعرفة الإنسانية للسيد الإله المتجسّد .

بعض المعلقين يُوحُون بأن (لِّنون) كان يبشّر بأن يسوعاً هو كُلّي المعرفة، بينا شعر (غور) أنه مُجبر على الاعتراف بمحدوديّة المعرفة في يسوع ؛ هذا أمر مُضلّل . والذي حدث هو أن (غور) وجد نفسه غير قادر بعد ذلك على الاستمرار في الجَمعْ بين شيئين كان (لِّنون) قد جمعهُما معاً؛ (فلِّنون) أعلن حسب التقاليد « أن للشخصيّة الواحدة دائرتي وجود . واحدة مباركة مقدسة خالدة كلية المعرفة، والثانية تعيش بآلام الفِكْر والجسد وتلتقي بالموت الواقع مع تعرُّض مقابل لِمَحْدوديّة في المعرفة » . ولكن يقول (لِدُّون) : « وفي الوقت

الذي يزيد هذا التعارض من شعورنا بحُبّ السيد الإله لنا وَتفَضُّله علينا ، فإنّه لا يُحطِّم مخاوفنا من الوحدة الذاتية للمسيح المتجسّد »(٤). لم يجد (للُّون) في الطبيعة الثنائية الكاملة أي تهديد لوحدة شخص المسيح . أمّا (غور) فلقد وجد ذلك وعند هذه النقطة بدأ بالابتعاد عن الأرثوذُوكسية الشالسيدُونيّة . ولقد تعلّمَ (غور) شيئاً من كتاب (Ecce Homo) ومن الأناجيل، جعل من المستحيل عليه أن يفهم كيف يُمكن للإله المُتجسّد أن يكون بشراً كاملاً ، جاهلاً وكليّ المعرفة في آن واحد معاً؟ ومن الواضح تماماً أن الشيء الذي حدث هو التالي: بينما فهم (للّون) كلمة « شخصية » بالمعني الميتافيزيكي – الماوراء الطبيعي – التقليدي ، بدأ (غور) يفهمها بمعناها التاريخي والأخلاقي والنفسانيّ . إنه يتكلم في الغالب عن وعْي يسوع الإنساني ومُحصّلة ذلك أنه لا يؤمن أنّ كل (عُدّة) الصفات الإلهية وكل الصفات البشرية متواجدة معاً بتمامها وكالها، ومعروضة ، حسب المناسبة ، خلال مدة الحياة الأرضيّة للشخص الذي تجسّد السيد الإله فيه . ولإنقاذ وحدة شخصية وبشريّة حياته الإنسانية بكاملها ، يجب أن تُحجب أو تُزال الأضواء عن بعض الصفات الإلهية . فكانت النتيجة نظريّة « البصيرة » .

ويجب أن أؤكد هنا أن (غور) كان يعتقد بالتجسّد . وما سرده في مقاطع قريبة الشبه إلى حدٍّ معقول ، يُوحي لي بأن (غور) لم يستعمل تعبير « يسوع » أكثر ممّا استعمله (للّون) . وكان يُفضّل ، مثل (للُّون) تعابير أكثر تكريماً مثل « سيدنا » ، « المسيح » ، « يسوع المسيح » ، « السيد الإله المتجسّد » ، و« ابن الله » ... وهكذا .

هناك تحول لغويٌّ ولكنه غير كبير ؛ ليس بحجم التحول نفسه الذي يظهر في كتاب معاصر . ولكنه يبتعد عن عقيدة « الطبيعتين » وشكلها التاريخي . ومن هنا فهو يكره مُؤلَّف البابا (ليُو) عام (٤٤٩م)، الذي يوزع فيه البابا (ليو) كلمات وأعمال يسوع على « الطبيعتين » كأنّما يسوع كان مرّة «كلارْكْ كِنتْ» فقط ، ومرّة أخرى «السُوبرّمان»(٥) ولو اعترضنا على

(غور)لأنّه أضفى على يسوع صيغ علم النفس، لأجابنا بالتأكيد أن الإيمان المسيحي يتطلّب ذلك لأنه يقترح ودّاً متبادلاً بين المؤمن و« السيد » الذي تنازل وتفضّل بمُشاركتنا أحزاننا .

ولم يبق من نظرة « البصيرة » لـ (غور) الآن إلا الأهميّة التاريخيّة . كان عليه أن يصف « بصيرة » أخلاقية سلوكيّة وليس « بصيرة » ميتافيزيكيّة للسبب الوجيه جدّاً وهو أن البصيرة الميتافيزيكية لا تتناسب مع الألوهيّة . وبما أن الصفات الإلهية تَمُتُّ إلى الله بصورة تحليليّة وليست عارضة فمن المنطقي أنه يستحيل على الألوهية أن تنزع إحدى صفاتها كما لو أنّها قطعة ثياب زائدة . و« البصيرة الأخلاقية » التي يصفُها (غور) – بصورة مُبْهمةٍ إلى حدّ ما–، لا تختلف تقريباً عما كتب (لوثر) أو (كِيَرْكغَارْدْ) أو حتّى (لِدُون) نفسه . بالإضافة إلى أنّ نظريّة « البصيرة » في الأفكار المسيحيّة البورجوازية مشروطة اجتماعياً بشكلٍ واضح . ففي مجتمع الطبقات حيث يحمل التقاليد المسيحية عليّة القوم من أصحاب المراكز والامتيازات، كان هناك حاجة لمصادقة مسيحيّة على واجب « التنازل إلى مستوى الناس العاديين » . والتغير في مضامين كلمة « تنازل Condescension » منذ تلك الأيّام يُيَسّر لنا لمحة كاشفة عن نسبيّة الثقافة اللاهوتية ، ويوضّح ألّا أمَلَ بصلاح فكرة « البصيرة » لأيامنا هذه .

ولكن إذا كان بيننا وبين (غور) مسافة ... فإن بيننا وبين (لِدُون) – آخر مُدافع عن الأرثوذُوكسية الكاملة – عالماً من الأبعاد . فيسوع (لِدّون) ينعي بصُورةٍ حادّة « مرتبته في سلّم الكائنات » ويعي « طهارته المطلقة » – بدون خطايا –، ويتكلّم بسلطةٍ قويّة وثقةٍ ذاتية متنامية . والثقة الذاتية حقّاً ، حسب رأي (لِدُون) هي النقطة المُسيطرة في كل ما سُجّل من تعاليم يسوع(٦) . وبقراءة (لِدُون) يتحقّق المرء من المسافة التي قطعناها بعيداً عن نقطة (الأرثوذُوكسية الشالسيدونية) الكاملة . إذا كان « مسيح » (غور) هو ، نوعاً ما ، الشخصيّة التقليدية المحافظة ؛ شخص يتميّز بضمير اجتماعيٍّ صادق فإن

مسيح (للون) هو حاكم مطلق ذو ثقة تامّة بنفسه إنه مسيح ... المملكة المسيحية .

وملاحظتي إذاً هي أنّ موضوعاتنا في هذا الكتاب ليست شيئاً جديداً ... حتّي في بلد محافظ مثل بريطانيا . وفي الفترة الزمنية ما بين (غور) و (لِلُّون) بدأت تنهار النظرة التي شُكلت عن المسيح في القرنين الرابع والخامس . وما كان الانهيار فقط في أذهان الناقدين العقلانيين ولكن في أذهان زُعَماء الكنيسة القائمين . وإذا كانت التغيرات الاجتماعية والسياسية مسؤولة – جزئيّاً على الأقل – عن انهيارها فلقد كانت هذه التغيرات مسؤولة أيضاً عن ظهورها أصلاً .

وإذا كان للمعتقد الأرثوذُوكسي عن المسيح نهاية فلقد كان له أيضاً بداية ويُمكننا أن نطّلع على بعض أفكار وملامح تلك البداية بآستعراضنا لفترة أو فترتين من تاريخ الفنّ المسيحي .

يحوى التوراة (سفر الخروج 20.4) تحريماً باتّاً ليس فقط لأيّ نوع من « صور » الله بل لِكُلّ فنٍّ طبيعي أو تمثيليٍّ ، تحريم أثّر على اليهود والمسلمين حتّي يومنا هذا . فليس هناك صورة دقيقة لله إلا في الله نفسه وبما أنّ الله نفسه أسمىٰ من مداركنا لا يمكن رسمه . والمسيحيّة في مبدئها ورثت وتبعت هذه القاعدة . وحجّة العهد القديم – التوراة – ضِدّ عبادة الأصنام ، وكذلك حُجّة اللادينيّين والمسيحيّين الأوائل تتوازى متقاربة مع هذا الخَطّ(٧) .

كان الفنّ المسيحي قبل العهد القسطنطينيّ نادراً وغير رسمي ، في النوعية ، وغالباً مُبهماً إلى حدّ ما ، وكثير من منحوتات اللادينيّين رُبّما شملت صوراً لفيلسوف يحمل كتاباً ومعه تلامذته ، أو راعياً شابّاً أو شجرة دوالي – كرْمة – ؛ وكان هناك في الغرب قليل من الفن المسيحي إلى الحدّ الذي جعل الكاتب اللاتيني (ترتوليان) يتحمّل عبء استنكار تصوير « الراعي الصالح » ، وبما أنّ (ترتوليان) هو من نعلم ! ... لا يعني استنكاره شيئاً كثيراً .

حتّى في القرن الرابع – الميلادي – عندما بدأت تبرز واجهةٌ للفنّ، لاقى هذا الأخير معارضة حادّة جداً من المتمسكين بالتقاليد . ولقد كتبت أختُ الامبراطور (قسطنطين) إلى البطريرك (أوزيبوس) في قيصريّة تطلب صورة للمسيح ، ولم يكن هناك تقريباً أسقف أكثر خضوعاً للملوك من (أوزيبوس) ، ومع ذلك فلقد رفض طلبها بحدّةٍ مُفسِّراً لها الأسس التوراتية والتقاليد في كراهيّة الكنيسة لعبادة الأصنام . الفنّ المسيحي ، كما يقول ، لايوجد ... ولا يُمكنه أن يُوجد . في عام ٣٤٣ م هاجم (سيريل) بطريرك القُدس تصوير عملية الصلب في وعظة عيد الفصح؛ وبعد ذلك ، في عام ٣٨٠ م غضب البطريرك (إبيفانيوس) من (سلاميس) والذي كان يزور فلسطين ، غضباً شديداً لرؤيته صورة للمسيح ولأحد القدّيسين مُعلّقة في الكنيسة ، فمزّقها ورماها أرضاً ثمّ كتب بعد ذلك انتقاداً عنيفاً للأيقونات التى آعتبرها كالأصنام .

إلا أن احتجاجات رجال الكنيسة الكبار هؤلاء ذهبت أدراج الرياح : وبرز الفن المسيحي كجزءٍ من عملية مُركّبة أصبحت المسيحية من خلالها وثنيّة بصورةٍ واسعة في إيمانها وعبادتها وتنظيمها وتعاليمها الاجتماعية .

والفترة التي أُطِّرت فيها العقيدة الكلاسيكية عن المسيح كانت هي أيضاً الفترة التي نمت فيها بأسلوب واسع العمليّة الوثنيّة في تصوير ونحت الأيقونات عن المسيح . وهذان التطوُّران جاءا نتيجة للتأثّر العميق بالحاجات والضغوط السياسيّة .

وفي مقالة قصيرة لـ (ن هـ . بينْز) عن (أوزيبُوس) والامبراطورية المسيحية (٨) أظهر (بينْز) كيف تَبعَ أوّل تخطيط للسياسة اللاهوتيّة لبيزنطة ، بصُورة قريبة جداً ، الفلسفة اليونانية – الهلّلينيّة – في المُلك . وكما أن الله هو للكون .. كذلك المَلك للدولة . فالكلمة الإلهية تستوطن الملك معلّمة إيّاه محاكاة الفضائل الإلهية ليُصبح الراعي الصالح لشعبه ليُنقذهم من الخطيئة ويقودهم في

طريق الخلاص إلى مملكة السماء ؛ فالملك كان نوعاً من الإله المتجسّد ..؛ الصلة بين السماء والأرض .

ولِجَعل هذا المخطّط مسيحياً لزم فقط الإعلان عن أنّ المسيح هو الأمبراطور العالميّ للكون وجُعل إمبراطور الأرض خادمه ووكيله . ورُكِّزَتْ الأيديولوجية الإمبراطورية كُلّها على المسيح ، وبالمقابل توّج المسيح « نائبه » على الأرض وأضفى الشرعيّة على حُكمه . واتخذ (أوزيبوس) الخطوة الأولى فقط في هذا الاتجاه ولكن الآخرين سرعان ما اتبعوه .

وفي النظام الجديد حصل رؤساء الكنيسة الكبار على ما في المجتمع العلماني من كرامة وامتيازات وثوب رسمي وشعارات حافظوا على أكثرها بعناد حتّى اليوم . واستعارَتْ العبادات الكنسيّة بصورة واسعة من طقوس البلاط الملكي . كل هذا ، يقول (تيودور كلاوْسَرْ) « حَوَّل بصورةٍ دائمة الطريقة التي كان يُعرض بها شخص يسوع المسيح . لقد بدؤوا النظر إليه كحاكم ، فهو (الكُليّ القُدرة) الذي يحكم جميع الخليقة ؛ لقد تسلَّم العلامات الظاهرة للمستوى الإمبراطوري ، كان الحاكم الذي يجلس على عرش مُزيّن بالجواهر والطنافس الورديّة وتحيط به الهالة الملكيّة وتُقَبَّل يداه ورجلاه ويتحلّق حوله موكب سماوي من رسميّ القصر وأشياء كثيرة أخرى أيضاً » . ولم يبق تقريباً من آثار يسوع إلّا وجهه الساميُّ الأسمر المُلتحي المتطلّع إلى الدنيا بحزن ... مفهوم بسبب هذا الوضع المخالف الجديد . ولقد مُجِّد وبُجّل رفاق يسوع بنفس الصورة : « فأصبحت مريم الأمّ والإمبراطورة ، وحُوِّل الحواريون إلى مجلس شيوخ والملائكة شكّلوا - الآن - أفراد البلاط السماوي، أما القدّيسون فلقد مُثّلوا كضيوف يطلبون لقاء الإمبراطور حاملين معهم هداياهم »(٩) .

كل هذا شيء معروف تماماً ويمكن مشاهدته بصورة أكثر فصاحة وبياناً في

(رافِنّا – Ravenna)(★)،أو أيّ قُدّاس كهنوتي على مستوًى عالٍ أو في أية حفلةِ تتويج ، مِمّا لا تستطيع الكلمات التعبير عنه . ولقد أنكرت المسيحية في بدئها طقوس عبادة الامبراطور . ولكن الآن صاغت المسيحية المتصالحة – مع المحيط الاجتماعي – وبصورة متنامية ، نموذَجَها على أساس هذه الطقوس . ولا مجال للعجب من أنّ الأباطرة وجدوا في التعريف الصحيح للرّأيْ الجازم – الدوغما – في المسيح مسألةً ذات أهمية سياسيّة بالغة . وعندما جاء التعريف مُرضياً لهم فرضوه وطَبّقوه بكل ما في الدولة من سلطات، مُؤَسّسِين، هكذا، نظاماً سياسيّاً آمتدّ بصُورة أو بأخرى حتّى الحرب العالمية الأولى .

والآن ربما كان المعتقد الأرثوذُوكسي الجازم في التجسّد .. صحيحاً رغم كل الملابسات والظروف السياسية المريبة التي أحاطت بتحديده . ولكنّني أعتقد ، حقيقة ، أن الطريقة التي حُدّد بها هذا المعتقد الجازم أدّت على المدى الطويل إلى نتائج ضارة بالنسبة للإيمان بالله وبالنسبة لإدراك علاقة الإنسان بالله . وهناك أربع حُجج آمل أن تُوضّح هذه النقطة .

١ – التأكيد على أن الألوهية والإنسانية مُتحدتان أبداً في شخص « السيد الإله المُتجسّد » يوحي بآمتزاج نهائي ، بآلتام واستمراريّة ، بين الأمور الإلهية والأمور الدنيويّة . وكما قال المثل الشعبي : الرحمة – الإلهية – لا تُدمّر بل تُكَمّل الطبيعة .

هذه الفكرة تُشوّه دعوة يسوع . فخاصيّتُه المسيحية الحاذقة وحُريّتها تعتمدان على الإدراك الساخر ليسوع بالفصل بين أمور الله وأمور البشر ، انفصالاً تقوّيه القصص الرمزية المتميّزة عن التشبيهات والاستعارات والمقارنات[١٠] . وسواء آعتبر يسوع نبيّاً مُوحىً إليه أو حاخاماً حصيفاً ، أو (الاثنين معاً ، كما أظن) ، فالمهم في دعوة يسوع هو معناها في إبراز التقابل القاطع بين نظامين

(★) مدينة رومانية فى إيطاليا .

متعارضين . وتبدو الأمور من وجهة نظر واحدة عكس ما تبدو من وجهة النظر الأخرى . وهذا التأكيد على التناظر في سُلّم القيم يستدعي التسامي ويُبرز التناقضات التي أثارها يسوع بين التصحيح والخطأ، والخسارة والربح، والموت والحياة، والفقر والغنى، والظاهر والباطن، والاضطراب والأمن، والتبصّر والجنون والعدل والظلم . والشيء الأساسي هو أنّه لابدَّ من الصدام بين النظامين المتعارضين .

ولكنّ عقيدة التجسُّد وحّدت الأشياء التي أبقاها يسوع منفصلة في مواجهة ساخرة الواحدة مقابل الأخرى وهكذا أضعفت – عقيدة التجسّد – تقدير الناس لأسلوب يسوع في الدعوة ، والقيم المُتميّزة التي كان يدعو لها . وبتعبير آستعمَلْتهُ في مكان آخر: بدلاً عن دراسة سلبيّة غير مباشرة لشخص المسيح تمت دراسة أيقونيّة للمسيح وآعتُبرت الرموز استعارات، وتحولت الانقطاعات إلى استمراريّات . والنظرة العالمية التي عبّرت عن الانفصال والاختيار الحُرّ آستُبْدِلَت بنظرة للعالم تُؤكّد الاستمرارية والسُلطة الهرمية والطاعة الواجبة . فمثلا في الأفكار التوراتية وأفكار المسيحيين الأوائل تختلف ملكية يسوع – نوعاً – عن ملكيّة الأمميّين بل هي نقيضها الأخلاقي . إلا أن هذا الاختلاف ضاع في الامبراطورية المسيحية . توّج المسيح الأمبراطور بدرجة واحدة أعلى في سُلّم الكائنات مُنْحنياً قليلاً لتقليد السلطة لمن هو أدنى بدرجة واحدة(١١) . وفي التصوير الأيقوني المسيحي الذي استمر من أواخر القرن الرابع إلى آخر العهد البيزنطي ، لم يكن هناك تمييز بين المسيح والامبراطور ، وأعلن علماء اللاهوت أنفسهم أن تبجيل وتقديس أيقونات المسيح يعادل تماماً تبجيل وتقديس شعائر وأمارات الإمبراطور(١٢). وسيادة المسيح كانت أصلاً على الحشر والنشر في الآخرة ولا تظهر في هذه الدنيا إلا بشكلٍ غير مباشر إذ بينها وبين السيادة الدنيويّة تناقض ساخر . إلا أن المذهب القاطع في التجسّد نقل سيادة المسيح إلى دنيانا الفانية . وأصبح المسيح ، الظاهر المطلق في التاريخ ، أساساً

أساساً للإمبراطورية المسيحية وللسلطتين السياسية والكهنوتية في هذا العالم . لقد آستُدعي لتأمين نفس الأشياء التي قال يسوع عنها إنها زائلة ونتيجة لذلك فُقِدَ التمييز والتناقض اللاهوتي الدقيق مثل الذي كان في (حوار يوحنا) بين المسيح وبيلاطوس (يوحنّا 18.33-19.16)، وفي إنجيل متّي (80-20.20) ولوقا (22.24-27) . وتبْعاً لذلك أصبحت المسيحية ، أو بالأحرى جُعِلَتْ مستبدّة مُطْلَقَةً وضاعت المسحة اليهودية في تعاليم يسوع، ولم يُسمح لها بعد ذلك أبداً بالتأثير على دراسة شخص المسيح . ولعل حُب عمل الخير هو الخاصية الوحيدة التي آستَبْقُوها ليسوع والتي اشترك معه فيها الملك اليوناني المثالي .

وأوْضحُ شرح لهذه العادة التي تأصلت في التحّول من اليهود إلى اليونانيين هي في الأسلوب الذي أبعد فيه (رودولف بُولتمْان) يسوعاً عن تاريخ اليهوديّة ، وببساطة يطرد (بُولْتمَان) يسوعاً من المسيحية كأنّه لا علاقة له بها ، وبصفاقة ، يعتبر أنّ المسيح بدعة كهنوتية متصلة بخيط رفيع فقط ، يسوع . وأكثر ما يستغرب في ذلك أن تعاليم (بُولْتمَان) عن الله كان لها الأثر الكبير . لماذا لا يستطيع أن يرى يسوعاً اليهودي الذي يرفضه ، أبرع وأدهى كشاهد لله ، من مسيحه الكهنوتي الفارغ ؟ المفروض أنّه لا يستطيع رؤيته كذلك لأنّ أرض يهودا كما قال (هيجل) مرّة ، لا تستطيع أن تكون ، ويجب ألّا تكون أرض الأجداد للعنصر التوتونيّ ؛ ولأقْتِناَع (بُولْتمَان) أن « قلب » الإنجيل هو في مذهب (لوثر) أكثر ممّا هو في تقاليد وتعاليم يسوع ذاتها . وإذا أُخِذَتْ تعاليم وآثار يسوع مأْخَذَ الجدّ يجبُ ترك المذهب (الشالسيدوني)، وكُل المذاهب القاطعة اللاحقة التي آشتقت منه من أجل بداية جديدة .

والنقطة هنا تتعلّق بالسؤال القديم عن « معصوميّة » الكتب المقدسة . (فالأساسيّون) يعتبرون أنّ هذه الكتب هي كلام الله ويصرفون أوقاتاً كثيرة في دراستها، إلّا أنهم يفشلون كُليّاً في فهمها . فنظرتهم المذهبية للكتب المقدسة

تفصلهم تماماً عن حقيقتها الواقعية . عندما تُعتبر الكتب المقدسة(★) التعبير الوحداني لفكر مطلقٍ فرد لا يمكن التعرُّف على ما في داخلها من تنوُّع وغنىً. والأمر مماثل وصحيح بالنسبة ليسوع . وكما أن الكتب المقدسة – متى أزيلت صفة (المطلق) عنها – ذات قيمة دينيّة أكبر بما لا يُقدّر ، من الوحي المُسطّح عند الأساسيين ، كذلك (يسوع غير مُطلق) يمكنه أن يكشف لنا عن الله بأساليب أكثر تركيباً ممّا يستطيعه مسيح الشالسيدونيين . فإذا كان هناك ربح ديني في التخلص من النظرة المُطلقة في الحالة الأولى، كذلك هو الأمر في الحالة الثانية . وتغيير موقفنا من الحالة الواحدة يستدعي ، على المدى الطويل تحوُّلاً مماثلاً في الحالة الثانية . وأعتقد أن النتيجة تكون أوضح استيعاباً للحقيقة عن الله وعن يسوع وعن القيم المسيحيّة المتميِّزة التي طال حَجْبُها .

٢ – تُؤكد العقيدة الأرثوذوكسية أنّ « الإلهي » و « البشرى » مُتَّحدان بصورة لا يمكن حلُّها في شخص « الكلمة الإلهية » منذ حملت – السيدة مريم – بالمسيح . ويبدو أنّ هذا يؤكد أن اتحاد الله بالإنسان أنجزه الله ، بصورة خارقة ، مُستقلاً عن نضالات وعذاب يسوع في حياته الدنيويّة ، لأنّه حصل قبل ولادته ، وهكذا يصبح أمر حياة يسوع الدنيويّة هامشيّاً . ويمكن تقديم جوابين على هذا القول ، وكلاهما غير مُرضٍ تماماً .

وتدَّعِي النظرية الأرثوذوكسية (الإرادة الثنائية في المسيح Dyotheletism)، أنّ هناك نضالاً أخلاقيّاً حقيقيّاً يستحقُّ التقدير في حياة يسوع لأنّ فيه إرادتين بشريّة وإلهيّة . إلا أنّ الادّعاء بأنّ للإله المتجسد إرادة إلهية يستحيل معها اقتراف الخطيئة ، وهي متحدة – أقنوميّاً – بالإرادة البشريّة التي تواجهُ إغراءات ضاغطةً ، أقول ، هذا الادعاء يُثير كُلّ الصعوبات التي شعر بها (غُوْز) بشدّة كما رأينا سالفاً .

(★) استعمل المؤلف كلمة Scripture – الكتاب المقدس بالمفرد وآثرتُ تَرْجَمَتَها بالجمع فَهِيَ تَعْني .. القديم والجديد ، وفيهما كتب عدّة وأناجيل عدّة . المترجم .

والأمر الثاني : يظهر أن بعض علماء اللاهوت المُبكِّرين قالوا[١٣] بانحلال الاتحاد الأقنومي لدي وفاة يسوع فجسمه كان في القبر وروحه فيما تحت العالم و (الكلمة – اللوغوس – Logos) عادت لمملكة السماء . ولما قام المسيح عاد الاتحاد . ولكن ، رغم تركيز هذه النظرية بالتأكيد على واقع حُبّ الناس للمسيح ، كان لابُدّ من رَفْضِها لأنها تُوحي بأنّ الموت يستطيع تفريق ما جمعه الله، وفي هذه الحالة أُعيدُ سؤالي عمّا إذا كان المذهب التقليدي الجازم – القاطع – يُنصِف سعي يسوع البشري لتقريب الناس من الله وتقريب الله إلى الناس . وبلغة تقليديّة ، هل يُناسب المذهب (الشالسيدُونيّ) الاعتراف الكامل بدور يسوع الكهنوتي والوسيط ؟ .

٣ – إذا كان الله ذاته مُتجسّداً كُليّاً في المسيح يمكن عبادة يسوع عبادة مباشرة على أنّه الإله دون المخاطرة بخطأ أو تجذيف . ويمكن الدفاع ، هكذا عن مذهبٍ لِعبادةِ المسيح متميز عن مذهب عبادة الله ، وهذا ما حدث بالفعل فممارسة الصلاة المباشرة للمسيح في الطقوس التَعَبُّدية كأمر متميّز عن الصلاة لله ... عن طريق المسيح ، ظهرت أصولها عند الأرثوذُوكس المُجدِّدين المُعارضين للفكرة الآريانيّة في القرن الرابع[١٤] . وانتشرت ببطء مواجِهَةً مقاومة كبيرة ، لتنتج في آخر الأمر عبادة ولاهوتاً يتمَحْوَران فقط حول المسيح . والمثل على ما تلى بعد ذلك من وثنيةٍ للمسيحية كان الاتفاق على تشكيل مجلس الكنائس العالمي على أساس العقيدة التي « تعترف بأن سيدنا يسوع هو الله وهو المنقذ » – ولا شيء غير ذلك[١٥] . ورُبّما بدأ بعض المسيحيين يُدركون أنّ (فُيُورْبَاخْ) ربما كان على حقٍّ ، فقط عندما بدأت ديانةالتَمَحْور حول المسيح .. تتساقط في النهاية في إبْهَامِ فكرة (الإلحاد المسيحي – Christian Atheism)؛ ورُبّما كانت النظرة (الشالسيدونية) للمسيح الأصْلَ الأكبر والأوّل «لعدم الاعتقاد» المُعاصر لأنّها هي التي بدأت عمليّة نقل التركيز في العبادة والطاعة من الله إلى الإنسان .إنهّا لم تستطع مقاومة انتقال التركيز في التعبُّد لأمجاد الله إلى أمجاد الإله المتجسّد ومن ثم

إلى المسيح الإنسان وأخيراً إلى الإنسانية بعامّة بل على العكس يظهر أنّها حلّلت - شرعاً - عبادة الإنسان للإنسان . كذلك لم تستطِعْ مقاومة إعطاء لقب (أمّ الله) لمريم . فتعبير (أم الله) هو مبدئياً تجديف وكفر إلا أن اللقب استعمل منذ مئات السنين وأسهم الأرثوذُوكسيون بنشاط في ترويج استعماله مُنجذبين - بصورة مميتة - فقط بما يُحدثُهُ هذا اللقب من إثارة .

٤ - اذا كان الأمر في التجسّد هو أن الله نفسه آتخذ - بصورة دائمة - طبيعة بشرية ، ويمكن وَصْفُه شرعيّاً أنّه إله في شكل إنسان ، يمكن إذن إدراك كُنه الألوهية بهيئة تركيب بشري وتعود فكرة الوثنيّين عن الإله على أنّه شخص ذو جنس معيّن .. فوق مستوى البشر . وهذا ما حدث فعلاً مع الوقت بمساعدة الصُّور التقليديّة عن الآب والابن .

وكانت الكنيسة الشرقيّة أصلب موقفا لمدة طويلة في هذا الموضوع من الكنيسة الغربية . وأقصى ما سمحت به هو تصوير الإله بشكل بَشَرِيّ مُخالف لشكل المسيح البشرى وكان ذلك في نموذج مُوحَّد لأيقونات تُصَوِّرُ عمادة المسيح حيث تبرز يدٌ - يد فقط - من بين الغيوم لتُطلق حمامة فوق رأس « السيدLord »[١٦] . وسُمِحَ أيضاً بتصوير تثليث « العهد القديم » المذكور في (سفر التكوين - 18)[١٧] . هناك ، بصورة آستثنائية جدّاً ، تصوير مُبكر للإله : مُصغر في (سْمِرْنا): أبوّة (تُصوِّر الإله والابن بشكل رجلين) في مخطوط بالقسطنطينية من القرن الحادي عشر الميلادي ؛ إلا أن مثل هذه الأمور نادرة . وبالتحديد بقيَ الله غير قابلٍ للتصوير حتّى أوائل القرن السادس عشر حيث ظهرت صور له بتأثير النفوذ الغربي في موسكو[١٨] . ويستحقّ رجل عادي اسمه (جاك ڤسكوڤاتي) أن يُذْكَرَ لأنه قدّم احتجاجاً رسمّياً مُوثّقاً على ذلك التصوير عام (١٥٥٣ - ١٥٥٤) . ولسُوء الحَظّ وقف (السِنّيودس) ضدّه . ورغم أن القرار قد عُكس عام ١٦٦٧ إلا أن صورة الإله الآب عُمِّمَتْ بعد ذلك بخاصة في أيقونات الفلاحين .

واختلفت القصّة في الغرب ... إلى حدٍّ ما ، ولقد رُكِزّ الأسلوب الديني كُلُّه مُنذ العهود الأولى على التعليم الروائي أكثر من العرض الرمزي للحقيقةالأبديّة؛ ولكن ، اتّباعا لعلم اللاهوت الأرثوذُوكسي وقواعد التصوير الأيقوني ، استعملت لعدّة قرون ، صور الإله الابن لتُمَثِّلَ الله في العهد القديم عند توضيح التكوين أو رؤيا الأنبياء . ولقد آعتُرِفَ بوضوح (كما حدث في عهد تدوين الكتب الكارولينيّة) ٧٩٠ - ٧٩٢ ، أن هناك حدوداً للفنّ المسيحي . أما متى آستُبيحَتْ هذه الحدود فذلك أمر صعب الاكتشاف بدقّة وتحديد . ولقد اقتنعت من أبحاثي أن المرء يستطيع أن يجزم دون خطر إساءة الفهم ، في عمل فنّي واحد يُمثل ، بدون أيّ شك ، التثليث ؛ وفيه يظهر الإله الآب بشكل بشريٍّ ، مع الابن ، الذي يختلف عنه تماماً . وهذا الأخير يستبعدُ صُوراً مثل الرسوم البابوية في (شِربُورْنْ) التي وصفها (فرنسيس وُرْمَالْدْ)[١٩] . وحسب مواصفاتي راجت صور الإله الآب بشكله البشريّ بعد عام ١١٠٠ م[٢٠] .

ونادراً ما يدرك المرء هول البشاعة اللاهوتية في الصُّور ؛ ولكن إذا كان للألوهية نفسها شكلٌ بشريٌّ مُسْبق، قبل التجسُّد ، يجب إذن فَهْمُ موضوع التجسّد بالطريقة الوثنيّة . ويظهر الاتهام واضحاً مرّة أخرى في الممارسة الدارجة باستعمال بَشَرْين لتصوير المسيح ، واحد يُمثّل طبيعته البشريّة والآخر طبيعته الإلهية . ومن أوائل الأعمال الفنيّة التي آمتزجت بها هذه الغرائب الموجودة الآنَ في (فَارْصُوفيا) ، تُصوّر ثلاثة رجال وآمرأة وعصفوراً - الله الآب وابنه الخالد في فئة أُبُوّة ، والعذراء وولدها الابن المتجسّد بطبيعته البشرية ، والحمامة مُعشّشةً في تاجها - كل هؤلاء في مجموعة واحدة .

وبروز الله كرجل عجوز في التخيل المسيحي الغربي ، هو ، كما يدل تاريخ الفن عملية جنوح متعدِّدة الجوانب . أحد مصادرها المحتملة هي فئة الأبوة التي تُمثِّل ، حسب الأُطروحة القديمة العذراء والطفل التي آشتقت منها الصور الكلاسيكيّة للتثليث وعمادة المسيح والصَّلْب . ورأيي أن عقيدة (المسيح ابن

الله) أنسَنَتْ هنا الألوهية إلى درجة لا تُطاق . وقليلاً ما يُلاحظ الناس غرابتها ... حتي في أيامنا هذه . فعالم لاهوت حسّاس مثل (أوسْتِينْ فَارِرْ) يمكنه أن يركِزّ بأسلوب بياني على أيقونة عن التثليث من القرون الوسطى[٢٢] ؛ وفيلسوف موهوب مثل (وِتْغنْشتَايْن) يمكنه أن يبحث في لوحة « الله » (لمايكل أنجلُو) في كنيسة (سِسْتِين)[٢٣] ، وفي الحالتين لا يلاحظ الإثنان (فارْر ووِتْغنْشتَايْنْ) أنه من الممكن وجود أناس يرفضون مثل هذه الوثنيّة في شكل بشريّ لأنّها تعني انهياراً في الدين في معناه الهامّ الوحيد ، وفساداً في الإيمان بالله .

في السنوات الأخيرة يفترض (الفرُويديّون - أتباع فرويد) وبعض الحركات النسائية (من زاويتين مختلفتين في التفكير) أن الله في الديانات المُوحّدة هو (ذَكَر) . وكأنما هذا الجدل هو هراء لاهوتي يُثيره هؤلاء ، إلا أنه هراء معذور بالتأكيد نظراً للتقليد الطويل في التَطرُّف الهَمَجِيّ بِعَرْض الإله بالشكل البشريّ في الفن الغربي (وفي الجلسة الخامسة والعشرين لمجمع (ترَانْتْ) في ٣ و ٤ كانون أول - ديسمبر - ١٥٦٣)،وافق المجتمعون عن صور المسيح والقديسين على الأسس القديمة التي وضعها (غويغُوَار الأول) وفشل المجمع في التعليق على تصوير الإله الآب . صحيح أنّ مثل هذه الصور لم يُدافع عنها رسمياً أبداً في الغرب ؛ ولكن قُبِلَتْ .... أمّا الإيمان القديم فقد نُسِيَ .

وأستخلص من كل ما تقدّم أنه كان لعقيدة التجسُّد بعض الآثار الضارّة على فهم رسالة يسوع ، وعلى فهم علاقته بالله وحتّى على الإيمان بالله . فتأكيد يسوع على السُموّ الإلهي ، وعلى فَصْلِ الأمور الإلهية عن الأمور البشرية وعلى الحاجة للاختيار ، حلّ محلّه نظرة عالمية أكدّت الاستمرارية - وليس الفصل-، والسلطة والطاعة الواجبة (1) . لقد أضعفت تقدير عمله الإنساني (2) . مالت لخلق « عبادة المسيح الإلهي » وهذه بدورها جعلت الألوهية نفسها تغيب في الخلفية (3) . وعندما أُعيد تأكيد الإله الآب تَصَوَّرَهُ الناس كرجل عجوز (4) .

وما تعلمنا أن نسميه أرثوذُوكسية هو حقاً وبساطة ، شَكْلٌ من المسيحيّة التي حدث أن سيطرت على الأشكال الأخرى . فإذا نَظَرْنا لما سبق يبدو مسيح الكنيسة الشرقية مُشابهاً تماماً للملك اليوناني -الهلّيني-، رُفع - تمجيداً - إلى السماء ليصبح الأساس الإيديولوجي للإمبراطورية المسيحية ؛ أمّا مسيح الكنيسة الغربيّة فيبدو كواحد مات ليمهرَ صَكّ سلطة العائلة الأبوية - البطريركية-، كنموذج لتنظيم الكنيسة والدولة . لم يكن « المسيح » يسوعاً؛ كذلك لم يَكْشِفْ الإله الواحد الحقّ كما فعل يسوع؛ والنظام السياسي الذي انخرطت به الأرثوذُوكسيّة المُتصالحة ، مضى إلى غير رجعة .

واكتشاف أن المسيح - الكهنوتي - لم يُوجد في أية قراءة ناقدة لسجلّات يسوع أدّى إلى الشك في الصحة التاريخية للأناجيل ؛ وآستعملت هذه الشكوك لحماية « المسيح الكهنوتي » من النقض التاريخي . إلا أنّ الصورة وراء الأناجيل ليست بعيدة المنال . وكما بقي ما يكفي من (بوذا) لتحدّى (الماهايانا) كذلك ، ومن باب أولى بقي ما يكفي من يسوع ليتحدّانا حتّى نُعيد التفكير بآرائنا عن المسيح . وبهذا نكون قد أسهمنا في دعم واجبنا اللاهوتي في الفترة المعاصرة هذه ؛ وهو - أي واجبنا -: تحويل المسيحيّة من الإيمان الدوغماتي - الجازم - لفترة الإمبراطورية المسيحية،إلى الإيمان الانتقاديّ الذي يجب أن يخلفه. ومن الطبيعي أن يكون التحوّل من المذهبية المتشدّدة - الجازمة - إلى الايمان الناقد ... صعباً ، ولكنّه لن يُبْعدَنَا عن يسوع بل يُقرّبَنا منه . وسيُمكّنُنا من استعادة الحقائق التي فُقِدَ أكثَرُها

وفي هذا البحث نَقَدْتُ النظرة الأرثوذُوكسية إلى المسيح في نقاط مختلفة : منها ... أنها حقّقت فلسفة الحشر والنشر (بمعنى أنّها قدمت الأمور النهائية إلى العصر الحاضر)، محاولة إضفاء قيمة على سلطة الحكم الدُّنيوي وتسييس ما هو سام؛ ومَالَتْ بآستمرار نحو التركيز على الشكل البشريّ ... وهكذا . ولكنْ ربّما لازال القُراء يخافون من اتجاه الجدل إلى وضع لا مجال فيه لدراسة شخص المسيح

– بالأسلوب الديني اللازم – أي الأسلوب الذي يُبرِّر تماماً القناعة بأنّ الله صَالَحَ العالم مع نفسه مُلْزِماً نفسه بالمحيط البشريّ لِيُنْقِذَ البشر.

وأشعر بعُمْقِ اعتراض البعض على ذلك إلا أنني أعتقد أن الردّ المناسب على هذا الاعتراض هو في الإلحاح على أنّ عقيدة المسيح يجب أن تكون بحيث تُقوِّي وتُطهِّر، لا أن تعيق وتَحُدُّ من فَهْم البَشَر للسُّمُوّ الإلهي. لأن السُّمُوّ الإلهي هو الوحيد الذي يُحاكِم ويُقدِّم ويعيد، كما فعل يسوع في تعاليمه وفي شخصه ناقلاً قدرةالسُمُوّ الإلهي – الروح القدس – إلى الحواريّين. والله هو مع الإنسان وفيه فقط في سموّه. ومقياس التدين الصحيح بمفهومه الحقيقي يتطلب ذَاتُه ألّا تكون دراسة شخص المسيح نوعاً من مذهب عبادة الإنسان للإنسان: يجب أن تكون مُرَكَّزَةً مُتَمَحْوِرةً على الله وحوله وليس على .. وحول المسيح.

ملحق

خَصَّصْتُ فرضيّة جريئة لهذا الملحق. في تصوير الأيقونات: المسيح هو الإمبراطور والآب هو البابا. يبرز الإله الآب كموضوع عام في الفنّ المسيحي للقرنين الحادي عشر والثاني عشر. ويؤكد على أسبقيّته في المقام: هو فوق ووراء « الابن »، أكبر سنّاً وأكثر وزناً في مظهره. وقد تكون هناك علاقة بين هذه وبين ادّعاءات البابويّة وثقتها المتناميتين برأي (هِلْدِيَرانْدْ). ومن المؤكد أن صُور التثليث في أواخر القرون الوسطى تظهر وكأنّها بيانات عن سلطة البابوية. ومن الزاوية اللاهوتية كان تمثيل « الآب » و « الابن » كشخصين مختلفين نتائج هامّة على عقيدة « القيام » منذ عهد (أَنْسِلْمْ) وما بعده. لقد أصبحت معاملة بين « الآب » الخالد و « الابن » الخالد ، وتصويرها بهذا الشكل البشرى والنفساني كان لابُدّ له من أن يُسبب في النهاية ثورة أخلاقية ضدّها.

NOTES

1. In the Introduction to the Everyman edition of Renan's *Life of Jesus*, p. xvii
2. Charles Gore, *The Incarnation of the Son of God*, Bampton Lectures, 1891, John Murray 1891, p. 143.
3. H. P. Liddon, *The Divinity of our Lord and Saviour Jesus Christ*, 1865, fourth edition 1890, pp. 153ff.
4. Ibid., p. 472.
5. Gore, *Dissertations on Subjects Connected with the Incarnation*. John Murray 1895, pp. 162ff.
6. Liddon, op. cit., pp. 164, 168, xxxvi, 175.
7. For what follows see N. H. Baynes, *Byzantine Studies*, Athlone Press 1955, especially VII, IX and XV.
8. Ibid., IX.
9. T. Klauser, *A Short History of the Western Liturgy*, Oxford University Press 1969, pp. 32–7.
10. See Eta Linnemann, *Parables of Jesus*, SPCK 1966.
11. E.g. John Beckwith, *Early Christian and Byzantine Art*, Penguin Books 1970, plates 176, 222, 256, 292.
12. E.g. Hans von Campenhausen, *Tradition and Life in the Church*, Collins 1968, p. 190. Notice too how in the late medieval West, God the Father was commonly portrayed as the Pope, wearing the Triple Crown, as in well-known works by Van Eyck and Boticelli.
13. A. Grillmeier has studied this question: e.g. *Der Logos am Kreuz*, Munchen 1956.
14. Klauser, op. cit., pp. 30ff. and notes. See especially A. Jungmann, *The Place of Christ in Liturgical Prayer*, Chapman 1965.
15. This original doctrinal basis agreed in 1938 was later, in 1961, exchanged for a trinitarian one.
16. F. Van der Meer and Christine Mohrmann, *Atlas of the Early Christian World*, Nelson 1966, illustration 321 (Palestine *c*. 600); Beckwith, op. cit., plate 118.
17. Images of the Trinity as three *similar* men go back as far as the 'Dogmatic Sarcophagus' in the Lateran Museum (*c*. 330).
18. Brief account in H. Skrobuche, *Icons*, Oliver & Boyd 1963, pp. 17f. In this section I acknowledge with grateful thanks the help of the Warburg Institute, and the courtesy of its librarian.
19. Francis Wormald, *English Drawings of the Tenth and Eleventh Centuries*, Faber & Faber 1952, plates 4(a), 4(b), 5(a). But see Pembroke College Cambridge, MS120, pl. 6, upper half, for what appears to be an early English Paternity.
20. A good example is the Father's head emerging from the cloud at Christ's baptism, on the font at S. Bartélemy, Liège, by Renier de Huy, 1111–18. And see F. E. Hulme, *Symbolism in Christian Art*, Blandford Press 1976 edition, pp. 43ff., Margaret Rickett, *Painting in Britain: the Middle Ages*, Penguin Books 1954, plates 92, 102, 178; and W. Braunfels, *Die Heilige Dreifaltigkeit*, Dusseldorf 1954.
21. Studies of this work in the *Art Bulletin* by E. H. Kantorowicz, vol. 29, 1947, pp. 73ff.; and T. Dobrzeniecki, vol. 46, 1964, pp. 380ff. The latter has fascinating notes.
22. Austin Farrer, *Said or Sung*, Faith Press 1960, pp. 116ff.
23. Wittgenstein, *Lectures and Conversations*, Blackwell 1966, p. 63.

الفصل الثامن

الأسطورة في علم اللاهوت[١]

بقلم / موريس وايلز

كلمة اسطورة تظهر في العنوان الذي أعطيناه لهذا الكتاب . ولقد ظهرت أيضاً في نقاش بعض الفصول الأولية فيه . وفي تحليله للأصول المسيحية يكتب (مايْكِل غوْلِدِرْ) عن « أسطورة الحشر والنشر لأهل الجليل » وأسطورة «المَعْرِفيّين» من أهل السامرة على أنّهما الأصلان للأسطورة المسيحية التي برزت[٢] ؛ إلّا أن الكلمة هذه لم تَظْهَرْ فقط كوسيلة للتحليل التاريخيّ ، فلقد استعملت أيضاً للتعبير عن إعلان الإيمان . وتصف (فرنسيس يونغ) اعتقادها المستمر بالله على أنّه يتطلّب « أسطورة دينيّة تتمحور حول الصلب »[٣] والصفة المائعة الزائغة لهذه الكلمة - أسطورة - أمر لا يمكن إنكاره ولا تتطلب منّا هذه الحقيقة أن نتخليّ تماماً عن استعمال الكلمة، ولكن تتطلّب منّا مُمَارَسَةَ حَصَافةٍ مُتَأنِّية في استعمالنا لها . وفي هذا الفصل أريد أن أبحث ، لذلك ، معنى الكلمة ومناسبتها في الاستعمال في إطار دراسة شخص المسيح .

إنها تستعمل في مواضيع واسعة وتلعب دوراً هامّاً في أعمال علماء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) وعلماء الاجتماع ، ولدى العديد من علماء النفس والناقدين والأدباء والمؤرخين . وتختلف طُرُق استعمالها اختلافا كثيرا سواء ضمن الموضوع الواحد أو بين المواضيع المتعددة ولكن هناك تقليد قديم في استعمالها داخل إطار علم اللاهوت نفسه . لذا يبدو من الطبيعي اعتبار الطريقة التي يُستعمل فيها هذا التعبير في علم اللاهوت كنقطة انطلاق لأى تقييم لمعناه المحتمل بالنسبة لدراسة شخص المسيح في موضوع التجسّد . وأقترح إذن أن أقترب بالتدريج من اهتمامي المركزى عبر ثلاث مراحل أوّلية :

١ - إدخال العبارة إلى علم اللاهوت في القرن التاسع عشر .

٢ - استعمالها في كتابات لاهوتيّة أكثر حداثة .

٣ - نقاش ناقد لتطبيقها على المبادىء المسيحية ، غير موضوع التجسّد . ويجب أن يساعد هذه الأسلوب غير المباشر ، على الحَذَرِ من استعمالها على أسس تعسّفيّة خالصة ، وحساسيّات مزاجيّة بالنسبة لموضوع التجسّد .

١ - إدخال كلمة أسطورة لعلم اللاهوت في القرن التاسع عشر

للأسطورة علاقة أولية بما قبل التاريخ -المُدَوَّن- . إلا انّ الكلمة بالإنكليزية - Myth - تنتسبُ للتاريخ الحديث نسبّياً . فكلمات (ميثولوجيكي ، وميثيكي - Mythology, Mythological, mythical) تعود لقرون عدّة خَلَتْ، أمّا كلمة (Myth) ذاتها فلا يتعدّى تاريخها المائة والخمسين عاماً .

وكلمات الافتتاح للطبقة الأولى من كتاب (نايْتلي) : « ميثولوجيا اليونان وإيطاليا القديمتين » المنشور عام ١٨٣١ م كانت التالية :

(ميثولوجيا الناس تتألّف من التقاليد الشعبيّة المتنوعّة والقصص الخرافية التي توجد بين هذه التقاليد) .

وفي الطبعة الثانية (المنشورة عام ١٨٣٨) تغيّرت كلمات الافتتاح هذه فأصبحت كالتالى :

(الميثولوجيا هي علم يبحث في الأساطير أو التقاليد والقصص الخرافية الشعبية المتنوعة الشائعة بين الناس ويعتقد بها العامّة) . كان (نايتلي) يعي جِدّة الكلمة لأنّنا نراه يشكو عام (١٨٤٦) : « من الكلمة اليونانية (Uŷoos) صَنَعْتُ كلمة (mythe) ، إلا أن أحداً لم يَتْبَعْني في ذلك ، والكلمة مقتبسة بصورة عامة هي (myth) . ويُجادل أنّه لا يوجد اشتقاق مماثل من الجذور

اليونانية واللاتينيّة لِتَبْرير اقتباس كلمة أسطورة بهذا الشكل –أي– myth، إلا أنه يختم شكواه بحزن قائلاً :

لست بسيطاً لدرجة أنّني أتوقّع أن أغيّر الممارسات المعتادة ؛ كلّ ماأبغيه هو أبيِّنَ أن المقارنة ... هي في جانبي(٤).وغياب أيّة كلمة متداولة في الانجليزية بشكل – myth في ذلك الوقت يظهر جيداً من ردود الفعل الإنكليزية المبكّرة لكتاب (شْتَرَاوْسْ) : « حياة يسوع » الذي صدر عام ١٨٣٥ م في وسط فترة ما بين طبعتي كتاب (نايْتْلِي) : « الميثولوجيا »؛ ففي الهجوم المطوّل من (و . هـ . مل) على (شْتَرَاوْسْ) الذي ظهر بأجزائه المتعددة ما بين ١٨٤٠ – ١٨٤٢،وفي ترجمة (جورج إليوت) المنشورة عام ١٨٤٦ ، كانت الكلمة المستعملة بانتظام للتعبير عن الأسطورة هي الكلمة المنقولة – المستعارة – (mythus) بالمفرد وجَمْعُها : (mythi) ؛ ولكن الغريب أن الكاتبين استعملا مرة واحدة – على حدّ ملاحظتي – وافتراضاً بدون انتباه الشكل الإنكليزى للكلمة (myths)(٥) . وممّا لا شك فيه أنّ المناقشات التي تلت موضوع كتاب (شْتَرَاوْسْ) ، أسهمت كثيراً ليس فقط في تمكين الكلمة في اللغة الإنكليزية ، ولكن أيضاً في وَضْع الفكرة في موضع القلب للدراسات والمناظرات اللاهوتيّة .

ظهرت عدّة مواضيع عن طبيعة الأسطورة في المناقشات الأولية ، ولازالت تظهر في المناظرات المعاصرة عن الأسطورة ويُميِّز (شتراوس) نفسه – مستعيناً بتصنيف علماء السلالات السابقين والباحثين في التوراة – ثلاثة أنواع من الأساطير التاريخية والفلسفية والشعرية ويحددها كالتالي : التاريخية : « روايات لأحداث حقيقيّة ملوّنة بأضواء الآثار القديمة ، خلطت بين ما هو إلهي وماهو إنساني ، بين الطبيعي وما فوق الطبيعي » .

الفلسفيّة : « مثل إلباس فكرة بسيطة أو نظرية أو رأي من الزمن الحاضر ثوباً تاريخياً » .

الشعرية : مَزْجٌ جزئي بين التاريخية والفلسفيّة وتزويق لها من نسج الخيال بحيث تحجب تقريباً الحقيقة أو الفكرة الأصلية بغطاء نسجه لها الشاعر من خيالاته(٦) .

ومهما حاول البعض إخفاء النُعُوتُ لإيجاد تمييز وتحديد خاصَّيْن لتَبَنِّيهما ، يبدو لي أنه من المنطقي التأكيد عل أنّ الأساطير يمكن أن تكون تاريخيّة الأصل إلّا أن أساسها التاريخي هذا هو إمّا ضعيف أو غير موجود كُلّياً .

هناك تفريق ثان بين التأصيل الواعي وغير الواعي للأساطير . ففي الطبعة الأولي لِكِتّاب (شتراوس) : « حياة يسوع » اعتبر (شتراوس) أساطير العهد الجديد - الأناجيل - ذات أصل مُتَدَرِّج وغير مُخطّط في حياة المجتمعات المسيحية الأولى ؛ كتب (شتراوس) : لايُعقل أبداً أن المسيحيين - اليهود - الأوائل ذوي الموهبة الروحيّة التي ألهبها الحماس الديني ، والذين يعرفون العهد القديم كانوا في وضْعٍ مناسب لاختراع مشاهد رمزية مثل الإغواء وأساطير أخرى من العهد الجديد . ولكن يجب ألّا نَتصَوّر أن البعض جلس إلى مكتبه يخترع أساطير من رأسه ويُسجّلها كما تُسجَّل الأشعار : بل على العكس ، هذه الروايات مثل باقي الخرافات فُصِّلَتْ على درجات وعلى مراحل لا يمكن تعقّب آثارها ؛ واكتسبَتْ تدريجيّاً شكلاً ما ، ومع الزمن نَالَتْ شَكْلَهَا الثابت في أناجيلنا المكتوبة(٧) .

ولكن بسبب ضغوط الانتقادات التي أثيرت ، اعتبر أخيراً الطريقة السالفة كعمل مُتَعَمّدٍ مُخطط . وفي سياق اعترافه بتغيير آرائه في مقدمة كتابه المُعدَّل جذريّاً عن (حياة يسوع) عام ١٨٦٤ ، يستمرّ في محاولة تبرير احتفاظه بكلمة (أسطورة - myth) لِيُميِّز هذه الاختراعات التي جاءت نتيجة عمل واعٍ مُتعمَّد .

« في الطبعة الجديدة لـ (حياة يسوع) تنازلت عن مساحة أكبر مما سبق- كنتيجة لتحقيقات (بُوْرْ) - لقبول التحوّل الأسطورى الواعي المتعمّد ؛

ولكنّني لم أجد سبباً لتغيير التعبير نفسه . بل على العكس فالرَدُّ على سؤال : هل من السليم تسمية التلفيقات الواعية للفرد « أساطيراً » ؟ هو : يجب عليَّ – حتى ولو بعد النقاش السالف الذكر في هذه النقطة – أن أجيب دائماً : بالتأكيد ، طالما أن هذه التلفيقات قد صدّقها الناس وأصبحت جزءاً من تاريخ قوم أو طائفة دينية ؛ بنفس الوقت ، هذا يُظهر ان مؤلف هذه التلفيقات لم يُشكّلْها حَسْبَ خيالاته الذاتية فقط ، ولكن باشتراك وثيق مع وعى الأغلبيّة من قومه . كل رواية – لا أساس تارخيّاً لها –، ومهما كان مصدرها ، تَعْتَبرها طائفة دينيّة كجزء مؤسِسّ في تاريخها المقدس ، وكتعبير مطلق عن مشاعرها وأفكارها الأساسيّة ... هي أسطورة ؛ وإذا شاعت الميثولوجيا الإغريقية معنى أضيق لكلمة « أسطورة » تستبعد منها التلفيق الواعي بحيث تُفرّقُ بين هذا المعنى ، والمعنى الأوسع لها ، فعلَمُ اللاهوت النقدي يرغب بالمقابل – ورغم معارضة من يُدْعَون بالمؤمنين – أن يضمّ كل روايات الأناجيل التي يُولُونها مَعْنىً مثالياً فقط، تحت بند الأسطورة بمعناها العام – الواسع –(٨) .

ولا أهدف هنا إلى مناقشة المنطقيّة النسبيّة أو عدم المنطقيّة في هذين الاتّجاهين لعملية تكوُّن الأسطورة كما وَصَفَها (شتراوس) بالنسبة للأناجيل ؛ ولكنّني أظن أنّه في موقف صلب حين يُؤكد أنه إذا كان هناك شيء له الطابع العام للأسطورة ويُؤدى هذا الدور في حياة مجتمع ما ، فنسبة النيّة في ظهورها أصلاً يجب ألّا يُنظر إليها – أي نسبة النيّة – كعامل حاسم يُحدّدُ ما إذا كان يجب اعتبارها أسطورة أم لا ؛ كذلك أيضاً ، الاعتبار الدقيق للتعبير في موضوع ما ، لا يمكن أن يكون مُحدّداً مُطلقاً لاستعماله في مواضيع أخرى .

ومشكلة ثالثة ظهرت قبلاً ، كانت الصلة بين الأسطورة والمعجزة . وأحد أسباب جاذبيّة الأسلوب الأسطوري في الأناجيل هو أنّه وَفَّر مخرجاً للذين لم يستطيعوا قُبول المعجزات على أنّها رواية صحيحة – حرفيّاً – ولكنّهم ، في نفس الوقت ، كانوا غير مسرورين للاختيار بين (١) معجزات غير صحيحة ، أو

(٢) كذب مؤلفي الأناجيل(٩) . فهل يجب إذن اعتبار كل رواية عن معجزة غير صحيحة ... أسطورة ؟ لقد أثيرت هذه المسألة في نقاشات سابقة أخرى لـ (شتراوس) ظهرت كملحق في كتاب تاريخ المسيحيّة لـ (ميلمان) الصادر أيضاً عام ١٨٤٠ م ولكن قبل كتاب (مِل) ، و (ميلْمَان). الذي يتفهّم أكثر من (مِل) وُجْهة نظر (شتراوس)، يتحدّى الادعاء – في موقف (شتراوس) – القائل إن عصر المسيح كان عصر الأساطير . فيقول : قد يكون هذا الادعاء صحيحاً إذا عنينا ، ببساطة أن عصر الأساطير هو أيّ عصر فيه ، اعتقادات عامّة أو حتّى اعتقادات تَطَيُّرٍ بالعجائب والمدهشات. «ولكن اذااستعمل تعبير أسطورة بصورة أنسب في مثاليات تَسْتَثْمِرُ العقيدة الدينية في رموز واستعارات مجازية بخاصة التي ترفع إلى مستوى التأليه إنساناً يتميّز فقط بسُمُوّ أخلاقي ، فهذا ، كما يبدو لي ، أمر مكروه لدى عباقرة الزمان والمكان »(١٠) أعود مرّة ثانية لأذكر أنّني لستُ مُكْتَرِثاً الآن بقيمة ما كتبه (شتراوس) و(ميلمان) . ولكن يبدو لي أن (مِيلْمَان) وضع يده على تمييز مُهمّ في علم اللاهوت . وفكرة أسطورة تُؤثّر بصورة حيوية أكثر على علم اللاهوت ليس بالنسبة لروايات خاصة عن المعجزات بل بالنسبة للبُنية الكاملة للاعتقاد بعمل الله وتجسُّد الله .

إذن ، منذ البداية ، عَرِفَتْ مناقشة « الأسطورة في علم اللاهوت » عَدَمَ دِقّة هذه التعبير . ويبدو لي أنّه من المهم الوَعْي بعدم الدقّة هذا لِتَحاشي سوءِ تفَاهُم غير لازم ، ولو أنّه من المستحيل آستئصاله . فالتأكيد على تحديد دقيق جدّاً للأسطورة يُصبح في النهاية جزءاً من « انتصار خاسر » فيه ينجح المؤلف في إثبات النقاط التي يريد إثباتها عن الأسطورة بجعل الأسطورة (حقيقة) . ولكن ... حتّى في المجال الذي أمكن فيه تحاشي التَخَبّط في مدى ومعنى هذا التعبير ، كان ردّ الفعل على استعماله في علم اللاهوت ، مُنذ البداية ، منقسماً بعُنف ؛ والذي زاد من مشاعر الإحساس بالإهانة في ردود الفعل الانكليزية لآراء

(شتراوس) حقيقةُ أن استعمال « علم » الأسطورة في تفسير العهد القديم لم يكن معروفاً تماماً في إنكلترا حتى ذلك الحين . وكان أكثر المباحث الانكليزية ذا طابع نُصُوصي وشلّالي . ومحاولة عرض أعمال (آيْكُورْنْ) الخبير الألماني الشهير في دراسة العهد القديم في أواخر القرن الماضي ، بترجمتها للإنكليزيّة ، خابت بسبب ضعف التأييد والدعم من الكنيسة ومن مسؤوليّ الجامعات(١١) . لذا ففي إنكلترا ظهرت المسألة من البداية تقريباً في الأمور التي تثير نزاعاً أكبر في الأناجيل . ويُعلّق (مل) في الواقع قائلا : مهما حَمَلَتْ من معقوليّة ظاهرة ، فإن الفكرة عن الأسطورة في دراسة الأساطير الوثنية كما ظهرت في كتابات الذين سبقوا (شتراوس) وغامروا في استعمالها ، والتي حملتهم إلى مناطق التاريخ المُبكر للعهد القديم ، إحتاجت – أي الفكرة – إلى جراءة أكثر مما كان عند أشجع هؤلاء المغامرين لِيُوَسِّع تطبيقها على فترة كتابة « الأناجيل »(١٢) . وتسمية شيء أسطورة ، بالنسبة لـ (مل) يختلف في ظاهره فقط وليس في واقعه ، عن تسميته خداعاً أو غشّاً . وكلمة (mythus) حسب رأي (مل) « هي أخف وقعاً وأقلّ دقّة من كلمة « وهم » أو « احتيال » ؛ ورغم هذا التأكيد بأن المَعْنَيَيْن الأول والثاني متساويان تماماً ، فالصدمة أخف إذا قيل إن المسيحية تقف على قدم المساواة في حقائقها الفكرية مع قصص الوثنيين الخرافية بدلاً عن القول ، كما فعل المُتشككون في عهد سابق ، إنّها – أي المسيحية – مؤسسة على ضلالات مثل ضلالات – الوثنيين »(١٣) .

والتقييم الإيجابي للأسطورة وُجد في أوضح تعبير في كتابات (بادِنْ باوْل – Baden Powel) أحد المسهمين في كتاب « أطروحات ومراجعات »؛ ففي عمل نُشِرَ قبل سنة من نشر كتاب (أطروحات ومراجعات) يذكر (بادن يَاوْل) موافقاً « أن الحكايات الرمزية والأساطير تحوي غالباً من الحقائق أكثر مّما يحمل التاريخ» . و تعريف الأسطورة في نقاشه لآراء (شتراوس) هو : « عقيدة يُعبَّر عنها بأسلوب روائي ..، أخلاق معنوية أو حقائق روحية تُمثّل درامياً (في

عمل أو تشخيص)، والغاية هي تقوية الإيمان بالأخلاق وليس بالقصّة الرمزية، « لذا ، يقول (بادن باوْل): كل مذهب جازم - دُوغما - هو - إلى حدٍّ ما - أسطورة عندما يُنْقَلُ بالضرورة بلغة مُقارنة وبعمل بشريٍّ الشكل »(١٤) .

٢ - استعمال كلمة « أسطورة » في الكتابات اللاهوتيّة الأكثر حداثة

وهكذا آستمرت المناظرة وازدهرت بشدّة في الجدل الذي قام حول إزالة الصفة الأسطورية والذي أثارته كتابات (بُولْتمَان) الشهيرة عام ١٩٤١ م(١٥) . ولكن كتب كثير عن هذا الجدل إلى درجة يصعب معها قول أي شيء جديد عنها في مقدمة فصل واحد . وغايتي في هذا الجزء من الفصل الثامن هو تقديم عرض عام عن استعمال التعبير - الأسطورة - في علم اللاهوت الحديث ، وباختصار شديد بالنسبة للدراسات التوراتيّة ، وبتفصيل أكثر نسبيّاً - بما يتعلّق بالعقيدة .

فالعهد القديم - التوراة - هو بوضوح مجموعة أدبيّة من النوع الذي يحتوي قدراً كبيراً من «الأسطوريّة». ومن الأساسي فهم الأسطورة من أجل تفسيره . أمّا ما هي درجة أسطوريّة « العهد القديم » فالجواب يستند إلى عاملين : العامل الأوّل متوقف،كما هو الأمر في أشكال الأدبّيات القديمة الأخرى ، على مدى اتّساع أو ضيق تعريف كلمة أسطورة حسبما يتخذه المُفسّر . والعامل الثاني يعتمد على التوقّعات المُسبقة أو مقاييس المقارنة . فإذا شعر ، كما خمَّنَ كثيرون في القرن التاسع عشر ، أن على المخطوطات الدينيّة من الوُجهة المثالية أن تكون كتابات تاريخيّة صحيحة ودقيقة ، فَسَيُؤَكِّدُ على الأرجح - إذا كان مراقباً واعياً - درجة الأسطورية في « العهد القديم » . ومن ناحية أخرى ، إذا كان في ذهنه - من باب المقارنة - نظريات تكوين المجتمعات القديمة فَسَيُفاجَأ غالباً بالصفةِ المنضبطة مثلاً للقصص التوارتية عن الخَلق ، ويُؤكّده نسبياً صفتَها (غير الأسطورية) .

أما « العهد الجديد » – الأناجيل – فليس بهذا الوضوح المستقيم . ولقد عَنَى (شتراوس) بالصفة الأسطورية للقصص المُنفصلة في الأناجيل . ففي المقطع الذي نقلته عنه ، ذكر قصّة الإغراء كمثل أوّل . وعندما أتصفح (تعليقات لوقا) في مكتبتي لمعرفة وجهة نظره في هذه الحادثة أجد مجموعة واسعة من الأحكام. « يمكن أن تتأكد ، لو كانت القصة كلها مُختلقة بلا أساس ، لكانت الإغراءات من نوع عادي ... بل وربّما أكثر فظاظة . وليس هناك أية أسطورة يهوديّة أو مسيحية مثلها . والرواية آتيةٌ من المسيح نفسه . وربّما أعطاها لِحَوَاريّيه بنفس الشكل الذي هي فيه الآن »[16] « والصورة » ، مهما كان أصلها ، « اكْمَلَتها تخيّلات الكنيسة الباكرة »[17] . « وبالنسبة للقُراء العصريين ، مُجرّد ذكر الشيطان فيها يُعطيها جوّاً من عدم الواقعيّة بل ومن (التطيّر) . لنُسلّم بأن الشيطان هو شخصيّة أسطورية ، ولكن علينا عدم الخلط بين الأسطورة والقصص الخرافية . والأسطورة هي طريقة صورية في التعبير عن الحقائق التي لا يمكن أن يُعبر عنها بسهولة وبقوّة بأية طريقة أخرى »[18] « وتَعَرُّض البطل للتجربة هو الموضوع المُفضّل في التوراة والقصص الخرافية . ووجود الشيطان في (الدراما) هو إشارة قويّة إلى أننا في منطقة الحكايات الخرافية »[19] . وحقيقة أنّ هذه المقاطع الأربعة التي نقلْتُها الآن مرتّبةٌ ليس فقط بتسلسل موضوعي بل زمني ، أقول ، الحقيقة هذه ليست صدفة ولا تلاعباً في الترتيب من قبلي ؛ ولا يجب أن تعني أيضاً أنّ هناك تطوّراً قائماً في اتجاه تفسير أكثر أسطوريّة ، لحكايات الأناجيل . وفي أغلب الحالات يميل المعلّقون اليوم لإعطاء معنى القصة في إطار أفكار كُتّاب الأناجيل ويُترك جانبا موضوع دقة المصدر ومكانته فهذه أسئلة ليس عندنا دليل للإجابة عليها بأيّة درجة من الثقة . ونستعمل التخصيص الذي استعمله (ج . ف جونْز) في كتابه (دراسة شخص المسيح والأسطورة في الأناجيل) .

هناك فقط اهتمام أقل بالقصص الأسطوريه والخرافية لروايات مُعيّنة ، أكثر

مما هو عليه الحال بالنسبة للأساطير الميتافيزيكية الأوسع عن « الكلمة التي أصبحت جسداً » أو « الأمل في نهاية العالم »(٢٠) . وعند هذه النقطة تتصل أعمال الباحثين في العهد الجديد بصورة أكثر قُرباً ، بعمل علماء اللاهوت الذين يبحثون في العقيدة وهذا هو اهتمامي الأوّلي .

وبهذا المعنى الأوسع يمكن أن يتحدّث المرء عن أربع أساطير مسيحيّة أساسية أو عن أسطورة واحدة في أربعة أزمنة رئيسيّة (الخَلْق ، السقوط ، التجسّد في المسيح والكفّارة والقيام والدينونة الأخيرة) . والإجماع المعاصر على الرأي الناقد مستعدٌّ تماماً كما أفترض ، للقول بأنّ النقطتين الأوليّتين والنقطة الأخيرة هي أساطير ، ولكنّهم يترددون – جدّياً – في تطبيق تعبير (الأسطورة) على النقطة الثالثة ونوع الموقف الذي أفكر فيه يعرضه جيدّاً (نُورمَنْ پِتّنْغِر) في كتابه (« الكلمة » المتجسّدة) لذا سأنقل بيانه عن هذه النقطة بشيء من التطويل .

« ومع ذلك فإن تجسّد الإله في المسيح والكفّارة التي قدّمها هما في منزلةٍ مختلفة . عندما نتكلم عنهما لا نتحدث عن أشياء مثل الخلق والنهاية لها (قبل) و(بعد) في التاريخ . ولا نتحدّث عن حقائق عالمية تنطبق على كلّ الناس مثلما تنطبق عندما نتكلم عن سقوط الإنسان إلى حالته الحاضرة من الخطيئة . فحكايات التجسّد والكفّارة متعلّقة بحادثةٍ تاريخيّة خاصة ؛ وأساسهما في شيء وقع فعلاً في سياق التاريخ الإنساني ؛ فمن جهة هما خارج التاريخ ومن جهة أخرى ليستا صحيحتين بالنسبة للتاريخ كله إنهما تخُصّان ما يعتقده المسيحيون أنه حدث في التاريخ وعن طريقة حقيقة أحداث تاريخيّة معيّنة . طبعاً لقد قيلت سواء في الأناجيل أو في وعظ المسيحيّين الأوّلين بلغة لها صفة مجازيّة أو أسطورية . بمعنى أنهما رُويتا بشكل يجب علينا بالضرورة ، استعماله عندما نجعل (الله) فاعلاً لِفعْل، ونناقش بالتعابير الوحيدة التي نمتلكها ، علاقاتنا بالمجالات الإلهية اللانهائيّة الخالدة .

ولكن ، يبدو لي أنّ من التضليل وَضْعُ حياة المسيح بنفس منزلة أسطورة الخلق أو وَضْعُ عمل المسيح المُنقذ في نفس منزلة أسطورة خطيئة الإنسان . أنا أعرف أن بعض علماء اللاهوت يفعلون ذلك ولكن الأمر ليس خداعاً فقط إنّه خطر أيضاً على الإيمان المسيحي لأنّه غير صادق مع الوضع الحقيقي . وبجَمْع كل هذه المواد معاً في منزلة واحدة رُبّما نجحنا في الإيحاء بأنّ حياة المسيح الجسديّة وعَمَلِهِ المُنقِذ ليستا إلا أنواعاً من التمثيل المساعد لما هو - عالمياً - حقيقة التجربة الإنسانية بالنسبة لعلاقتها بالله. وهكذا ربّما بَدَا أنّنا نُنكِر خاصيّة المسيح التي هي في الحقيقة السبب الرئيسي لحيويّة الإيمان ، أو أنّنا نعني أنّ الحقيقة النهائية في المسيحية هي فوق التاريخ »(٢١) .

وَرَأْيُ (بِتْنغِرْ) الواضح والتقليدي يجب ألّا يُحمل على معنى أنني أعتبره ضعيفاً . والتجسّد مُتعلق بأحداث لها تاريخ والأمر ليس كذلك بالنسبة للأحداث الأخرى ، والصلة جزء لا يتجزّأ من معناه اللاهوتي التقليدي . لذا ربما كان من المفيد إعطاء مَثَلٍ مشابه آخر بقلم عالم لاهوت مُخْتَلِف التقاليد . كتب (وُلْفْ هارَتْ باتِنْبِرج) .

« فكرة التجسّد في ابن الله تُعتبر أسطورة تحوي عُنصراً مُزعجاغريباً جدّاً . إنها لا تقول فقط بأنّ الله ظهر بشكلٍ إنساني،بل إنه أصبح تماماً من بني الإنسان ، عاش كشخص تاريخي ... وحتّى تعذّب ومات كإنسان .. ؛ وفكرة التجسد تصل موضوع الأسطورة ، وطبيعة الألوهيّة نفسها .. بحادثة تاريخية .. بشخص تاريخي .. ولقد أعيد التأكيد مرات عدّة على أن هذا لا يَعْني فقط تفسيراً تَعسُّفيّاً لفكرة ذات أساس أسطوري بل هو مُنَاقِضٌ لطبيعة الأسطورة نفسها لأن الفرادة التاريخيّة أبعدُ ما تكون عن الأسطورة ؛ والفرادة هذه تُعبِّر عن نموذج صحيح لكل عصر(٢٢) .

فهل علينا إذن أن نُذْعِنَ بكل بساطة لهذا التعدّد في الآراء المختلفة داخل البنية المركزية لِلّاهوت المسيحي ؟ ربّما كان علينا ، في النهاية أن نقرّر ذلك .

ولكنّ مثل هذا الحل يَعْوزُهُ الترتيب وهذا يحدو بالعقل المفكِّر أن يُفَتِّشَ عن وحدةٍ أكبر في البنية . لذا أريد ان أعرض أساليب ثلاثة من العلماء الذين حاولوا أن يُوفّروا وحدة أكبر لهذا الموضوع وأعلّق بعد ذلك على انعكاسات كل هذه المناظرة النقاشيّة . يُمكننا أن نتساءل آبتداء – عن الاستعمال غير المُتَحَرِّج لكلمة أسطورة فيما يتعلّق بالخلق والسقوط وفكرة الحشر والنشر ؛ أليس الأمر تبسيطاً زائداً في التصنيف ؟؛ ولقد علّقتُ قبلاً على (ميثولوجيا العهد القديم) عندما قَارَنْتُها بميثولوجيا شعوب أخرى في الشرق الأدنى ، قائلاً أنها – أي ميثولوجيا العهد القديم –قد تبدو مُتميّزة في شُحّها ، وليس في غناها ، بالصُوَرِ الأسطورية الواضحة . فهل هذا يُشير إلى أن الاتجاه الخاص بالأفكار التوراتية – وبالاشتقاق ... باللاهوت المسيحي – يبتعدُ عن الأسطورة ويقربُ من التاريخ ؟ وهذا هو طرح (غُورْدِنْ كُوْفْمَانْ) الذي نمّاه بانتظام في كتابه المسمّى (علم اللاهوت المُنسَّق ... وجهة نظر عالم في التاريخ) . يقول (كوفمان) بوجود تناقض جذري في الموقف الذي عَرَضْتُه فالدراما التاريخية المركزية فيه موضوعة في إطار من أساطير ليس لها جذور زمنيّة؛ فكُتّاب التوارة ، كما يقول (كوفمان) كانوا أكثر حدّة من ناقديهم العصريين في محاولاتهم المُصَمِّمَة على توفير إطار من (قبل التاريخ) للدراما التاريخية ؛ ويختم (كوفمان) بالقول : « التوفيق المناسب بين الرؤية التوراتية والرؤية التاريخية المعاصرة لا يمكن إنجازه بالاستعانة بهذه الطريقة بِصِنْفٍ من الأسطورة التي تعاكس في الواقع الاثنين معاً. يجب التمسُّك بالنظرة التاريخية الكاملة حتّى النهاية »(٢٣) . وهكذا يعمد (كوفمان) إلى تنمية فَهْمٍ « للخلق » ليس على أساس التعبير الأسطورى عن علاقة الكائن المحدود الحياة بالخالد اللانهائي ، بل بالتأكيد على أنّ ذلك هو مشيئة الله في ظهور ونموّ العالم كما صوّره العلم والتاريخ ؛ « والسقوط » هو حادثة تاريخية مرسومة منذ زمن بعيد وصل فيها الصراع من أجل البقاء إلى درجة مستوىً أخلاقيٍ مُتدنٍ حيث الحقد المرير والصراع الحاسد والحروب » . والتجسّد والكفّارة هي تلك الأحداث التاريخيه التي « أنتجت تأسيساً ناجحاً لمجتمع تاريخي

مبني على المصالحة بين البشر » « والأمل المسيحي ، وهو الهدف الذي يسير التاريخ في اتجاهه ؛ إنَّهُ التحوّل من هذا العالم الحاضر إلى مملكة الله الكاملة »(٢٤) .

وكبديل يمكننا أن نقبل كلمة أسطورة على أنّها مناسبة في كل السياق . وَمَثَلاَيَ الثاني والثالث مِنْ باحثَيْن يُقِرّاَن ذلك ولكن بطرق مختلفةٍ جذريّاً . (إميل برونرّ) في ملحق لكتابه : « الوسيط » تحت عنوان « ميثولوجيا المسيحيّة »(٢٥) يقبل كلمة أسطورة منطبقة على الحالات الأربع في الأسطورة المسيحية الواحدة (ولقد استعرت هذا التعبير الذي آستعملته قبلاً ، منه) ، ولكنه يُعطي لكلمة أسطورة تعريفاً فطريّاً كاملاً : « الأسطورة المسيحية ليست بياناً فكريّاً معنويّاً لفلسفة الدين كما أنّها ليست ميثولوجيا أسطوريّة بمعنى أساطير الوثنيين ، إنّها تنتسب لصنفٍ مُغاير(٢٦)تماما » إنه يتحدّث عن التجسّد كحادثة ولكن ليست حادثة تاريخية لأنّها تُصبح عندئذ عاملاً واحداً فقط فى النظام الكونى للتاريخ ؛ إنها تنتسب إلى نفس الأبعاد التى تخص « الخَلْق » والسقوط والقيام – أبْعَادٌ . فوق التاريخ – . إنها « عبور تلك الحدود التي تفصل كل التاريخ عن الله » « تلك الحادثة التي تقع بين الزمن والخلود »(٢٧) .

ومثلي الثالث هو من عمل (جُولْ نُوكْسْ) . فَمِثْل (بُرونِرْ) يميل (نوكس) إلى استعمال تعبير أسطورة بالنسبة للتجسد إلا أن موقفه في الواقع أقرب إلى موقف (كوفمان) منه إلى (بُرونِرْ) . ففي كتابه الصغير (الأسطورة والحقيقة)(٢٨) يساند مباشرة (بتْنِغِرْ) الذي عرضه آنفاً ، وفي كتابه الثاني (بشريّة وألوهية المسيح)(٢٩) ، يصوغ أسلوبه بالنسبة للنموّ المبكّر للمعتقد المسيحي عن شخصية المسيح . فالفصول الثلاثة للدراما المسيحية ، كما يقول ،(ويحسبُها ثلاثة فقط لأنه يفترض السقوط « تحت عنوان الخلق ») تعتمد بعضها على بعض بحيث لا يمكننا أن نرضى بتصنيفها بشكل متفاوت أساساً . بالإضافة لذلك يُلحُّ على أنّ الخلق والنهاية ، مع أنّها خارج « التاريخ » إلا أنها ليست خارج الزمن ... من هنا فكل فصول الدراما تتعلّق بالأحداث ورغم أن

الحقيقة هي أن واحداً فقط من هذه الفصول يتصل بأحداث نملك وثائقها وهذا يجعل الأمر مختلفاً ، إلا أن ذلك لا يفصِل هذا الفصل من الدراما عن الفصلين الآخرين . (٣٠) .

والآن ، وكما اقترحتُ سابقاً ، رغم أنّ (كوفمان) هوالشواذ فيما يتعلّق بالتعابير ، فإن (برونر) في الواقع هو الشواذ فيما يتعلّق بالمواضيع اللاهوتية . ليس من السهل جدّاً إعطاء معنى دقيق لحديث (برونر) عن (التاريخ الأسمىٰ Super History) وعن « تلك الحادثة التي جرت بين الزمن والخلود » . ولكن ليس من العسير جدّاً فهم مايقصده بصورة عامّة . فالشيء الأساسي الذي يسعى للقيام به ، كما يبدو لي ، هو الاحتفاظ للمسيحية بكلّ فوائد علاقاتها التقليديّة بالتاريخ في نفس الوقت الذي يريدها حُرّة من أيّة مجازفات تتعلق بالدراسات التاريخيّة العادية . والمعنى الخاص للأسطورة المسيحيّة التي يفترضها هو ، بقصد إعطائها كل معنى الواقعية المُتصلة بكل ما يجرى في الأحداث التاريخيّة (بل إعطائها مزيداً منها لأنّها في الواقع « التاريخ الأسمى ») ، مع حِفْظِها من التأثّر بحوامِضْ النَّقْد التاريخي الحاضر . ليس هناك اليوم كثير من الناس ممن يحاولون الإبقاء على موقف (برونر) الخاص ، ولا أريد إعطاء موقفه هذا مزيداً من النقاش التفصيليّ ولكنّنا بحاجة أن نحذر من الدعوة إلى صنف « الأسطورة » التي يسعي لاستعمالها كوسيلة لمواجهة التحدّى الذي تُثيره الدراسة التاريخية الناقدة ، دون أن يعترف في نفس الوقت بالحاجة لأى تعديل عصرى للعقيدة المسيحيّة التقليديّة .

(كوفمان) و (نُوكس) - كما أشرتُ سالفاً - لَيْسَا بعيدين كثيراً في مواقفهما كما يبدو لي ؛ كلاهما يُميّز بين الأسطوري والتاريخي ، وكلاهما يرى علاقة هامّة بينهما ، ففي الحالتين ، مثلاً ، التأسيس التاريخي القائم لمجتمع متصالح هو جزء من معنىٰ الروايات الأسطوريّة (للكفّارة) . والأسطورة المسيحية لا تتألّف من أحداث (التاريخ الأسمىٰ) ؛ إنّها طريقة لنقل معنى أحداث تاريخية ،

فالإيمان إذن هو أقلّ عزلة عن التاريخ والدراسة التاريخية من موقف (برونر). والآن إذا جُمِعَ موقفاهما (كوفمان، ونوكس) معاً بمواجهة موقف (برونر) ما الفرق بين الموقفين ؟ أظنّ أن الأمر في غالبه مُتَعَلِّقٌ بالتعبير والتشديد . ففي إلحاحه على صيانة منظور تاريخي دائم يقول (كوفمان) عن «السقوط»: إن اعتباره كأسطورة بدل النظر إليه بطريقة أصيلة كتاريخ ، يُحطّم المضمون والمعنى للإيمان المسيحي(٣١) . ولكن يبدو لي أن المعنى التاريخي الذي يدعمه (كوفمان) هو لغو يعني أنّ كل ما يشابهه في عالم متطور هو تاريخي لأنه أصبح على ما هو عليه بطريقة التدرج . ولا أظنّ أن (نُوكْسْ) يرغب في إنكار الصفة التاريخية « للسقوط » بالمعنى الذي فهمه (كوفمان)، فتأكيده المقابل على الصفة الأسطوريّة للعقيدة المسيحيّة في كل ما كتب ، مشتق من القيمة الكبرى التي يضعُها على القوّة الخلّاقة المُعبِّرة للرسالة المسيحية في شكل روايتها التقليديّة .

٣ - تطبيق « الأسطورة » على المعتقدات المسيحية الأخرى ، غير التجسّد

المسألة الحيوية التي تواجه كل باحث في اللاهوت المسيحي بهذه الطريقة هي : ما نوع الصلة بين الأسطورة والتاريخ ؟ وهل هناك عنصر أساسي من الحقائق التاريخية ضروري لدرجة تستدعي التأكيد المستمر للأسطورة المسيحيّة ؟ وهل من ضمن تأكيد الأسطورة الادّعاءات بأنّها حقيقيّة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو نوع ادعاءات الحقيقة هذه ؟ .

في كتابات (أَلِسْدِيْر ماكِنْتَايْر) وهي عن الأساطير الأفلاطونيّة ، بالدرجة الأولى ، إلا أنّها تقصد أيضاً أُفقاً أَوْسَعَ من الأساطير الأفلاطونية فقط ، يُنْكِرُ (ماكنتاير) كُلّياً إمكانية تطبيق ادعاءات حقيقيّة عنها . يقول :

« الأسطورة هي إمّا حيّة أو ميّتة ، لا حقيقية أو زائفة ؛ لا يمكنك أن

تدحض أسطورة فعندما تتعامل معها على أساس أنها قابلة للدحض فأنت إذن لا تعتبرها أسطورة بل فرضيّة أو تاريخا »(٣٢) .

هذا ، يبدو لي ، أنه حكم تقييمي واسع . من الواضح أن الأسطورة ليست خطأً أو صواباً كما هو الحال في البيانات المباشرة الواقعية من نوع « جَلَسَتْ القطة على الحصير » ، أو كالفرضيّات العلمية التجريبيّة مباشرةً، فهذه صحيحة أو خاطئة . أوّلاً الأساطير ، مثل الشعر ، يمكن تفسيرها على مستويات مختلفة متنوّعة ويمكن أن يكون لها أكثر من تفسير مشروع حتّى على المستوى الواحد . ومع ذلك فهذا لا يعني وجود تفسيرات هامّة كثيرة ... بلا حدود . وبما أن الأساطير تُعبّر عن بعض النواحي الأساسية للواقع الإنساني يمكن أن يكون ذلك في النهاية خطأً - هذا عدا التفسيرات المُستبعدة وغير المعقولة - . لذا برغم الصعوبة الشديدة في محاولة تطبيق (خطأ أو صواب) بأيّة درجة من الثقة ، لا أظن أنها طريقة يجب استبعادها مُقدَّماً من الناحية المبدئية . أضف إلى ذلك إمكانية وجود حالات كثيرة - وسطاً - حيث يمكن الحكم بأنّها طرق ممكنة لفهم الأسطورة ؛ وهي - أي هذه الطرق - صحيحة إلا أنها ليست أكثرها وضوحاً وتفسيرا طبيعيّاً . في مثل هذه الحالات رُبّما نحتاج للقول في بعض الأساطير ... إنّها مناسبة ... إلى حدٍّ ما .

وعند هذه النقطة ، سأحاول توضيح بعض الموضوعات التي تُثير سؤالات من هذا النوع عن الظروف المختلفة للأسطورة المسيحية في غير موضوع التجسّد، تاركا هذه الحادثة المركزية والأكثر إثارة للجدل ، إلى آخر البحث .

إذا كان الكون كما نعرفه ، نظاماً كُليّاً مُتكاملاً ذاتي الاكتفاء والتطوّر ، لا يعتمد في وجوده إلا على نفسه ، ... إذا كان الأمر كذلك ، تكون أسطورة الخلق كما يبدو لي ، غير مناسبة وخاطئة من الوجهة الدينيّة . ولكن إذا كان العالم يعتمد حقّاً على مصدرٍ خلّاق سامٍ كما يدّعي المسيحيّون المؤمنون بوجود الله ،

تكون الأسطورة مناسبة وصحيحة . إن درجة الارتباط – إن كان هناك ارتباط – بين النظام الذي خُلق العالم طِبْقَهُ في القصة ، ونظام تطوّره كحقيقةٍ تاريخية ، ليست – أي درجة الارتباط – مُهمّة لموضوع الصحة أو الخطأ في الأسطورة . ولكنني أعترف أنه إذا كان هناك من يدعي إحساساً قوياً – ولو أنه حسب رأيه وهمي – بمصدر سام لوجود العالم ، وأن أسطورة الخلق كانت تعبيراً قيّماً لهذا الإحساس البدائي القوي ، لا أستطيع – بالمعنى المحدد للكلمة – دَحْضَ تفسيره للأسطورة . ما أستطيع قوله – بل وما أقوله – هو : إذا كان العالم حقّاً هو كما يعتقده ، فأسطورة الخلق تبدو لي إذن مُضلّلة وغير مناسبة ، وبهذا المعنى ، خطأ .

كانت أسطورة « السقوط » تُعْتَبَرُ في الغالب شكلاً من (الثيوديسي Theodicy)(*) أو أسطورة عن أصل الشرّ في عالم الخير الذي خلقه الله . يبدو لي واضحا أنّ فهمها بهذا المعنى هو خطأ . وحتّى لو فُهمت كأسطورة – أي دون آدعاء الوجود التاريخي لآدم وحوّاء ، أو بصورة عامّة ، لجنس واحد في الأصل ، فعليها أن تعني أنّ معاناتنا للشر هي كُليّا نتيجة خيارات إنسانية خاطئة . وأنا لاأزال مُستعداً لاعتبارها مُناسبة أو صحيحةً – دينيّاً – لأنني أعتقد بحقيقة أن الإنسان يسقط إلى مستوى أدنى من المثل الأعلى الذي يراه ويستطيع الوصول إليه . ولكنّني أفعل ذلك ، مُرتاباً ، لأنّ هناك تفسيرات معقولة جدّاً للأسطورة التي أؤمن أنّها غير صحيحة . لقد ذكرت قبلاً أن إساءة استعمال – الأسطورة – هو (ثيوديسي) كاملة . هناك تفسير معقول آخر ، وأعتقد أيضاً أنه خطأ ، وهو الذي يرى فيها – أي في الأسطورة – الاقتناع بأن الفشل الأخلاقي للإنسان راجع إلى رَفْضِهِ قبول وإطاعة واجبات أدبيّة مفروضة عليه من خارجه .

إن أسطورة قيام الميت والدينونة الأخيرة تُثير صعوبات أكبر ليس فقط للسبب الواضح في عدم قدرتنا على التأكد من صحّة أو خطأ مُعتقدات في هذا

(*) (ثيوديسي – Theodicy) = معناها تبرير الصفات الإلهية مثل العدالة والقداسة إلخ .

المجال ، بل أيضا بسبب التنوّع الكبير في الاعتقاد الذي نشعر حقّاً أنه يتمشى مع الإقرار بهذه الأسطورة . وبرأيي من أجل أن تكون الأسطورة في محلّها من الوجهة الدينيّة يجب أن يكون موضوع حياة الإنسان بعد موته – العضوي – حقيقة . إلا أنّ بعض الباحثين يُنكرون ضرورة ، الحياة بعد الموت ، للمصادقة على أسطورة البعث . وهذا هو بالفعل موقف (كوفمان) إلا أن (لويْدْ فِيرِينْغ) يُبرزه بصورة أوضح في كتابه الجيِّد : (البعث ... رمز الأمل) يقول (فيرينغ) :

يجب ألّا يُفسر تعبير « بعث الموتى » على أنه أمل في إطالة أو إعادة وجودنا الواعي هذا . إنّه أمل العالم الذي نعيش فيه ، أمل لمعنى الحياة الإنسانية ، وأمل بمعنى أنّه بعد انتهاء حياتنا الواعية هذه يمكن أن يُعرض تاريخ حياتنا أمام الحاكم الخالد ويمكن أن تُزَكّى على أنها ذات قيمة لتلك المملكة الخالدة التي نصلّي من أجل أن تكون مظاهرها على هذه الأرض أكثر امتلاءً وغِنىً » (٣٣) .

ومن الممكن ، بلاشك ، الذهاب إلى أبعد مما وصل إليه (غيرينغ) وإيجاد معنى مستمر في الأسطورة ... حتّى بدون الإيمان بالله وبالمملكة التي يُؤكدها . هناك بعض الذين يرغبون في الحديث عن المغزى الأساسي لمعنى الأمل في الحياة الإنسانية ، مع أنّهم يعتقدون أنّ مثل هذا الأمل هو ... في النهاية .. وَهْم. فإذا قالوا إن أسطورة بعث الموتى هي تعبير قيِّم عن معنى الأمل ، يكون الموقف موازياً لحالة أسطورة الخلق . ولا أستطيع أن أدحض بأي شكل رسمي ، استعمالهم لكلمة أسطورة ولكنّني أعتبر استعمالها غير مناسب إلى حد بعيد، لما هدفوا له .

إذن في كل هذه الحالات الثلاث التي وَصَفْتُها بأنّها أقلّ إثارة للجدل من حالة « التجسّد » ، هناك صعوبات جمّة في تحديد الطريقة التي يجب أن تُفهم بها الأسطورة . ويمكن التعبير عن الخاصيّة التي حاولت بها التمييز بين الخطأ والصواب في تفسير الأسطورة ، بالأسلوب التالي : يجب أن تكون هناك حقيقة

(أنتُولوجيه)(★) توافق الخاصيّة المركزية لبُنية الأسطورة ؛ إلا انّه ليس من السهل تطبيق هذا المقياس ؛ أوّلا، إذا كانت الحقيقة الأنتولوجية هي تلك التي يمكن التعبير عنها بوضوح كامل ودقّة، تكون الحاجة للأسطورة أقلّ . تكلّمت في موضوع الخلق عن اعتماد العالم على مصدر خالق سامٍ خارج ذاته ؛ وفي حالة « السقوط » تكلّمت عن سقوط الإنسان إلى مستوًى أدنى من المستوى الذي يراه ويستطيع بلُوغه . وفي الحالة الثالثة تكلّمت عن نوع من حياة الإنسان بعد الموت . وهكذا أرغب في إفساح المجال ضمن إطار المسيحية لمجموعة واسعة من التفسيرات للأساطير المركزية في الإيمان ؛ وأريد أيضاً الادّعاء أن التفسيرات التي تتخلىّ عن عُنصر أنتولوجي مثل النوع الذي حاولت تحديد معالمه ، تكون ، كما يبدو لي أسلوباً غير مناسب ومن الأفضل الاستغناء عن استعمالها .

ما الذي يبقىٰ إذن للفهم الأسطورى للتجسّد ؟ كنتُ ألحُ على ضرورة وجود واقع – أنتولوجي – موافق للخاصية المركزيّة في بنية الأسطورة . هذه ، طبعاً خاصيّةٌ أساسية للتفسيرات التقليديّة بتأكيدها على هويّة بين شخص يسوع والشخص الثاني « للإله الرأس » . إلا أن الصعوبات الموروثة في هذا الأسلوب الميتافيزيكي المباشر لِفَهْمِ التجسّد، قد أُكِدّت في فصول أخرى من هذا الكتاب . هل هناك تفسيرات أخرى غير مباشرة لازالت تحتفظ بنوع من الربط – الأنتولوجي – وهذه هي المطلوبة ، كما يبدو لي .

لم يعلن أبداً أن التجسّد هو ببساطة رواية شيء حدث في نقطة من التاريخ الماضي . لقد اعتبر أنه مكّن من قيام اتحاد داخلي عميق بين الإلهي والبشريّ في تجربة النعمة في حياة المؤمن الآن ، وعلى المدى الأوسع ، في حياة الكنيسة بعامّة . والوشائج حميمة بين الحادثة الماضية والتجربة الحاضرة لدرجة أن الكنيسة وُصفت مراراً ، ليس فقط (كجسد المسيح) بل كامتداد « للتجسّد » . والآن إذا كان

(★) الأنتولوجيا – ontology : هي عِلمْ حقيقة المخلوقات.

الاتحاد بين الإلهي والبشري في قلب الشخصية الإنسانية هو حقيقة واقعة مهما كانت الصعوبة في وَصْفِها أو التعريف بها ، أليس من الممكن أنها هي الحقيقة الأنتولوجيّة التي توافق وتُبرّرُ الفهم الأسطورى للتجسّد . ؟ .

الصعوبة الواضحة في مثل هذا الطرح هي أن التجسّد مرتبط بالشخصيّة التاريخيّة الخاصة ليسوع بطريقة ليست خاصة بالظروف الثلاثة الأخرى للأسطورة المسيحية . هل من المعقول إذن الاستمرار في رَبْط التجسُّد بأسلوب خاص بشخصية يسوع التاريخيّة في نفس الوقت الذي نفسّره كرواية أسطورية عن اتحاد ممكن للإلهيّ والبشري في حياة أي إنسان ؟ على أي جواب لهذا السؤال أن يأخذ بعين الاعتبار شخصية ودعوة يسوع نفسه (إلى المدى الممكن في وصولنا إليهما) ، والعلاقة التاريخيّة بين يسوع والتجربة المسيحيّة المميّزة في حياة الكنيسة بعد ذلك .

ولدى بحث الموضوع الأوّل ، من الضرورة التذكر كَمْ كانت مرنة في واقعها كلُ أنواع الادعاءات التاريخيّة التي رافقت الفهم التقليدي للتجسّد في الماضي كانت هذه الإدعاءات التاريخيّة تضم عادة أشياء مثل : الحقيقة المطلقة لكل ما قاله يسوع ، ووعيه لوضعه الإلهي وكمال حياته الأخلاقية . ومع ذلك فإن شكل هذه الادعاءات قد تغيّر بصورة كبيرة . ويشهد الجدل (الكينوتي Kenotic)(*) في آخر القرن الماضي ، بالصعوبة التي شعر بها الكثير من الناس في مُحاولتهم مَزْج فكرة أي نوع من الجهل عند يسوع بالاعتقاد التقليدي بالتجسُّد. رغم هذا يستطيع أكثر المتمسّكين بالعقيدة التقليدية اليوم أن يقبلوا بسهولة هذا الجهل ، بل كثيرون منهم يعتبرون جهله بوضعه الإلهي الخاص ، وغياب أي مصدر مُتميّز للمعلومات ، أساسيّاً لفكرة التجسّد . لذلك فالصلات

(*) (كينوتي – Kenotic) يعني : قبول نظرية محدودية القُدْرة الإلهية الأخرى في « الإله الابن المتجسد » .

المتبادلة الاختبارية للعقيدة التقليدية تُفهم ، كذلك بطرق مختلفة كثيرة ربّما لا يكون مغايرة بشكل ملحوظ للتي يفترضها التفسير الأسطورى . وفي الطرف الآخر من السُلّم..: إذا صحَّ أن يسوعاً كان أنانيّاً مُستهتراً أو أن حياته وتعاليمه كانت في الأساس مضلّلة بالنسبة لطبيعة وغاية الله ، عندئذ يكون أي فصل بينه ، كشخص تاريخي وبين فكرة التجسّد – مهما كان تفسيرها الأسطورى – أمراً غير مناسب كُليّاً ... أو أمراً خاطئاً . هل يمكن التحديد بأسلوب أكثر دقة ما يتناسب وما لا يتناسب مع إقرار أسطورة التجسّد بالنسبة ليسوع ؟ ألاحظ أنّنا نريد أن يكون بمقدورنا إثبات شيئين : أوّلا أن حياته الخاصّة ، في صلتها بالله ، تضُم ذلك الانفتاح على الله .. تلك الوحدة بين الإنساني والإلهي التي تشير إليها العقيدة . ثانياً : إن حياته صَوَّرتْ ، ليس فقط آستجابة إنسانية عميقةلله،ولكن كانت حياته في مواقفه مع الآخرين ، رمز محبّة الله المُرْسَلة للعالم . وكلا الشيئين الآن صُور ثابتة في التقاليد المنقولة عن حياة يسوع . ورغم أنّنا لا نستطيع التأكد من نسبة الصحّة في تفاصيل الروايات التي بين أيدينا وهل هي تفاسير متأخرة أم لا ، فمن المستبعد جدّاً أن تكون مثل هذه المعلومات التاريخية الموجودة الآن أو التي ستوجد في المستقبل عن يسوع،تستطيع مُطلقاً تشويه تلك الصورة إلى حدّ أنها تحكم بعدم ملاءمة وَصْل أسطورة التجسّد بشخص يسوع بهذا الأسلوب الخاص .

ولكن ملاءمة مثل هذا الوصل لا تتوقف على شخصية يسوع نفسه حصراً . إنها تستند أيضاً إلى العلاقة التاريخية بين يسوع وبين مشاعر الرحمة في حياة المؤمنين . ويمكن إثبات ذلك بشكل ضعيف أو قوى . والشكل الضعيف يُطرح ببساطة كحقيقة تاريخيّة عرضيّة على أساس أنّ حقيقة العلاقة بين الإنسان والله بُعثت حيّة في تقاليدنا الخاصة عبر صورة يسوع . والشكل الأقوى يعطى ليسوع دوراً لا غنى عنه . ومع الإمْتناع عن إبداء أيّة رواية ميتافيزيكية مميّزة عن شخص يسوع ، يمكن الادّعاء رغم ذلك أنّ حياته وكلّ ما تفرّع عنها هي أساسية

في الواقع لتحقيق كامل وفاعل لوحدة (البشريّ) و (الإلهي) في حياة الإنسان .

يجب أن يكون أساس هذا الادّعاء تأمُّلاً تاريخيّاً ونفسانيّاً في الطريقة التي كانت عليها الحياة الروحية للإنسان،وكيف تشكّلت في إطار الإيمان المسيحيّ . ويمكن فقط التَحقّق من صحّتها في سياق التاريخ المُستقبلي .

وهذا البعد التاريخي هو عنصر هام في أيّ فهمٍ للتجسّد كأسطورة . وهناك ميل في أكثر المناقشات اللاهوتية للأسطورة ، إلى التفكير بالأساطير كَمُعَبِّر عن حقائق لا يحدّها الزمن ، عن الله وعلاقته بالعالم . ونتيجة لذلك ، بل ومع ذلك ، يظن العديد من الناس الذين لا يضمرون مبدئيّاً أيَّ موقف معاد لتصنيف الأسطورة ، أن استعمال تعبير الأسطورة في وصف التجسّد غير مناسب إلى حدٍّ كبير . ولكن ، كما ذكر (شتراوس) في تحليله الذي أشرت إليه في البداية ، هناك غالباً عنصر تاريخي في الأسطورة . فالأحداث التاريخيّة رُبّما تُسهم في أصل الأسطورة ، ورُبّما تُؤدى الأساطير وظيفة ما في الحياة التاريخية والسياسية وفي التأمّلات الفلسفية والنفسانية أيضاً . فالأسطورة التاريخية والسياسية نمّت في الماضي ، أحداثاً ذات مغزى مثل تأسيس مدينة روما ، بطريقة تُمكن المجتمع من تفسير الحاضر وإعطاء وجهة للمستقبل . مثل هذه الأساطير تُوفّر موازياً قريباً لدور أسطورة التجسّد في حياة الكنيسة . وبما أن المسيحية لا تهتمُّ فقط بإعلان الحقيقة عن الله بل بالوجود التاريخي لمجتمع مُعيّن ، من المناسب تماماً أن يكون لها أساطير من هذا النوع . ربّما كنا سنتقدّم في محاولتنا إزالة الصعاب الموجودة في فكرة ربْط التجسّد بالشخصيّة التاريخيّة ليسوع لو كنّا أكثر استعداداً للاعتراف بأنها (نوع مخلوط) من الأسطورة ... لها دور أكثر عمومية فيما يتعلّق بالصلات بين الله والإنسان ودور تاريخي أكثر خُصوصيّة فيما يتعلق بالمجتمع المسيحي .

وبينما أريد الادعاء بوجود فوائد محتملة في هذا الأسلوب من الطرح الذي

اقترحته ، أعترف أنّ هناك عدداً من الاعتراضات الواضحة يمكن أن تُثار ، بوجاهةٍ كبيرة ، ومن المؤكد أنها ستُثار . أوّلا : غالبا ما كان يُنظر إلى التجسّد كعقيدة أوليّة تُفرّق بين المسيحيين وغير المسيحيين ، وتحفظ الإيمان مُتماسكاً كوحدة مُنسجمة متميّزة . فإذا عاملناها على أساس أنّها أسطورة وما يستتبع ذلك من التفسيرات المقبولة المتنوّعة ، ... ألا (يلْغُمُ) ذلك هذا التماسك بصورة مدمّرة وغير مقبولة ؟ إنّه بكل وضوح يُضعف هذا التماسك المسيحي . ولكنني لست متأكداً من أنّ هذا التضاد كبير إلى الحدّ الذي يُخيّل لنا للوهلة الأولى . ففي واقع التطبيق ، فُهِمَ الإيمان المسيحي ، بما فيه الاعتقاد بالتجسّد ، بأوجُه شتى ذات فروع متنوعة . ولأنه شُعر أنه من الواجب وجود وحدة في المعتقد كان يُنظر غالبا لهذا التعدد في أوجه الفهم كدليل على عدم الإيمان ممّا أدّى إلى التعصّب والاضطهاد . فإذا اعتبر عامل جمع المسيحيين هو أستعمال نفس الأساطير وليس التمسُّك بنفس المعتقدات ، فقد يكون من الأسهل على المسيحيين قبول درجة من التنوّع الواجب الوجود والذي سيوُجد، على أي حال ، بينهم. وتبقى بعد ذلك طبعاً المشاكل الخطيرة. ولكن ، على الأقل ، أريد الادعاء أن معاملة موضوع التجسّد كأسطورة لن يحطّم ببساطة أنموذجاً متماسكاً من الإيمان المسيحي والحياة المسيحية التي تعمل الآن بشكلٍ مُرضٍ تماماً .

هناك اعتراض ثان ذو طبيعة أكثر عموميّة يُمكن أن يُثار ضدّ أي استعمال لفكرة الأسطورة بالطريقة التي اقترحْتُها . فالفهم الشعبي للأسطورة اليوم هو أنّها شيء وهمي ليس فقط بمعنى أنّها غير صحيحة حرفيّاً بل على أنّها أيضاً نوع من السراب ، شيء يقود الناس إلى الضياع.؛. والذين تحدّثوا عن « أسطورة » اللجنة الاقتصادية الأوربيّة هم الذين اعترضوا عليها وليس الذين اعتبروها تحضيراً مُهمّاً لأوروبا مُوّحدة في المستقبل . يجب الاعتراف بذلك ، ويمكن أن يبقى التعبير غير مستعمل في الحياة العامّة للكنيسة . وأنا بكل بساطة ، لا أدرى ماذا يجرى . إلا ان الدور الهامّ الذي تؤديه هذه الفكرة في ميادين كثيرة أخرى يُوحي بأنه يمكن أن

يكون أداة « قيّمة » للتحليل اللاهوتي . إذا أصبح الأمر كذلك ، سيكون في اعتقادي عندما يتعلم اللاهوتيّون الاعتراف بالطبيعة المختلطة للأساطير المسيحية ويستفيدون من مدارك المجالات الحياتيّة الأخرى في استعمال هذه الأخيرة للفكرة نفسها .

وثالث صعوبةٍ ، وربّما أكثرها حاجة للتقصي هي موضوع ما إذا كان باستطاعة الأسطورة الاستمرار في أداء وظيفتها كأسطورة قويّة متى اعترفنا أنّها ليست صحيحة حرفياً . هل كان على الرومان معاملة قصص تأسيس (روما) كحقائق حرفيّة حتي تستطيع تلك القصص أن تنقل المعني المناسب لقدر تلك المدينة ؟ من الواضح أن الأساطير ستُفهم دائماً على مُستويات مختلفة من قبل أناس مختلفين . أريد أن أعبّر عن قناعتي أنه حين يكون للأسطورة نوعٌ من التلازم - الأنتولوجي - ، واعتقد أنّ للأسطورة المسيحيّة ذلك ، وحين يكون لها درجة من التناسب التاريخي ، وأعتقد أن الأمر موجود في حياة يسوع ، عند ذلك لن (تُلغم) قدرة الأسطورة إذا كان الاعتراف بها أوسع ممّا هي حقّاً .

وببساطة ، تسميةُ شيء أسطورة لايحلّ طبعاً أية مشكلة . لقد انتقدت قبْلاً (برونر) لاستعماله فكرة الأسطورة بطريقة تُوفّر فقط حلاً نوعيّاً للمشاكل الحقيقية لعلم اللاهوت . أرجو ألّا أكون قد أعطيت في الظاهر انطباعاً أنّني وقعت في نفس الفخ . والذي أعتقده هو أن طرحي لموضوع التجسّد يستطيع أن يُوفّر بُعداً خلّاقاً رُبّما يُساعد ، على المدى الطويل ، ليس فقط في رؤية المشكلات الفكرية بصورة أدقّ، بل في الاستفادة بأسلوب أكثر غنى ... من مصادر الإيمان .

NOTES

1. The substance of this chapter was originally given as a John Rylands lecture in Manchester and a version of it appears in the *Bulletin of the John Rylands Library*, vol. 59, no 1, 1976, pp. 226–46.
2. See p. 65 above.
3. See p. 34 above.
4. T. Keightley, *Notes on Virgil's Bucolics and Georgics* (1846), p. vii. The one earlier occurrence given by the Oxford English Dictionary is from an article on Buddhism in the Westminster Review for 1830 (XII, 44). The word is there in the English form *myths*, but is italicized. The form mythe was in fact used by some other writers of the period, such as Grote and Müller.
5. W. H. Mill, *Observations*, i.118; D. F. Strauss, *The Life of Jesus Critically Examined*. SCM Press 1973, p. 57.
6. Strauss, op. cit., p. 53
7. Ibid., p. 58.
8. Strauss, *New Life of Jesus* (1865), vol. i, pp. 213–14; cited by H. Harris, *David Friedrich Strauss and his Theology*, Cambridge University Press 1973, p. 203.
9. W. O. Chadwick, *The Victorian Church*, A. & C. Black 1966, vol. i, p. 531.
10. H. H. Milman, *The History of Christianity* (1840), vol. i, p. 120.
11. See T. K. Cheyne, *Founders of Old Testament Criticism*, p. 22.
12. W. H. Mill, *Observations*, ii.10–11.
13. Ibid., ii.9.
14. Baden Powell, *The Order of Nature* (1889), pp. 275, 340, 341.
15. Originally given as a lecture under the title *Offenbarung und Heilsgeschehen* the essay now appears as 'New Testament and Mythology', in *Kerygma and Myth*, ed., H.-W. Bartsch, SPCK 1953, vol. I, pp. 1ff.
16. A. Plummer, *St Luke*, International Critical Commentary, T. & T. Clark 1910, p. 106.
17. J. M. Creed, *The Gospel According to St Luke*, Macmillan 1930, p. 62.
18. G. B. Caird, *St Luke*, Penguin Books 1963, p. 79.
19. J. Drury, *Luke*, J. B. Phillips' Commentary, Fontana 1973, p. 52.
20. G. V. Jones, *Christology and Myth in the New Testament*, Allen & Unwin 1956, p. 30.
21. Norman Pittenger, *The Word Incarnate*, Nisbet, and Harper & Row 1959, pp. 39–40.
22. W. Pannenberg, *Basic Questions in Theology*, vol. III, SCM Press 1973, 'Myth in Biblical and Christian Tradition', pp. 71–2.
23. G. Kaufman, *Systematic Theology*, Scribner's and Sons 1968, p. 271.
24. Ibid., pp. 274–87.
25. Emil Brunner, *The Mediator*, Lutterworth 1934, pp. 377–96.
26. Ibid., p. 378.
27. Ibid., p. 391.
28. John Knox, *Myth and Truth*, Carey Kingsgate Press 1964.
29. John Knox, *The Humanity and Divinity of Christ*, Cambridge University Press 1967.
30. *Myth and Truth*, pp. 56–8
31. Kaufman, op. cit., p. 280.
32. Alasdair MacIntyre, 'Myth' in P. Edwards (ed.), *Encyclopedia of Philosophy*, Macmillan 1967, vol. 5, p. 435 (cited by I. Barbour in *Myths, Models and Paradigms*, SCM Press 1974, p. 24).
33. Lloyd Geering, *Resurrection – a Symbol of Hope*, Hodder & Stoughton 1971, p. 215.

الفصل التاسع

يسوع والديانات العالمية

بقلم / جون هك

إذا بدأنا من حيث نحن الآن ... مسيحيُّو هذه الأيام ... نبدأ في وسط ارتباك وعدم تأكّد يقتحماننا عندما نحاول الحديث عن يسوع، الشخص التاريخي الذي عاش في الجليل في الثُّلث الأوّل من القرن الأوّل للتاريخ المسيحي . فلقد أظهرت الدراسة المنهجيّة للأناجيل مدى التفتُّت والإبهام في البيانات المتوفّرة لدينا، كُلّما حاولنا أن نتطلع إلى الوراء عبر تسعة عشر قرنا ونصف قرنٍ من الزمان ؛ وبنفس الوقت يظهر اتساع وتنوّع إسهام الخيال في صُوَرنا عن يسوع . من جهة ، صحيح قولنا إن الملايين كانت تعبد يسوع ؛ ومن جهة أخرى مع ذلك ، وبمقاييس التعمُّد غير الموضوعي - الشخصي -، كان هناك « كائنات » متعددة ، يمكن وصفها بالتشابه الجزئي والاختلاف الجزئي ، عَبَدَها الناس على أساس أنّها يسوع كداعية سلام وكَمُتَحَمِّس ومُتعصِّب ، وكشخصيّة رصينة الجلالة ، الآخر صوَّره كمثال للرّقة والرحمة التي لا ينضب معينها ؛ والبعض صوَّره كعالم نفس ألهيٰ يَسْبُرُ ويشفي أغوار نفوس الأفراد . وآخرون تصوروه النبيّ الداعي إلى الاستقامة الاجتماعية الراغب في العدالة للفقراء والمضطهدين ؛ والبعض الآخر تصورّه فوق مستوى الكائن الطبيعي ، الكُليّ المعرفة والكُلي القدرة يحيطه النور المقدّس ؛ والبعضُ اعتبره مُجرّد إنسان عاش في الإطار الثقافي لزمانه . ولقد صوَّر يسوع كداعية سلام وكَمُتَحَمِسّ ومُتعصِّب ، وكشخصيّة رصينة الجلالة، و « كإنسان ... للغير » تعذّب وقاسى آلام البشر وشارك في تحمل أوجاع وأحزان الإنسان الفاني...؛ ويمكن لكل صورة من هذه الصور المتعدّدة أن تجتذب عُنصراً مُعَيَّناً من عناصر الحبال المجدولة في تقاليد الأناجيل . ولكن في كُلّ حالة من هذه الحالات عكس التخيُّل - الجماعي أو الفردي - مثاليّته الخاصة على بيانات

الأناجيل إلى الحدّ الأقصى،مُخرجاً بذلك صورة للمسيح تُناسب الحاجات الروحيّة لأتباعه ؛ مع أنّ وراء هذا الرُواق من الرسوم المثالية كُلها يقبع الإنسان الناصرى ... المجهول إلى حدّ كبير . وهكذا وَجَدَتْ نظرة (فيُوْرْبَاخ) القائلة إنّ فكرة الإله ما هي إلا انعكاساً للمثاليات البشريّة ، بعض التطبيق في هذا المجال . كان يسوع إنساناً حقيقيّاً عاش فعلاً في فلسطين في القرن الأول . ولكنّ الصورة الذهنيّة التى ركّز عليها الإخلاص المسيحي في العصور المختلفة والكنائس المختلفة هى من التنوع الواسع بمكان حيث يجب أن تعكس إلى حد ما مختلف الأمزجة والمثاليات ، وبالدرجة الأولى ، مختلف الحاجات الروحية في عالم المؤمنين به . فملامح الآثار الدينيّة عن يسوع امتزجت بآمال ورغبات الناس لتُشكّل هذه الصُّور المختلفة.حتّى صورة يسوع في الأناجيل استطاعت ، مثل أي عمل فنّي كبير ، أن تصبح أشياء عديدة للناس العديدين .

وإلى أي مدى كان تعظيم الإيمان المسيحي لإنسان الناصرة في المسيح الإلهي .. ابن الله ، الأقنوم الثاني في الأقانيم المقدّسة الثلاثة ، المثل الأعلى لانعكاس مثالياتنا على يسوع، أقول ، إلى أي مدى كان هذا التعظيم استجابة لحاجاتنا الروحيّة ؟ من النظرة الأولى يبدو مُجرّد « الإمكان » شيئاً مُقْلقاً لأنه يُشكّك في قَرْنِ حَاخَاميّ الجليل، بصورة المسيح التي نَمّتْها المذاهب الجازمة (الدوغما) وسأركّز نقاشي ، مع ذلك ، على أنّ تعريف أهل (نيقيا) للإله الابن المُتجسّد ما هو إلا طريقة تُصوّر « سيادة » يسوع ، كالطريقة التي اتّخذها العالم الروماني - اليوناي الذي ورثناه؛ وإنه من المناسب للمسيحيين في العهد الحديث للعالم المسكونّي الذي دخلناه أن يَعُوا الصفة الاختيارية والأسطورية في هذه اللغة التقليدية .

)) وقد يساعدنا الأمر إذا لاحظنا تمجيد مُعلِّم بشريّ بِجَعْلِهِ شخصيّةإلهيّة لها قُدرة كونيّة ، في كُتب لِدِيَانةٍ أخرى يُمكننا أن نجرى عليها مسحاً من الخارج . مؤسِّس البوذية (غوتاما) أو (ساكيا موني) كان شخصاً حقيقيّاً في التاريخ

عاش في شمال شرق الهند عام ٥٦٣ – ٤٨٣ قبل المسيح . ولد في عائلة أمراء وتخلى عن أمواله ليبحث عن الحقيقة الروحيّة ، وأخيراً بعد أن (تنوَّر) سافر إلى أماكن بعيدة يُعلِّم الأفراد والجماعات . وعندما مات عن عمر يناهز الثمانين ، كان قد أسَّس مُجتمعاً للحواريين والرهبان والراهبات استمرّ حتّى هذا اليوم ونقل رسالة بوذا في أنحاء آسيا، مؤثِّراً بعمقٍ على حياة قطاع كبير من أبناء البشر. (غوتاما) – بوذا ...أو الشخص المتنوِّر – لم يَدَّعِ الألوهية، كان كائناً بشريّاً وصل إلى النرفانا – السُّمُوّ الكامل على الأنانية ، والوحدة التامّة مع الواقع الخالد عبر الأشخاص–؛ ولكن ، في البوذيّة – الماهايانية – التي بدأت تنمو في نفس الوقت الذي نمت فيه المسيحية تقريباً ، كان الاحترام لبوذا أكثر بكثير من اعتباره شخصاً بشريّاً بارزاً عاش ومات قبل قرون ؛ ففي عقيدة (الماهايانا) المميّزة في « الأجسام الثلاثة » لبوذا (تريكايا – Trikaya) الأرضيّ – أو المتجسِّد – (يرْمانَاكايا) هو بشرٌ أصبح (بوذا) وعَلّم الآخرين أين هو الطريق . (غوتاما) كان آخر هذه الأجسام ، والذي لازال العالم يعيش فترة تأثُّره الروحي به . ولكن كان هناك آخرون قبله وسيكون هناك آخرون في المستقبل . (السَامْبُهُوغاكايا) تُترجم أحياناً بمعنى جسم الهناء ، هو (بوذا) مُتسامٍ أو سماويٌّ ، كائن إلهي تُوجَّهُ إله الصلوات . ومجموعات (بوذا) الأرضيّة هي تجسيدات لمجموعات (بوذا) السماويّة وانعكاسات حياتهم في جدول هذا العالم . ولكن مجموعات (بوذا) السماويّة المتسامية هي .. في النهاية واحد في (جسم دْهَارْمَاكَايا Dharmakaya) وهو الحقيقة المُطْلَقةَ .

وهكذا نمت الموضوعات المسيحية والموضوعات البوذية بطرق متقارنة ؛ (غوتاما) الإنسان أصبح التفكير فيه على أساس أنه التجسيد (لبوذا) الإلهي المتسامي الذي وُجد منذ الأزل ؛ وكذلك يسوع الإنسان صار التفكير فيه على أنه التجسيد (للكلمة – اللوغوس – الأزلية الوجود)، أو الابن الإلهي؛ وفي (الماهايانا) (بوذا) المتسامي هو الواحدالمُطْلَق كما هو الأمر في المسيحية، فالابن

الخالد هو واحد في الله الآب// لذلك كان (غوتاما) ... الدَارْمَا – أي الحقيقة التي أصبحت جسداً، ويسوع كان (الكلمة) التي أصبحت جسداً ؛ وبالفعل الترجمة البورميّة للأناجيل تعتبر (الدارْما) موازٍ لـ (اللوغوس – Logos) أي الكلمة الإلهية ، حتّى أنّ أوّل جُملة لإنجيل (يوحنّا) هي في اللغة البُورميّة كالتالي : في البدء كان(دَارْمَا)؛ ولكنّني لا أحاول هنا التعمّق في بحث المتشابهات بين الأفكار المسيحية والأفكار البوذية – الماهايانيّة – ؛ والحقيقة التي ألفت النظر إليها هي ان البوذية – الماهايانيّة – تختلف عن البوذية الجنوبيّة – (الثيرافادا – Theravada) ؛ فـ (غوتاما) الإنسان رُفع فأصبح كائنا خالدا كَوْنيّ الأهمية .. (واحد) عاش مع إخوته البشر في حياة جسدية قبل ألفين وخمسمائة عام،وواحد عاش مع الحقيقة النهائية في (الدهارمَاكَايا) .. أو (بوذا) الكوني . وهذا « الرفع » لبوذا ، أساسه – آفتراضاً – شدّة جوع الروح الإنسانية لمُنقذ شخصيّ ، دَعَمَته فكريّاً العقيدة الميتافيزيكية المُعقّدة في التثليث (ثلاثة أقانيم) . والبوذيّون من – الماهايانا – يدّعون طبعاً أن هذا التطور كُلّه كان ضمناً في أعمال (غوتاما) التاريخيّة والأفكار البوذيّة المُتأخرة لم تكن أكثر من إبراز المعنى الكامل لتعاليمه .

لذا علّق (ب . هـ سْتِيتْر) بجدارة إن وضع الماهايانا بالنسبة للبوذية الأوليّة لا يختلف عن وضع إنجيل (يوحنّا) بالنسبة لإنجيل (متّى)(٢) .

ولا يعني ملاحظة تطوّر البوذية الماهيانية أن التفسير الأخير لـ (غوتاما) الإنسان على أنه المُنقذ الكوني وموضع الإخلاص هو – أي التفسير – صحيح أو هو خاطىء . ولكنّنا نرى نزعات الفكر الدينيّ مثلما رأينا الأمر نفسه في تاريخ المسيحية . « وتمجيد » « ورفع » المؤسِّس أخَذَ ، طبعاً ، أشكالاً مختلفة الطابع في الديانتين ؛ ولكن في كل حالة من هاتين الحالتين نمت التقاليد وتطورت للحديث عن المؤسِّس بأسلوب وتعابير لم يَسْتَعْمِلْها المؤسس نفسه ، ولِفَهْمِهِ عبرْ عقائد مُعقّدة نشأت تدريجياً على أيدى الأجيال المتعاقبة من أتباعه .

ولكن يمكن القول أن هناك – على الأقل – اختلافاً كُلّيَّ الأهميّة بين (يسوع) و(غوتاما) ، وهذا الاختلاف هوالذي يُبرّر إضفاءَ الصفات الإلهيّة على أحدهما – الأول – وليس على الآخر ، وهو أن (يسوعاً) (قام) بعد موته ، ألا يُميّزه هذا (القيام بعد الموت) عن غيره من جميع البشر ويُظهر أنه الإله المتجسِّد ؟؟ .))

حتما ... هذا النقاش يطرح نفسه ... ومع ذلك يظهر أنّه من الصعب تأييده . كان هناك نوع ما .. من حادثة رؤية يسوع بعد موته مرّة أو أكثر عُرفت فيما بعد أنّها (قيامه)؛ ويظهر أن الأمر مؤكد في الواقع نظراً لبقاء ونماء حركة يسوع الصغيرة الأصل . ولكن لا يمكننا أن نتأكد اليوم ممّا آشتملت عليه حادثة (القيام) هذه . فالاحتمالات تتراوح بين رؤية جسد يسوع مستعيداً للحياة ... و(رؤى) السيد الإله في مجده المتألّق . ولكن يجب الشكُّ في أن حادثة القيام – مهما كانت طبيعتها – جعلت معاصريه ينظرون إليها على أنّها ضمان ألوهيّته؛ فعودة الحياة للميت – بمعناها الحرفي – لم تكن تُعتبر في ذلك الوقت وفي تلك الدوائر على أنها هزّةٌ عنيفة أو أنّها بعيدة التصديق كما يَنظر إليها الآن العقل المعاصر . وهذا واضح من ذكر قيام الموتىٰ ، مرّات متعدِّدة في كتب العهد الجديد – الأناجيل – وكتابات آباء الكنيسة . لقد ذُكِرَ أن يسوعاً أحيا (عازر) من موته (إنجيل يوحنّا – 11.1-44) ، ابن إحدى الأرامل (إنجيل لوقا – 7.11-17) وابنة (جيروس) (إنجيل مرقص – 5.35-43) و (إنجيل لوقا 8.49-56) ؛ وأنه قال لرُسل يُوحنّا المعمدان أن ينقلوا أنّهم رأوا ليس فقط إعادة البصر للمكفوفين والمشي للكسيحين بل بعث الموتىٰ أيضاً (إنجيل متّى – 11.5) ؛ ويُسجّل (متّى) أنّه في فترة صلب يسوع « فُتحت القُبور وكثير من أجساد القديسين الذين كانوا نائمين ... قام ، وبعد خروجهم من قبورهم ذهبوا إلى المدينة المقدسة وظهروا أمام كثيرين من الناس » (إنجيل متّى 27.52-3) . كذلك يدّعي كاتب الرسائل الدينية الموجهة للعبريين أنّ « استقبال النساء لموتاهم

بعد بعثهم » كان علامة إيمان في العهود القديمة (الرسائل العبرية - 17.17.24 سفر الملوك 11.35.cf;I,) ؛ وكتب (أيرينيُوس) في الربع الأخير من القرن الثاني الميلادي مُشيراً إلى قيام الموتى ، على يد الحواريين ، ومراراً على يد أهل الكنيسة بعدهم(٣) . لذا فادّعاء أن يسوعاً قام بعد الموت لا يضعه - أي هذا القيام - بصورة آلية في نوعية فريدة خاصّة . إن ذلك يُشير فقط إلى انّ العناية الإلهية حفظت له مكاناً خاصاً وهذا ليس مساوياً لاعتباره « إلهيّاً » بالمعنى الحرفي . فيسوع ، كما قيل ، لم يقم بعد موته بفعل طبيعة إلهية يمتلكها هو بل الله هو الذي بعثه . وطبقاً لذلك لم يستخلص الدعاة المسيحيون الأوائل أنّ يسوعاً نفسه هو الله بل إنه إنسان اختاره الله لدور خاص وأعلن بقيامه أنّه المسيح والسيّد (الكتاب الخامس من العهد الجديد - 2.22,36-)(*) .

ومن وجهة نظرنا اليوم ليس من السهل قبول حكايات قيام يسوع جسديّاً بخاصّةٍ إذا كانت الحادثة قبل عشرين قرناً من الزمان عندما كان الإثبات المكتوب مُتناقضاً في تفصيلاته وصَعْب التفسير والتعليل . ومع ذلك فإذا تخيّلنا حدوث انبعاثٍ جسديّ اليوم فليس من المؤكد أنّنا سنعتبره بالضرورة دليلاً على (الألوهية) - أي ألوهية هذا الجسد - ، ولقد وضّح (جورج كِيْرْد) هذه النقطة بشكلٍ حسن حين كتب :

« لنفرض أنّك ستُوَاجَهُ غداً بدليلٍ لا يُدْحَض ، أنّ أحد معارفك الذي تأكدت من موته رآه أحد الشهود الثقات حيّاً ، فمن المؤكد أنك ترى نفسك مضطرّاً لإعادة النظر في أفكارك عن العلم ، ولكن أشك في أنك ستَسْتَنْتِج أنّ صاحبك هذا ... الذي بُعث هو (إلهيّ) وأن خاتم الإصالة قد وُضع على كلّ ما سبق أن قاله أو فعله »(٤) .

ونعود بعد هذا إلى موضوع رَفْع الكائن البشري إلى المرتبة الإلهيّة ، هذا

(*) كتبه القديس لوقا كاتب الأنجيل الثالث (إنجيل لوقا) .

الفهم عن يسوع الذي أصبح بعد ذلك العقيدة الجازمة (الدوغما) الأرثوذُوكسيّة للمسيحيين ، يعتبر يسوعاً الإله الابن المتجسّد الأقنوم الثاني في الثالوث الذي يعيش حياة بشريّة . وفي وَضْعِه كذلك كان - بتعبير المذهب (النيقيني) - : « ابن الله الأوحد الذي كان منذ الأزل ، نور الأنوار الله الحق لله الحق، وُجد ، ولم يُخلَق ، من نفس نسيج الإله الآب». ولكنْ هذا أبعد ما يكون عمّا يُفترض أنّ يسوعا التاريخي قد فكر فيه أو دعا إليه،مثلما هي عقيدة (الأجسام الثلاثة) أبعد ما تكون عما يُفترض أن (بوذا) - غوتاما - فكّر فيه ودعا إليه . إذا قبلنا ، رغم الدراسات العصرية الضخمة للأناجيل ، أن الإنجيل الرابع هو تأملات لاهوتية عميقة بشكل دراميٌ، تُعبر عن التفسير المسيحي ليسوع والذي تبلور (رُبّما في أفيسُوس) في أواخر القرن الميلادى الأول ، أقول ، لن نستطيع أن نعزو إلى يسوع نفسه هذه الأقوال الكبيرة المنسُوبة إليه مثل : « أنا والآب ... واحد » ، « لا يأتي أحدٌ إلى الآب إلا أنا » ، « الذي رآني ... رأى الآب»؛ ولكنّنا مع ذلك نأخذ من الأناجيل الأوائل الثلاثة - (متّى ومُرقص ولوقا) الانطباع عن وجود شخص حقيقي له رسالة حقيقية وراء الإشارات المتناقضة ، غالباً ، المذكورة في التسجيلات الدينيّة . وتعطينا هذه الوثائق ثلاث مجموعات من الذكريات العامة عن يسوع متأثرة ، بأساليب مختلفة ، بحاجات ومصالح ومناسبات الدوائر المسيحية التي ظهرت فيها هذه الوثائق . وبتقديم انطباعي الشخصي أنا أعمل ما سبق أن اقترحت أن يفعله كل واحد أي أن يصف يسوعاً الذي يُسميه « السيد المسيح » ؛ ويجد المرء في دلائل كتب العهد الجديد إشارات تُلبّى كل حاجاته الروحية . وأرى أهل الناصرة في ذلك الوقت واعين بشدّة وبشمول لِحَقِيقَة الله . كان رجلا من رجال الله يعيش في حُضور الله الذي لا يمكن رؤيته وكان ينادي الله بكلمة أبّا - abba أي الوالد.كانت روحه منفتحة على الله وكانت حياته استجابة مستمرّة للحب بكل رحمته ومتطلّباته . كان يعي بقُوّةٍ وجود الله ممّا جعل حياته تتموّج تبعاً للحياة الإلهية ، ونتيجة لذلك استطاعت يداه أن تشفي المريضَ وينقذ وجودُه ضِعَاف النفوس بتحويلهم إلى

حياةٍ جديدة . ولو أنا أو أنت التقينا به في فلسطين في القرن الأوّل الميلادى لكُنّا شعرنا – آملين ذلك – بأضطراب عميق وتحدًّ في حضوره . لكُنّا شعرنا الادعاء المُطلق بأن الله يُواجهنا ويدعونا لنُعطيه ذواتنا كُلّية لنُولد من جديد كأولاده وكوكلاء لأهدافه على هذه الأرض . والاستجابة ، بكُلّ كياننا ربّما كانت تُعرِّضنا للمخاطر ، للفقر ، وللسخرية . وهذا هو التفاعل بين الجسم والعقل ، ففي قرارنا لتسليم ذاتنا لله استجابة لدعوته التي نقلها يسوع . ربّما وجدنا أنفسنا نرتجف أو نبكي أو نردّد أصواتا غريبة تُسمّى « الحديث بالألسن المختلفة » .

ولكن ، مع التحدّى ، تعرض الأناجيل أنّنا رُبما نشعر بالمقابل ، مثل الوجه الآخر لقطعة النُقود المعدنية ، بسرور ديناميّ باختراق لِوُلوج عيشٍ جديد أحسن نوعاً ... متناغم مع الحياة الإلهيّة ومُستند بأمان على الحقيقة الإلهيّة . وهكذا ففي حضور يسوع، كان علينا أن نشعر بأنّنا في حضرة الله – ليس بمعنى أن يسوعاً – الإنسان – هو حرفيّاً الله، ولكن بمعنى أن يسوعاً كان يعي كُليّاً وجود الله لدرجة أنّنا رُبّما استطعنا – بالعدوى الروحية – أن نُصاب منه ببعض هذا الوعي الكُلّي؛ على الأقل هذا ما كان مُحْتَمل الوقوع . ولكن هناك أيضاً إمكانية الهروب من هذا الحضور المتحدّي إمّا لعدم قُدرتنا أو لعدم رغبتنا في الاعتراف بدعوة الله على أنّها آتية إلينا عبر شاب متواضع من الطبقة الكادحة؛ وهكذا نُغلِق أنفسنا له ... وفي نفس الوقت...لله. إذن فلقاء يسوع شخصياً أو عن طريق صُوَره في الأناجيل كان دائماً – أي اللقاء – نقطة تحوُّل في حياة أيِّ واحد؛... أزمة إنقاذ أو محاكمة .

إذا كان هذا التفسير هو على الخط الصحيح ، لم يكن باستطاعة يسوع عدم ملاحظة أنه هو نفسه كان يعي بقوّة وجود الله وأنّه كان مُخلصاً في طاعته لله أكثر بكثير ممّا يمكن قوله عن أيّ من المعاصرين الذين لاقوه أو سمعوا عنه . كان على يسوع أن يعي أنه بينما لدى الرجل والمرأة العاديين غالباً شعور ضئيل وغير مباشر بوجود الله ، وبينما الكتب المقدسة والفريسيّون استعملوا الدين غالباً لتدعيم

مراكزهم الشخصية ذات الامتيازات ، كان هو – أي يسوع – نفسه عالماً بصورة استغراقية ومباشرة بوجود (الآب الإلهي) بحيث يستطيع التحدث عنه بثقةٍ ومسؤولية؛ ويستطيع دعوة الرجال والنساء ليعيشوا كأولاده ، ويستطيع إعلان حكم الله وغُفرانه ؛ ويستطيع أن يشفي المريض بقُوة الله . وكان يسوع واعياً بلا شك بموقعه الفريد بين معاصريه وعبَّر عن هذا الوعى بقبوله للقب المسيح ، أو كبديل ، بتطبيق صورة ابن الإنسان السماوي عل نفسه ، واللقَبان يعنيان بشراً دُعيَ ليكون خادماً خاصّاً لله ووكيلاً له على هذه الأرض .

ووعي يسوع الحميم بوجود الله ، وسلطته الروحيّة النابعة من ذلك الوعي ، وفاعليته كسيّد وكمُعْطٍ لحياة جديدة ، كل ذلك تطلّب من تلامذته أن يجدوا لغة مناسبة يتكلمون بها عن معلّمهم وسيّدهم ؛ وكان عليهم أن يُفكروا بها بطريقة تتوازن مع قيام حركة الحواريّين التي استحضرها هو نفسه . وهكذا لقّبه أتباعه من اليهود بالمسيح وهذا اللقب ، الغامض إلى حدٍّ ما ، تطوّر في معناه داخل الكنيسة المختلطة – يهوداً وأمميّين – حتّى وصل في النهاية إلى نقطة (التأليه) .

ولكن كيف وصل اليهود ، مع الأمميّين من المسيحيين ، إلى عبادة كائن بشرىّ مُحطِّمين هكذا فكْرتَهم فى وجود إله واحد بطريقة أوْدَت بهم إلى الميتافيزيكية – ما وراء الطبيعة – المعقّدة للتثليث . لأنّ التعاليم المسيحيّة الباكرة ، كما نقلنا عنها (من الكتاب الخامس للعهد الجديد) تقول إن يسوعاً أعلن أنّه إنسان أرسله الله إليكم مُؤيداً بأعمال ضخمة وعجائب وأمارات (الكتاب الخامس 2.22)؛ وبعد ثلاثين سنة فقط آفْتُتِحَ إنجيل (مرقص) بهذه الكلمات : « ابتداء إنجيل يسوع المسيح ... ابن الله » . وفي (إنجيل يوحنّا) الذي كُتب بعد سنةٍ أخرى عُزِيَ هذا الكلام إلى يسوع نفسه وصُوِّر أنه إله يمشي على الأرض .

لماذا وكيف حصل التأليه ؟ كان واضحاً من نتائج تأثير يسوع على البشرية أنه كان شخصيّة تمتلك قوّة روحيّة هائلة . والذين أصبحوا حواريّين له « ولدُوا

من جديد » وعاشوا بعد ذلك واعين باستمرار وجود الله وخدموا بسرور الأهداف الإلهية على هذه الأرض، وانتقلت تجربتهم - بدون نقصان تقريباً - إلى عدّة أجيال بعدهم وتصلّب عود الإيمان المسيحي في نار الاضطهاد . وتركّز هذا التيّار الحيوي المُغيِّر ، للتجربة الدينيّة، على يسوع كمسيح وكسيّد . وبالنسبة للمؤمن العادي الذي عاش في الأخوّة المسيحية المتماسكةِ الحَبْك كان يكفيه لاشك أن يفكر ويتكلّم عن يسوع كسيّد فقط؛ ولكن لم تدُم هذا الحال ، وربّما نمت ضغوط بعد ذلك أدّت لاستعمال ألقاب تعرض بوضوح أكثر، التحدي الذي تحْمِلهُ قوّة يسوع المُنقذة...: أوّلاً في إطار الجالية اليهودية...، ثم لعالم الأمميّين في الإمبراطورية الرومانية . ولا يمكن لهذه الألقاب أن تكون إلا أرفع ما هو موجود . وعندما حصل التغيير في نفوس الرجال والنساء الذين لقوا يَسوعاً أصبح الأخير المركز الديني لوجودهم ... له الإخلاص وله ...الولاء ، « السيد » الذين صاروا بعد آتباعِه ، يُقدمون حياتهم لله ويستلهمون من الله حياتهم الجديدة . لذا كان من الطبيعي أن يُعَبِّروا عن تمجيدهم للسيد يسوع بأسمى ما عند ثقافتهم من تعابير وألقاب ، وتبعاً لذلك نجد ضمن كُتب العهد الجديد - الأناجيل - مُختلف التعابير التى جربوها . ولم يكتب لبعض هذه التعابير الأستمرارية ، مثلا التعبير الفلسفيّ للحشر مُسمّياً يسوعاً: « ابن الانسان الذي سيجيء على غيوم سماوية » لم يُستعمل هذا التعبير خارج التقارير عن دروس يسوع ؛ ووصْف القديس (بولص) المميّز ليسوع (آدم الثاني)، رغم بقائه حتّى يومنا هذا إلا أنه لم يُستعمل أبداً بأسلوب واسع أو مركزيّ . واستعمال القديس (يوحنّا) لفكرة (الكلمة - Logos) بقيت هامّة حتّى الآن، ولكن كلقب لاهوتي في الغالب . ولكن التطور المركزي هو ذلك الذي بدأ بيسوع كمسيح لليهود وبلغ القمّة في عقيدة (أهل نيقيا) معتبرين يسوعاً (الإله الابن) المتجسد والأقنوم الثاني في التثليث . ولقد عرض (مايْكِلْ غوْلِدِرْ) و (فرنسيس يونغ) في الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب، كم كانت مُنتشرة فكرةُ التجسّد - الحلول - الإلهي في

الحياة البشرية في العالم القديم ؛ لذا ليس من المستغرب أبداً تأليه يسوع في تلك البيئة الثقافية . ففي اليهودية نفسها فكرة تسمية الإنسان : ابن الله كانت تستند إلى تقليد قديم . (فالمِيسَّايا – المسيح – Messiah) سيكون ملكاً على هذه الأرض من نسل داوود ، وكل الملوك القدماء من نسل داوود كان تبنيّهم على أساس (ابن الله) عند رَسْمِهم لاستلام السلطة، وكلمات (الإصحاح 2.7) : قال لي « أنت ابني اليوم رُزقت بك » ربّما كان تستعمل أصلاً في حفلات التتويج؛ونصّ هامٌّ آخر في (II صاموئيل 7.14) : «سأكون أنا أباه وسيكون هو ابني » قيل أيضاً في الأصل، لملوك الأرض . لذا فاللغة السامية التمجيديّةالتي استعملتها الكنيسة باكراً والتي طُبِّقت على يسوع ، كانت جزءاً من التراث اليهودي . ومن الشعر البديع مثلاً في قصّة البِشَارة :

« سيكون عظيماً .. سيُدعى ابن الملأ الأعلى ؛ والله « السيد » سيُعطيه عرش أبيه داوود ، وسيحكم في بيت يعقوب إلى الأبد ؛ ولن يكون لمملكته نهايةٌ أبداً » (إنجيل لوقا 3-1.22) . يقول (ر . هـ . فولّر): « ليس هناك شيء مسيحيّ بخاصّة في هذا المقطع غير النصّ الذي وضعه (لوقا) فيه؛ومن الجائز أنه جزء من كتابة يهوديّة قبل العهد المسيحي »(٥) فهذهاللغة،ومن المستبعد أن تكون تأثيراً حديثاً لتعاليم يسوع ، كانت موجودة قبلاً في التقاليد الثقافيّة اليهوديّة وطبّقها هكذا ، بسرعة على يسوع ، الذين رأوا فيه أنه المسيح .

كيف علينا إذن فهم هذه اللغة القديمة عن « البنوّة الإلهية » ؟ هل كان يُفكِّرُ في المَلِك – حرفيّاً أو استعارة – أنه « ابن الله » ؟ ربّما كان سؤالى هذا حادّاً مباشراً ، فالثقافات السابقة لم ترسم حدّاً فاصلاً كما نُميّز الآن ؛ ولكن – في تقديرنا ومفهومنا – يظهر أنّ اللقب كان استعاريّاً وشرفيّاً ، وأنقل عن (موونْكِل) قوله : « يقف الملك في كل مكان قريب الصلة بـ(يهوه) أكثر من أيّ إنسان آخر . « هو ابنه » (الإصحاح ii,7) . وفي لغة الأساطير يُقال إنّ (يهوه) هو الذي « جاء به » أو أنّه ولد لآلهة الفجر على الجبل المقدس

(الإصحاح – cx,3) [٦] . ولكن بالرغم من كل الاستعارات الأسطورية عن مولد الملك لم نجد أبداً في بني إسرائيل أيّ تعبير عن فكرة ميتافيزيكية عن ألوهيّة الملك وعلاقته بـ (يهوه) . فمن الواضح أن الملك يُنظر إليه كآبن لـ (يهوه) بالتبنّي »[٧] .

حقّاً ربما كان فقط في قصص الولادة العذرية ليسوع في إنجيل (متّى) و(لوقا) قد فُكّرَ « بالسيد » المرسوم داخل إسرائيل على أنّه – جسديّاً – ابن الله . ومع ذلك فالمعنى المادي للبُنوّة الإلهية يتناقض مع قصّة (تعميد) يسوع حيث آستعمل تركيب قديم كان يُقال في حفلة تتويج الملك ؛ (« أنت آبني » – الإصحاح 2.7 – قيلت من الفضاء)[٨] ويظهر أن هذه إذن كانت نقطة البدء أو المدخل لفكرة البنوّة الإلهيّة في الآثار العبرية ؛ والاعتقاد بأن يسوعاً هو من سلالة داوود الملكية وإعطائه لقب المسيح ، كل ذلك بَعَثَ من جديد صورة البُنُوّة الإلهيّة حول يسوع . ومن هنا جاءت الجملة التي بدأ بها (مرقص) إنجيله « يسوع المسيح ابن الله » ومع نُموّ اللاهوت المسيحي عبْرَ القرون، حصل الانتقال الهام من (ابن الله) ... إلى (الإله الابن) . الأقنوم الثاني في التثليث . وتغيير الصورة الشعرية : (ابن الله) ...إلى عقيدة التثليث – الإله الابن، ظهرت في الإنجيل الرابع وسُمح بها رسميّاً منذ ذلك الوقت داخل الكنيسة بقبول الإنجيل الرابع قبل نقده ، والذي يُقرّر أن تعاليم يسوع تاريخية. فالصفة البارزة في الإنجيل الرابع هي أنّ دعوة يسوع تتركّز حول ذاته (كابن الله) بمعنى فريد يتساوى في الواقع مع مقولة أنّه (الله المتجسد) . ففي هذا الإنجيل « يسوع » نفسه هو موضوع الدعوة، وآتّبع لاهوت الكنيسة أكثر ما أعاد (يوحنّا) كتابته من تعاليم يسوع ؛ إنها إعادة كتابته على كل حال ، ومن المُلفت للنظر أنّ دعوة يسوع وتعاليمه في الأناجيل السابقة لم تتركز على نفسه بل على مملكة الله .

وممّا لاشك فيه كما أظن، أن تأليه يسوع جاء – جزئيّاً – بل وربّما في

الغالب – كنتيجة للتجربة المسيحيّة في التصالح مع الله ؛ فالحياة الجديدة التي جاء بها يسوع لحوارييه والتي آستجلبُوا إليها هم ، بدورهم ، آخرين ، كان يتخللها معنىً مجيد من التسامح الإلهي والحُبّ الإلهي . وعاش المسيحيّون الأوائل وفرحوا لمّا عرفوا رحمة الله . وكان الأمر بديهيّاً بالنسبة لهم كيهود تأثروا بتقاليد قديمة عن تضحيات الكهنة ، وإنه لن يكون هناك غفران للخطايا بدون إراقة الدم (العبريات 9.22) . إذن كان هناك انتقال طبيعي في أذهانهم من تجربة التصالح مع الله كحواريين ليسُوع إلى فكرة موته كتضحية وكفّارة ، ومن هذه إلى الاستنتاج أنه حتّى يكون موت يسوع كفّارة كافية عن خطايا الإنسان كان يجب عليه أن يكون إلهيّاً ! .

لذا كان مفهوماً وطبيعيّاً أن يُحيّي الناس يسوعاً على أنه الذي التقى الناس من خلاله لقاء حاسماً بالله ووجدوا حياة طيبة جديدة ؛ ويُهتفُ له على أنّه (ابن الله)، وأن يُصبح الشعر ، فيما بعد ، نثراً صلباً ويُصعَّد الأمر من استعارةٍ تَصِفُه بابن الله ليُعتبر – ميتافيزيكيّاً – (الإله ..الابن) من نفس نسيج الآب في إطار (الثالوث في واحد) . كانت تلك طريقة مؤثرة في تلك البيئة الثقافية ... أن يُعبّر عن أهمية يسوع بوصفه الشخص الذي من خلاله حدث اللقاء المُغيِّر للناس ... بالله ؛ لقد جرّبوا حياة جديدة وقوّة جديدة وأهدافاً جديدة . لقد أُنقذوا ، انتُشِلُوا من ظلام الأنانيّة الدنيويّة إلى نور الحضور الإلهي . وبسبب المحافظة – والتي هي جزء من الدين – بقيت اللغة التي عبّر بها المسيحيون عن أهميّة يسوع أسطوريّاً وفلسفيّاً في أوروبا القرون الثلاثة الأولى ، وهي نفسها اللغة التي نرثُها اليوم . ولكن يجب ألّا ننسى أبداً أنه لو آتّجهت المسيحيّة شرقاً حتّى الهند بدلاً من توجّهها غرباً إلى الامبراطورية الرومانية لرُبّما عُبِّر عن أهمية يسوع بتحيته في إطار الثقافة الهندوسيّة ك (أفاتار إلهيّ) وفي إطار البوذيّة الماهايانيّة التي كانت تنمو آنذاك في الهند ك (بوديسَاتْفا)...، والواحد الذي حصل على الوحدة مع الحقيقة النهائية .. ولكنّه بقي في عالم البشر رحمة بالإنسانية وليعرض على الآخرين

طريقة الحياة ، ولكانت هذه ، التعبير المناسب في إطار هذه الثقافات ، للحقيقة الروحية الواحدة .

في الماضي قبل المسيحيون بصورة عامّة ، اللغة المتداولة عن يسوع كجزء من مظهر إخلاصهم ، دون أن يُثيروا ايّة تساؤلات عمّا إذا كانت منطقيّة أم لا . لم يسألوا ما هو نوع اللغة المستعملة عندما يقول أحدهم أنّ « يسوعاً هو الله ... الابن المتجسّد » هل هذا تعبير حقيقي- (بيان مختلطٌ - افتراضاً - عن حقائق تجريبيّة وميتافيزيكيّة)، أو هل يُعبّر عن التزام أو محاكمة تقييميّة ، وهل هو ذو معنى حرفي أو مجازي أو رمزي أو أسطوري أو شعريٌ ؟ مثل هذه التساؤلات رغم أن آثارها ، غالباً كانت غير مباشرة ، طرحت بصورة مباشرة فقط في الأزمنة الأخيرة حيث وجّه الاهتمام الفلسفي بصورةٍ مرتّبةٍ إلى استعمالات اللغة بما فيها اللغة الدينيّة ؛ ونحن كمعاصرين لثقافة عالمنا اليوم نثير هذه التساؤلات الوجيهة ... بل والحتميّة .

علينا أن نوجّه هذه الأسئلة بخاصة لدراسة المسيح عن « الطبيعتين » لـ (نيقيا) و (شلدُون) التي أصبحت فيما بعد عقيدة المسيحية الأرثوذُوكسيّة . كان جزءٌ منها (ميتافيزيكيّا) والجزء الأخير تجريبيّاً : ..تجربتنا في تأكيدها على أن يسوعاً هو كائن بشرى ، وميتافيزيكيّا على أنّه كان الإله . فإذا فرّقنا بين بيان حرفيّ من ناحية ، - سواء كان هذا البيان تجريبيّاً أو ميتافيزيكيّاً-، وبين بيانات أخرى مجازيّة شعريّة رمزيّة وأسطوريّة ، فإن تركيبة (نيقيّا) كان المقصود بها بلاشك أن تُفهم بمعناها الحرفي . إنّها تُؤكد أنّ يسوعاً كان - بالحرف - لا تشبيهاً ولا استعارةً- إلهيّاً ، وبالحرف أيضاً - لا تشبيهاً ولا استعارة - بشريّاً . فبصفته إلهيّاً لم يكن مشابهاً لله أو بلغة الشعر - إلهاً أو كأنه الإله ، كان فعليّاً وحرفيّاً (الله المتجسّد) . وأيضاً ككائن بشرى كان حقّاً وواقعاً وحرفيّاً إنساناً .

والسؤال الكبير المتعلق بهذه العقيدة اليوم هو ما إذا كان لها أيُّ معنى - غير مجازيً-، إنّها تعني بوضوح وحرفيّة أن يسوعاً هو إنسان ، هو جزء من الجدول التكويني - الإرثي للحياة الإنسانيّة ، مُتناهي الذكاء والمعلومات والطاقة ؛ ومتأثراً ببيئة ثقافيّة خاصة . ولكن ماذا يعني القول ان هذا الإنسان هو الأقنوم الثاني في الثالوث المقدّس ؟ لقد بُذلت الجهود لمدّة طويلة في عهد مؤسّسي الكنيسة لإعطاء هذا القول (معنى)، ولكن تبين أن كل المعاني غير مقبولة (أي من نوع الهرطقة) . إذا قال أصحاب تفسير التبني إنّ يسوعاً كان إنساناً تبنّاه الله لسبب إمكاناته الروحيّة الخاصة ، ليُصبح (ابن الله) ، فهذه ، رغم أنّها توافق الفكرة اليهودية الأصلية ، كما رأينا من أنّ الملك هو ابن الله بالتبنّي ،لا تَسمح ليسوع بأن يكون (من نفس نسيج الآب) . كذلك الملاحظة بأن يسوعاً كان إنساناً تَسْكُنُه بصورة فريدة (الروح القدس) ، أو - بتعبير عصرى - الحالة الأسمى لـ « تناقض النعمة » ، وأيضاً لا يُظنّ أن الأمر كافٍ في القول أن يسوعاً كان إنساناً مسؤولاً كُلّيّاً أمام إرادة الله ، فهذا القول لا يعترف بوصفه الإلهي على أساس أنه (الكلمة الإلهية - Logos) ... موجود منذ الأزل ، والأقنوم الثاني في الثالوث ؛ وكذلك اقتراح (أبُولينارس) أنّ يسوعاً (الكلمة - Logos) الخالدة حلّ محل النفس المنطقيّة بينما (النفس الحيوانية) والجسم كانا بشريّين ؛ فهذا الاقتراح يُؤكد أُلوهيّة يسوع على حساب بشريّته لأن هذه النظرة تعني أنّ ذاته الأساسيّة لم تكن بشريّة بل إلهيّة . وبمقابل كل هذه النظريات ، والتي كانت محاولات حسنة النيّة لإعطاء معنىً لصيغة (الإله - الإنسان) ، أصرّت المسيحيّة الأرثوذُوكسيّة على (الطبيعتين) : الإلهية والبشرية المتلازمتين في الشخصية التاريخيّة ليسوع المسيح . إلا أن الأرثوذُكسيّة لم تستطع قط أن تعطي هذه الفكرة أي مضمون . لقد بقيت بشكل كلمات دون تخصيص معنى لها . لأن القول ، دون تفسير ، إن يسوعاً الناصرى التاريخي هو أيضاً ...الله . هذا القول خالٍ من أي معنىً ، كما لو قلنا إن هذه (الدائرة) المرسومة بالقلم على الورق هي أيضاً (مَرَبّع) . مثل هذا

النُّطق يحتاج لمضمون لغوي . وبالنسبة للّغة المتداولة في موضوع التجسّد ، كل ما اقتُرح من مضامين حتّى الآن كان مرفوضاً . والصيغة (الشالسيدونيّة) التي توقّفت عندها المحاولات، أعادت ببساطة فكرة أنّ يسوعاً هو في نفس الوقت إنسان وإله ؛ إلّا أنها لم تُحاول تفسير هذه الصيغة لذا يبدو من المنطقي الاستنتاج أن القيمة الحقيقيّة لعقيدة التجسّد ليست تبيينيّة بل تعبيريّة ؛ ليست لتأكيد حقيقة ميتافيزيكيّة بل للتعبير عن تقييم وتقدير ولاستعادة موقف . وعقيدة التجسّد ليست نظريّة يجب أن تكون قادرة على التحديد ولكنّها - بتعبير استعمل كثيراً عبر التاريخ المسيحيّ - سرٌّ غامضٌ . وأنا أرى أن أحسن تعبير عن طبيعتها هو في القول : إن فكرة التجسّد الإلهي هي فكرةٌ أسطورية - ميثولوجية -) . واستعمل هنا تعبير (أسطورة - myth) بالمعني التالي : الأسطورة هي قصّة تُروى ولكنّها ليست - حرفيّاً - حقيقيّة ، أو أنّها فكرة أو صورة مُطَبَّقةٌ على شيء أو على واحد ولكنّها لا تنطبق عليه بحرفيّتها بل تستدعي موقفاً خاصّاً من المستمعين لها . وهكذا فحقيقة الأسطورة هي : نوع من الحقيقة التطبيقيّةمُشكّلة من تناسب الموقف مع الموضوع . (فيسوع كان الإله الابن المتجسّد) ليست صحيحة - حرفيّاً - لأن هذا التعبير لا معنى حرفيّاً له بل هو تطبيق لفكرةٍ أسطورية عن يسوع ... وظيفتها مشابهة لفكرة البُنوّة الإلهية التي أضفيت على الملك في العالم القديم . وفي حالة يسوع تُعطي تعبيراً نهائيّاً عن جدواه كمنقذٍ من الخطيئة والجهل وكمعطٍ لحياة جديدة ؛ إنّها تُقَدِّم طريقة للإعلان عن أهمّيته للعالم ؛ وتعبّر عن التزام أتباع يسوع بأنّه « سيدهم » شخصيّاً . فهو الواحد الذي وجدنا أنفسنا بأتباعه ، في حضرة الله ووجدنا معني الله في حياتنا . هو مثالنا الكافي للإنسانيّة الحقيقية في علاقة كاملة مع الله . وهو ، لذلك فوقنا « في آتجاه » الله إذ يقف بيننا وبين الملأ الأعلى كوسيطٍ لخلاصنا . وكل ذلك مختصرٌ ومُعبّر عنه بأسلوب ماديّ جليّ في اللغة الأسطورية عن يسوع ابن الله « الذي جاء من السماوات لخلاصنا وُجُعِل لحماً ودماً للروح القُدُس وللعذراء مريم ، وأصبح بشراً وصُلب من أجلنا

إبّان حُكم (بيلاطوس) ، وتعذّب وقُبر وقام مجدّداً في اليوم الثالث ، كما تقول الكُتُب المقدّسة ؛ وصعد إلى السماء وجلس على يمين الآب ويأتي من جديد بالمجد ليُحاكم الأحياء والأموات ، ولن تكون لمملكتِهِ نهاية » (عقيدة أهل نيقيّا) .

خدمَتْ هذه الرموز أغراضها جيّداً لأكثر من ألف عام (يسوع ابن الله ، الله الابن ، الله المتجسّد ، الكلمة التي أصبحت لحماً وعظماً ..)؛ ففي إطار الكنسية كانت هذه الرموز ، للعديد من الناس ، تعبيراً مُجْدياً في الإخلاص ليسوع « السيد » . ولم يكن من المهم كثيراً جدّاً أن يتحوّل مفهوم هذه الرموز في الذهن المسيحي من مجرّد رموز إلى بيانات حرفية المعنى . ربما لم يكن هنالك بُد من ذلك وكان الأمر جزءاً من التفسير الحرفي للتوراة أيضاً في نفس الفترة الزمنيّة . ولكن ... من وجهة نظر القرن العشرين : استعمال التوراة بهذا الشكل كان دائماً خطأ ، ورغماً عن ذلك ربّما لم يكن هناك ضررٌ كبير ، بالمقارنة ، طالما أنّ ذلك لم يتعارض مع نموّ المعرفة الإنسانية . ومع ذلك ، ابتداءً بالقرن السابع عشر ووصولاً لأقصى مدًى في القرن التاسع عشر ، برزت التناقضات ونمت وأجبر أصحاب التفسير الحرفي للكتب المقدّسة على موقف خاطىء في آستنكار ما اكتشفهُ علم الفلك وعلم المستحاثّات ، وعلم البيولوجيا التطوّرية . واليوم ، وعندما ننظُرُ إلى الوراء نرى عدم قُدرة رجال الكنيسة في الماضي قبول المعلومات العلمية على أنّها من عند الله ، ورفضهم أن يستفيدوا منها لِفَهم أدق وأشمل للتوراة ؛ ونرى أن كل ذلك مُضرّ جدّاً بالدعوة المسيحيّة . وهناك شيء مُشابه إلى حدٍّ ما ، بدأ كثير منّا يتحقّق منه وينطبق على التفسير الحرفيّ للغة الولاء ليسوع ، والتي هي في الأساس شاعريّة ورمزيّة؛ فالفهم الحرفي لـ (ابن الله) و(الإله الابن) و(الإله المتجسّد) يعني أنّه لا تُمكنُ المعرفة الكافية لله والاستجابة له إلّا من خلال يسوع فقط . وكلّ حياة دينيّة للبشريّة غير تيّار الإيمان (اليهودي – المسيحيّ) هي حسب ذلك التفسير ، خارج دائرة الخلاص . ولم يُسبّب هذا التضمين إلا ضرراً قليلاً طالما كان العالم المسيحي مدنيّة مستقلة ذاتيّاً إلى حدٍّ كبير،

مع تماسٍ وتفاعلٍ هامشي نسبي مع بقيّة البشريّة . ولكن مع بدء الصدام بين العالمين المسيحيّ والمسلم ، ثم مع التوسُّع المتنامي لجبهة الاستعمار الأوربّي في سائر أنحاء الأرض ، كان للفهم الحرفي للّغة الأسطورية للمسيحيين أثرٌ قاسٍ للعلاقات بين تلك الأقليّة من البشر التي تعيش في بلاد التقاليد المسيحية وبين الأغلبية التي تعيش خارجها في تيّاراتٍ دينيّة أخرى .

وبتعبير لاهوتي ، المشكلة التي طفت على سطح لقاء المسيحية بديانات العالم الأخرى هي : إذا كان يسوع – حرفيّاً – الإله المتجسّد ، وإذا كان إنقاذ الناس فقط في موته ، وفي استجابتهم له وحده يستطيعون امتلاك ذلك الخلاص ، إذن الطريق الوحيد للحياة الأبديّة ... هو الإيمان المسيحي . ويتبع ذلك أنّ الغالبية العظمى من الجنس البشرى لم تُستنقذ حتّى الآن . ولكن هل من المعقول أنّ الله المُحبّ والآب لكل الناس ، أصدر مرسوماً يقضي بأن الذين ولدوا في خطٍّ معيّن من التاريخ الإنساني هم فقط الذين سينقذون ؟ أليست هذه الفكرة وهي غاية في الضيق ، تعرض الله في الواقع ... وكأنه إله قبليّ للغرب المسيحي في غالبيّته ؟ ولذا بدأ اللاهوتيون حديثاً في إعادة طباعة حواشي كثيرة على علم اللاهوت القديم ... بالأحرف الصغيرة، تُشير – أي الحواشي – إلى أن المخلصين من أتباع الديانات الأخرى كانوا مسيحيين دون أن يعوا هُم أنفسهم ذلك ، أو أنهم مسيحيّون غير معروفين ؛ أو أنّهم ينتمون إلى (الكنيسة غير المنظورة) !! أو أنّهم ضمناً يؤمنون بالمسيحيّة ويمكن تعميدهم ... إذا رغبوا ...إلخ . هذه النظرية المفتعَلة كُلّها محاولات للتوفيق بين لاهوت قاصر وبين عالم الله . إنها محاولات حسنة النيّة تماماً وعلينا الترحيب بها على هذا الأساس . ولكن في النهاية ما هي إلا تمسُّكٌ بالٍ عفا عليه الزمن ، بقشور عقيدة قديمة ، انْهارَ فيها اللُّباب .

والذي يبدو واضحاً هو أنه مطلوب منّا اليوم الوصول إلى نظرة دينيّة عالمية تعي وحدة البشرية أمام الله، وتفهم في نفس الوقت المغزى في تنَوُّع أساليب الله داخل مختلف مسارات الحياة الإنسانية ، فمن جهة يجب أن نُؤكد إيجابياً حبّ الله

المتساوي لجميع الناس وليس فقط للمسيحيين وأجدادهم الروحيّين في « التوراة » . ومن جهة أخرى يجب أن نعترف أنه لم يكن مُمْكنا في الماضي ظهور دعوة واحدة مُوحى بها من الله تعمّ جميع أنحاء الأرض بسبب الواقع الجغرافي والتكنولوجي وأن اكتشاف الله في الذات عبر حريّة الإنسان في الاختيار في إطار الشروط القائمة في تاريخ العالم ، كان لابُدّ له من أن يأخذ أشكالاً متعدّدة ،لذا يجب علينا أن نقبل رؤية الله فاعلاً في الإطار الشامل للحياة الدينيّة للبشريّة يتحدّى البشر في ما هم عليه من « دين طبيعي » بكُلّ ما فيه من فجاجات وقساوات ؛ أقول يتحدّاهم باللحظات الهائلة لنزول الوحي الذي هو أساس لِكُبرى الديانات العالمية . ويجب علينا أن نرى المسيحيّة ضمن هذا التركيب التَعَدُّدي . ولا مجال هنا لتنمية لاهوت للأديان على أساس هذه الخطوط نظراً للمشاكل المتعددة التي يمكن أن تظهر في مثل هذه التناول ، ولكنّني حاولت ذلك في كتابي « الله وعالم الأديان » وأنا أحيل القارىء إلى هذه المحاولة . وأقترح أنّ علينا أن نقول شيئاً كالتالي : كُلّ الخلاص – أي كل خلق يحوّل الحيوانات البشريّة إلى أولاد الله – هو من عمل الله ،وللديانات المختلفة أسماء مختلفة لصنيع الله هذا في إنقاذه للبشر . ولدى المسيحيّة عدّة أسماء متداخلة في هذا المجال : « كلمة الله – Logos الخالدة » « المسيح الكوني » « الأقنوم الثاني في الثالوث » « الإله الابن » « الروح القدس » وآختياراً من لُغتنا المسيحيّة ، إذا سمَّينا عمل الله تجاه الإنسانية أل (اللوغوس – Logos) علينا إذن أن نقول إن كل خلاص ، في إطار كل الديانات هو من صنع «اللوغوس»، ويستطيع الناس مهما اختلفت صورهم ورموزهم في الثقافات والديانات المختلفة أن يلتقوا (باللوغوس) ويجدوا الخلاص . ولكن ما لا نستطيع قوله انّ كل الذين ينقذون من الضلال ... يُنقذون على يد يسوع الناصري . وحياة يسوع كانت إحدى النقاط التي عمل فيها (اللوغوس)– أي الله بالنسبة لعلاقته بالإنسان– ، وهي النقطة الوحيدة التي تهم المسيحيين في الإنقاذ . ولكن ليس المطلوب منّا ، وليس من حقّنا ، أن نؤكد السلبيّة في هذا المجال ،أي أن (اللوغوس) لم يفعل ، ولن يفعل ما فعل لنا في أي

مكانٍ آخر في الحياة البشرية، بل على العكس ، يجب علينا أن نعترف مسرورين ان (الحقّ الأسمى) أثّر في الوعي الإنساني لتحريره أو لإنقاذه بطرُقٍ شتّى في أنماط الحياة الهندية والساميّة والصينيّة والإفريقيّة .

أخيراً هل يجب علينا أن نعرض الوحي الذي جاءنا في حياة يسوع على كلّ أبناء البشر ؟ نعم طبعاً ، وكذلك يجب عرض الوحي الذي أثّر في الحياة الإنسانية عن طريق أنبياء العبرانيين وعن طريق بوذا ، وفي (الأوبانيشاد) وفي (باغافادجيتا) وفي القرآن ، وغيرها . والهديّة المسيحيّة الخاصّة للعالم هي أن على الناس أن يتعرّفوا على يسوع بضمّه إلى حياتهم الدينيّة ... لا ليحلّ محل آخر بل لِيُعَمِّق ويُوسِّع علاقتهم بالله التي وصلوا إليها أصلاً عن طريق تقاليدهم ودياناتهم . ونحن أيضاً ، بدورنا يُمكننا أن نَغْتَني روحيّاً بمنن الله التي وهبها للناس عبر الديانات الأخرى . لأنّه يجب ألّا نُفكر بالديانات كوحدات من حجرٍ واحد لها صفاتها الخاصة التي لاتتغيّر . إنّها جداول مُرَكّبة للحياة الإنسانيّة تتغيّر باستمرار ولو أنّه في بعض الفترات يحصل التغيير ببطء شديد حتي لا يكاد يُلاحظ ، وفي فترات أخرى يكون التغيير سريعاً لدرجة أن استمرارية الأديان تتعرّض فيه للخطر . وهكذا يظهر في الواقع أنّ المسيحيّة كانت راكدة عبر قرون وسطى طويلة، ولكن يبدُو اليوم أنّها في مدٍّ مُدهش ، والديانات الشرقية تبرز اليوم من جريانها الهادىء الذي كان في عصورها الوسطى، لتدخل منطقة الشلالات المضطربة للثورات العلمية والتكونولوجية والثقافيّة . أضف إلى ذلك أن الديانات الآن تلتقي الواحدة منها بالأخرى بأسلوب جديد .... كأجزاء من عالم واحد لإنسانيّتنا المشتركة . ولأول مرّة تتلاقي الواحدة بالأخرى بسلام ، كتنوُّع في الوعي الإنساني العالميّ الذي يظهر عبر الشبكة المتزايدة التركيب لوسائل الاتصال العصريّة . في هذا الوضع الجديد ، من المحُتّم أن تُؤثر إحداهما بالأخرى بشكل متزايد سواء على صعيد العناصر الحسنة التي تجدها إحداها في الأخرى ، أو بالقوّة الجاذبة للوقوف صفاً واحداً في وجه العلمانيّة المتنامية في سائر أنحاء العالم . لذا قد

نتوقع تراكم المشاركة في المثاليات والمدارك الدينيّة مثلما حدث بالفعل في تأثير « الإنجيل الاجتماعي » المسيحي في الهندوكيّة، وتأثير التقاليد الهندوكيّة والبوذيّة على التأمّلات الروحية في الغرب . وهذا التداخل في القيم الإيجابية ، حلّ بصورة واقعيّة ، محلّ محاولات التحويل الاجتماعي لأتباع إحدى الديانات العالمية إلى ديانة عالميّة أخرى . وفيما يتعلّق بالمسيحّية فإنّ السياسية التبشيريّة القديمة في محاولة (تنصير) العالم التي سارت على الطرق الواسعة التي فتحتها أسلحة الغرب وتجارته ، يمكن أن نرى الآن أنّها ... فشلت . وكل أملٍ في تجديدها قد آستُبعد تماماً بانتهاء عهد الإمبريالية الغربيّة السياسيّة والدينيّة . ومن الآن فصاعداً ، على الإرساليات التبشيريّة التي تعمل في أراضي تُسيطر عليها واحدة من الديانات العالميّة الأخرى ، أن تستند إلى الجاذبيّة الإيجابيّة لشخص وتعاليم يسوع والحياة التي عاشها البعض تشبُّها به ، وليس على سُلطة ثقافة هجينة تحاول فرض نفسها على شعوب ضعيفة سياسيّاً ومُتخلّفة اقتصاديّاً . وعلينا ، بالإضافة لذلك ، أن نعرض يسوعاً والحياة المسيحيّة بطريقة تتناسب واعترافنا الجديد بقيمة الديانات العالميّة الكبرى لكونها ، في أحسن الأحوال ، طُرُقاً أخرى لخلاص البشر . يجب إذن ألّا نُلِحّ في تصوير يسوع دائماً ضمن الإطار الذي وَضَعَتْهُ حول مفهومه قرون من الأفكار الغربيّة . فهديّة المسيحين للعالم هي يسوع « الإنسان الناصري غير المعروف كثيراً لدى الناس » ولو أنّ تأثيره خلق مع ذلك ، صوراً هائلةً في عقول الناس حتّى أنه أصبح للملايين الطريق والحقيقة والحياة . وداخل الثقافات المُتعدّدة والمناسبات التاريخيّة المُتغيّرة يمكن ليسوع أن يخلق صوراً جديدة ويمكنه أن يُصبح « السيد » و « المحرر » للناس بأساليب جديدة ؛ ففي الجداول الإيمانيّة المختلفة للحياة الإنسانيّة يُمكنُ للاستجابة الإيمانيّة ليسوع أن تُعبّر عن نفسها بأساطير دينيّة واسعة التنوُّع ؛ ويجب ألاّ يُسمح لأسطورتنا الغربيّة الخاصّة بنا عن تجسُّد آبن الله في أن تكون قناعاً حديديّاً لا يسمح ليسوع بالتحدث للبشريّة إلا من ورائه . فيسوع الذي هو للعالم – ليس ملكاً لمنظّمة بشريّة تُدعي (الكنيسة المسيحيّة) ويجب ألا تُحدّد إقامة يسوع داخل أبنيتها النظريّة .

نجد في حياة وأفكار (غاندى) أبي الهند الحديثة، المثال النموذج للتأثير الواسع الذي يمكن أن يكون ليسوع وتعاليمه على أتباع دين آخر. كان يُعترف بغاندى على أوسع نطاق على أنه أحدُ كبار قديسي القرن العشرين . ولقد اعترف بحريّة ، بالتأثير العميق ليسوع عليه . قال (إ . ستانلي جونز) أحد المُبشّرين المُخلصين ، والذي قضى أكثر عمره في الهند عن (غاندي) ما يلي : « الرجل الصغير الحجم الذي حارب نظاماً أنا أعمل في إطاره ، علّمني عن روح المسيح ربّما أكثر من أي إنسان آخر في الشرق والغرب »[١٠] . قال (غاندي) : « أعطتني الأناجيل الراحة والفرح غير المحدود »[١١] . وقال أيضاً : « رغم أنّني لا أستطيع الادّعاء بأنّي مسيحي بالمعنى الطائفي للكلمة فإن مَثَل يسوع في عذابه هو عامل في تركيب إيماني الذي لا يموت ، (باللاعُنف) الذي يتحكّم بِكُلّ أفعالي »[١٢] . ومع ذلك بَقِيَ (غاندي) هندوسيّاً لم يستطع قبول اللاهوت الأرثوذُوكسيّ المسيحيّ إذ قال عنه : « إنه أكثر ممّا استطيع الاعتقاد به » ، « أنّ يسوعاً كان الابن الوحيد لله المُتجسّد ، وأنّ الذي يُؤمن به فقط ستكون له الحياة الأبدية . إذا كان مُمْكناً أن يكون لله أبناء فنحن كُلّنا أبناؤه »[١٣] . وهكذا تأثّر (غاندي) بيسوع ليس كما يظهر على الزجاج المُلوّن للاهوت أهل (نيقيّا) ، ولكن كمّا يُقدِّم يسوع نفسه من خلال الأناجيل ، وقبل كل شيء ، في وَعْظَتِهِ على الجبل :

« ماذا يعني يسوع إذن بالنسبة لي ؟ كان بالنسبة لي واحداً من أكبر المعلمين الذين عرفتهم الإنسانية . فبالنسبة لأتباعه كان (ابن الله) الوحيد . وهل حقيقة أنّني أقبل أو لا أقبل هذا المعتقد يجعل ليسوع تأثيراً أكثر أو أقلّ على حياتي ؟ هل تُمنع عنّي العظمة في تعاليمه ومذهبه ؟ أنا لا استطيع الاقتناع بذلك . فالأمر بالنسبة لي يعني ولادةً روحيّة . وتفسيرى ، بمعنى آخر ، أنّ حياة يسوع نفسها هي مفتاح قُربه من الله ، وأنّه عبّر ، كما لم يستطع أحد غيره عن روح وإرادة الله . وبهذا المعنى ومن هذه الزاوية أراه وأتعرّف عليه كـ (ابن الله) »[١٤] .

إذن ، تأثير يسوع اللاحق ، كما نأمل أن نراه من الآن ، سيكون داخل وخارج إطار الكنيسة ؛ في الداخل سيستمرّ بلا شك استعمال اللغة التقليدية للطقوس والعبادة إذ يُتَحَدَّثُ عن يسوع كابن الله والله الابن ، والكلمة - اللوغوس - المتجسّدة ، والله - الإنسان . ولكن سيتزايد الوعي بالصفة الأسطوريّة لهذه اللغة كمُبالغة عاطفية مثلما نجدها بصورة طبيعيّة في التراتيل والأناشيد والمدائح الدينيّة وغيرها من التعبيرات الفنيّة في الشعر ، والإخلاص والورع . ونأمل أن تتجاوز المسيحيّة اللاهوت الأساسي والتفسير الحرفي لفكرة التجسّد مثلما تجاوزت إلى حد كبير الأساسيّة التوراتيّة . وكمثل حكايات خلق العالم في ستّة أيام وهبوط آدم وحواء بعد أن أغرتهما الأفعي ، في جنّة عدن إذ يُنظر إليها الآن كأساطير دينيّة عميقة تُضيء لنا مواقفنا الإنسانية ، كذلك قصّة ابن الله الذي نزل من السماء وولد كطفل بشري سيُنظر إليها على أنّها تعبير أسطوري للمعني الواسع للقائنا (بالواحد) الذي نُحسُّ في حضوره كأنّنا ، في نفس الوقت ، في حضرة الله . وتجاوز الأساسيّة التوراتية كان عملية بطيئة ومؤلمة تركت الكنيسة بعدها ، لسُوء الحظ ، مُنَدَّبةً مُنْقسِمةً ، ولا نزال نعيش وسط التوتّر بين - الليبرالية - وبين الأساسيّة المستمرّة والمُنبعثة اليوم . ولم تجد الكنيسة حتّى الآن طريقاً لتوحيد البصيرتين ، الفكرية والأخلاقيّة ، اللازمتين في الأولى ، والحماس والعاطفة والالتزام في الثانية . فهل يكون تجاوز الأساسية اللاهوتية أسهل وأقلّ آنقسامية ؟ فإذا كان الجواب بلا ربّما يكون التأثر المستقبلي ليسوع خارج الكنيسة بدلاً من داخلها ، كإنسان عالمي القدر ، وتعاليمه ومُثُله تُصبح مُلكيّة عامة للعالم . ويدخل تأثيره في كل التقاليد الدينيّة الهامّة . كذلك في التقاليد العلمانية . ولا أستطيع آدّعاء أي نبوءة عن الأساليب التي سيدخل الله عبرها لمستقبلنا الإنساني . ولكن على كُلّ مؤمنٍ بوجود الله أن يؤمن أنّ الله سيكون ، بطُرُقه الخاصة ، مع الإنسانية في قرونها القادمة وكل الذين تأثّروا بعمق وتغيّروا بتأثير حياة وكلمات يسوع ، سيتوقّعون ، بثقة ، أن تستمر هذه الشخصيّة المركزية للأناجيل ، في لعب دورها في تعامُل الله معنا .

NOTES

1. Trevor Ling, *A History of Religion East and West*, Macmillan 1968, p. 87.

2. B. H. Streeter, *The Buddha and the Christ*, Macmillan 1932, p. 83.

3. Irenaeus, *Against Heresies*, bk. II, ch. 31, para. 2.

4. G. B. Caird, 'The Christological Basis of Christian Hope', *The Christian Hope*, SPCK 1970, p. 10.

5. R. H. Fuller, *The Foundations of New Testament Christology*, Fontana 1969, p. 34.

6. S. Mowinckel, *He That Cometh*, trans., G. W. Anderson, Blackwell 1959, p. 67.

7. Ibid., p. 78.

8. Mark, 1.11. The quotation from Psalm 2.7 continues: 'You are my son, today I have begotten you,' this completion also occurring in some manuscripts of the account of the baptism in Luke 3.22.

9. John Hick, *God and the Universe of Faiths*, Macmillan, London 1973, and St Martin's Press, New York 1974 Fontana edition 1977.

10. E. Stanley Jones, *Mahatma Gandhi: An Interpretation*, Hodder & Stoughton 1948, pp. 12 and 76.

11 M. K. Gandhi, *What Jesus Means to Me*, compiled by R. K. Prabhu. Navajivan Publishing House, Ahmedabad 1959, p. 4.

12. Ibid., p. 6.

13. M. K. Gandhi, *An Autobiography: The Story of my Experiments with Truth*. 1940, Beacon Press, Boston 1957, p. 136.

14. *What Jesus Means to Me*, pp. 9–10.

الفصل العاشر

خاتمة

بقلم / دنيس نانيهام

عندما دُعيت للإسهام في هذا الكتاب شعرت أنّ عليَّ أن أرفض ذلك لالتزامي بكتابات أخرى ، ولكنّني وافقت رغبةً في أن أشارك في المناقشات التي أدّت في النتيجة ، إلى إظهار أبحاث الكتاب بالشكل الذي صدر فيه. ولقد تعلمت كثيراً من هذه المناقشات ولكنّني وجدت نفسي أكرّر ذِكْر اهتمامي ، مع أنّ الأمر واضح إلى حدّ كافٍ ، مما بدا لزملائي الآخرين أنّه مهم بحيث يستحقُّ أن يُسجَّل كتابة حتى ولو أن هذه الكتابة جاءت بشكل مُستعجل .

واهتمامي يتعلق بالنزعة التي لاحظتها في بعض الأبحاث ، على الأقل في شكلها الأصلي ، والتي لاحظتها أيضاً في عدد غير قليل من الكتابات اللاهوتية المعاصرة ، وهي النزعة للجدل على النحو الآتي : رغماً عن أن بعض الصور والنماذج التي حاول بها اللاهوت القديم التعبير عن فرادة المسيح ، لم تعد ممكنة أو مناسبة لنا ، نستطيع التأكد من حقيقة وصِفَةِ بعض الحقائق الفريدة ، على الأقل ، التي أرادت النماذج التقليدية أن تفيها حقّها ، وهكذا نفيها حقّها بأساليب تُناسب أوضاعنا .

ويتنوّع كثيراً وصفُ الحقائق الفريدة التي هي مدار البحث ، ولكن مهما آستُعمل من كلمات مُحدَّدة ، فوُجهة نظرى تتلخّص بالآتي : بينما وضع كلّ الناس ، قبل المسيح، ذواتهم بطرق شتّى ودرجات متفاوتة ، كمركز الثقل لحياتهم ... ولم يضعوا الله فأصبحوا أنانيّين بالمعني العاديّ للكلمة ، كانت حياة يسوع ، في كل مرحلةٍ وعلى كلّ صعيد ، مركّزة كُلّياً على وجود ونعمة وأوامر

هذا المجال ، بالحقيقة التاريخيّة التي هي يسوع المسيح، ويكتب أنّ « الأشياء التي تخصُّ يسوع » (أي افتراضاً أحداث حياته) قادت من شاهدوها ، ومن خَلَفهم ، بعناد إلى الاستنتاج أن في ذلك « الشخص » تَحَوّلَ الإنسان حتى أصبح خلقاً جديداً رُسم تماماً على عين « حياة » الله نفسه(٥) . وعلى نفس الوتيرة يقتبسُ البروفسّور (وايلز) من (بانِنْبرغ) في إشارته ، عن هذا الموضوع ، إلى « الفَريد ... تاريخياً » ويتكلم الدكتور (كلك) عن « يسوع التاريخي حسب (جيريمياس) ، والوصول إليه – أي إلى يسوع – بالطرق المعقّدة » .

ولكن هل من الممكن أن نُصَدِّق ادعاءات من هذا النوع على أساس الدليل التاريخي ؟ فإثبات السالب التاريخيّ مثل « يسوع بلا خطيئة » أمرٌ في غاية الصعوبة ... إلى حدّ المُحال . كيف ، مثلاً ، يستطيع ، حتى أكثر الأصحاب مُرافقة ليسوع أن يتأكدّ من أن يسوعاً بقي صادقاً بدون انقطاع لمبادئه ولم ينظر أبداً – مثلاً – إلى امرأة بشهوة ؟ على حدّ تعبير (متّى 5.28)؛ لم يُطرح هذا السؤال بنيّة إلقاء شبهة شكّ على نقاء يسوع – جنسياً ؛ لقد عَنينا منه فقط مثلاً آخِتيرَ لِيُظهر أنّ مثل هذه الادعاءات عن يسوع ، التي نُناقشها لا يمكن تبريرها حتّى ... آخرها بأيّ سجلّ تاريخي مهما كان هذا السجلّ مليئاً أو حميماً أو مُعاصراً ؛ وحتّى لو كان الاهتمام مُنصباً على النوعيّة وتَطَوُّر الحياة والصفات الخاصة بيسوع .

وفي الحقيقة ، وكما يعرف الجميع، ليست الأناجيل أبداً وثائق مِنْ هذا النوع . فهي في غاية القِصَر ؛ حَسَبَ (ب.هـ. سْتِينِرْ) مَرّة أنّه ، إذا وضعنا جانباً الأيام والليالي الأربعين في التيه (والتي لم يُسمَع عنها في الواقع أي شيء) ، فكُل ما نُقِلَ أن يسوعاً قاله أو عمله ، في الأناجيل الأربعة ، يملأ فقط فراغ ثلاثة أسابيع من العمر . وهذا يترك أكبر جزء من حياة يسوع وأعماله ... غير مُسجَّل . ومن ناحيةٍ أخرى يمكن أن يُرَدّ أنّ ما سُجل يترك آنطباعاً قوياً من التماسك في الصفة وفي النظرة ، التي رُبّما يمكن أن يُفضَّل على ما لم يُسجَّل من

أعماله وتاريخ حياته . هذا حقّ تماماً ولكن يجب أن نضع ، في المقابل، أنّ الذين نَقَلوُا موادّ الإنجيل كانوا يهتمّون بالدرجة الأولى ، بتزكية وتبرير ادعاءات – فوق المستوى الطبيعي – عن يسوع ، ليُوضّحوا ما عنوه في تطبيق – هذه الادعاءات – عليه ؛ ولتسجيل بعض ما علّمه والمطالب التي قدّمها مدعوما بسُلطة مركزه – فوق مستوى البشر . ولا شكّ أنهم أخذوا كماله الأخلاقي كشيء مُسَلّم به وتوقّعوا من الآخرين أن يفعلوا مثله ؛ ولكن هذه الحقيقة ذاتها تعني أنّ ما نشروُا هو قليل جداً من المعلومات التي تصلح للتطبيق الآن . وحكم البَحّاثة الأميركي (هـ . ج .كاَدْبِري) هو ، كالمعتاد ، مُتَروّ ، ولقد قال : « قصص الإنجيل لا تظهر دائماً أهداف يسوع ، ولا تظهر أنها كُتبت بأقلام أشخاص شعروا بصفة الأخلاق الأصيلة » ؛ تبعاً لذلك « يجب أن نعترف أنّنا لا نملك دليلاً كافياً لماهيّة التركيب الذاتي ليسوع(٦) .

« من المؤكد أنّه لا يمكن الفصل بين الإنسان وتعاليمه فإذا تَفَوّتْ تعاليم يسوع المميَّزة بتطبيقه العملي لها ، يزداد تأثيرها الكُلّيّ . ويفترضُ المسيحيون أن الأمر كان كذلك ، ولكن ، عدا عن تعاليمه ، لا يُوجد إلا القليل من الدلائل الواضحة عن شخصيّته . وللتعاليم نفسها بعض الوحْدة ... إلّا انّها لم تُثْبتْ نقطة نقطة بأمثلةٍ من التزام يسوع نفسه بها »(٧) .

ولقد ذهب الباحث اليهودي (س . ج مُنْتِيفْيُورِي) أبعد من ذلك وكتب عمّا يتعلق بتعاليم يسوع عن الواجب في أن يُحِبَّ المرء أعداءه فقال :

« يجب أن يُعتبر يسوع أوّل معلم يهودي كبير يُؤطّر مثل هذه الجملة ؛ ومع ذلك كم تكون توصيته هذه أكثر بياناً لو أنه كان لدينا قصّة واحدة عن صُنْعِهِ للخير أو صَلاتِه من أجل حاخام أو فريسيّ واحد »(٨) .

رُبّما يُمكننا إنجاز الأمر بالأسلوب الآتي : في كتابه (الإسكندر والمسيح)(٩) يُقدّم الباحث العلماني الدكتور (و . دُورَانْت) بصورة عامة ،

تقديراً حَسّاساً وتقييماً عالياً لشخص وعمل يسوع . ومع ذلك فقراءته للأدلّة تُجْبِرُه على خلط تقديره الكريم بهذين الحُكْمَيْن بالنسبة لأصالة يسوع وكماله الخُلقي ، إذ يقول :

إن تراثنا الأخلاقي ومثالياتنا مرتبطةٌ ارتباطا وثيقاً به ومُتشكّلة على مُثُلِهِ بحيث أنّنا نشعُر بالأذى عندما نجد أيّ ثلمةٍ في شخصه . كانت أحاسيسه الدينيّة مرهفة إلى حدّ أنه أدان بشدّة كُلّ من لم يُشاركه رُؤيته . كان له الحماس النقيُّ لِنَبِيٍّ عِبْرِيٍّ أكثر ممّا كان له الهدوء الواسع لِحَكِيمٍ إغريقي . فلقد استهلكَتْهُ قناعاته . وحُنْقُه الحق من آن لآخر ، غبَّش على عميق إنسانيّته ، وكانت أخطاؤه في الثمن الذي دفعه في سبيل إيمانه الحارّ الذي مَكّنه من أن يُحَرِّك العالم. وما عدا ذلك فقد كان إنساناً محبوباً أكثر من أي إنسان آخر .

كان الأسلوب الرمزى في أمثاله ، مألوفاً في الشرق ، وجاءته بعض المقارنات المُستَحْضَرَة – ربّما بصورةٍ عفويّة – من الأنبياء ومؤلفي « المزامير » ، والحاخامين ، ومع ذلك فإن حديثه المباشر والألوان الزاهية في صوره وَدِفْءِ الإخلاص في طبيعته رفعت كلامه إلى مستوى الشعر العميق الإلهام . بعض أقواله مُبهمٌ وبعضه غير مُحقٍّ – للنظرة الأولى –، بعضه جادٌّ تتخلّله السخرية والمرارة ، وكل كلامه تقريباً نموذج للصفاء والإيجاز والقوّة »(١٠) .

ولا يعني الكلام هنا أن انتقادات الدكتور (دُورانْتْ) ، رغم خِفّتها ، إذا ما نظر إليها في مجمل السياق ، لها مايُبرّرها بالضرورة ؛ فالسؤال هو فيما إذا كانت تفسيراته للنصوص – النصوص المناسبة الوحيدة بين أيدينا – فيها خطأ واضح بمقابلتها بما وراء الأحكام التي ذُكرت سابقاً بحيث تجعل الأخيرة صواباً واضحاً . ألا يجب علينا الاعتراف ، من التفسيرات التاريخية للدليل ، أنّ حُكْم الدكتور (دورانْتْ) ، وربّما الأحكام الأخرى الأكثر قسوة ، هي كُلّها على الأقل معقولة – ظاهريّاً – . إذا كان الأمر كذلك فالتأكيد على الصفة الأخلاقية ليسوع

وعلاقته بالله التي بيّنها الكُتّاب الذي ذُكروا سابقاً ، لا يمكن أن تعتمدَ ، أو تعتمدَ فقط على كل حال ، على أُسس تاريخيّة . قال (كاذْبِري) :

بالطبع اختلف يسوع عن معاصريه بدرجة لا يمكن تحديدها ، أمّا (الفرادة) سواء كان هو الله أو الإنسان فشيء مُختلفٌ كثيراً ؛ وفي موضوع يسوع يظهر أن الأمر استدلالٌ مِنْ فَرضيّات لاهوتية مُسبقة أو ربّما بديل إنساني لصفات إلهيّة ، أكثر مما هو آستنتاج من مقارنة متأنّية للأدلة التاريخيّة (١١) .

ومع ذلك يمكن الاعتراض على أنّني حدّدت ، بدون سبب ، الأدلّة التاريخيّة الموجودة ، ويمكن القول لا دخان بلا نار ؛ وما من أحد جلب لنفسه الصلب كما فعل يسوع ، مالم يكُن سلوكه وتعاليمه قد أحدثت إهانة كاملة طريفة للشرّيرين الذين صلبُوه(١٢) . وبنفس التفكير ، ما من أحد استطاع جذْب الرجال والنساء إلى هذا الإخلاص الحارّ والصُّحبة كما فعل يسوع ، أو أنتج كما أنتج يسوع . « مجتمعاً جديداً كان شعاره الحب (agape)(١٣) » ، ما لم يُمثّل هو نفسه هذا (الحُب). وكان هو نفسه إنساناً طيّباً باطنه وظاهره ، إنساناً شعر الناس بأنهم قادرون على الإعجاب به – إلى حدّ العبادة–. مرّة أخرى تُثار نقطة هامّة وفي غاية الإنصاف : لا يشك أحد أنه كان من الضروري وجود شخصيّة بارزة في الأخلاق وفي نواحٍ كثيرة أُخرى ، لتُفسّر ظهور الكنيسة المسيحيّة الأوّلية وما أنتجته من كتابات . والتسليم الكامل بهذا ، مع ذلك ، لا يُوفّر تماماً تبريراً للادعاءات المُطلَقَة في ما آقتبسناه من مقاطع في البدء .

لنسمع إلى (هـ . ج . كاذْبِري) مرّة أخرى، أوّلاً عن مضامين الحقيقة في أن يسوعاً آستجلب لنفسه الصَلْبَ .

استقلال ، إصالة ، فرادة – إذا جاز لنا استعمال سُلّم تصاعديّة – تُضْفَى أحياناً على يسوع على أساس من الاعتبارات العامة . وإن إعدامه بسبب عداء اليهود له أمرٌ يبدو حقيقة لا مجال للنقاش فيها . وإن حركة ثوريّة دينيّة جديدة نمت

من حياته ، هو مَعْلَمٌ آخر للتاريخ . ولكن لا القَلب ولا الكنيسة المسيحيّة هي شهادة لاستحداث بِدْعةٍ مُتطرّفة في يسوع(١٤) .

تساءلت مراراً ما هي حدود الاختلاف في شخصٍ ما حتّى يتعرّض للشنق من أجل هذا الاختلاف. ويزيد وعيُنا باطراد في الأزمنة الحديثة ؛ (يهوديّة يسوع) . فلقد تحرّك في مجال الأفكار التي راجت في القرن الأوّل لليهودية . ولو كان غريباً كُلّياً ربما كان يثير شكوكا ومخاوف أقل ، وغالبا ما يكون الجدل المرير على أضيق هامش . يجب أن يكون هناك بعض الاختلاف بين الأعداء ... تنافُسٌ على المصالح الشخصية المتضاربة ... إن لم يكن أكثر من ذلك . ولكن ليس من الضروري أن تكون – أي الاختلافات – كبيرة أو هامّة . وربّما كان يسوع الذي يُسبّبُ نفور اليهود شيئاً مختلفاً عمّا قد تراه الكنيسة ؛ وفي كلا الحالتين لا يعني أنه كان على موقفه أن يختلف جدّاً عن بقية اليهود ، كماً أو كيفاً(١٥) .

إذن ماذا يمكن استخلاصه من ظهور المسيحية ؟ :

النجاح النهائي للمسيحيّة الأوّلية بِربْحِهَا عدداً كبيراً من الأتباع المخلصين لم يستَنِد فقط على حياة وتعاليم يسوع ؛ ماهي نسبة تأثير هذين العاملين في هذا النجاح ، وقد انتقل هذا التأثير شخصيّاً ومباشراً وبصورة صحيحة للجيل المسيحيّ الأول والأجيال التي تَلَتْهُ من أتباع يسوع ؟ وما هي نسبة النجاح التي تُعزى إلى دعاية دينيّة جعلت يسوعا المثل مسيح المستقبل و« سيد » الحاضر أو الإله الواقعي لمذهب دينيّ جذّاب ؟ الجواب على ذلك أمر ، كما نرى ، في غاية الصعوبة .... حتّى في أيّامنا الأخيرة هذه . وفي مثل هذه المناسبة يُردَّد المثلُ القائل : لا دخان بلا نار ، ولكن نسبة الدخان والنار تختلف بصورة واسعة ؛ والدُخان أحياناً يُضلِّل الباحث عن المكان الدقيق للنار . لَسْتُ مُستعدّاً للانضمام إلى الذين يُنكرون الوجود التاريخي ليسوع إلا أن على الإنسان أن يكون مُستعدّاً للاعتراف بأن الدين الذي أصبح مسيحيّة الأمبراطورية الرومانية ... ربّما لم يكن

له إلّا صلة قليلة بالواقع التاريخي لمؤسّسه ؛ على كلّ حال ما يُوعظ عن يسوع سواء كان دقيقاً ، تاريخيّاً ، أو غير دقيق كان جذّاباً لعقليّة العالم القديم: (مثل ضمان الخلود والحماية من قوة الشيطان) فهذه أشياء نجدها نحن في هذا العصر غير مهمّة كثيراً في عملية استعادتنا له : (في الأصالة الخُلُقِيّة أو التناغم الصوفيّ والرُّوحيّ التام مع الله) ..؛ حتى لو أردنا النظرة ليسوع مُتحرِّرَةً كُلّياً من محدوديّة بيئَتِه ، لا نستطيع تقريباً تعميم هذه المعجزة لكُلّ الخليط الذي كان يُشكّل مجموعة أتباعه الأوائل . **لم تكن هذه الأشياء عصرية ، ولو كان يسوع عصريّاً لكانت هذه رغماً عن عصريّته ، وليس بسبب عصريّته آمن الناس به**[١٦] .

ولقد وضَعتُ الجملة الأخيرة بخطٍّ مغاير لأنّها تُوصِلُنا إلى موضوع حَيَويٍّ الأهميّة مُتعلّق بالسؤال الذي نُقيّمُهُ وهو في الفجوة الثقافيّة الواسعة التي تفصلُ يسوعاً ومعاصريه عن كل ماهو « عصري » . وفي ضوء هذا الفهم العصرى للتاريخ وللمتغيّرات التارخيّة لا معنى ، تقريباً ، للحديث عمّا كان سيحدُث لو أن يسوعاً إنسانٌ من القرن العشرين دخل علينا الآن الغرفة وأخذ يُحدّثنا ، كما كتب أحد علماء اللاهوت المعاصرين في محاضرة لم تُنشر . فكُلّ من يدخل الآن الغرفة كإنسان من القرن العشرين لن يكون يسوعاً التاريخي ، ولو أنّ يسوعاً دخل الغرفة الآن فلن يكون إنساناً من القرن العشرين . وربّما نأمل ، كما يقول هذا الباحث ، إذا كنا – بمعجزة ما –نستطيعُ أن نقابل يسوعاً التاريخي الأصلي ، وسنشعر باضطراب عميق وبتحدٍّ من وجوده ، ولكن لن يكون التحدي هذا مباشراً سيصلُنا عِبْرَ الفَجوةِ الثقافية الواسعة التي ثبتَتْ بين يومه ... وأيامنا . كتب (ألبرت شوايتْزِرْ) يقول : وكما أن النبات المائي جميل طالما هو ينمو في الماء ، ولكن عندما يقطع عن جذوره ...يذبل ، ويتغيّر بحيث لا يمكن التعُّرف عليه ، كذلك الحال مع يسوع التاريخي عندما يُنزعُ من أرضيّة فلسفة الحشر والنشر بمحاولتنا إدراكه تارخيّاً ككائن لا يتأثر بالشروط الزمنيّة[١٧] . ويُضيف الدكتور (ج . سُونْدِرْزْ) الذي نقل هذه الكلمات المشهورة (لسوايتْزِرْ) ، قائلاً :

وما يتعلق بتعاليم يسوع الأخلاقية بخاصّة ، هذا يعني أن نظرة يسوع الأخلاقية شُرطت بنظرته الفلسفيّة عن الحشر والنشر، وهذا صحيح أيضاً حتّى في وَعْظَتِه على الجبل التي كثيراً ما ذُكرت ونُقلت[١٨] .

وجعلت الأساليب التاريخيّة العصريّة كل حديث عن « النتائج الأكيدة » بالنسبة لشخص يسوع ... مُبتذلاً ؛ ولكن إذا أخذنا غالبيّة الخبراء المعاصرين الأكفّاء في الأناجيل، كأدلاء ، يمكننا أن نتوقع أنّنا إذا التقينا حقا بيسوع التاريخي فسنرى الشيء الهامّ الذي جعله « مناسباً » - كما يقال -؛ كانَتْ قناعته أن بروز (يوحنّا المعمدان) ، وبظهوره هو كخليفة لِيُوحنّا ، بَدَأَتْ عمليّة قدوم مملكة الله . ولقد توقّع أنّه أثناء حياته ، أو على الأقل ، أثناء حياة بعض معاصريه ، كان سياق التاريخ سينتهي ؛ ويظهر «ابن الإنسان» في أمجاد أبيه مع الملائكة المُقدَّسين لمُحاكمة الكون وإنهائه ؛ وما من سبب للتفكير بأنّ الطريقة العامّة التي واجه بها العملية اختلفت كثيراً عن الطُّرق التي تصوَّرتها بعض الكتابات اليهوديّة في تلك الفترة ، عن نهاية العالم .

وتبعاً لذلك فالمطلب الأساسيّ الذي وضعه لنفسه ولمُستمعيه هو أنّ عليهم أن يكونوا مستعدّين لله ... عند ظهوره . وإذا آستطعنا أن نسأله ممَّ يتشكّل هذا الاستعداد ، حسب رأيه ، رُبّما نُفاجأ ببعض أجزاء جوابه . لسبب أوّل هو أن مفهومه لعلاقة الإنسان بالله ربّما ظهرت لنا بعض أوجهها ذليلة وقانونيّة[١٩] - ونعتُ الله بـ (الآب) كان يعني شيئاً مُختلفاً كثيراً في موقفه ممّا يعنيه في أيّامنا هذه . وبما أنه حدّد الاستعداد المطلوب بمعايير أخلاقيّة مثلاً : تعابير الحب ، رُبّما نُفاجأ بالمدى الذي قَبلَهُ فيما عَنَتْهُ هذه التعابير في كتب (العهد القديم) وما بعدها من كتابات يهوديّة كان هو على علم بها ؛ ونفاجأ بِقلّة اكتراثه ببعض الاعتبارات الأخلاقية التي نُقدّرها نحن كثيراً - في الإيثار مثلاً وفي حقوق وحاجات الغير ... إن لم نقل شيئاً عن مصالح المجتمع بعامّة -[٢٠] . وحسب قول (وِلْهَاوْسِنْ) على كل حال :

لم يكُن يسوع مسيحيّاً ، كان يهوديّاً ، ولم يدع لدين جديد ولكنّه علّم الناس أن يُطيعوا إرادة الله ، وفي نظره – وكذلك في نظر اليهود – كانت إرادة الله موجودة في القوانين وفي الكُتُب المُقدسة الأخرى(٢١) .

وكانت موجودة – أي إرادة الله – أيضاً في كتابات ما بعد العهد الكنسي ... الكتابات التي يجبُ ألّا نُقلّل من قيمتها . مثلا يصف (مُونْتِيفيُوري) تعاليم يسوع عن (أُبُوّة) الله كعقيدة قديمة معروفة للحاخامين ، مع أنه يعترف أنّ يسوعاً عبّر عنها بدرجة كبيرة من النقاء والحماس والتركيز(٢٢) .

وهذا يعني أن يسوعاً كان، غالباً، أصيلاً بالنسبة للنور الجديد أو التأكيد الذي جلبه للحقائق القديمة المعروفة ؛ ولا يوجد سبب للشك – وبالتأكيد ليس هناك تفكير في الشك هنا – أنّه جاء أيضاً بأفكار جديدة وعميقة من عنده . لقد رأينا سالفاً أنّ (مونتيفيُوري) قَبِل إصالة تعاليم يسوع في (واجب حُبّ الأعداء) ، وهو والعديد من الباحثين اليهود يجدون إصالةً موازية مثلاً في تأكيد يسوع على إنقاذ الضائعين(٢٣) .

إلا أن (كاذْبِري) يردّد ما قاله (ا . ف . سْكوتْ) : مُتسائلاً عمّا إذا كان تقدير الإصالة كما لو كان تقريباً فضيلة في ذاته(٢٤) ، خاصيّة العالم العلمي الغربي العصري في الغالب ؟ يقول (سكوت) « هناك تشويش خطير في أذهان أكثر الناس عمّا هي الأصالة في إطار الأخلاق والديانات »(٢٥) . ويُعلّق (كاذْبِري) :

يُمكننا التساؤل في مجال الدين والأخلاق عمّا إذا كان (للاستحداث) أيّة قيمة في ذاته . ومن الأحسن لنا ألّا نُفتِّشَ برغبة كبيرة عن الأصالة في يسوع أو المبالغة فيما نجده . فلن يُوفّر الأمر خاصيّة عن عظمته أو إسهامه في التاريخ...؛ ففي يسوع سنبحث عمّا هو (بارز) إن لم يكن (مُمَيّزاً) ، عمّا كان له صِفة خاصّة أفضل من بحثنا عن شيء يبدو لنا أو لمعاصريه أصيلا أو مُستحدثاً . الوفاء

لأحسن ما في الماضي ، نضوج أخلاقي ، توازن جيّد ومحاكمة منطقيّة ... هي أمور نادرة في كلّ زمان وقد تكون هي التي أثارت في القرن الأول ، كما تُثير في يومنا هذا ، الدهشة والثناء المُستحقّ(٢٦) .

ويتابع (كادبري) : « ربّما تكون الكلمات الأكثر دقّة من مفردات : -الجدّة والإصالة والفرادة- في وصف أيّ اختلاف في يسوع، نُعُوتاً مثل جذري وحادّ ومتطرِّف » ؛ و(كادبري) مُحقٌّ بالتأكيد . إذا كان هناك أيّة حقيقة على الإطلاق في صور الإنجيل ، فطَلَبُ يسوع ﷺ : أنّ على أتباعه السير إلى آخر حدّ بل ... وما وراءه في استجابتهم لله القادم . ما كان عليهم أن يديروا خدّاً واحداً بل أن يُديروا الخدَّيْن ، ما كان عليهم أن يسيروا ميلاً واحداً بل ميلين ، ما كان عليهم أن يغفروا سبع مرات بل سبعين مضروبة بسبعة . في الواقع كان عليهم أن يكونوا « كاملين » بمفهوم الكمال في ذلك الوقت . كان عليهم أن يُعطوا كُلَّ ما يملكون . وكان مقطع (مرقص - cf.12.44) هذا، هو آخر مقطع قبل القصص العاطفي . وإذا احتاج الأمر فليقدّموا حياتهم استجابة للموقف . ومع أنه لا يجب التقليل من شأن هذا ، يجب التذكر أنّه في حالة توقُّع يسوع للنهاية لم يكن هناك أي معنى لموقف (التفكير بالغد) ، والأسئلة التي نسألها نحن بحَقّ عن مسؤوليّاتنا للمستقبل ، مُستقبلنا نحن بالذات ، ومُستقبل عائلاتنا ومؤسّساتنا وبلادنا وبيئتنا ... لم تكن ، ببساطة ، أموراً واردة .

ما أهمّيّة كل ذلك بالمواضيع قيد البحث في هذا الكتاب ؟ باختصار .... هي التالي : فرادة يسوع الميتافيزيكية كما كانت تُدرَّس ، حملت معها دائماً ضمناً « كمالاً أخلاقيّاً فريداً » ، والاعتبارات التي قادت بعض اللاهوتيّين اليوم للشكّ في آدّعاء الفرادة الميتافيزيكية ليسوع ، على الأقلّ كما تُصوِّر تقليديّاً ، يبدو أنّها لا تنطبق بنفس الطريقة على (فرادته الأخلاقية) ؛ ومن الطبيعي وجود الرغبة في التمسُّك بهذا الاعتقاد الأخير لأسباب عدّة . إذا كان يسوع وحده كاملاً ، أخلاقياً ، بين كل الناس فهذا يبرهن في الواقع أن الله كان يعمل فيه بأسلوب فريد

(مهما كان التصوّر لهذا التدخّل الإلهي الفريد في الشروط الثقافية الحاضرة) ؛ وإن ادعاء المسيحية أنّها مؤسّسَةٌ على تدخّل إلهي فريد .. يبقى « غير معطوب » ، بل الأكثر من ذلك ، إذا كان مثل هذا « الكمال » مُمْكناً في « بشريّته » يمكن الاعتقاد بأنّه ممكن أيضاً في بشريّتنا نحن بالاعتماد عليه والصلة المناسبة به[٢٧] .

والاهتمام الرئيسي في هذا البحث هو التأكيد قَدْر المستطاع أن الذين يستمرّون في مثل هذا الادعاء عن فرادة يسوع ، ويتحدّثون مثلاً عن (الإنسانية الجديدة) ، « الإنسان الذي قدّم نفسه للغير » « الإنسان الذي أعطى ذاته كلها لله » هؤلاء يَعُون تماماً المشاكل المتضمَّنَة في تقديم وتبرير مثل هذه الادعاءات .

هناك أمران يظهران بوضُوح : أوّلاً من المستحيل تبرير مثل هذه الادعاءات على أُسُس تاريخيّة صرفة مهما توسّعت الشبكة لاصطياد الأدلة . وفيما يتعلق بالأناجيل ، فالمادة فيها قليلة جدّاً وهي من العموميّة في اختيارها وترتيبها بالنسبة للاعتبارات الأخرى ، بحيث لا تستطيع - أي الأناجيل - توفير الأدلّة اللازمة[٢٨] . أمّا عن قيام الكنيسة الأولى فقد كان يسوع لها ، بالطبع « كل ما هو لازمٌ أن يكُونه » لتعليل ظهور المسيحية ؛ وبأى تقييم رزين ، كان ذلك كافياً لضمان أُسُس وجوده التاريخي وامتلاكه لصفات بارزة كثيرة . لكنّه غير كافٍ ، مع ذلك ، لتبرير نوع الادعاءات المُطْلَقَة التي نعنيها ؛ فكما رأينا كان يهود القرن الميلادى الأوّل ، بفرضياتهم وآفاق نظرتهم ، سيقبلون غالباً واحداً كمسيح (وهذا يعني - ويجب تَذَكُّرُ ذلك - الذي يفتتحُ ... النهاية) ويُشكّلِون مجتمعاً باسمه على أساس أشياء: (افتراض تحقيق النبوءة ، مثلاً ، أو النجاح الظاهر في التغلّب على الشيطان) ، والتي لا علاقة لها تقريباً بما نفهمه عن الكمال الأخلاقي ، ولا علاقة لها بجُمَلٍ مِثْل « الإنسان الذي يعيش للآخرين » .

وهذا يتصل بالأمر الثاني وهو: بسبب الفجوة الثقافية التي تَفْصِلُنا عن يسوع وعن أيّامه ، ما كان يمكن أن يعني « الكمال الأخلاقي » أو « إنسان الغير » له ولمعاصريه ... ربَّما يختلف تماماً عمّا تعنيه هذه الجمل بالنسبة لنا الآن .

لذلك علينا الاعتراف بأنه إذا دخل يسوع التاريخيّ إلى غُرفتنا ، بالأسلوب الذي ذكرناه سابقاً ، فأوّل انطباع مُزعج ... ربما لم يكن كثيراً عن عظمته بقدر ما هو عن غرابته . وفي قولنا هذا إنما نُعلن ببساطة ، حقيقة عن التغيير الثقافي . وليس الأمر أبداً للحطّ من قدر وعظمة يسوع الأخلاقية أو سلطته الأخلاقية في عصره .

ولن يُفاجأ أي قارىء تقريباً ، إذا قيل له إن الباحثين في الأناجيل يعُون هذه الأمور منذ زمن طويل ، بل إنّ هذا الأمر كان جُلّ اهتمامات أهمّ مدرسة اللاهوتيّين الألمان ... على الأقلّ في السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة . وفي سياق نقاش طريف جدّاً عن آراء ومناظرات هذه المدرسة يُميز الدكتور (نورْمَنْ بْرِيْن) ثلاثة أنواع من المعلومات عن يسوع . النوع الأول يُسمّيه المعلومات التاريخيّة الوصفيّة (الصلبة أو التجريبيّة أو المعلومات التاريخيّة لما بعد فترة التنوير) عن يسوع الناصري ، وهو نوع من المعلومات التاريخيّة التي نتحدّث عنها حتّى الآن في هذا البحث[٢٩] . ويُؤكد الدكتور (بْرِيَنْ) أنّه من الصعب إنجاز معلومات من هذا النوع عن أي شخص تاريخي ، وفي حالة يسوع ، يُركّز بخاصّة على صعوبة تحديد معاني التصنيف في القرن الأوّل بالنسبة لإنسان القرن الأول ؛ والميل الطبيعي لإنسان القرن العشرين أن يقرأ هذا التصنيف من زاوية فَهْمِهِ الخاص الحرفي والوجودي أو غيره (صفحة ٥٢) . والدكتور (برين) أكثر تفاؤلاً من كثير من الباحثين ، فهو يبحث عن إمكانية وجود طُرق تاريخية تُمكّننا من إنجاز مثل هذه المعلومات عن يسوع ، على الأقلّ فيما يتعلّق في عمله العام وتعاليمه . ومع ذلك فقد يكون (بْرِيْن) الأوّل في الموافقة على القول أنّنا لن نأمل أبداً في إنجاز مثل هذه المعلومات إلى المدى اللازم لتبرير الادّعاءات المطلقة التي نَقَلْتُها في أوّل هذا البحث ؛ والأكثر من ذلك أنه يُشدّد على أنّ هذه المعلومات « مُعرَّضة » دائماً للتصحيح والتغيير تبعاً للأبحاث الجديدة والاكتشافات ؛ ولِيُظْهِرِ مَدى جدّيّته في هذه النقطة ، يُضيف قائلاً : « من الممكن ، نظريّاً ،

ومن المشكوك به عملياً ، أنه يمكن لنا في يوم من الأيام أن نُقِرّ بأنّ يسوعاً حُمل إلى الصليب وهو « يُعزّزُ ... الله وقَدَره » ؛ أو ، في نفس الموضوع ، أُجبر (سقراط) على فتح فمه بالقوة ليشرب النبات المخدر (الهلمُوكْ) (صفحة ٢٣٦) .

وليس في رواية الدكتور (برّين) عن الدراسات العصرية في هذا الموضوع ما يوحي بأنّه قد يعارض سياق الاتجاه الذي وصلنا إليه في هذا البحث . فهو يستمرّ في الإشارة ، مع ذلك إلى أن معلومات التاريخ تستطيع أن تُصبح ، في ظروف خاصّة ، معلومات « تاريخيّة » بمعنى أنّها تستطيع حمل مغزى وأهميّة مباشرة للحاضر (صفحة ٢٣٦) ؛ وكلمة « تاريخيّة » في هذا السياق مُساوية في نظره (للكلمة الألمانية – geschichtlich عندما تُستعمل بُمقابل (كلمة – historisch) . وفي معنى (كلمة – geschichtlich) تكون المعلومات « تاريخية » عندما تترك أثراً على مُتَلَقّيها بحيث تُسبّب تغييراً في فكره أو نظرته أو مفهومه الخاص أو طريقة حياته . وكما يمكن لظرف أن يكون تاريخيّاً إذا كان له نتائج عمليّة هامّة على الذين يأتون بعده ، كذلك يمكن لحدث أو لشخص إذا كان الاطلاع عليه يُنتج تغييراً هامّاً في الفكر أو الموقف لإناس أو لمجموعات تأتي بعده . وتلك المعلومات عن يسوع كانت « تاريخيّة » بهذا المعني ، للعديد من المجموعات والأفراد، وهذه ببساطة حقيقة لا نَستطع أن نكون لها شاكرين جدّاً . إنّ بعض علماء اللاهوت يرون أنّ (قلب) المسألة المسيحيّة هو في إمكانية وجود مثل هذه المعلومات « التاريخيّة » عن يسوع . وباحث مثل الدكتور (شُوبرتْ أوغدِن) مثلاً ، يقول : إنّ امتلاك مثل هذه المعلومات التاريخيّة عن يسوع هو نقطةٌ حاسمَةٌ بالنسبة للمسيحيّين .

وبدون محاولة أي تقييم شامل لهذه النظرة يجب أن نُبيّن نُقطتين عن المعلومات « التاريخيّة » أوّلاً : إذا كانت ممكنة بالنسبة ليسوع فهي لا تخصُّه وحده، إذ هناك عن (سُقراط) وعن (جُون وِسْلي) مثلا معلومات

« تاريخية » ؛ وهناك أُناس قد تغيّرت حياتهم ونظرتهم بصورةٍ حاسمة من خلال معلومات عن القديس (فَرنسيس الأسّيزي) أو الأم (تيريزا) . ثانياً : إن المعلومات « التاريخية » قد تتأثر بتغيرات الحقيقة التاريخيّة ، فمثلاً إذا حدث أن عزَّرَ يسوعُ ... اللهَ وقدرهُ أو أن سقراط أُجْبِر على شُرب المُخدِّر فسيكون لهذا أهمّية تاريخيّة مُختلفة تماماً عمّا كان لقصّة موتهما المبنيّة على الصورة الاختياريّة التاريخية العادية ؛ (فتأريخيّة المعلومات) تعتمدُ على نوع المعلومات التاريخية .

والآن ، كما يعلم الجميع ، حصلت تغيّرات كثيرة في حقيقة المعلومات التاريخيّة ، وبدرجة كبيرة فيما يتعلّق بتاريخ يسوع ؛ وليس هناك سبب للافتراض أن الموقف سيتغيّر بصورة هامّة في هذا المجال . وهذا ما يُوحي بأنّ معلومات التاريخ عن يسوع ، مع الشكّ في أهمّيتها ، لا تُوفّر تماماً إثباتاً للادعاءات المطلقة المُتضمنة في المقاطع المنقولة في أوّل هذا البحث .

ولعل النوع الثالث من المعلومات عن يسوع ، حسب تصنيف الدكتور (برّين) هي التي يجب أن توصل بالادّعاءات المطلقة هذه ، ويُسمّيها (معلومات إيمانيّة) أي معلومات عن يسوع الناصري ذات مغزى فقط في إطار الإيمان المسيحيّ على وجه الخُصُوص ، أي معلومات عنه من النوع الذي يعتمد على الاعتراف به كسيّد وكمسيح (صفحة ٢٣٤) ورواية (بْرِيْن) عن هذه المعلومات الإيمانية تستحق أن تُعرض كما كتبها حرفيّاً :

« المعرفة الإيمانية » تعتمد على التقدير الخاص الذي يُضفي على الشخص الذي يُؤمن به بحيث إنّ المعرفة بهذا الشخص تأخذ مغزى وأهميّة أبعد من المعلومات التاريخية . ويُمكن للأهميّة « التاريخية » أن تُضفى تقريباً على العديد من أناس الماضي إلّا أن المعرفة الإيمانية تُضفى فقط على الشخصيّة التي تحظى بأهمية خاصة بمقاييس الوحي والتجربة الدينيّة والاعتقاد الديني . واستعمال هذه التصانيف يرجع بالضرورة أيضاً إلى واقعة –عبر التاريخ–، واقعة غير تاريخيّة بالتحديد المُتشدد – وعن طريق هذه الواقعة تدخل فكرة الله وأعماله . لذا

فبالنسبة للمسيحيين يمكن أن يُقال : « مات المسيح من أجل خطاياي طبقاً لما جاءت به الكتب المُقدّسة » . هذا ، على كل حال . بيان إيماني وليس تاريخيّاً بالمعنى العادي . هذه المعرفة إيمانية ليست معرفة تاريخيّة ، وتعتمد على الاعتراف بيسوع كمسيح (وابن الله الحيّ) . وتستدعي الضرورة الاعتراف بموته على أنّه مُهمّ بالنسبة للفكرة الدينيّة عن (خطاياي) وتحتاج إلى الاعتراف بالصليب على أنه جاء طبقاً « لخطّة محدّدة ومعرفة مُسبقة من الله » . والتاريخ ليس هذا كُله ، بالمعنى الذي عُرِّف التاريخ به بعد مرحلة التنوير، بل ولا يعتمد على طريقة موت المسيح ، إنما يعتمد فقط على حقيقة أنه حدث . والقيامة التي تُعزا لذلك الموت لم تُعز إليه بسبب ما فعله يسوع بل لاعتبار ذلك من عمل الله . وليس لموت يسوع فاعليّة بالنسبة (لخطاياي) لأنّه مات نبيلا أو لأنّه أظهر ثقة بالله بل لأنّه يعتقد أنّ الصليب أنجز ما هدف الله إليه . أن يكون (يسوع) مات نبيلاً أو أظهر ثقة بالله .... فهذه بيانات تاريخيّة خاضعةٌ لتغيّرات الأبحاث التاريخيّة ، ولكن .. أن يكون موته تحقيقاً لغاية الله بالنسبة لـ (خطاياي) فهذا ، بالتأكيد ، ليس بياناً تاريخيّاً ويقع خارج إطار سُلطة المؤرخ ... حتّى مُجرَّد البحث فيه ؛ مع أن المؤرّخ هذا ، كمسيحي ، قد يكون مؤمناً به . (صفحة ٢٧٣ – ٢٣٨) .

ويُصبح النَوعُ الثالث من المعلومات – أو المعرفة – ذا مغزى بالنسبة لنا على المستوى الديني إيماناً وآعتقاداً والتزاماً . وهو مُتميّز عن النوع الثاني – المعرفة التاريخيّة – لأنّه خاص ، أي أن له بالنسبة للفرد قيمة أكثر ممّا يُعزا لأي معرفة تاريخيّة أو لمعلومات عن أي فرد تاريخي آخر، وهو خاصٌّ أيضاً بمعنى أنه يحمل هذه القيمة بالنسبة لبعض الناس أو المجموعات فقط .... الذين يتشاركون في ذلك الإيمان والاعتقاد والالتزام . وهو يتميّز عن النوعين الأوّل والثاني في أنّه ليس بالضرورة معرفة تاريخيّة، ويُمكنُ للمعلومات التاريخيّة أن تحظى بمثل هذه الأهميّة ... وكذلك يمكن للأسطورة وللخرافة ولقصص البطولات أو لأيّ مزيج من هذه (صفحة ٢٣٥ – ٢٣٦) .

ولن يقرأ أحد ، في الغالب ، المقطعين الأخيرين دون أن يصل إلى السؤال : بأيِّ معنىً يمكن أن نُسَمّي الظاهرة المذكورة في المقطعين : « معرفة » ... حتّى ولو كانت « معرفة إيمانيّة » ؟ وغرض هذه المعرفة الإيمانية ، حسب (بْرِيْنْ) صورة إيمانية عن يسوع (صفحة ٢٤٣) ؛ ويصف (بْرِيْنْ) كيف كوّن هو نفسه صورته الإيمانيّة عن يسوع من خلال الآثار الدينيّة المعمدانية الليبراليّة الأنكلوُساكسُونيّة :

كُل الأشكال المختلفة للإعلانات التي تعرَّضنا لها ساعدت في إخراج ما يُمكن تسميتُهُ بصورة إيمانية عن هذا ال(يسوع) ؛ بعضُها ، بالتأكيد ، مُشكَّل من صفات يسوع التاريخي الليبرالي، ولكنّ كتابات الباحثين الليبراليين كانت ، بأسلوبها الخاص ، وَعْظيّة ؛ والخطأ هو في آدّعاء أنّها تاريخيّة كذلك ؛ هناك جزء من هذه الصورة الإيمانية يمكن أن يكون نتيجة تأثير وجوديّ لمعلومات عن يسوع وُضعت بقالب تاريخي معاصر على أنّها معلومات تاريخية ؛ فبالنسبة للمؤمن الذي رُبّيَ في أجواء هذه التقاليد ، كل شيء تقريباً ... يُقالُ عن يسوع يُمكن أن يُصبح وعظاً ، أي يُمكن أن يُسهم في الصورة الإيمانيّة . والصورة الإيمانية هي ، بالنسبة للفرد المؤمن ، المسيحُ الذي وصفه الوعظ الديني لأنّها صورةٌ نُقلت له عبر أشكال متعدِّدة من البيانات المسيحيّة ويجب أن تُميَّز عن يسوع التاريخي ... رغم أنّ المعلومات التاريخيّة عن يسوع رُبّما كانت عامِلاً مُؤسِّساً في نُشوئها . يجب أن تُميَّز عن يسوع التاريخيّ لأن أصلها الأوّل لم يأت نتيجة أبحاث تاريخيّة بل نتيجة بيانات دينيّة مسيحيّة ولو أنّها ربّما كانت بحثاً تاريخيّاً أصبح ، بدون دراية ، بيانات ....فيما بعد كما هو الحال في كثير من الحياة الليبرالية لأبحاث في المسيح . ويجب تمييزها أيضاً عن يسوع التاريخي لأنّ نتائج الأبحاث التاريخيّة لم تكن عاملاً محدِّداً في تشكيل هذه الصورة ؛ ومثل مسيح الأناجيل ، فإن الصورة الإيمانية ليسوع بالنسبة لكل فردٍ مسيحيّ هي خليط من

تذكرٍ تاريخيٍّ منقولٍ من البعيد ومن أسطورة ومن خرافةٍ ومن مثاليّة (صفحة ٢٤٣ - ٢٤٤) .

وكما يقول الدكتور (بْرِيْنْ) إنّ معرفتنا الإيمانية بيسوع ... ظهرت استجابة لتحدٍّ من بيانات الكنيسة فأُصلها الأوّل ليس البحث التاريخي بل البيان المسيحي (صفحة ٢٤٣) وبعض توريطاتها مُفسَّرة في المقطعين التاليين :

تأتي قيمة هذه الصورة الإيمانية من حقيقة أنّها نشأت عن تجربة دينيّة ، وهي قادرةٌ على نقل التجربة الدينيّة ، وأنّها نمت في إطار مزيج من الحاجات الخاصة ...إلخ التي خلقت ولا زالت تخلُق انفتاحاً على الوعظ ، وأنّها تستمرّ في نُمُوِّها لخدمة هذه الحاجات . (صفحة ٢٤٤) .

وإذا سألنا : ما هي الاختبارات التقييميّة التي يجب أن تخضع لها هذه المعرفة الإيمانية المُدّعاة ؟ فالجواب هو :

يجب أن تُعرض المعرفة الدينية أو الإيمانية على اختبارات مُختلفة تماماً [عمّا هو مُطبّق على المعرفة التاريخية] : فَهْم الواقع النهائي الذي تنقُله ، ونوع التجربة الدينيّة التي تُوحيها ، وخصال الحياة الفردية والجماعيّة التي تُتيحُها ... وهكذا . ويمكن أيضاً تعريضها لاختبار تحديد ما إذا كانت المعلومات حقيقيّة أيضاً أو صحيحة بالمعنى التاريخي التجريبي في الحدود الممكنة بالنسبة لها ، ولكن يجب الاعتراف دائماً أنّه رغماً عن إمكانية وجود مثل هذا النوع من المغزى للمعرفة التاريخيّة، فإنّه - أي هذا النوع من المغزىٰ - غير مقتصر فقط على معرفة هي أيضاً تاريخيّة . (صفحة ٢٤١) .

وهذا موقف مفهوم بما فيه الكفاية ؛ بل هو معروف قبلاً لدى الذين يعلمون تمييز (كاهلر) و(بولْتمان) بين (يسوع التاريخي) و(مسيح الوعظ الديني) . ويُمكن صياغة العلاقة بين هذين التعبيرَيْن بطُرقٍ مُختلفة . ربّما يمكن أن نضعها هكذا : إن عمل يسوع التاريخي جاء في وقت معيّن وفي ظروف مُعيّنة

بحيث كان مثل عود ثقاب أشعل على برميل بارود . فالبارود يُمثِّل التوقّعات الدينيّة وآمال ذلك الظرف التي كانت كثيرة ومُتنوّعة ، بما فيها حسب رأي (بولتمان) ، توقّعات اليهود بنهاية العالم ، ومختلف عقائد اليهود وغير اليهود وبعض التأمّلات المعروفة لدينا(بحركة المَعْرِفِيين)وديانات الأسرار والغموض في العالم غير اليهودي - الأممي - مع أفكارهم عن الاتحاد المُقدّس مع بطل إلهي (غالباً إله يموت ويُبعث) ، وما تبعُ ذلك من مشاركةٍ له في الألوهية والخلود . وتأثير يسوع ، وبخاصةً عملية الصلب ، على معاصريه كان قويّاً بحيث دفعهم - ليُذْكرذلك دائماً في ظلّ عناية الله - لاستعمال هذه ومثيلاتها من التصانيف لفهمه وتفسير دعوته . وما يُقدّمه العهد الجديد - الأناجيل - لنا هو إذن مجموعة روايات عن يسوع تختلف حسب سيطرة واحدةٍ أو أخرى من هذه الخلفيّات على ذهن كُتّاب الأناجيل . ويُؤكد (بولتمان) على عدم وجود صورةٍ مناسبة في الأناجيل ، ولا وجود لدراسة واحدة للمسيح ولا للاهوت واحد في الأناجيل . ومع ذلك فالتصنيفات التي استعملها المسيحيّون الأوائل كانت مُتشابهة بما فيه الكفاية بحيث تستطيع تشكيل مُركب واحد ومع مرور الزمن آنصهرتْ كُلّها معاً حول صورة يسوع لتشكيل (الابن المتجسّد) في أرثوذُوكسيّة مجمع (نيقيا) والأرثوذّوكسية المتأخّرة . .

ومُنذ مدّة قصيرة فقط ، ومع بروز الدراسة التاريخيّة المعاصرة ، وعى المسيحيون أنّ المسيح الذي يُدعىٰ له في المواعظ الدينيّة لايُطابق تماماً يسوعاً التاريخيّ . وإذا طُرح السؤال : لماذا ، الآن ، وبعد أن وعُوا الفروق بين الاثنين ، يَسْتَمِرُّ المسيحيّون في الاعتقاد بالمسيح الذي يدعي له في المواعظ ؟ وروح الجواب هي : ...كان الله في عونهم ، لا يستطيعون غير ذلك . فتجربتهم هي التالية : إذا كان ما يسمونه من وعظ عن المسيح صحيحاً ، وإذا صحّ استماعهم للوعظ ، فإن هذا المسيح يفعل شيئاً فيهم ، فهو يُواجههم ، باختيار لا يمكن الهروب منه . إنّه يُبين لهم ما قيمة طريقة حياتهم السابقة ويضعُ أمامهم إمكانيّة بديلة ، إمكانية

الحياة كُلياً تحت ظِلّ قُدرة ونعمة الله . وبكلمات أخرى فهو العدسة التي تتركّز عن طريقها كل طلبات ووعود الله ولا يستطيع تأدية هذه الوظيفة ، مع ذلك ، إلّا اذا كان شخصيّة دائم التغيّر . وكما تغيّر تغيُّراً كبيراً في الفترة التي مرّت ما بين عهد الحواريّين ومجمع (نيقيا) ، كذلك تغيّر عبر الأجيال ويجب أن يستمر في التغيّر ، إذا كان عليه الاستمرار في نقل طبيعة ونعمة ومطالب الله من الأجيال المتعاقبة مجاراة لتسارُع التغيُّرات الثقافية . وما لم نفترض مع (بولْتمانْ) وبعض أتباعه وجود بُنيةٍ أساسيّة غير قابلة للتغيير في فكر الانسان(٣٠) – وهذا أمر مشكوك فيه كثيراً – يجب أن يكون (مسيح الوعظ) ، بالتأكيد شخصيّة متغيّرة دائماً ، ويمكن الملاحظة أنّه لا استحالة في ذلك إذا كانت اختبارات صِحّته هي التي ذكرناها قبلاً نقلا عن الدكتور (نْرِيْنْ) .

ومع ذلك ، ورغم أنّ موقف الدكتور (نْرِيْنْ) مفهوم بما فيه الكفاية ، إلا أنّه بلا شك شديد التعقيد . ويجب الاعتراف أنه سيكون من الصعب توضيحُهُ بله تحديده لمجموعة من الناس العاديّين : أي الوَضْع المحدّد لمسيح الوعظ أو (الصورة الإيمانيّة) ليسوع التي جاء بها الدكتور (نْرِيْنْ) ، وهي ، على حدِّ قوله ، مادّة (المعرفة الإيمانية) . ولا نعجب كثيراً لما يفعله كثيرٌ من الوُعّاظ عندما يرجعون إلى الافتراض الضمني أنّ مسيح الوعظ ويسوع التاريخي هما مُتطابقان تماماً . أو أنّ نوع الكتّاب الذين ذكرناهم في أوّل هذا البحث يُفتّشون عن مرسىً اختباري لشخصيّة واحدة ... في أخرى . ومع ذلك كما رأينا ، حتّى درجة الربط التي يُفتّشون عنها غير قادرةٍ على الحصول على مشروعيّة تاريخيّة ؛ ويبدو البروفسّور (وايْلْزْ) أقرب للحقيقة في هذه الناحية عندما يُلزم نفسه في بحثه الثاني بالطلب : أنّ على يسوع التاريخي –إلى المدى الذي نستطيع فيه استعادته –ألّا يُشكِّل أيّة إشارة تناقُضٍ مع مسيح الوعظ في علاقة أيٍّ منهما بالله أو بأتباعه . وأساس هذا الطلب هو في عقيدتنا عن الله . فأي سبب معقول سيختاره الله لإعلان الخلاص عبر سلسلة من البيانات الخاطئة عن حياة إنسان (لم يكن) أو

(كان) في الحقيقة مختلفاً كُلّياً عمّا أعلن في البيانات عنه ؟ ومن المؤكد أنه يستحيل الطلب إلى أى إنسان الإيمان بإله يقوم بمثل هذا العمل . من حُسن الحظّ على كل حال ، إن الاعتبارات التي قُدِّمت في هذا البحث تُساعد على الأقل على تقوية إدّعاء البُروفسّور (وايلز) أنه : « في الوقت الذي لا يمكننا التأكد من نسبة التفسيرات المتأخّرة في تفاصيل الروايات التي وصلتنا ، من المُستبعد جدّاً أن نوع المعلومات التاريخيّة عن يسوع ، التي لدينا الآن أو التي قد تظهر في المستقبل ، يستطيع تشويه تلك الصورة لدرجةٍ تُلغي ملائمة الربط بين ... الأسطورة وشخص يسوع بهذا الأسلوب الخاص » (صفحة ١٦٣) .

ويتابع (وايلز) مُلاحظاً : والسؤال هو : ما نوع الربط اللازم ؟ ولقد عَلّل مُؤلفو هذا الكتاب شكوكهم فيما إذا كان مُمكِنا بعد الآن أن يكون الربط عن طريق فكرة أن يسوعاً هو الإله المتجسّد بالمفهوم التقليدى لها . والهَدَفُ من هذه الكتاب كان وضع لوحة (ممنوع المرور) على كل الطرق البديلة التي يمكن اقتراحها بأسلوب آدّعاء نوع من (الفرادة) ليسوع على أسس تاريخيّة ؛ ويمكن ، بسهولة ، التوسع في النقاش لمواجهة الادعاءات بأنّ يسوعاً كان (فريداً) – تاريخيّاً – بمعنى أنّه الشخص الوحيد الذي مرّ بتجربة البعث بمعناها الحرفيّ .

وإذا كان لموقفنا في هذا الكتاب أيّة شرعية، فالسؤال الذي يرد بوضوح هو : كيف يجب أن يكون تصوّر وإدراك الصلة بين يسوع والمسيحية المعاصرة الآن ؟ ويقترح البروفسّور (وايلز) أنه « يمكن الإقرار بها بصورة ضعيفة أو قويّة . فبالصورة الضعيفة تكون بالتصريح ببساطة كحقيقةٍ تاريخيّة عارضة ، إنّ الحقيقة عن علاقة الإنسان بالله جاءتنا حيّة عبر صورة يسوع في آثارنا الدينيّة الخاصة . والصورة القويّة تُعطي ليسوع دوراً لا غنىً عنه (صفحة ١٦٣) . وهناك حاجة لمزيد من الشرح لجعل هذا التمييز واضحاً تماماً : مثلاً ما يعني « حقيقة تاريخيّةً عارضة » في إطار فهم التاريخ على أنّه محكومٌ بقدَرِ الله ؟ وبعد

هذا ، يمكن أن يُختم هذا البحث بالتماس ألّا يُستبعد البديل الأوّل للبروفسّور (وايلز) بخفّة .

وأظنّ ألّا أحد يَنكر أنّ المسيحيّة المعاصرة هي أضعف ما تكون على صعيد الخيال والتصوّر . ويجد الناس أنّ من الصعب عليهم الإيمان بالله لأنّه ليس لديهم صورة خياليّة حيّة عن أسلوب العلاقة بين الله وبين العالم كما يعرفُونه . وأكثر ما يحتاجون إليه هو قصّة ، صورة ، أسطورة تستأثر بخيالهم بينما تتشابك مع بقيّة إحساسهم بنفس الطريقة التي ربطت تعابير المسيح بإحساس يهود القرن الميلادي الأوّل ، أو رمزيّة (نيقيّا) مع إحساس مُحبّي الفلسفة من إغريق القرن الرابع . وكما يلاحظ اللورد (هِيلْتشَامْ)(٣١) ، لا شكّ أنّنا لن نحصل على مثل هذه الصورة ما لم يقم نوع من (دكتور أنجيليكوس) – أو ربّما علينا أن نقول نوعٌ من نبيّ يُعطيها لنا ؛ ولكن هذا لا يُعفينا ، بأية طريقة ، من أن نفعل ما نستطيع – بانتظار ذلك – لنُحضّر ونُمهّد الطريق أمامه .

وفي هذا المجال ، من الأشياء التي علينا أُخذها بجدّية ، بالتأكيد ، السؤال الذي طرحه البروفسُّور (وَايلز) والذي أعتبره أنه « هو السؤال » : هل ستكون الأسطورة أو القصّة المسيحية المستقبليّة عن الله بصورة رئيسيّة ، أو – إذا جاز لي أن أقول دون تقليل الاحترام – سيكون (نجماها) « يسوع » و« الله » ؟ هل ستكون قصّة يُشارك فيها يسوع بالدور الرئيسيّ وله وضع « فريدٌ » أو « كامل » بأسلوب ما ، يُعهَد إليه ؟ أو أنّها قصّة سيكون الله فيها مُمْتلكاً لزمام دور البطل دون أن يتقاسمه معه أحد ؛ وبالطبع تُرْوَى هذه القصة كيف عَملَ الله مَرّةً بأسلوب هامّ وحيويّ – ولو أنّه أسلوب ليس فريداً بالضرورة من ناحية المبدأ – عِبْرَ الإنسان يسوع ليقُود المسيحيّين إلى علاقة مصالحة ووحدانيّة معه – أي مع الله ؟ .

وببساطة ... لكي ...نُثير النقاش رُبّما نستطيع أن نختم بطرح ثلاثة أسئلة :

(أ) في وضع تتسارع فيه التغيّرات الثقافية عدْواً ، حيث أثارت الشُكُوك في عقيدة ألوهيّة يسوع - بالمعنى الحرفي - ، هل تبقي أية قيمة لمحاولة آقتفاء أثر الفهم المسيحيّ ، المُتغيّر دائماً ، لعلاقة يسوع بالله بأسلوب رجعي حتى نصل إلى عُنصرٍ يُمكن تحديده في حياة وطباع ونشاط يسوع الناصري ؟ .

(ب) وفي مثل هذه الظروف التي وصفناها ... إذا قامت مثل هذه المحاولة هل ستقود حتماً إلى درجةٍ من التعقيد تكون غير مفهومةٍ لغالبيّة المسيحيّين وتُؤدي إلى إساءة السمعة لأفكار دراسة المسيح المنخرطة فيها ؟(٣٢) ولمغزىً مُعين ، أشار الدكتور (بْرِيْنْ) أكثر من مرّة إلى أن مذهبهُ في الأنواع الثلاثة من المعرفة عن يسوع يَفْتَرِضُ مُسبقاً « التقليد الذي يُؤمن بيسوع » (صفحة ٢٤٣ و ٢٤٤) . هل من الضروري الإيمان بيسوع بالمعنى الذي يتطلّب تعقيداً من هذا النوع ؟ .

(ج) هل من الممكن أن تكون الطريقة الصحيحة لهذه العلاقة هي بقُبول محدُوديّتنا « ونترك بسرُور أسرار الله ..لله » ؟ هل من الضرورى الإيمان بيسوع بأي معنى أبعد من اعتباره الشخص الرئيسى الذى شرع الله عِبْرهُ في علاقة غنيّةٍ ومُمتلئةٍ بينه وبين الناس في ظلّ مفاهيم وصيغ مُتعددة ، كانت ولا تزال خلاصاً لجزء كبير من الجنس البشري؟. كتب البروفِسّور (جُون نُوكْسْ) « إن إلوهيّة يسوع كانت هدف ونشاط الله الذي صنع الأحداث التي جرت حوله ولكن ... فيه أيضاً ومن خلاله كان الخلاص ذاته(٣٣) . ويبدو أن البروفسِّور (جون نُوكْسْ) نفسه يعتقد أن هذا يستدعي بالضرورة بعض الادّعاء بـ (فرادة) تجريبيّة في حالة يسوع ، ولكن أليس من الممكن أن نكتفي بصيغة أخرى فيما يتعلّق بحادثة المسيح والتي يُقدِّمها (نُوكْسْ) في نفس الكتاب ؟ .

« أن يَكون لهذه الحادثة النتيجة المعيّنة التي حصلت - مجتمع جديد فيه تسامح جديد وآنتصار وأمل - هو أمْر معرفةٍ تجريبيّة في الكنيسة ؛ ولكن لماذا كان

هذه الحادثة الخاصة هذه النتيجة الخاصّة ...هذا أمر أبعدُ من معرفتنا فأفكار الله ليستَ أفكارنا وأساليبه غير أساليبنا فالحادثة كانت حادثةً كاملة وكانت ... آثارها كاملة . ولا يمكننا تفتيت الحادثة إلى أجزاء وعَزْو كل التأثير إلى جزء واحد منها ، كما أنّنا لا نستطيع أن نعزو جزءاً مُعيّناً من التأثير إلى جزء معيّن من الحادثة . فكلا الاثنين الحادثة والنتائج واحد لا يُمكن تقسيمه ، زد على ذلك أن الواحد ينتمي للآخر بصورة لا يمكن فصمُها . وفي هذا الكُل موت يسوع الحاضر الذكر ، هو المركز الحاد[٣٤] .

NOTES

1. J. A. T. Robinson, *Honest to God*, SCM Press 1963, p. 74; my italics.
2. A. R. Peacocke, *Science and the Christian Experiment*, Oxford University Press 1971.
3. Ibid., pp. 175, 173, 170, 171 and 165.
4. L. E. Keck, *A Future for the Historical Jesus*, SCM Press 1971, p. 59.
5. Peacocke, op. cit., pp. 167 and 165; cp. also p. 161.
6. H. J. Cadbury, *Jesus, What Manner of Man?*, SPCK 1962, p. 64.
7. Ibid., p. 81.
8. C. G. Montefiore, *Rabbinic Literature and Gospel Teachings*, Macmillan 1930, p. 103.
9. W. Durant, *Caesar and Christ*, Simon & Schuster 1944.
10. Ibid., pp. 561 and 564.
11. H. J. Cadbury, *The Peril of Modernizing Jesus*, SPCK 1962, p. 68.
12. Cp. for example, Dr Goulder on p. 53 above.
13. See Dr Goulder on p. 59.
14. *The Peril of Modernizing Jesus*, p. 69.
15. *Jesus, What Manner of Man?*, p. 57.
16. *The Peril of Modernizing Jesus*, pp. 40–1; italics mine.
17. Albert Schweitzer, *The Quest of the Historical Jesus*, A & C. Black 1910, third edition 1954, p. 399
18. J. T. Sanders, *Ethics in the New Testament*, SCM Press 1975, p. 3.
19. For a discussion of the sort of point involved, see my book *The Use and Abuse of the Bible*, Macmillan 1976, e.g. pp. 110–11, 190, 203–4.
20. Cp. e.g. *The Peril of Modernizing Jesus*, ch. V, 'Limitations of Jesus' Social Teaching'.
21. J. Wellhausen, *Einleitung in die Drei Ersten Evangelien*, Reimer 1905, p. 113.
22. Montefiore, *Some Elements of the Religious Teaching of Jesus*, Macmillan 1910, p. 93.
23. Cp. e.g. Mark 2.13–17, and my comments on it in *St Mark*, Penguin Books 1963, pp. 95ff., including the quotations from Montefiore and Harnack.
24. Dr Goulder is perhaps guilty here; cp. his phrase: Jesus' 'totally original interpretation of the kingdom', p. 53 above.
25. *Journal of Biblical Literature*, vol. 48, 1929, pp. 111–12.
26. Cadbury, *Jesus, What Manner of Man?*, pp. 66–7; cp. G. B. Shaw, *Androcles and the Lion*, Constable, standard edition 1931, preface, p. 5.
27. On the last point cp. the view of Cato Forbes, the budding priest, in Iris Murdoch's novel *Henry and Cato*, p. 26: 'Christ himself was . . . untouchably pure and had never put a foot wrong . . . no vulgarity there, no vanity, not a shadow of trickery or falsehood, but what this showed was how vastly perfectible human beings were after all.'
28. Cp. the article by J. M. Robinson in *Journal of Bible and Religion*, 1962, pp. 198ff.
29. Norman Perrin, *Rediscovering the Teaching of Jesus*, SCM Press 1967, pp. 234–5.
30. Hans Jonas, *Augustin und das paulinische Freiheitsproblem*, 2 Auflage (1965), p. 82.
31. See his article in *The Times* for 21 February 1976, p. 28.
32. In that connection it is perhaps worth noting that so friendly a critic as Philip Toynbee who describes the word 'Christology' as 'the most-favoured jargon-term in the whole vocabulary of modern theology', also characterizes it roundly as 'arid'. See *Towards the Holy Spirit*, SCM Press 1973, p. 67.
33. John Knox, *The Death of Christ*, Collins 1959, p. 125.
34. Ibid., p. 159.

تعليق أخير

بقلم/ دُون كُوَيْت

هل أستطيع التعليق على إنذار (دينس ناينْهام) في الفصل الأخير ؟ أنا أعترف بالمحدوديّات لمعلوماتنا النقدية – التاريخيّة عن يسوع . ومع ذلك فإنّ لُبَّ الدين لا يكمن في تاريخ حياة أو شخصيّة المؤسّس ولكن في القيم الدينيّة الخاصة التي كان شاهداً عليها ، حسب ما تقول الآثار الدينيّة . وأعني بهذه القيم التحديدات الممكنة للروح الإنسانية من حيث صلاتها بالغاية النهائية للوجود ، كما هو مُتضمَّنٌ في الوصيّة : « تُب ... فإنّ ملكوت الله قد جاء » .

وهذه المجموعة من « مبادىء الروح » هي مركز الآثار الدينية ، وأنا أعتقد أنّ إعلانها من قبل يسوع هو أمرٌ عارضٌ ، ولو أنّه ليس من الضروريِّ – بالمعني الضيِّق – إثبات ذلك بالطريقة النقديّة . وبالتحديد لأنّها تأمرنا بالموت من أجل الذات والعالم الفاني وغير ذلك فهي تُؤكِّدُ إمكانية السُّمُوّ النسبي . وبما أنها « مبادىء السُموّ » فهي الخاصيّة الوحيدة غير النسبيّة لما تبع من نموّ وتطوّر في التقاليد .

في التاريخ ، أعلن إنسان إمكانية وجود تاريخ سَامٍ ؛ ونحن ، في التاريخ أيضاً ، نستطيع أن نختبر هذا الادعاء في التطبيق – كيف يُمكننا أن نعتمد على آثار تاريخيّة غير مؤكدة لمعرفتنا ، ولِقُدرتنا على الوصول إلى حقيقة تسمو على التاريخ ؟ هنا تتطابق عقيدة المسيح وعقيدة الإنسان لأنّ الأمر ليس فقط « مشكلة ما » ...بل ... الوضع الإنساني ذاته .

فهرس الكتاب

كلمة الناشر – البريطاني ٧

مقدمة المُعَرِب ٩

توطِئة ٢٣

الفصل الأوّل : مَسيحيّةٌ .... بدون تَجَسُّد

بقَلَم موريس وَايلز ٢٧

الفصل الثاني : سحابة من الشهود

بقلم فرنسيس يُونغ ٤١

الفصل الثالث : يسوع .... الإنسان ذو القدر العالمي

بقلم ميكائيل غولدِر ٨٣

الفصل الرابع : أصْلاَن للأسطورة المسيحيّة

بقلم ميكائيل غولدِر ١٠٥

الفصل الخامس : أصْلان ... أمْ أُصُول كحَزْمةٍ معقّدة؟

بقلم فُرنسيس يُونغ ١٣٧

الفصل السادس : عقيدةُ التَجْرُبة

بقلم لِسْلِي هُولْدِنْ ١٨٥

الفصل السابع : مسيح البلاد المسيحية

بقلم دُوْنْ كوبَيتْ ١٩٧

الفصل الثامن : الأسطورة في علم اللاهوت

بقلم مُورِيسْ وَايْلْزْ ٢١٧

الفصل التاسع : يسوع ... والديانات العالمية

بقلم جُوْنْ هِك ٢٤١

الفصل العاشر : خاتمة

بقلم دِنيس نايْنْهَامْ ٢٦٥

رقم الإيداع ١٩٨٥/٢٦٣٨